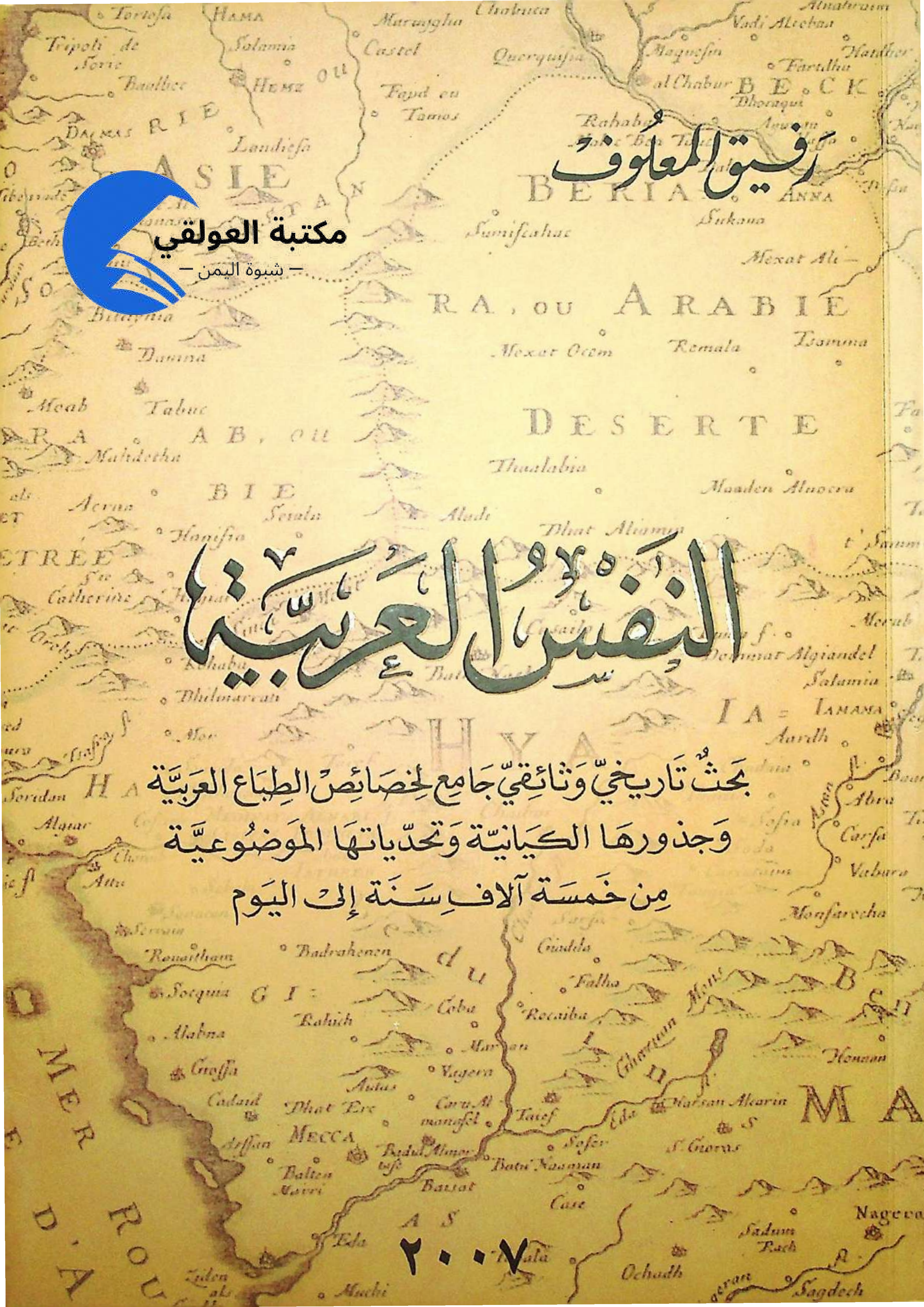

رفيق المعلوف
مكتبة العولقي
— شبوة اليمن —
النفس العربية
بحث تاريخيّ وثائقيّ جامع لخصائص الطباع العربيّة
وجذورها الكيانيّة وتحدّياتها الموضوعيّة
من خمسة آلاف سنة إلى اليوم
٢٠٠٧

هذا الكتاب

- يُقرأ بسهولة جذابة ولذة فائقة فكأنه رواية متكاملة السياق أو حكاية رومنسيّة مدهشة بالقصص والأحداث الواقعية الغابرة.
- يتعرف العربي خلاله الى حقيقة ذاته، ويكتشف الأجنبي أنه لم يكن يعرف من الذات العربية إلاّ القليل!.
- إنه كتاب ثقافة بما يحتويه من أخبار العرب وأشعارها، وعادات قبائلها، وأخلاق ملوكها، ونظرتها الى الله، والمال، والوطن، والقَدَر، والإنسان، والمرأة، والحرب والسلم، والفن والجمال.

  وهو كتاب تعليم وإرشاد الى خصائص النفس العربية وتطوّر فعلها وانفعالها، ومدى ارتباطها بالجذور السامية العليا، ومصيرها.
- أنه يختزل اجتهاد العقول وأبحاثها عبر القرون في موضوعه الموسوعي، كما يفضح أضاليل المغرضين، ويضع الصورة الحقيقية للنفس العربية في إطارها الصحيح.
- ليس هذا كتاباً للأمّة.. بل إنه الأمّة في كتاب.

صورة الظلّ على الغلاف

خريطة «العربيات الثلاث» (Les trois Arabies) كما يسميها

صاحبها الجغرافي الفرنسي نقولا سانسون

(Nicolas Sanson d'Abbeville) سنة ١٦٥٩

في عهد الملك لويس الرابع عشر


مكتبة العولقي
– شبوة اليمن –

رفيق المعلوف

النفس العربيّة

بحثٌ تاريخيّ وثائقيّ جامع لخصائص الطباع العربيّة
وجذورها الكيانيّة وتحدّياتها الموضوعيّة
من خمسة آلاف سنة إلى اليوم



بيسان

النفس العربية

الطبعة الأولى - ٢٠٠٧

إهداء

إلى ذات النفس العربيّة المارِدة
راوية الأدب وراعية النسب
المرأة التي وُلِد قلبُها مع الحُبّ
والزوجة التي انفرد في عقلِها الحقّ
والأم التي اختزلت في كيانِها الأُمّة
إلى شريكة عُمري الغسّانيّة المُؤمنة
مُنى فهد ميلان المعلوف
أُقدّم هذا الأثر المبين
تجديداً للعهد وتخليداً للميثاق

تحية وفاء وعرفان

الى كلّ من الأفاضل السادة:

- الباحث الدكتور إميل المعلوف (شقيق الكاتب) الذي قرأ هذا الأثر قراءة أكاديمية دقيقة، وصوّب خطوطاً رئيسية في المنهج العلمي الذي اعتمده المؤلف.
- الباحث الدكتور عرفان محمّد حمّود الذي كانت مؤلفاته ودراساته القيّمة عوناً للمؤلف خلال استقصائه التاريخي واللغوي، كما أرشد الكاتب الى عدد من المراجع المهمة المتصلة بالموضوع.
- العلّامة المجاهد الدكتور خير الدين حسيب رئيس «مركز دراسات الوحدة العربية»، ومساعده الباحث الدكتور صباح ياسين، والخبراء التابعين لمركز الدراسات الذين قاموا بمراجعة النصّ وصوّبوا بعض أخطائه وشوائبه العارضة.

والى جميع الذين أسهموا في إخراج الكتاب، وتوضيب حروفه، ومشق خطوطه، وإنجاز طباعته...

يتوجّه رفيق المعلوف بأسمى آيات الشكر والامتنان، وفاءً واحتراماً، مع الدعاء الصادق لهم بدوام الصحة والعصمة والفلاح.

- طبع على مطابع المجموعة المحترفة للطباعة (ش.م.ل.) في بيروت - ص.ب: ٩٠٦١٣ - الجديدة (لبنان) - هاتف وفاكس: ٠٠٩٦١-١-٨٧٢٠٨٣ - خلوي: ٠٠٩٦١-٣-٢٦٠١٩٦
email: info@ppglb.com - Website: www.ppglb.com
- التنضيد الألكتروني والإخراج: مؤسسة «هاي برس» - هشام الشلاح
بيروت - هاتف وفاكس: ٠٠٩٦١-١-٣٤٠٨٠٥ - خلوي: ٠٠٩٦١-٣-٧٢٩٩٦٠
بريد الكتروني: hshallah@gmail.com
- التوزيع في لبنان والخارج: بيسان للنشر والتوزيع - الحمراء - شارع المهاتما غاندي
ص.ب: ١٣-٥٢٦١ بيروت - لبنان - تليفاكس: ٠٠٩٦١-١-٣٥١٢٩١
بريد الكتروني: bissan_bookshop@hotmail.com

- عنوان المؤلف: بيروت - ص.ب: ١٦٦٥١٨ (الأشرفية)
هاتف: ٠٠٩٦١-١-٣٩٧٧٥٧ - صيفاً: ٠٠٩٦١-٤-٢٨٠٢٤٠
خلوي: ٠٠٩٦١-٣-٨٤٣٢٠٣ البريد الألكتروني: raficmaalouf@hotmail.com

توضيح واعتذار

لقد اعتُمد التقويم الميلادي حيث وجب التأريخ للحوادث والوقائع والأعلام في نصوص هذا الأثر، لتعذّر معرفة السنة الهجرية أحياناً، وتمّ إثبات التأريخ الهجري إلحاقاً كلّما تيسّر ذلك بوضوح.

ولم يلتزم المؤلف عبارات الإكرام والإجلال والأدعية الإيمانية وألقاب التفخيم المألوفة عند ذكر الله سبحانه وتعالى، وأنبيائه ورسله، وسائر الخلفاء والملوك والأمراء والأئمة والأولياء والصحابة والحواريين، من مثل «صلّى الله عليه وسلّم» للنبيّ محمد، و«عليه السلام» للسيد المسيح عيسى بن مريم وأمّه البتول، و«رضي الله عنه» للخلفاء الراشدين وآل البيت النبوي الكريم ذكوراً وإناثاً، وغير ذلك من دعاء بالرحمة للراحلين الصالحين، وطول البقاء لهذا أو ذاك من الأحياء المتفوّقين... فأوجب هذا التدبير الاعتذار للقارئ الذي قد يعتبره إهمالاً غير مستحبّ، مع التنبيه الى أنه تعيّن فقط اختصاراً للنصّ، وحرصاً على الإيجاز، وشكراً.



مُقَدِّمَة

سألني أحد القرّاء المدمنين الغيارى عن سبب انقطاعي الطويل عن الكتابة في الصحف، وهل لذلك عائق صحي، أم إنني متوقف بداعي السفر!؟

ولمّا أعلمته بانشغالي في تأليف كتاب يتعلّق بالنفس العربية منذ فجر التاريخ الى هذا اليوم، نظر اليّ بابتسامة غامضة تمتزج فيها الدهشة بالملامة، والحماسة بالمرارة... ثمّ تمتم قائلاً: **يعني عشرين ألف مرجع؟!!**

الحقيقة أنني عندما ركبت هذه المغامرة مؤتزراً بسلاح التجارب أكثر من نصف قرن في ميادين الفكر والثقافة والأدب والصحافة، لم أكن أتصوّر أن فرائد العبر وسوابق الانطباع سوف لن تشفع بي في اقتحام المجاهل المترامية لهذا الموضوع الشائك المعقد الذي يحبط الاجتهاد العقلي ويعجز الإرادة المانعة في التنقيب والتدقيق والتلمّس والتقصّي.

ولطالما كنت أحدس وأكتشف، عبر ذلك الردح المتلف من الوقت المهدور، خلال التعامل مع اليوميات الصحفية والتمرّس

بمتابعة وقائعها ومراقبة أحداثها في المنادح العربية الميداء من جبال الأطلس الى سور الصين... أن الأغلاق التي أحكمها القدر والزمن على النفس العربية في مختلف أطوار دنوّها ونموّها، وغمرات فلاحها ورزاحها، قد استعصت بطبيعتها الغامضة على أي اختراق سديد لحجابها المطبق وطوقها المسرود.

إلّا أنّني تنكّبت الجلاد الأريب والسعي الكَدود المضني رغم ذلك، لتوضيح ما أخطأ المستشرقون الأجانب في طمسه وإخفائه سهواً أو عمداً، كما أعرض الباحثون العرب عن تمحيصه وتظهيره، من خلائق النفْس العربية وما تركّن في أعماقها من مناقب ومثالب، دونما احتراف من جانبي يستهدف المحاباة بآلائها فخراً، أو التنديد بحوبائها انتقاصاً منها وتحاملاً عليها وإزهاقاً لها.

وممّا حدا بي الى اقتحام القلعة النفسية المغلقة في الكيان العربي المرتبك، والاعتزام الوطيد فك رموزها وتفسير ما يحثّ جمهرة رعيلها على الإقدام هنا والإحجام هناك، فضلاً عن تردّدهم في الثقة رغم وضوح اليقين، وتدافعهم بالقوة والمجازفة في تحدّي المجهول رغم التباس المصير... هو أنني كنت ولا أزال أستشرف الأثر الغامض الذي لا بدّ أن يخلّفه ذلك الاضطراب المسلكي على مستقبل الأمّة وانتظام وجودها في ركب المتغيّرات الحضارية على كلّ صعيد.

فأحلام الوحدة التي عثرت وخابت في لوثة الواقع وغمر الشتات... وسياج المنعة الذي تخرّق وتداعى في طوح القواعد

وطغيان الهزائم... والعلل المركزية والأوبئة الاجتماعية كالفقر والأميّة والدمدمة والأنانة والتآمر والغيبة والنميمة والكذب والغضب والافتراء، على صعيد الأفراد والجماعات والدول، ممّا لا يتزايل بالمراهم أو يتقلّص بالتمائم... ثمّ التوكّل على الغيب في توظيف المال واعتماد الكيفيّة المزاجيّة في توزيع الثروة وتأمين الخدمات، وتنظيم الاقتصاد، وإصلاح التربية، وحشد الجيوش، وترشيد الإدارة، الى آخر دعائم الانتظام العام التي تتعرض يوماً بعد يوم للتآكل بفعل التواكل، ويتلفها التراكم بفعل التقاطع والتصادم. . . كلّ هذا التخلّف القهقري الفوضوي يهدّد الأمّة العربية في مفاصلها الحياتية كافة، بالعثرات القاتلة والانهيار الفنائي الوشيك! . .

وقد أيقنت بعد طول أناة وتبصّر واحتساب، أنه لا خلاص لهذه الأمّة إلّا في العودة المستنيرة الى الجذور، أي بعبارة أوضح، في اعتماد «أصولية مدنيّة» ارتدادية تبحث بين عتاد النفس العربية ومهاد نشأتها وصباها عن حوافز النهوض وعقاقير الشفاء لبعث الحيوية والمناعة.

ومن هذا المنطلق بدأت بجمع اللّبنات والصفائح والحجارة والأعمدة التي استعملت منذ أقدم العصور، في بناء العمارة الأساسية للحياة العربية وإنسانها الحضاري العريق خلال مراحل أسبقية مزدهرة سمّاها المؤرخون العرب «**جاهلية جهلاء**»، ولو أنصفوا لسمّوها بلا تردّد «**ألمعيّة لمعاء**». . . وهي التي انطلقت من اليمن السعيد وترامت فروعها الباسقة الى أرض الكنانة وبابل

وسومر وفينيقيا وكنعان وفارس والهند، قبل أن تعود بداوتها الأولى في الصحراء حيث تداركها الإسلام وخرج بها مجلوّةً متمرّدةً الى العالم.

وطفقت أبحث في سير الأوائل وكتب المؤرخين وما تداوله الرواة من أخبار العرب وأشعارها، عن مثال نموذجي للنفس العربية وشخصيتها الزئبقية المتردّدة بين الواقع والخيال في مطاوي الأزمنة، تردّد الأشباح ذات الرفيف الخافت والظلّ الرهيف الباهت في القصور المهجورة ومعاسف الأطلال.

وتوالت عليّ الكشوف تباعاً، والتأمت حلقاتها عبر الملاحظات والمعطيات التي كنت أدوّنها وأقوم بترتيبها دراكاً طيلة شهور وأعوام، حتى اكتملت نصوصها واندرجت فصولاً في هذا الكتاب الذي يشهد بالقدر المتيسّر من الموضوعية والأمانة، على حقائق ثابتة وخصائص بيّنة تتعلق بالنفس العربية وموقعها الركين في دائرة الوجود، وذلك نظراً للجدل المتواصل منذ عقود، في المحافل الدولية والمجامع الإقليمية بين أنصار العرب وأعدائهم حول إمكانية انصهارهم في العولمة واستعداد شعوبهم للانخراط الطوعي في المسرحية التناسخية المعاصرة ومختبر الهندسة الأممية الجديدة.

وإذا كنت لا أدعي بأي حال أنني تمكنت في هذا العمل الدؤوب من سبر أغوار النفس العربية وصولاً الى قدس أقداسها ممّا آليت على نفسي جاهداً ومصابراً، فقد أصبحت أملك على الأقل طائفة من ثوابت ميولها وانفعالاتها، والعناوين الرئيسية

لخلائقها وطباعها الأوحدية المتميّزة التي أشرك فيها القارئ فيقبل على مضمون هذا البحث من موقع العارف المطمئن والشاهد المتمكّن من حقائق موضوعية أختزلها في المعادلات البيانية الآتية:

- **تاريخ العرب صناعة أفراد متفوّقين تستهلكها جماعات متواكلة.** أي أن البناء الذي ينجزه القادة الملهمون في الأمة العربية قلّما يجد من يعزّز كيانه بين الذين يؤلفون السواد الأعظم من ضعاف النفوس. فهؤلاء يتكل بعضهم على بعض، ولا يلبث البناء أن يتداعى أو يصيبه التصدّع والتخلّف والكساد. وفي هذا ما يطابق رأي آدولف هتلر الذي كان يقول: «الإسلام دين عظيم لا يصلح للساميين! ولو لم ينتصر شارل مارتِل (Charles Martel) ودخل الإسلام الى أوروبا فاعتنقه الآريون، لاستطاعوا أن يغيّروا التاريخ منذ عشرة قرون»!..*

- **مبدأ العنف الذي يقال إنه من خصائص النفس العربية هو العلاج المظهري لخيبتها المثالية.** أي أنها تتظاهر بالعنف والقوة تعويضاً عن خيبتها المريرة من الفرق الشاسع بين نظرتها المثالية الى الحياة والكون، وثوابت الواقع البشري القائم على الظلم والقهر والجريمة والعدوان. الأمر الذي

---

* شارل مارتل أو شارل المطرقة محارب من أبطال الفرنجة حكم ولاية أوسترازيا من أعمال فرنسا، وانتصر على الفاتح العربي عبد الرحمن الغافقي في معركة بواتييه التي يسميها المؤرخون معركة «بلاط الشهداء» سنة ٧٣٢م. فأوقف زحف الإسلام على أوروبا.

يصح معه قولهم «**ما ليس يوزع بالقرآن يوزع بالسلطان**»، ويُقصد به أنّ إقناع الناس بالأوامر والمناهي القرآنية هو السبيل الأفضل لتوطيد الحكم، دون أسلوب العِنف والقوة الذي لا يستعمل للردع والوَزع إلّا إذا تعذّر الإقناع بالحسنى.

- **حجاب المرأة سلاح معطى من الله، يحميها بحسن استعماله ويقتلها بانحرافه.** أي أن الحجاب تنزيه لها عن سقط المتاع، وترفيع وعزّة وكرامة. وهو متوسط بين الدناسة والطهورية (Puritanisme). أي أن حجاب المرأة في حدود معيّنة يصونها صون اللؤلؤة النادرة من رغباتها ورغبات أهل الشطط والتهتك، كما أنه عندما يكون غير محدود يسحق روحها ويعطل شعورها ويجعلها كالجوهرة المدفونة في عمق التراب. والمثل الأقرب الى ذلك، أنه بمقدار ما يكون السلاح خفيفاً على الجندي المقاتل يكون فعالاً فاتكاً، وبمقدار ما يثقل على كتفيه وصدره يمنعه من الحركة ويؤدي الى هلاكه.

- **العربي إنسان يؤمن بأن «العطاء تلبية لطلب وجب أن يكون له سبب» وكلّ عطاء آخر لا يشرطه الطلب والسبب هو تبذير من عمل الشيطان.** والواقع أن الكثيرين في الشركات الناشطة والمؤسسات الدولية الموصوفة بالإنسانية، والخيرية الاجتماعية، وغيرها، يتذمّرون من تقصير العرب في ما يسمّى بالمساعدات الفورية، والإسعافات العاجلة، والمساهمات التلقائية في هذه المحنة أو تلك. لكن

المسألة تتعلق أساساً في كون النفس العربية بوجه عام، تأنف من الهدر والتبذير، فلا تضع «السيف في موضع الندى، ولا الندى في موضع السيف» على ما يقول المتنبي. وهو أمر يعود الى الجذور السامية المسيحية قبل الإسلام حيث يقول المسيح: «**إسألوا تُعطوا. أطلبوا تجدوا. إقرعوا يفتح لكم. فأبوكم الذي في السماء يهب الخيرات للذين يسألونه.**» (إنجيل متى - الإصحاح - ٧ - الآيات: ١١،٧) وقد جاء الإسلام يثبّت هذه المقولة في محكم بيانه القرآني.

- **الثورة في لغة العرب غضب وهياج أقرب الى التصرف العفوي الغريزي.** فالعرب لم يفسّروا الثورة بمعناها المتعارف عليه اليوم من أنها حركة اجتماعية انقلابية إصلاحية تستهدف أوضاعاً سياسية قائمة. ذلك أن الثورة في نظرهم خُلق من أخلاق العصاة المخرّبين، كثورة **الزنج في البصرة** أيام الخليفة المعتَمِد العبّاسي! فالأحرار يصبرون على الحاكم الظالم، وإذا عيل صبرهم بعد طول أناة وجدال يحاولون به ردع التجاوز، انتفضوا وانتقموا انتقاماً دون تخطيط مسبق لمناهج افتراضية، لأن الشريعة هي المنهاج الذي لا يتبدّل. وإن كان للانتفاضة من هدف فهو التزام العودة الى كتاب الله.

- **النفس العربية كونية لا تؤمن بالوطن المحدود، بل بالجماعة الكلّية التي كانت هي «القبيلة» قبل الإسلام وأصبحت هي «الأمّة» بعده. ودار الأمة واحدة تتسع وتنمو بمرور الزمن**

حتى تشمل الدنيا بأسرها.

ويخطئ من يعتقد أن مفهوم «الأمة» مقتصر على الدين الإسلامي وحده، بل إنّه في الوقت نفسه «التجمع القبلي» الأوسع من القبيلة بصورتها الجاهلية، وهو بالتحديد «التجمّع العربي» الأمثل المرتبط باللغة وتراثها الفكري والثقافي، وبالتاريخ العربي ومحتواه الذي يشمل «**المفهوم القومي للعروبة**» أيضاً بما فيه الإسلام العربي ومن هم في ذمّته كالنصارى العرب، وحتى اليهود العرب، وكلّ من يخضع لشريعته المتمثلة بالقرآن.

- **كانت للعرب في الأزمنة الحضارية الأولى «أبوة عنصرية» باعتبار أن معظم الحضارات القديمة شرقي المتوسط انطلقت من الجزيرة العربية، بما فيها حضارة مصر الفرعونية وحضارات ما بين النهرين حتى سواحل الشام. وقد أصبحت لهم «أبوة ارستوقراطية» بعد الإسلام الذي انتشر لدى شعوب أخرى غير سامية.**

وعلى أن الإسلام لم يفرّق بين عربي وأعجمي، فقد رأينا أن العداء الأجنبي للإسلام، في مختلف المراحل التاريخية يتوجه عموماً وبالدرجة الأولى ضدّ العرب، قبل أن يطال سائر المسلمين. وآخر الأمثلة على هذه الحقيقة أن الاتحاد الأوروبي يبحث جدّياً في ضمّ تركيا اليه، بالرغم من حروبه الطويلة مع العثمانيين في الماضي، ثمّ إنه لا يسمح على الإطلاق بمهاجمة إيران، ويضغط على الولايات

المتحدة في هذا الاتجاه، بالرغم من التحديات الإيرانية في الشأن النووي وغيره من القضايا والشؤون الإقليمية، فيما تختلف مواقف الغرب عن ذلك كلّياً حيث يتعلق الأمر بالعراق وفلسطين وسوريا والسودان وسائر الدول العربية في المشرق والمغرب.

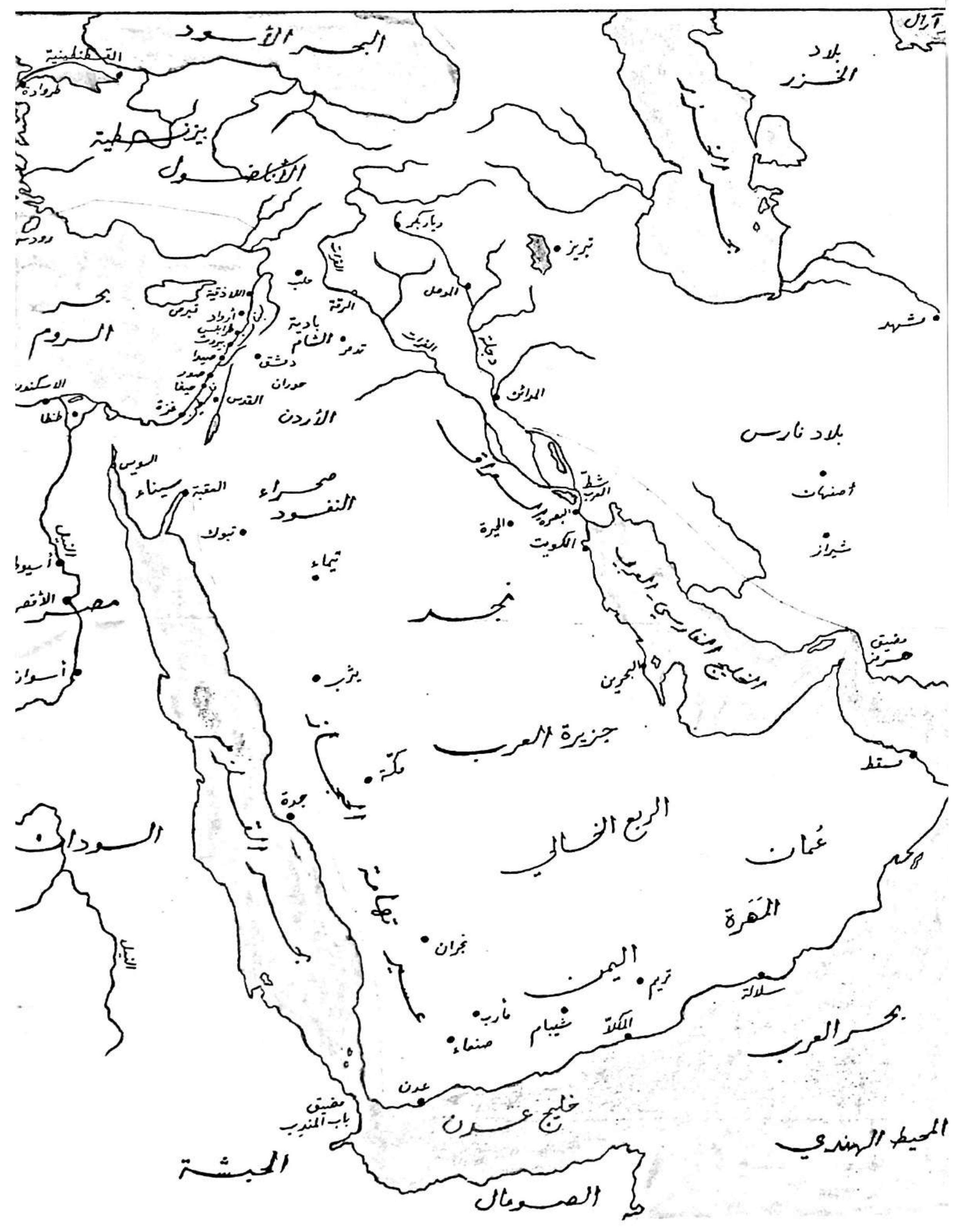


بعد هذه الملاحظات الموضوعية التي حرصت على عرضها بالخطوط العاجلة في المقدّمة، أترك للقراء والباحثين ولوج أعماقها آملاً أن يكتشفوا ما احتجب من أغوار هذا الكتاب والتبس في غَلَقِ أسراره، عسى ان أكون وفيت بجزء يسير من حقيقة النفس العربية، ومنتدح آفاقها، كما آمل أن يصفحوا عما جنحت اليه من ضروب المبالغة حيناً وظاهر المحاباة أو التحزبّ أحياناً، علماً بأن بواده العجز والقصور هي في عداد السلائق البشرية، والكمال لله وحده. إنه الآمر الهادي والآزر المستعان.

رفيق المعلوف



جـزيرة العـرب ومحـيطها في العـصور الجاهـلية حتى ظهـور الإسلام



- ١ -

العُروباتُ الساميَّة و«اللهُ» و«الأنا»!..

العرب أرومة بشرية ساميّة نشأت في شبه الجزيرة العربية منذ فجر التاريخ، وما برحت تتكاثر فـي وعائها الطبيعي الدافئ[١] عبر الأزمنة والعصور المتقدّمة قدر ما يسع ذلك الوعاء، حتى إذا بلغ جَمامه واحتقن بمخزونه البشري في مفاصل تاريخية ومراحل زمنية متـفاوتة، انتقل بحكم ظروفه الموضوعية الضاغطة، من الاحتقان الى الفيضان، فأفرغ محتواه في المتسع الأقرب من الأرض.

لذلك لم يكن موضع استغراب لدى المؤرخين وعلماء السلالات والأجناس (Les Anthropologues)، أن يعثروا على

---

(١) تقدر المساحة الإجمالية لشبه الجزيرة العربية بثلاثة ملايين كيلومتر مربع، وهي تقع شمالي خط الاستواء بين خطيّ العرض ١٣ و٣٣، بحيث أن درجة الحرارة في أقاليمها المختلفة، سواء على ساحل البحر الأحمر أو الخليج العربي-الفارسي أو حضرموت، أو على قمم الجبال التي يزيد ارتفاعها عن ٢٠٠٠متر فوق سطح البحر في اليمن والحجاز، أو حتى في الأودية الرملية القاحلة من روابي نجد الى صحارى النفود والربع الخالي... هذه الحرارة قلّما هبطت الى أدنى من ١٨ درجة مئوية أو تخطت ٤٦ درجة صعوداً على قياس «سنتغراد»، خصوصاً في المناطق المأهولة.

جذور للأرومة العربية في مصر الفرعونية، حيث طغت تلك الجذور بالحيوية النادرة الغلباء التي اختصت بها وتميّزت، على ما حمله النيل الى قلب مصر القديمة بين وادي الملوك والدلتا، من خلائف البطن الإفريقي وأخلاط شعوبه، كما أنشأت معالم حضارة خارقة لا تزال تدهش العقول منذ خمسة آلاف سنة الى اليوم.

وكثيراً ما كان العلماء يتجنّبون تحديد الأصول العرقية والمنابت العنصرية لأصحاب الحضارات القديمة الأخرى في منطقة الشرق الأدنى، كالبابليين والآشوريين والكنعانيين والفينيقيين والعبرانيين وغيرهم، وذلك لكي لا يعترفوا بانتماء هؤلاء جميعاً الى الأرومة العربية إياها، وبأَنَّ كلاً من هذه الشعوب تحقَّقَ وجودياً، وانوجد كيانياً، **من خلال انفجار ديموغرافي في** مرحلة تاريخية ما، حولت احتقان الخزان البشري في جزيرة العرب الى فيضان.

ولقد تداخلت في امتناع أولئك العلماء والمؤرخين وأهل الكشوف الأثرية، عن المجاهرة بتلك الحقيقة، أسباب تعود الى عوامل نفسية شخصية أو عصبيّات دينية أو تحزّب عنصري، قلّما سلمت منها خلايا العلم وأهلها المنقطعون الى التأمل والتبصّر والاجتهاد المنزّه في استقراء المعرفة والتماس اليقين، لا سيّما وأنّ طبائع الأمم المشار اليها متشابكة ومعقّدة، بل مصابة بما أسمّيه «**جرثومة ذوي القربى**» التي لم يتمكن علم الجنات الحديث في عصرنا الحاضر، من تفسير ظهورها بعد كمون، أو حجابها

بعد سفور، وكيف تعبّر، وفي أي زمان أو مكان، عن نزعاتها وميولها ونزواتها!

ولا بدّ هنا من التأكيد على بعض الظواهر التي واكبت فيض العروبة في جاهلية الأمم، من منبتها الأصلي في العَرَبَة باتجاه المنادح الترابية الخضراء والمائية الزرقاء، حيث كانت تبترد من لهب الرمضاء وتتبدّل جفاف الصحراء وجمر أحقافها رطوبة ولدانة(٢)

الامتداد اليسير نحو الغرب

أول تلك الظواهر أن النهر البشري العربي كان يتدفق في تلك الحقب الواغلة في القدم، باتجاه الغرب أو باتجاه الشمال الأقرب والمجاور، مستفيداً من سهولة الأباطح المترامية بين الجزيرة العربية ومصر، ثمّ بينها وبين حوران والبلقاء في الشام، وبين الأحواز وعربستان (خوزستان) عند شط العرب في العراق.

فالهجرات العربية نحو مصر لم تنقطع منذ بدء الخليقة وحتى

---

(٢) في «لسان العرب» أن أول من أنطق الله لسانَه بلغة العرب يَعرُب بن قحطان وهو أبو اليمن كلّهم، وهم العرب العاربة، فيقول: «ونشأ إسماعيل بن إبراهيم، عليهما السلام، معهم فتكلّم بلسانهم، فهو وأولاده، العرب المستعربة، وقيل إن أولاد إسماعيل نشأوا بعَرَبَة وهي من تهامة، فنسبوا الى بلدهم... وعَرَبَة باحة العرب ودار أبي الفصاحة إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام.»

وقد سميت جزيرة العرب في بعض نصوص القدماء «عَرَبَة» من باب تسمية الكلّ باسم الجزء.

فتح ترعة السويس على يد فرديناند دي ليسيبس وتأهيلها للملاحة ابتداء من سنة ١٨٧٠م. وقد اختصرت هذه الترعة نصف طريق الشرق الأقصى أمام التجارة الأوروبية في زمن الاستعمار، ويسّرت كمال اتصال بين البحر المتوسط والمحيط الهندي، فوفرت على الامبراطوريات الغربية أهوال الدوران الخطر حول رأس الرجاء الصالح الذي أطلق عليه الملّاح البرتغالي الشهير (Bartholomeo Diaz de Novaes) - بعد أن فشل في اجتيازه سنة ١٤٨٧م. أي عشرة أعوام قبل رحلة فاسكو دي غاما - لقب «**رأس الأعاصير**» (Cap Tormentoso). لكن شقّ الترعة أدّى في المقابل الى كمال انقطاع بين مصر وجزيرة العرب وامتدادها الشمالي في الشام والعراق.(٣)

ويرى العديد من المؤرخين الثقات أن عزل مصر عن المشرق العربي ابتداء من ١٨٧٠م. جعلها تؤدي رسالتين أساسيتين في مجال التعلّم والتعليم. فقد نشأ عن الفصل بينها وبين عرب المشرق وسائر الدول الإسلامية الآسيوية، بما في ذلك الإمبراطورية العثمانية التي انقلبت عليها مصر قبل شقّ الترعة بما يزيد على نصف قرن في عهد محمد علي باشا وابنه إبراهيم. . . نشأ عن ذلك الفصل توجه مصري متزايد نحو أوروبا الغربية في مختلف الميادين الحضارية والثقافية الحديثة، الأمر

---

(٣) معلومات من الموسوعة الجغرافية الفرنسية حول كشوف البرتغاليين في القرن الخامس عشر ودور الملّاح العربي الشهير أحمد بن ماجد السعدي النجدي في إنجازها.

(G. Ferrand: «Le pilote arabe de Vasco de Gama et les instructions nautiques arabes au XVème siècle.» - Annales de Géographie, N 127, 1922)

الذي جعلها كعبة الفكر والأدب والعلوم في ديار الإسلام طيلة حكم الأسرة الخديوية من مطلع القرن التاسع عشر وحتى منتصف القرن العشرين. وقد تعلّمت مصر الكثير من نهج الحياة الأوروبية ومنارتها باريس، فيما ظلّت بلاد الشام والعراق غارقة في رتابة الحياة الشرقية الموروثة عن القرون الوسطى، باستثناء فريق من اللبنانيين الذين ائتزروا بالثقافة الغربية في مؤسسات علمية أجنبية دخلت بلادهم على يد المرسلين الأوروبيين والأميركيين. ومعروف أن معظم هؤلاء اللبنانيين وبعض إخوانهم السوريين من أعلام الحرّية كانوا يطالبون باستقلال العرب عن الدولة العثمانية، وهم الذين رسموا الخطوط الرئيسية للنهضة العربية الحديثة، وقد يمّموا أرض الكنانة وأقاموا في حماها ردحاً يعملون وينتجون. يتعلّمون ويعلّمون.

يضاف الى ذلك أن مصر أخذت على عاتقها في تلك المرحلة، بتوجيه الخديوي إسماعيل وابنه توفيق ورعاية الأزهر الشريف وكبار علمائه وبعثاته الدينية، مهمة إحياء العلوم الإسلامية والمحافظة على التقاليد السلفية الإسلامية والعربية الأصيلة في بلدان المغرب العربي الكبير الخاضع يومذاك للاستعمار السياسي والثقافي وحتى اللغوي الفرنسي الذي كاد أن يمحو أي أثر للانتماء العربي في شمال أفريقيا.

بعد هذا الاستطراد الذي فرضه الحديث على الأثر التاريخي لشق ترعة السويس، نتابع فنلاحظ أنّ الهجرات العربية لم تنقطع في الأزمنة القديمة نحو الشمال المجاور للعَرَبَة. وكما

تبدو جذور الأرومة العربية الساميّة واضحة في مصر الفرعونية، كذلك تظهر بجلاء في حضارة ما بين النهرين حيث أنشأ السومريون والأكاديون والبابليون والآشوريون ممالك مزدهرة تميّزت بالفنون والشرائع والملاحم الشعرية(٤)، واجترح الكنعانيون والفينيقيون في البلاد السورية معجزة حقيقية باختراع الأبجدية ونشرها في الأمم القديمة التي استعمروها بالمعرفة، كما طوّر العبرانيون شخصية «**إيـل**» إلَه الآلهة في اوغاريت الكنعانية الفينيقية، من «نصب تجسيدي» للثور القادر على صنع المعجزات، الى «**فكرة تجريدية**» للخالق غير المنظور الذي أطلقوا عليه اسم «**يهوه**» ونسبوا اليه الخوارق والتدخل في أمور عباده، واستنطقوه فخاطبهم بحسب أنبيائهم، فآمنوا بأنهم «**شعبه المختار**»!.. وهي «**دالة سامية**» على الخالق - إن جاز التعبير- ظهرت في التوراة العبرية، وبعدها في القرآن العربي ﴿**كنتم خير أمّة أخرجت للناس**﴾(٥) وكذلك في الإنجيل الذي قال بأنّ المسيح صاحب امتياز خاص لكونه يتمتع بدالة الإبن الروحي على الآب كما ورد في العديد من الآيات الإنجيلية.

وبمقدار ما كان طبيعياً أن تتجه جذور الأرومة العربية وهجراتها المبكرة باتجاه مسار الشمس نحو الغرب، كان في المقابل من غير الطبيعي أن تتجه في الشرق الى ما وراء دجلة. فقد

---

(٤) من أشهر العمارات الملحمية السومرية القديمة ملحمة الملك الأسطوري «جلقامش» التي وضعت في القرنين السابع عشر والثامن عشر قبل الميلاد.

(٥) سورة آل عمران - ١١٠

استعصى اجتياز هذا النهر الذي كان يشكل حاجزاً جغرافياً لا يستهان به يومذاك، على أي هجرة بدوية فوضوية بوجود الإمبراطورية الفارسية القوية على ضفّته الأخرى، وما يليها من أقاليم الهند والسهوب الآسيوية المترامية. والواقع أن القليل من الغزاة استطاعوا أن يقتحموا ذلك الحاجز قبل الاسكندر المقدوني وبعده، الى أن ظهر الإسلام وانتصر المسلمون العرب في وقعة القادسية سنة ٦٣٥م. على الفرس الساسانيين، ثم توالت الفتوح الأموية والعباسية التي تخطّت السور الأعظم الى مهاد الصين.(٦)

وثمة حاجز طبيعي آخر كان يحول دون أي اختراق عربي منذ

(٦) عرف اليمن قبل التاريخ الميلادي وبعده دولاً وحضارات عديدة يذكر منها المؤرخون اليونانيون الأوائل وفي طليعتهم «سترابون» (Strabon)، دول المَعينيّين، والسبأيين، والحضرميين، والجبائيّين، والقتابيين، والظُفاريين، التي لا يتعرف أحد الى آثارها، ويشير بعض المؤرخين العرب الى أنها في عداد الأمم البائدة. وكان آخر تلك الدول دولة الحميريّين التبابعة الذين اعتنقوا الديانة اليهودية. ويقول ابن خلدون في «كتاب العبر» أنهم «حكموا اليمن بضعة قرون، وفي أنسابهم تخليط واختلاف لا يصحّ منها ومن أخبارها إلّا القليل.»

وقد اعتمد المستشرقون والباحثون الأجانب في استقصاء معلوماتهم عن الحميريين، قصيدة عرفت «بالقصيدة الحمَيرية» لصاحبها نشوان بن سعيد الحميري من أهل القرن الخامس الهجري. وتقع القصيدة في ١٣٥ بيتاً من الشعر، ضمّنها نشوان المذكور أسماء أجداده الملوك التبابعة وبعض أخبارهم، وأتى فيها على ذكر العرب البائدة أمثال طسم وجديس وعاد وثمود وغيرهم.

ويجدر التنويه في هذا المجال بأنّ دولة الحمّيريين بلغت أوج منعتها على يد الملك التبّعي «شمّريهرعش» في أوائل القرن الرابع للميلاد، وهو أول فاتح أخضع بلاد الفرس بعد الإسكندر وامتدّ سلطانه الى أواسط آسيا ومدينة سمرقند. وقد ظلّ الشعراء العرب بضعة قرون بعد الإسلام يفاخرون بعظمة التبابعة ويعتبرون ملوكهم في مصاف القياصرة والأكاسرة، على ما يقول المتنبي في رثاء أبي شجاع فاتك:

إن حلّ في فُرسٍ ففيها ربُّها كسرى تَذِلُّ له الرقابُ وتخضعُ
أو حلّ في رومٍ ففيها قيصرٌ أو حلّ في عربٍ ففيها تُبَّعُ

الجاهلية الأولى لمملكة الفرس هو البحر الذي يشكل امتداداً للمحيط الهندي من مضيق هرمز الى شط العرب، ويعرف بالخليج العربي- الفارسي.(٧) لكن الفرس الساسانيين هم الذين اخترقوه اختراقاً معاكساً في أواخر القرن السادس الميلادي قبيل ظهور الإسلام وذلك في عهد كسرى أنوشروان، **بعد معركة الفيل** التي قادها الحبشي أبرهة الأشرم لتدمير بيت الله الحرام في مكة، وهزمه فيها القرشيون.(٨)

---

(٧) يسمّي المؤرخون الفرس القدامى هذا الخليج بالخليج الفارسي وقد أخذ عنهم الأوروبيون هذه التسمية (Le Golfe Persique) ويصرّ الإيرانيون المعاصرون على تسميته كذلك، ولكن الواقع الجغرافي للخليج يفرض أن يسمّى «بالخليج العربي-الفارسي» لأنه يترامى بين ضفتي الجزيرة العربية غرباً وإيران شرقاً.

(٨) في الوقائع التي يذكرها المؤرخون القدامى ويعلّلون بها تدخّل الأحباش في اليمن، أن النجاشي ملك الحبشة الذي كان على دين المسيح، ثارت ثائرته يوم وصلته أخبار النكبة التي حلّت بالنصارى في نجران، حيث أقدم ذو نواس الملك الحميري التبّعي المتهوّد على إلقاء عشرين ألف مسيحي من أهل نجران بني الحارث بن كعب سنة ٥٢٣م. في أخدود هائل وإحراقهم بالنار!. فكتب النجاشي الى قيصر في القسطنطينية فأمدّه بالسفن التي حملت جيشاً حبشياً جراراً بقيادة أرياط الى اليمن حيث خلع ذا نواس الذي ألقى بنفسه في البحر فمات منتحراً، وظلّ ابنه ذوجَدَن يقاوم الأحباش بعده ثمانية أعوام حتى قضوا عليه أخيراً فكان آخر الملوك التابعة الحميريين.

وما لبثت الفتن أن دبّت في صفوف الأحباش لاحقاً، فانقلب أبرهة الأشرم على أرياط وقتله، ثم طغى وبغى وتجبّر وأفسد وارتكب المجازر. ورفض قيصر بيزنطية أي تدخل في شؤون اليمن بعد ما بلغه أن النجاشي رضي عن أبرهة، فلجأ أشراف اليمنيين وفي طليعتهم سيف بن ذي يزن الى عمرو بن هند اللّخمي المسيحي ملك الحيرة وحليف كسرى الذي أقنع هذا الأخير بفتح اليمن وإنقاذها من طغيان الحبشة. وقد تمّ ذلك في السنة ٥٧٠م. التي ولد فيها النبي محمد. (راجع «تاريخ الأمم والملوك» للطبري: ذكر ما قبل الهجرة النبوية - خبر أنوشروان وتوجيه الفرس جيشهم الى اليمن لقتال الحبشة.)

ولا غرو أن يحفظ قدامى اليمنية القحطانية للفرس ذلك الفضل في إنقاذهم من الحبشة. فحدّث ركبانهم بتلك النجدة وتغنى بها شعراؤهم. ويقول البحتري، وهو ينتسب الى طيّ القبيلة القحطانية=

الجنوب الحار والشمال البارد

وفي عداد الظواهر التي تستوقف الباحث وتستأثر باهتمامه، أن الموجات البشرية النازحة من العَرَبَة كانت ضئيلة جداً باتجاه الجنوب، وشبه منعدمة باتجاه الشمال الأوسط والأقصى.

فباستثناء الجزر القريبة من حضرموت ومسقط وظفار على المحيط الهندي، وبعض شطئان القرن الأفريقي، لم تسجل أي هجرة عربية كثيفة جنوباً قبل الإسلام بسبب المناخ الاستوائي الحار، بل اقتصرت حركة الملاحة التجارية في العصور القديمة على «طريق الهند» من خليج عمان الى بحار الصين، في خطّ موازٍ للسواحل الأسيوية المأهولة على سيف البحر، خوفاً من المغامرة في مجاهل المحيط البعيدة حيث تشكّل أسراب القرش والحيتان الهائلة خطراً مباشراً على السفن، كما تهدّدها النتوءات الصخرية والأرصفة المرجانية والرملية السطحية، فضلاً عن الرياح والزوابع الموسمية، بالجنوح والانشطار والتحطّم والغرق. وقلما كانت سواحل أفريقيا الشرقية من جهة ثانية، خلا بعض المرافئ البدائية المنتشرة في الصومال وكينيا وتنزانيا وجزر القمر ومدغشقر، تؤمّن

= الوائلة العاربة، في قصيدته «ايوان كسرى» التي مطلعها «صنتُ نفسي عمّا يدنّس نفسي»:

أيّدوا ملكنا وشدّوا قُواهُ ... بكُماةٍ تحت السَنَوَّرِ حُمْسِ
وأغاروا على كتائبِ أَرياطَ ... بطعنٍ على النُحورِ ودَعسِ

ويشير القرآن بوضوح في الآيات (٤، ٥، ٦، ٧) من سورة «البروج» الى محرقة الأخدود حيث يقول: ﴿قُتِلَ أَصحابُ الأُخدود - النّارِ ذاتِ الوَقودِ - إذْ هُمْ عليها قُعودٌ - وهُم على ما يَفعلونَ بالمؤمنينَ شهودٌ - وما نَقَموا مِنْهُمْ إِلّا أَنْ يؤمِنوا باللهِ العزيزِ الحميدِ﴾

كسباً للتجار أو حتى للقراصنة والمغامرين، يستحق ركوب البحر والتصدي لأهواله.

أمّا توسع الهجرة شمالاً نحو برّ الأناضول والبحر الأسود ومضايق الدردانيل في الحوض الشرقي للمتوسط، أو الى أبعد من وادي نهر «**لوار**» خلف جبال «**البُرت**» وجبال «**الألب**» في غالية عبر الحوض الغربي للمتوسط[٩]. . . فقد كان مستحيلاً في ذلك الماضي السحيق - باستثناء ما يذكره بعض المؤرّخين حول الأصول الفينيقية الكنعانية لمدينة طروادة على الدردانيل، وهو ما سنأتي على ذكره لاحقاً - وذلك بسبب المناخ البارد الذي يتحوّل الى جليدي، كلّما ابتعد التوسع عن خطّ العرض **٣٣** شمالاً نحو القطب بالنسبة لأهل الأرومة العربية الساميّة الذين يقيمون في أجواء دافئة من الاعتدال المناخي. وهو توسع لا يزال من المستصعبات في عصرنا الحاضر بالرغم من الفاقة المنتشرة في المناطق المسمّاة «بلدان الجنوب» (Pays du Sud) بالمصطلح السياسي الأوروبي والتي ترغم السكّان على الهجرة وتحمّل أخطارها المهلكة.[١٠]

---

(٩) جبال البُرت هي في قاموس الأندلسيين العرب جبال «البيرينيه» (Les Pyrénées) التي تفصل بين إسبانيا والبرتغال من جهة وفرنسا من جهة ثانية. ولم تكن هنالك حدود سياسية في الماضي بين شبه الجزيرة الإيبيرية و «غالية» ويقول بعض الجغرافيين أن اسم البرتغال يعود الى جبال «البُرت» التي كانت تمتد حتى مشارف مدينة «بوردو» غرباً على المحيط الأطلسي.

أمّا «غالية» فهو الاسم اليوناني اللّاتيني القديم للبلدان التي تقع غرب جبال «الألب»، وهي تطلق عموماً على فرنسا .(La Gaule)

(١٠) تؤكد الإحصاءات في معظم بلدان أوروبا الغربية أن ما يقارب ٥٠٠ ألف مغامر من أفريقيا الشمالية والوسطى يحاولون كل سنة دخول الدول الأوروبية المتوسّطية، لتحصيل العمل=

وقد استتبعت هذه الظاهرة واتصالها المباشر بالمناخ، بروز «**خصائص مشتركة**» في نفسية الشعوب المتحدرة من أرومة العَرَبَة وطباعها السايكولوجية وتكوينها الفيزيولوجي، سنحاول تعيينها وتوصيفها في مواضع لاحقة من هذا الكتاب، وهي تشمل البواقي الضئيلة من جمهرة الأمم البوائد، كالآشوريين والكلدانيين والسريان والأقباط، والأنباط وغيرهم، كما تـشمل المجموعتين الساميتين الرئيسيتين اللّتين صمدتا في أعاصير التاريخ ومهالك الحروب والأوبئة والهبوات البربرية والفتوح المتعاقبة.

وتتألف **المجموعة الأولى** من الناطقين باللغة العربية الذين لم يتمكن حتى الإسلام، رغم طاقة الجمع والصهر الخارقة التي يتميز بها، من تكوين إطار سياسي لهم يلمّ شتاتهم في الرقعة الجغرافية المترامية من المحيط الأطلسي الى الخليج العربي-الفارسي. وهي المجموعة المسمّاة تجاوزاً في معجم العصر «**بالشعوب العربية**»، وفي معجم التنظير القومي ومفهوم كلمة «الأمة» في الإسلام «**بالأمة العربية**»...

أمّا المجموعة الثانية فتتألف من الناطقين باللغة العبرية الذين لم يتمكنوا هم أيضاً، بالرغم من تجمعهم الظرفي العاجل في دولة إسرائيل، وشتاتهم القدري الحاصل في أطراف المعمورة، أن يسيطروا على تنافر العناصر المختلطة في كيانهم المتنوّع. وهي المجموعة المسمّاة في معجم العصر المؤاتي «**بالأمة اليهودية**»!

=والهرب من المجاعة، وإن أكثر من ٤٠٠ ألف من هؤلاء يموتون بالعواصف والأعاصير في اجتياز البحر، وتعاني الدول الأوروبية مشاكل في احتواء الناجين منهم وشرعنة إقامتهم فيها.

ولعل أغرب ما تفرزه «تكاليف الحياة»، كما يسمّيها زهير بن أبي سلمى[11] أنّ «عرب اليوم» الذين تضاءَلت نسبتهم الى الأرومة الساميّة بمعدل ٥٠ في المئة عبر الأزمنة بسبب استيعابهم المتواصل في المدى التاريخي لشعوب متعدّدة، قد احتفظوا بين ذخائر نفوسهم المغلقة، بميلة القلب العاطفي وحماسة الإيمان الغيبي بالدين الذي لم يتبدّل لحظة واحدة طيلة عشرين قرناً من عصور المسيحية والإسلام، فيما تبدّلت أطوار الحياة وأشكالها وأساليبها ألف مرّة، خصوصاً، في القرنين الأخيرين. . . فيما يتضح للمراقب الحصيف أن «يهود اليوم» الذين تضاءَلت هم أيضاً نسبتهم الى الأرومة الساميّة بمعدل ٤٠ في المئة[12]، قد خلعوا العاطفة من أعماق نفوسهم بفعل ما لحق بهم من تنكيل واضطهاد، وأصبح معظمهم من مسألة الدين في موضع أبعد عن الثريا من

---

(١١) زهير بن أبي سلمى هو أحد أصحاب المعلقات السبع الطوال في الشعر العربي القديم، واستهلال معلقته الشهيرة:

أَمِنْ أُمِّ أَوْفى دمنةٌ لم تَكَلَّمِ … بِحَوْمانَةِ الدرَّاجِ فالمُتَثَلَّمِ

ويقول فيها:

سئِمتُ تكاليفَ الحياةِ ومَنْ يَعِشْ … ثمانينَ حَولاً، لا أبا لكَ، يسأَمِ

ويقصد بتكاليف الحياة، مغالبة الحياة وأقدارها ونوازعها.

(١٢) بصرف النظر عمّا يذهب اليه الباحثون والمؤرخون من أمثال آرثر كوستلر صاحب كتاب «القبيلة الثالثة عشرة» من أنّ معظم اليهود المعاصرين الذين ينتمون الى «الأشكيناز» في العالم، وخصوصاً في دولة إسرائيل، هم من السلالة الآرية ولا ينتمون بأي وجه الى الساميين العبرانيين المتحدّرين من أرومة العَرَبَة اليمانية القحطانية أو اليقطانية بالتعبير العبري... وقد كذّب فريق من العلماء هذا الإدعاء دون أن يسقطوه بالحجة المفحمة والدليل التاريخي الثابت... بصرف النظر عمّا يذهب اليه هؤلاء، تأكد في العقود الأخيرة من تحاليل الجنات أو ما يسمى (بالحامض الريبي النووي) أن الأشكيناز ليسوا من السامية الحقيقية في شيء، وأنهم في معظمهم آريون.

الثرى، مع أنهم اعتمدوا ذلك الدين في مظهره الكياني دون جوهره الإيماني، قاعدة أساسية لأمتهم، وتخيّروا آلاء العلم الكاسفة في المدى، والخاسفة في المطلق، والمتنقّلة أبداً من معادلة واضحة الى معادلة أوضح، ومن اقتناع ثابت الى اقتناع أثبت، وبالتالي، من واقع مألوف ومضمون الى واقع غير مألوف ولا مضمون!..

وجماع القول أن الفريقين كليهما خرجا في نهاية المدار التاريخي من التجربة الوجودية المتعاكسة الى تفاهة العدم الأكبر!..

بين العبادة واللّذة...

لكنه لا بدّ في أي حال من تسجيل واقع نشأ عن اكتفاء الساميين منذ القدم بالمناطق الدافئة المعتدلة دون أي توغل في الأتون الاستوائي اللّاهب أو في الثلاجة القريبة من قطب الصقيع، وهو أن فتور الطبيعة المتوسطية واعتدالها واتساع آفاقها وبواديها، فرضت على النفس الشرقية الساميّة خدر التأمل فيما وراء الوجود، **فانجذبت نحو فكرة «الله»** من خلال تلمس الغيب، وربطت بين مطالع النجوم ومدار الكواكب المرئية في الليالي المشرقية الصافية، وبين الحياة الإنسانية والعناصر المكوّنة لها، فاستنبطت علوم السحر والتنجيم، وأطلعت الأنبياء، وآمنت بأن لهم رسالات سماوية، ونسبت اليهم الخوارق والمعجزات، وميّزت بين الفصول، وعالجت الأمراض بالرقية والأعشاب وغير ذلك ممّا

يحتاج تفصيله الى المصنفات الاختصاصية المطوّلة. . . وبمقدار ما توجّهت النفس العاقلة عند الساميين نحو التجريد المميز، عمل هؤلاء على توجيه الجسد بملابسه الخفيفة وتفتّحه الوشيك في السراح الدافئ، باتجاه مهوى الحواس، فخضع لجاذبية المحسوس واستمرأ المتعة فسارع الى تلبية الشهوات، **وبرع في انتهاب سوانح «اللذّة» التي أصبحت غاية وجوده.**

وكما ترتبط النفس والجسد بسلك خفي لا يزال العلم يبحث عنه الى اليوم في محاولات جريئة متوالية لاكتناه أسرار الحياة، كذلك ربط الساميون الأوائل، على اختلاف مواقعهم ومشاربهم، بين «**العبادة**» و«**اللّذة**»، بسلك خفي يتداخل فيه نوع من «**الخوف الإيماني**»، إن جاز التعبير، ونوع من «**تحدي الجبروت الإلهي**» بارتكاب الفاحشة وانتهاج المخالفة طمعاً بالغفران عند هذا الفريق الذي يؤمن برحمة الله، أو الهروب من عقدة الذنب الى ذنوب أكثر تعقيداً عند ذاك الفريق المرتعد أمام الخالق الديّان المنتقم.

وإزاء هذا التداخل بين العبادة واللذة سرعان ما يكتشف الباحث أن الساميّ الذي يعبد الله **إمّا خائف منه لتحريمه «اللذة الآثمة» وإمّا شاكر له على ما يتصوّر من غفرانه «للإثم اللذيذ»**...(١٣)

---

(١٣) هكذا في المزمور الخمسين لداود المستغفر بعد أن زنى بالحسناء بَتْشابَع التي تدبّر قتل زوجها وعبده أوريّا الحِثّي: «**إني عارف بخطيئتي. وهي أمامي في كلّ حين. اليك وحدك خطِئت وأمام عينيكَ صنعت الشرّ. في الإثم ولدت وفي الخطيئة حَبلت بي أمّي. لا تطرحني من أمام وجهك ولا تنزع مني روحك القدوس...**» وفي الفصل الثاني عشر من سفر الملوك الثاني أن داود عاد فتزوّج بَتْشابَع التي فتن بها وولدت له سليمان «**الذي أحبّه الربّ**» بحسب تعبير التوراة.

وتبقى «محبة الله»، باعتباره مصدر الحياة والموت والكمال والقوة والخلود الخ. . . «رهبانية متصوّفة» دعا الى مثلها السلوك المسيحي، لكنها دخلت على الساميين من العمق الأسيوي البوذي والمناسك الهندية، ولم تعمّر في الديار الساميّة طويلاً...[١٤]

(١٤) قلّما عثرنا على تسمية «حبيب» عند قدماء العرب العاربة والمستعربة في الجاهلية والإسلام، خلافاً لتسميات أخرى من الصفات الحسنى التي اقترنت باسم الله. وقد اختص المسيحيون العرب وحدهم بهذه التسمية التي يكثر ورودها في الإنجيل. وعلى أن الحديث المنسوب الى النبي محمد يقول «الخلق كلّهم عيال الله وأقربهم اليه أحبهم لعياله»، ورغم أن هنالك أحاديث نبوية أخرى تمتدح محبة الله، فإن المحبة اقتصرت في الإسلام على الإنسان الأقرب الأدنى، ولم ترقَ الى عرش الله الأعظم الأعلى، اللّهم إلّا في قصائد الشعر الصوفي. فالله في الإسلام، كما في اليهودية الى حدّ ما، رحمن رحيم غفور رؤوف كريم لطيف الخ... لكنه ليس حبيباً! (انظر «التحبير في التذكير»: دراسة المتصوّف السني الأشعري عبد الكريم القشيري لأسماء الله الحسنى وصفاته - تحقيق د. ابراهيم البسيوني- القاهرة، ١٩٦٢).

ولا يخفى أن الشاعر العبّاسي الكبير ابا تمّام الطائي يحمل اسم حبيب بن أوس لأنه ولد على النصرانية من أب رومي هو «تيودوروس» الذي تمّ تعريبه بأوس، ونسبته الى طيّ نسبة بالولاء وليس بالدم والعنصر.

أمّا في القرنين الأخيرين فقد راج اسم «حبيب» في المغرب العربي، كالحبيب بورقيبة والحبيب الشطي وغيرهما، بفعل الاستعمار الفرنسي المسيحي في شمال أفريقيا لكنه ظل يقتصر عموماً في المشرق على المسيحيين.

ولا بدّ من الإشارة أخيراً الى أن بعض المؤرخين والباحثين الذين عجزوا عن إيجاد أي تفسير منطقي موثّق لاختلاف المسيحية عن اليهودية والإسلام في مسألة «المحبة»، وفي عدادهم العلّامة الفرنسي إرنست رينان، افترضوا أن المسيح الذي يكتنف دخوله الهيكل وإقامته فيه بضعة عشر عاماً، غموض كلّي، إنما انتقل الى الهند حيث اطلع اطلاعاً واسعاً ودقيقاً على تعاليم «بوذا» نبي الرأفة والرفق والمحبة، وذلك انطلاقاً من الشبه الكبير بين إنجيل بوذا والأناجيل المسيحية الأربعة، وكون بوذا ابن أمّه هو أيضاً لا يعرف له أبٌ!.. لكن هذا الافتراض بقي مجرّد تكهّن لا يستند الى أي دليل تاريخي علمي ويحيط به الكثير من الشكوك والتحفظات.

الأنا.. والمال.. والدنيا!..

ويندرج في عداد الظواهر التي رافقت امتداد الجذور من أرومة العَرَبَة الى محيطها القريب وآفاقها البعيدة على ضفاف الأبيض المتوسط، مثلث وجودي متساوي الأضلاع يمكن التعبير عنه بكلمات ثلاث مترابطة غائياً هي: **أنا، والمال، والدنيا.**

فالساميون، أيا كانت أديانهم وتقاليدهم وأعراقهم، ومناطق انتشارهم في المعمورة، ما زالوا يحملون الى اليوم «**لعنة الأنا**». وانطلاقاً من هذه الحقيقة الكيانية في شخصية الإنسان السامي الموحّد المتوحّد نفهم «**عبادة الفرد**» في معجم السياسة والثقافة والفكر والفن والأدب والعلم والنبوءة والبطولة والحرب وسائر أنشطة الحياة. وعندما نقرأ تاريخ الفراعنة والكنعانيين والفينيقيين وشعوب الرافدين والعبرانيين ثم القحطانية والعدنانية من العرب، وغيرهم، **نقرأ في الواقع تاريخ أبطال وجبابرة وأنبياء وأفراد متفوّقين**، وليس تاريخ جماعات كثيراً ما يرتبط وجودها بأولئك المتفوّقين وتظهر سماتها وملامحها ظهوراً خجولاً من خلال ظلالهم المترامية في العمق والمدى التاريخي المنظور.

وفي ضوء هذا الالتزام الأناني المتفرّد العائد أساساً الى تشبّه المخلوق بالخالق، وهو يعتبر نفسه - أي المخلوق - **صاحب** «**دالة خاصة**» عليه كما سبق وذكرنا، وصاحب امتياز خاص عنده ناشئ عن أسبقية اكتشافه له واستيحائه إياه والتحدّث اليه، نستطيع تفسير التمسك الصارم عند الساميين «**بالحرّية**

الفردية»، والبرم الكلّي بالديموقراطية في مفهومها اليوناني اللّاتيني الذي يكمن في أساس مفهوم الحضارة الغربية المعاصرة للديموقراطية. فالمبدأ السائد لدى الساميين جميعاً والذي يتمثل في القرآن، وقبله في التوراة، ثم في الإنجيل على صعيد العلائق بين الحاكم والمحكوم أو بين الأمراء والمأمورين من الخاصة والعامة، **هو مبدأ الشورى.**

وهيهات لا تعني الشورى مذهباً ديموقراطياً سياسياً في المعجم السامي بل إنها منهج حكيم يعتمده الفرد الأول المتفوق في هذا الميدان أو ذاك، على أساس أن **من استشار الرجال شاركها في عقولها.**

فكما نرى أن الفراعنة وملوك العبرانيين وسائر الشعوب الساميّة، وكلّ خليفة أو ملك من أبناء يعرب وإسماعيل الذين يطلق عليهم اسم العرب اليوم حصراً، كانوا يجمعون الخاصة من علمائهم ومنجّميهم وحكمائهم لاستقراء ملاحظاتهم وآرائهم في القرارات المصيرية... كذلك يحرص الى يومنا هذا كلّ عالم سامي أو أديب أو شاعر أو مخترع أو قائد أو رائد عبقري في أي ميدان، وأي زمان أو مكان، على استشارة من يرى عنده المعرفة بالشيء والتخصّص فيه، عملاً بالقول المأثور: «**نفعنا الله بعلم فلان**»، أو طمعاً باكتساب الحكمة حتى «**من أفواه المجانين**»...

ولقد أساءَت هذه «**الفردية المنهجية**» (ولا أسمّيها الأنانية) في الحياة الساميّة إساءة كبرى الى أمن المجتمعات واستقرارها وتعهّدت نيران الحسد والحقد والكيد في نفوس الملوك والرعايا

المتصلة بهم، بحيث أدّت الى جرائم نوعية واضطرابات غير مسبوقة تفوق مرمى الخيال. ولو أنعمنا النظر في تاريخ أمم الأرض جمعاء، من آدم الى هذا اليوم، **لما عثرنا على نسبة تتجاوز ٥ في المئة** من جرائم القتل والسفك والسبي والاغتصاب والإفناء والقهر والفحشاء التي يرتكبها الأخ بحق أخيه ووُلد أخيه ونساء أخيه، أو يقدم عليها الأب تجاه ابنه والابن تجاه أبيه، والمرأة تجاه حليلها، والجارية تجاه مولاها والعبد تجاه سيّده، والسادة المتسلطون تجاه عبيدهم، الى آخر ما يتصوّره الوجدان البصير من آثام وذنوب تقارب مستوى الفعل البهيمي النكير المنكر ممّا هو منصوص عليه ومندرج باهتمام، وأحياناً بمنتهى الإكرام، في تاريخ الأمم الساميّة وديوان فتوحها، ويوميات وجودها، وعادات شعوبها، وحتى في بعض ما يوصي به حكماؤها!..

لذلك، لا غرابة في أن نسمّي هذه «**الفردية المنهجية**» «باللّعنة»، لا سيّما وإنها كانت تنتهي فصولاً، في كلّ حين، وتحت كلّ سماء تستظلّها الأرومة الساميّة العرباء، بأبشع المآسي وأفظع النهايات التي يقصر عن مجاراتها قَدَر الشخصيّات المتردّية والشائهة أحياناً بإرادتها الذاتية في مسرحيات شكسبير الانتحارية!..

ولا مندوحة عن تقرير واقع أساسي هو الارتباط العضوي والاتصال المتحتم والمصيري بين «**الأنا الفردية**» وأخويها «**المال**» و«**الدنيا**» في الذات الساميّة القلقة، وهي ظاهرة تؤكد الطمع بالسلطان، والاستهزاء بالقناعة، وعدم الاكتفاء.

فالمال يحتل بعد «الفردية»، وبكامل المطاوعة لرغبات «الفرد»، الحيّز الرئيسي من اهتمام الساميّين وطموحاتهم. يتجلّى ذلك في أخبار ملوكهم، وسير عظمائهم، وملاحم شعوبهم الأولى، وقد شرّعوا تشريعاً دقيقاً للمواريث والمكاسب والأقساط والحصص المادية بمقدار ما شرّعوا لنواميس العبادة، وكانوا أول من صكّ النقد واخترع الربا الذي نهى عنه بعضهم، واحترفه بعضهم الآخر.(١٥)

كلّ ذلك الشغف بالمال تلبّس به الساميّون في سبيل الدنيا

---

(١٥) من الثابت على الصعيد التاريخي أن أشهر ملوك بابل حمورابي الذي حكم في القرن الثامن عشر قبل الميلاد، وكان صاحب الشرعة الإدارية والاقتصادية والاجتماعية العظمى في العالم القديم، هو أول من صكّ النقد وفرض التعامل به عوضاً عن نظام المقايضة الذي التزمته الشعوب قبله .(تم اكتشاف نص الشرعة في شوش ما بين النهرين سنة ١٩٠٢م. على نصب لا يزال موجوداً في متحف «اللوفر» في باريس).

ويذهب بعض المؤرخين الى أن قدماء العبرانيين الذين عرفوا بسرعة الاقتباس من إنجازات جيرانهم، قد وجدوا في «المال الجديد» أي النقد المنقول بسهولة ودقة، باباً يسير الولوج الى اختراع «الربا» الذي كان يصعب فرضه من الدائن على المدين في زمن المقايضة بالموجودات والأموال العينية، فاخترعوا المراباة التي حرّمها أنبياؤهم جميعاً بين اليهود أنفسهم وسمح بها حزقيال في التعامل مع الغرباء، ثمّ استطاعوا فرضها ابتداء من القرن الثامن عشر بعد الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩م. بصورة تدريجية على النظام المصرفي العالمي باسم «فائدة المال»، وذلك رغم ان الكنائس المسيحية كانت تحارب الربا وتنكره بل تعتبره من الفواحش المحظورة .(انظر إنجيل لوقا في مسالة الإقراض بلا مقابل) وقد حارب جميع الأولياء والقديسين ورجال الدين في تاريخ الكنيسة الكاثوليكية هذه الممارسة الشعواء.

أمّا الإسلام، فقد حرّم الربا تحريماً قاسياً في الآيات: ﴿... وأحلّ الله البيعَ وحرّم الربا﴾ (سورة البقرة، ٢٧٥) ﴿ويَمحقُ الله الربا ويُرْبي الصَدَقات...﴾ (البقرة، ٢٧٦) و﴿يا أيها الذين آمنوا اتقّوا لله وذَروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين﴾ (البقرة، ٢٧٨). ولا تزال المصارف الإسلامية تلتزم هذا التحريم الى اليوم.

الزائلة ومتاعها. وقد اكتشف المسيح هذا الضعف الكامن في النفس اليهودية خصوصاً والوجدان الساميّ عموماً، أمام المال، فتوجّس من إغرائه وبرم بمن يعبده دون الله، فقال: «**لا تعبدوا ربّين الله والمال**»! ثمّ إنّه ذهب حتى الى تزهيد الناس بالثروة والغنى في قوله: «**إن دخول الجمل في خرم الإبرة أهون من دخول غنيّ ملكوت السماء.**»

وفي الإنجيل والقرآن كما في تعاليم عيسى وأحاديث محمد كلام لا ينضب في امتداح الآخرة وتفضيلها على الدنيا. ولو رجعنا الى تراث بولس وباسيليوس وأوغسطينوس ويوحنا الدمشقي وغيرهم من عظماء المسيحية الساميين، أو الى تراث الأيمّة المسلمين، من علي بن أبي طالب الى الغزالي، وأبي حنيفة، والشافعي، وسائر الأيمّة المسلمين العرب، لرأينا أن أقوال هؤلاء جميعاً وعظاتهم، وما يأمرون به وينهون عنه، **يتركز أساساً على مدح الآخرة وذمّ الدنيا**... وهو إن دلّ على شيء، فإنما يدلّ بداءةً على خوف أولئك المختارين المؤمنين من تهالك الناس على متاع الدنيا وانغماسهم في مكاسبها وشهواتها، وانصرافهم عن الآخرة الى مباذل الحياة المادية ومحسّنات نعيمها. ولعلّ خير تعبير عن شهوة المال قول محيي الدين بن عربي في كتاب الوصاية: «**ما سمّي المال بهذا الإسم إلّا لكونه يمال اليه طبعاً.**»

ولا يخفى أن معظم الشعراء والمفكرين والعلماء والفلاسفة الساميين - حتى من كان منهم غارقاً في المفاسد - إنما نهجوا هذا النهج وسلكوا هذا السبيل، باستثناء العبرانيين الذين لا

نصوص توراتية تعدهم بالثواب والعقاب والقيامة والحشر آخر الدهر.[١٦]

★ ★ ★

ولا بدّ لنا قبل اختتام هذا الفصل المتعلق بالجذور الساميّة الواحدة والعائدة كلّها دونما استثناء الى جزيرة العرب[١٧] من تقرير حقيقة لا جدال فيها، وهي أن لدى الساميين الأوائل والأواخر اقتناع تراثي يعود الى أزمنة سحيقة خلت، بأنهم ما داموا هم «**المختارين**»، كما سبق وذكرنا، فمن حقّهم أن يكونوا أولياء الأمر وأصحاب السلطان، على سائر الأمم والأعراق التي يعتبرها العرب العبرانيون من «**الغويم**» أي الأدنَوْن من البشر، ويعتبرها العرب الناطقون بالعربية من «**العجم**»[١٨]. فكما أن «الغويم»

---

(١٦) أُرجّح من خلال دراسة قمت بها حول «كتاب العبر» ومقدّمته الشهيرة، أن المؤرخ الفيلسوف عبد الرحمن بن خلدون الحضرمي اليمني الجذور كان يهودياً يتظاهر بالإسلام (...) وهو ما يفسّر الدسائس والمؤامرات التي تورط فيها وهو في المراتب السياسية والإدارية العليا في المغرب. ويذهب بعض المؤرّخين الى أنه مهّد لزوال بني الأحمر في غرناطة الأندلس منذ بداية القرن الخامس عشر الميلادي الذي سقطت غرناطة في أواخره سنة ١٤٩٢م. بيد الملوك الكاثوليك.

وقد اضطر ابن خلدون الذي افتضح أمره في المغرب أن يغادره الى مصر حيث توفي سنة ١٤٠٦م. على أن تتبعه زوجاته وأولاده مع خزائن كتبه وموجوداته النفيسة في وقت لاحق عن طريق البحر. ومن طوارق الحدثان أن السفينة التي كانت تنقل أهل بيته وأمواله الى مصر تعرّضت لعاصفة هوجاء وغرقت في اليمّ. فلما بلغه الخبر قال: **فقدت «المال والسعادة والبنين»، وهو دليل على كونه اختص المال بمنزلة متقدمة على الزوج والوُلد (...)**

(١٧) انظر كتاب **«التوراة جاءَت من جزيرة العرب»** للدكتور كمال الصليبي - مؤسسة الأبحاث العربية - (١٩٨٥)، وكذلك كتاب **«البحث عن يسوع»** للمؤلف نفسه - دار الشروق للنشر والتوزيع - (١٩٩٩).

(١٨) العجم خلاف العرب، والعجمي غير العربي من البشر (راجع لسان العرب - كلمة «عجم»)

محتقرون يُحكمون بالسيف عند العبرانيين، كذلك يَحلّ للعرب العاربين والمستعربين أن يتحكّموا بالأعاجم ويستبيحوا أعراضهم وأرزاقهم ودماءهم. وعبثاً حاول الإسلام أن يستأصل هذا الاستعلاء العائد الى الجذر السامي عند العرب العرباء التي لم تسلم جِناتها من طبائع الأعراب، فلم يفلح الى هذا اليوم.(١٩)

وأبادر الى القول أن هذه الكبرياء العريقة الراسخة في جِنات الساميين والتي يمكن تسميتها «**بالأرستوقراطية الساميّة**» قد حكمت عليهم جميعاً بآفة البطش والتجبّر والطغيان في مراحل قوتهم، على الغرباء وحتى على أبناء جلدتهم، كما حكمت عليهم بالمهانة والذلّ والاستخذاء عندما يضعفون! ولا غرابة أن تكون العرب العرباء قد ارتكبت في طفرة عزّها بعض التسلط والقهر والتنكيل بالأفراد والجماعات حتى في عقر دارها. ونعيد الى الذاكرة في هذا المجال ما فعلته في مدائن كسرى، وبلاد الروم والكرج والقوط، وشواهد العمران في الهند وفارس ومصر والشام، ولو

---

(١٩) في لسان العرب أن «الأعرابي هو بدوي صاحب نَجْعَةٍ وانتواءٍ وارتيادٍ للكلإ، ويجمع الأعرابي على الأعراب والأعاريب فمن نزل البادية هم الأعراب ومن نزل الريف واستوطن المدن هم العرب...»

ومعنى قولنا أعلاه أن العرب لم يسلموا من طبائع الأعراب، أي أنهم تأثروا ببعض خلائقهم كالتقلّب والكذب والتكسّب والرياء. وهنالك العديد من الآيات القرآنية التي تنهى عن سلوك مسلك الأعراب الذين وفدوا على الرسول في المدينة طمعاً بالصدقات لا رغبة في الإسلام، فقال تعالى في سورة التوبة: ﴿وجاء المعذّرونَ من الأعراب ليؤذَنَ لهم وقَعَدَ الذين كَذَبوا اللهَ ورسولَه...﴾ (٩٠) - ﴿الأعرابُ أشدُّ كفراً ونفاقاً وأجدَرُ ألّا يَعلموا حدودَ ما أنزلَ اللهُ على رسولِهِ...﴾ (٩٧). وفي سورة الحُجرات: ﴿قالتِ الأعرابُ آمَنّا قُلْ لم تُؤمنوا ولكن قولوا أسْلَمنا ولمّا يدخُلِ الإيمانُ في قلوبِكم...﴾ (١٤)

قدر أولئك الجبابرة «**لهدموا أهرام مصر ودمروا قسطنطينية**» على ما يقـول العلّامة ابن خلدون[٢٠]. وها هي العرب العرباء تنسحق اليوم انسحاق الذليل الضلّيل أمام القوة الجبّارة التي فاجأتها بالآلة العسكرية والثقافية والاقتصادية الآتية من الغرب الآري، وهي تتوالى على إذلالها وتدميرها واستغلالها منذ قرنين.

كذلك لا غرابة ان ترتكب الصهيونية التي تدعي العبرانية في عصرنا الحاضر، مآثم ومجازر واضطرابات وفتناً وفتوحات في ديار العرب المعاصرين، وقد نهض قومها من عثارهم بعدما ﴿**ضُرِبَتْ عليهم الذلَّةُ والمَسْكَنَةُ**﴾ كما جاء في القرآن (البقرة ٦١)، فإذا بالحركة الصهيونية تقود العالم أسوأ قيادة بالسيف والنار، لتعيد بناء هيكل سليمان القابع في رأي غلاة اليهود تحت المسجد الأقصا، متسلّحة بالآية القرآنية ﴿**سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام الى المسجد الأقصا الذي باركنا حوله...**﴾ (الإسراء: ١) وذلك استناداً الى ما تزعمه، من أن تلك الآية، باعتبارها الوحيدة التي جاءَت على ذكر المسجد الأقصا في القرآن، تدلّ على ان الله بارك هيكل سليمان وما حوله من أرض

---

(٢٠) لا بدّ من الإقرار بالعديد من تجاوزات العرب في غزواتهم وفتوحهم. ولكنه لا يجوز أن نذهب مذهب ابن خلدون وغيره من المؤرخين المتحزّبين ضدّهم والذين اتهموهم بإحراق مكتبة الإسكندرية وتدمير معالمها الحضارية، وهو أمر مشكوك فيه على أي حال. وإذا كان ابن خلدون قد أصاب في ذمّ الأعراب البدو وخلط مترجمو مقدمته الشهيرة «الكتاب العبر» خلطاً ربما كان مقصوداً بين الأعراب والعرب للإساءة الى هؤلاء، فلا يسع أي مفكر رصين أن يؤمن بكلّ ما ورد في تلك المقدمة من تحامل عليهم من مثل قوله أنهم يهدمون القصور ليتخذوا من حجارتها أثافي لمواقدهم!..

إسرائيل(!..) لأن المسجد الأقصا لم يكن موجوداً عند نزول الآية الكريمة قبل وفاة النبيّ سنة ٦٣٢م. فيما تبين أن الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك بن مروان (٧٠٥ - ٧١٥م.) هو الذي بناه بعد أكثر من سبعين سنة على تلك الوفاة!![٢١]

ومهما يكن من أمر، فقد هدفنا من خلال هذه اللمحات التمهيدية الى وضع القارئ في الخلفية التاريخية لنفسية الشعوب الساميّة المنتمية الى أرومة العَرَبَة والقواسم المشتركة فيما بينها، قبل أن ننتقل في الفصول اللّاحقة الى موضوعنا الذي يتعلق تخصيصاً بالنفس العربية العرباء العائدة الى القحطانية والعدنانية والتي استمرت الى هذا اليوم في عمق الخليط البشري الناطق باللغة العربية من المحيط الى الخليج، وقد عرّبه الإسلام تعريباً

---

(٢١) اختلفت آراء المفسّرين المسلمين في معنى الآية الأولى المشار اليها من سورة «الإسراء»، فقال بعضهم إنّ جبريل أسرى بالنبي من المسجد الحرام في مكة الى بيت المقدس، وأنّ عروج الرسول الى السموات كان عروجاً جسدياً، ورجّح هذا القول الفقيه الشافعي عبد الكريم القشيري في «التفسير الكبير» وغيره من شارحي القرآن. وقد كذّبت قريش هذه النظرية. لكن العديد من الشرّاح المتصوفين أمثال ابن عطاء، وابن زيد البسطامي، وأبي علي الدقّاق، وخصوصاً أبو نعيم الأسفرايني، رأوا بالاستناد الى أنَس وأبي سلمى وجابر وآخرين من الصحابة، أن عروج النبيّ ومشاهدته الأنبياء والمرسلين والعزّة الإلهية، إنما كان عروجاً روحياً، وأن للآية معنى رمزياً. ذلك أن الإسراء في رأي هؤلاء لم ينطلق من المسجد الحرام في مكة بالذات، بل من الحطيم أو الحُجر أو أماكن أخرى، كما أنّ المسجد الأقصا هو غير الحرم القدسي، حيث أن الآية لم تحدّد كون المسجد المشار اليه هو في بيت المقدس بالذات، لا سيّما وأنّ إسم «بيت المقدس» لم يذكر تحديداً في أي نصّ قرآني على الإطلاق.

ولذلك نميل الى الأخذ بتفسير الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي الذي يقول في شرح القرآن (ص ٧٠٥ و ٧٠٦) إنّ المسجد الحرام يرمز في الآية الى «مقام القلب المحرَّم عن أن يطوف به مُشرك القوى البدنية ويرتكب فيه فواحشها وخطاياها...» وأنّ المسجد الأقصا يرمز الى «مقام الروح الأبعد من العالم الجسماني بشهود تجلّيات الذات وسُبُحاتِ الوجه...»

ثقافياً وروحياً كاملاً، لكنه تأثر في الوقت نفسه بما حمله اليه المسلمون الفاتحون الأوائل من خصائص الجاهلية التي لم يستأصلها الإسلام كلياً من نفوسهم، فبقيت وستبقى الى الأبد سمات بادية في حياة هذا الخليط ودخيلة وجدانه.

ونحرص هنا على التأكيد أن العديد من هذه الخصائص ينطبق أيضاً على نفسية الساميين البوائد القدامى، وأنصاف الساميين البواقي من العبرانيين الذين سلموا من الآرية والأشكنازية، بمقادير معينة وطبقاً لظروف موضوعية معروفة.

- ٢ -

الإنسان العربي وهواتف الصحراء..

تبيّن ممّا تقدم أن معظم الشعوب الساميّة القديمة نزحت من الجزيرة العربية الى مواطن قريبة أو بعيدة في ظروف إحتقانية ضاغطة معظمها لا يزال تاريخه خافياً على الباحثين، وذلك باستثناء العرب العرباء من القحطانية والعدنانية التي يهدف هذا الكتاب الى كشف خصائصها النفسية، وهي لم تبرح أرض الجزيرة وقد أدركها الإسلام جميعاً وتوحدت في ظلّه قبل أن تنطلق به الى أنحاء العالم القديم.

وكانت جزيرة العرب قبل الإسلام، منذ بدء التاريخ المدوّن الذي يذكر القليل القليل من أخبار الحضارات النازحة عنها الى مصر والشام والعراق، وحتى ظهور الدعوة المحمّدية في القرن السابع الميلادي، تتألف من أهل الوَبَر الذين يسكنون البوادي ويتنقّلون في منادحها توخياً للماء والكَلأ، وهم «**الأعراب**» أي البدو الرحّل من أصحاب المواشي... وأهل المَدَر أو الحَضَر الذين يسكنون المدن العامرة والأرياف المحروثة، بعيداً عن

المناطق الصحراوية القاحلة، وهم «**العرب**» الثابتون في أرضهم والمتفاعلون مع الشعوب الأخرى من الأمم المجاورة.

وقد فرض هذا التفاعل، خصوصاً في التجارة والمصالح الأخرى، موقع الجزيرة بين القارتين الأسيوية والأفريقية أول الأمر، ثمّ اتسع ذلك التفاعل تدريجياً باتجاه فارس والهند والأمبراطورية البيزنطية في آسيا الصغرى وبلاد اليونان والرومان، وأخيراً باتجاه القبائل الهمجيّة (Les Barbares) التي ما لبثت أن اندمجت في الحضارة الأوروبية.

ولا شكّ في أنّ أصول «العرب» تعود في معظمها الى «الأعراب» الذين تضيق بهم سبل العيش في الصحراء فيدخلون المدن والأرياف ويستمرئون في حياتها المستقرة بعض الرخاء، ثم يندمجون بمرور الزمن في مجتمعاتها الطامعة بخدماتهم وأداء سواعدهم في الحرب والسلم، ويصبحون عنصراً أساسياً في تكوينها، كما يحدثون معها تطويراً للّغة والعادات والتقاليد ويمدّونها بالمعارف الحدسيّة عندما تعجز علوم أهلها النظرية والتطبيقية المكتسبة عن حسم شكوكهم باليقين.

الله والأديان والعبادات المتوحشة!

وعلى أنّ فكرة «الله» الخالق غير المنظور التي ابتكرها الساميّون الأوائل في الجاهلية القديمة، كما سبق وذكرنا، كانت

ثابتة في دخيلة العرب وحتى الأعراب منهم، إلّا أنّها كانت تخضع للتجسيد البدائي في الجزيرة العربية، وتتمثل بالعبادات الوثنية للأصنام والكواكب والجوارح والضواري والأشجار الدهرية والصخور والأدوات الجسدية التي تكمن فيها اللّذة الجنسية والتناسل كالفرج والقضيب الخ... وحتى اليهودية والنصرانية اللّتان انتشرتا في العَرَبَة أيّما انتشار، كان لا بدّ لهما أن تتعايشا مع تلك العبادات التقليدية قبل أن يقضي عليها الإسلام الذي ضمّ **«أهل الكتاب»** تحت خيمته.

وقد تجاوب الإسلام كلّ التجاوب مع المعتقدات الأصلية في اليهودية حيث أقرّ بنبوءة موسى وأسبقيته، في كونه أول من كلّم الله، ونبوءة فريقٍ لا يستهان به من أنبياء العبرانيين وملوك إسرائيل، وحرّم أكل الخنزير والميتة والدم المحظورة هي أيضاً في التوراة... كما تجاوب على صعيد آخر مع المعتقدات المسيحية الأساسية، فأقرّ **بفوقية عيسى** في قوله إنّه من روح الله، تنزيها لله عن أبوّة امرئ يجري عليه ما يجري على سائر الخلق من سنّة الحياة والموت، وتصديقاً في الوقت نفسه لكون عيسى أقرب الأنبياء والمرسلين الى الله لأنه **«من روحه»**، ثمّ تمييزاً له عن سائر أنبياء الله بمن فيهم رسوله محمد الذي هو ﴿...بشرٌ مثلكم﴾.(٢٢) كذلك حرص الإسلام على تكريم **مريم البتول** وأقرّ بكونها حبلت

---

(٢٢) في القرآن آيات عدّة تؤكد أن المسيح من روح الله، كقوله ﴿ومريمَ ابنةَ عِمرانَ التي أحْصَنَتْ فرجَها فنفَخْنا فيه روحِنا...﴾ (سورة التحريم - ١٢) أو قوله ﴿والتي أحْصَنَتْ فرجَها فنفَخْنا فيها من روحِنا وجعلناها وابنَها آيةً للعالمين﴾ (سورة الأنبياء - ٩١) ثم قوله أيضاً ﴿إنما المسيح عيسى بن مريمَ رسولُ الله وكلمتُهُ ألقاها الى مريمَ وروحٌ منهُ﴾ (سورة النساء - ١٧١).=

بلا دنس، وأن عيسى لم يقتل ولم يصلب بل «**رفعه الله اليه**»،[(٢٣)] وهو ما يؤمن به النصارى الذين يحتفلون «**بصعود المسيح**» الى جنة الله بجسده وروحه.

وقد استطاع الإسلام أن يمنع ما توارثه العرب في الجزيرة عن الأمم السامية الأولى من عادات متوحشة لا يقبلها منطق الحضارة، أمثال قتل الأسير وتضحيته لأحد الأصنام، على غرار ما فعله المنذر ابن ماء السماء ملك الحيرة بأحد أبناء ملك الغساسنة وكان أسيره، فقتله مع ٤٠٠ من الراهبات المتنسّكات في بعض أديار العراق، وضحّى بهم لكوكب الزهرة الذي كان يعبده والذي عرف عند العرب في الجاهلية بصنم «**العُزّى**»، على ما رواه الأب لويس شيخو اليسوعي نقلاً عن المؤرخ پروكوپيوس اليوناني.

ويشبه ذلك ما رواه صاحب «الأغاني» من أن الحارث بن أبي شمَّر الغسّاني طوق حصن تيماء وطلب من صاحبه السموأل بن عادياء أن يسلّمه دروعاً ثمينة ائتمنه عليها امرؤ القيس يوم توجه الى

= ويؤكد القرآن على صعيد آخر ان النبيّ محمداً هو بشر موحى اليه، وذلك في الآية ﴿قُل إنَّما أنا بشرٌ مثلُكُم يوحى اليَّ إنّما إلَهُكُم إلَهٌ واحد﴾ (سورة الكهف - ١١٠) وفي الآية ﴿قُلْ إنَّما أنا بشرٌ مثلُكُم يوحى اليَّ إنّما إلَهُكُم إلَهٌ واحدٌ فاستقيموا اليه واستغفروه وويل للمشركين﴾ (سورة فُصلت - ٦) وكذلك في آيات أخرى لا مجال الى تعدادها.

(٢٣) كما في الآيتين الكريمتين من سورة «النساء»: ﴿وقولِهم إنّا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسولَ الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شُبِّهَ لهُم وإنَّ الذين اختلفوا فيه لَفي شكٍ منهُ ما لهم به من علم إلّا اتّباعَ الظنِّ وما قتلوه يقيناً﴾ (١٥٧) ﴿بل رَفَعَهُ اللهُ إليهِ وكانَ اللهُ عزيزاً حكيماً﴾ (١٥٨).

القسطنطينية مستنصراً قيصر على بني أسد قتلة أبيه، فرفض السموأل تسليمها اليه. وقد أسر الحارث أحد أولاد السموأل الذي صدف وجوده في الصيد خارج الحصن، وخيّر الوالد بين التخلّي عن الدروع أو قتل ابنه الأسير، ولكن السموأل أصرّ على الرفض فضرب الحارث الفتى بالسيف وشطره نصفين!.

وقد فعلت الطبيعة الصحراوية فعلها في جعل أولئك الجاهليين قساة القلوب يتصرّفون بمنتهى الوحشية والعنف، ممّا لم يبلغ الى مثله أي من الشعوب البدوية الأخرى، ولا سيما الشعوب المحاربة التي ألزمتها مواقعها على مفترقات جغرافية استراتيجية حسّاسة وخطرة بالبسالة والمضاء، أو دفعت بها المطامع وصعوبة الارتزاق الى أوسع الفتوحات.(٢٤)

ولكن بعض أهل المَدَر والحَضَر من العرب كان على قدر من

---

(٢٤) يذكر الباحث الكبير لويس شيخو اليسوعي في كتابه «النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية»، ظواهر متعدّدة للتقاليد والأعراف المتوحشة المتصلة بوثنية القبائل والممالك العربية قبل الإسلام، وينسبها الى عدد من المؤرخين اليونان والعرب القدماء. ويركّز خصوصاً على الأضاحي البشرية التي كان بعضهم يقدّمها للعُزّى واللّاتِ ومَناة وغيرها من أصنامهم. وفي عداد ما يرويه نقلاً عن العلّامة نيلوس الذي يعتبر قديساً في الكنيسة الأرثوذكسية، وكان من أشراف قسطنطينية، أن عرب البادية قبضوا على ابنه تاودولس نحو السنة ٤١٠م. بالقرب من جبل الطور في سيناء، وقرّروا تضحيته للعُزّى (الزهرة) كوكب الصبح الذي يعبدون.

ويقول الابن في رواية نيلوس أن البدو الغزاة أقاموا لذلك مذبحاً في العراء وهيّأوا السيف والأقداح لشرب دمه كما أعدّوا البخور للوليمة الرهيبة، ثم انصرفوا الى الأكل والشرب والقصف طيلة الليل، حتى غلب عليهم النوم وطال الى ما بعد شروق الشمس، ففات الوقت المخصّص للذبيحة عند ظهور نجمة الصبح مع الفجر، الأمر الذي دفعهم الى التشاؤم وخافوا غضب العُزّى، فحملوا الغلام الى قرية قريبة حيث اشتراه رجل فاضل دفع لهم فدية ثم أعاده الى أبيه (...)

التمدّن والرقي أدهش المستشرقين والمؤرّخين القدامى والمعاصرين. فيبدي الشهرستاني في «الملل والنحل» مثلاً إعجابه بقريش ووُلد معَدّ بن عدنان، ويقول أنهم كانوا «يحجون البيت ويقسمون المناسك ويقرون الضيف ويعظّمون الأشهر الحُرُم وينكرون الفواحش والتقاطع والتظالم ويعاقبون على الجرائم.»

ويمضي الشهرستاني قائلاً: «بعد أن وليت خزاعة حجابة البيت وطردت منه جُرْهُمَ خرج عمرو بن لُحَيّ الى أرض الشام، وبها العمالقة يعبدون الأصنام، فقال لهم: ما هذه الأوثان التي أراكم تعبدون؟ قالوا: هذه أصنام نستنصرها فنُنصَر ونستسقي بها فَنُسْقى. فقال: ألا تعطوني منها صنماً أسير به الى أرض العرب عند (بيت الله) الذي تفد اليه العرب. فأعطوه صنماً يقال له هُبَل، فقدم به مكّة فوضعه عند الكعبة، فكان أول صنم وضع بمكة، ثم وضعوا غيره من الأصنام (...) فكانت العرب إذا حجّت البيت سألت قريشاً وخزاعة عنها فيقولون: **(نعبدها لتقرّبنا الى الله زُلْفى)**...»

وهكذا يتضح ان الأوثان لم تكن أكثر من تشخيص حسي للخالق الأعظم، ويذهب فريق من الباحثين الى انها لم تكن تُعبد عبادةً خالصة بل تُكرم إكرام الزُلْفى إرضاء لله. وهو ما انتقل بالفعل الى التعامل مع الأيقونات والتماثيل في المسيحية، وأثار حروباً دامت مئات السنين في قلب الأمبراطورية البيزنطية قبل ظهور الإسلام وبعده.

إلّا أن الكثيرين من العرب حتى في المجتمع البدوي البدائي كانوا يستهترون بالأنصاب ويسخرون من عبادتها، ومن مثل ذلك قول احد الشعراء في صنم لبني كنانة يقال له سعد:

أَتَينا الى سَعدٍ ليَجمَعَ شَملَنا فشتَّتنا سعدٌ فلا نحنُ من سَعدِ
وهل سعدُ إلّا صخرةٌ بتَنوفَةٍ من الأرضِ لا تَدعو لغيٍّ ولا رُشدِ؟!

وممّا تناقله الرواة أنه كان لبني سُلَيْم صنم يعبدونه، أقاموا له سادناً يدعى غاوي، فصدف أن مرّ بذلك النصب ثعلبان ورآهما غاوي يبولان عليه فقال:

أَرَبٌّ يبولُ الثعلبانِ برأْسِهِ لقد ذلَّ مَن بالتْ عليه الثعالبُ

وقد صدم الرجل لتلك الحادثة فهرب الى الرسول وأسلم وسمّاه النبي راشد بن عبد ربّه...

في أخلاق العرب القدامى وعمرانهم

وفي مقابل تلك الصورة الهمجية التي اتسمت بها الشخصية العربية في الجاهلية، وأساليب العبادة التي كثيراً ما كانت تراق امام أنصابها الدماء البريئة، درج الحكماء والشعراء وسادات العرب وقادتهم على تظهير فضائلهم وشمائلهم والمفاخرة بأمجادهم ومكارم أخلاقهم،(٢٥) وضرب المثل بالمعالم

(٢٥) روى ابن عبد ربّه في «العقد الفريد» عن ابن القَطامي عن الكلبي، أن النعمان بن المنذر قدم على كسرى، وعنده وفود الروم والهند والصين، فافتخر النعمان بالعرب، فلامه كسرى على=

الحضارية وشواهد العمران في جزيرة العرب قبل الإسلام، وخصوصاً في اليمن والحجاز.(٢٦)

ومهما يكن من أمر، وأيّاً كانت محصلة البحث المتعلق بالحضارات القديمة التي عرفتها العرب العرباء في قلب الجزيرة، عبر التاريخ المدوّن أو حتى التي حملها معهم قدماء الساميين الى جهات المعمور مما سبقت الإشارة اليه، **فإنّ الصفة الأساسية للإنسان العربي تظلّ تكمن في كونه إنسان الصحراء.**

= ذلك وفضّل الأمم الأخرى عليهم. قال النعمان: إنّ عندي جواباً في كلّ ما نطق به الملك، فإن أمّنني من غضبه نطقت به. قال كسرى: قلْ فأنت آمن. قال النعمان (ونوجز قوله بالآتي):

«حصون العرب ظهور خيلهم ومهادهم الأرض وسقوفهم السماء وحِليتهم السيوف وعُدَّتهم الصبر، ويفتخرون بحسن الوجوه على الهند المنحرفة والصين المنحّفة والترك المشوّهة والروم المقشّرة، وليس أحد من العرب إلّا يسمّي آباءه أباً فأباً، فلا ينتسب رجل الى غير نسبه ولا يدّعي الى غير أبيه، وإذا طرقه الطارق الذي يكتفي بالفِلْذة عقر له فرسه أو ناقته ليَقربه وهمه أن يخرج من الدنيا بحسن الأحدوثة وطيب الذكر. والله أعطاهم رونق الكلام والشعر الموزون المقفّى مع المعرفة بالإشارة والتحدث بالأمثال. ثم إن خيلهم أفضل الخيل، ونساءهم اعفّ النساء، ولباسهم أفضل اللباس، ومعادنهم الذهب والفضة، وحجارة جبالهم الجَزْع، ومطاياهم سفن هي النوق التي لا يقطع بمثلها بلد قفر، ولهم أشهرٌ حُرُمٌ وبيت محجوج يلقى فيه الرجل قاتل أبيه وهو قادر على أخذ ثأره فلا يتناوله بأذى، ويجيرون من استجارهم فتكون أنفسهم دون نفسه وأموالهم دون ماله، الخ...»

(٢٦) كثرت في جزيرة العرب قبل الإسلام دور العبادة والحُرُمُ التي كانت القبائل تقصدها في المواسم وأشهرها بيت الله الحرام والكعبة المشرّفة في مكّة. **ويذكر منها العلّامة الباحث عرفان محمّد حمور في كتابه «قواعد الأمن في مجتمعات العرب القديمة»**، بيت الأُقَيْصِر في مشارف الشام الذي تحجّ اليه قضاعة ولخم وجُذام وعاملة وغطفان. وبيت رِئام في صنعاء اليمن، وبيت ذي الخُلَصَة أو الكعبة اليمانية، وقصر سِنداد الذي يسمّى أيضاً ذو الكعبات في الحيرة وتحجّ اليه ربيعة وإياد، وبيت اللّات بالطائف الذي أقامته ثقيف وكانت له كسوة وسدنة. (للباحث عرفان حمور مؤلفات عدّة مختصّة بالمجتمع العربي في الجاهلية أهمها: «سوق عكاظ ومواسم الحجّ»، و «المواسم وحساب الزمن عند العرب قبل الإسلام»،=

ولا شك في أنّ أقاليم العَرَبَة ومحيطها الأقرب خصوصاً في الشام والعراق واليمن قد تعرّضت لتبدّلات كبرى جيولوجية ومناخية وبشرية استثنائية أثرت تأثيراً مباشراً في حياة الأفراد والجماعات، لكنها لم تكن انقلابات وجودية جذرية في طبيعة الصحراء قادرة على تحويلها الى مناطق مروية بالمزن تنتشر فيها المراعي، أو تنبت فيها الغابات والأدغال، وتتفجّر في أنحائها الينابيع.

فقد ذكر اليعقوبي والمسعودي وغيرهما من المؤرخين ان بادية الشام كانت حتى القرن العاشر الميلادي أرضاً زراعية

= و«مواسم العرب الكبرى» في جزئين.)

ومن أشهر المباني التي ذكرها المؤرخون، وقد خربت ودرست معالمها، قصر غُمْدان للملوك الحميريين وقصر رَيْدان لملوك سبأ في اليمن، وقصرا الخَوَرْنق والسدير لملوك المناذرة اللّخميين في الحيرة، وحصن السموأل الأبلق في تَيْماء، وقبة نجران التي قيل إنها كانت تظلّل أكثر من ألف رجل تضيفهم وتجيرهم، وتسميها العرب كعبة نجران التي يحجون اليها .

وكانت في اليمن حضارة زراعية مزدهرة حول سدّ مأرِب الشهير الذي بناه عبد شمس بن يشجب بن يعرب بن قحطان الملقّب بسبأ لفرط ما كان يغزو ويسبي وذلك في الألف الثالث قبل الميلاد. ويقول اليعقوبي والأصفهاني وابن خلدون أنه جعل السدّ بين جبلين وحبس فيه مياه سبعين وادياً تاركاً فيه من الخروق ما يوفر الماء لسقاية الأراضي الزراعية المحيطة. وقد أحدثت فيه الزلازل شقوقاً زعزعته فانهار في القرن الثاني للميلاد، وسمّي فيضانه بسيل العرم، الأمر الذي أدى الى نزوح عدد كبير من القبائل القحطانية باتجاه الحجاز ونجد والشام والعراق.

ولعل من الآثار المدهشة في هندسة المباني اليمنية، تلك التي نراها في المُكلّا وميناء الشَحر على المحيط الهندي، وفي وادي العين ومدن حضرموت الثلاث الخارقة شِبام وسيؤن وتَريم، وفيها ناطحات سحاب بنيت بالطين والطوب ترتفع الى عشر طبقات ويعود تاريخها الى الألف الثاني قبل الميلاد .وقد ضمت منظمة الأونسكو مدينة شبام التي تلقب «مانهاتن الصحراء» سنة ١٩٨٤م. الى لائحة التراث الإنساني العالمي. ومن المؤسف أن يكون العديد من المعالم الأثرية في تلك المدن اليمنية قد خرب بسبب الفيضانات التي ضربت وادي حضرموت سنة ١٩٩٠م.

مأهولة، وقال بعضهم ان الخلفاء الأمويين والعباسيين كانوا ينتقلون من دمشق الى بغداد طرداً وعكساً في طريق يظلّلها الشجر النامي على جانبيها. كذلك لا شك في ان جنوب العراق عرف نمواً زراعياً كبيراً في زمن مملكة الحيرة، وأن اليمن فقد الكثير من ازدهاره وثروته الزراعية بعد سيل العَرِمْ وتفرق القبائل القحطانية أيدي سبأ. ويذهب الكثيرون من الباحثين الى أن تغيّرات مناخية عديدة طرأت على بحر القُلْزُم (أي البحر الأحمر) وبحر الفرس (أي الخليج العربي-الفارسي) بحيث تحوّلت شطئان الحجاز من خليج العقبة الى تهامة وعسير مناطق خضراء، وكذلك شطئان الخليج من البحرين الى مضيق هرمز. ويرى بعض علماء التوراة الواغلين في رموزها أن معجزة موسى يوم شق البرزخ في بحر القلزم فعبر عليه بنو إسرائيل وأطبق البحر بعد عبورهم على جيوش فرعون، **إنما هي حادثة جيولوجية زلزالية قوية تراجع معها البحر** عن اليابسة مسافة عبر خلالها أصحاب موسى، ثم عادِ المدّ بأمواج عاتية، كما يحصل عادة في الزلازل الكبرى، فابتلع كتائب فرعون.

كل ذلك وغيره من الأحداث يمكن ان يكون طرأ على العَرَبَة ومحيطها في خمسة آلاف سنة من تاريخها، لكنه لم يستأصل هويتها الصحراوية الأساسية التي طبعت إنسانها وميّزته بخصائص تختلف اختلافاً جذرياً عن خصائص أي إنسان آخر. وإذا كانت لأهل البادية من الأعراب والأنباط(٢٧) صفات وهنات يشاركهم

---

(٢٧) الأنباط قبائل بدوية عربية كانت منتشرة جنوبي فلسطين وبلاد الشام قروناً قبل الميلاد، وقد أسسوا دولة تشهد بعظمتها عاصمتها سَلْع في وادي الأردن المعروفة بالبتراء (Petra)، وتدل=

فيها أهل البوادي من الشعوب الصحراوية الأخرى كالطورق مثلاً أو غيرهم من قبائل الصحراء الإفريقية الكبرى، فقد انفرد أولئك الأعراب بسمات وطبائع خاصة مكتسبة من حياتهم في الجزيرة العربية تحديداً.

المطلوب هي السعة وليس الحدّ!

وقد يكون أول الطباع الموروثة من عهد البداوة في الصحراء ما أسمّيه «**الخوف من الحدّ**». فالعربي أمس واليوم، وحتى نهاية الزمن، كائن لا يؤمن بالحدود أياً كان حجمها ومداها! فقد عاش مئات الألوف من السنين في أرض لا يحدّها شيء. أولها رمال وآخرها المحسوس رمال. ليس فيها من النبات ما ينمو في الربيع ويذبل في الخريف بحيث يعلّمه الحدود المتناوبة دورياً في الطبيعة. ولا جبل أو هضبة تقطع رتابة اللّامحدود أمام عينيه. ولا نهر يعترض فرسه أو ناقته فتقف حائرة أمامه، ولا أُخدوداً صخرياً يضطره الى التبصّر في كيفية اجتيازه. وهو لا يقيس الزمن بالدقائق والثواني والساعات، **بل يلحظه «بالمدّة»**، ولا يعني له التقويم الزمني شيئاً اللّهم إلّا ما يحتسبه له المسنّون في قبيلته من حلول الشهر الحرام أو الموسم التجاري في أماكن دائمة عند تخوم البادية.

= على حضارة هلّنستية رفيعة. وقد صمدوا بوجه أنتيغونس السلوقي وهزموه سنة ٣١٢ قبل الميلاد، لكن الأمبراطور الروماني ترايانُس قضى عليهم واستأصل شأفتهم سنة ٣٠٦م.

لذلك هو **لا يعرف بأي أرض يموت**، كما نوّه بذلك القرآن،[٢٨] ولا يهمه ذلك إطلاقاً، وكلّ ما يهمه سعة المكان الذي يعيش فيه أو يموت فيه فلا يضيّق عليه أحد، وخير تعبير عن ذلك التفلّت من الحدّ قول مالك بن الريب التميمي في قصيدة شهيرة يرثي بها نفسه مخاطباً رفيقيه وهو يُحتضر:[٢٩]

ولا تحسُداني، بارَكَ اللهُ فيكُما من الأرضِ ذاتِ العَرضِ، أَنْ توسِعا لِيا

والبدوي الكامن في عمق الإنسان العربي، **ينفر من الأنظمة المحدّدة والقيود المفروضة** بفعل رفضه لكلّ حدود، وهو يطلق العنان للسجية في حياته اليومية، **ويبرم بالدوام**، دوام العمل الذي يحدث الملل، ودوام الولاء الذي ينتقص المضاء، ويكاد يحنّ الى الشظف كلّما غصّ بالترف، ويصبو الى ساعة الهجر في زمن الوصال.

ثمّ إنّ الحدّ في نظره يعني الفصل والقطع والعزل فوق ما يعنيه من تصحيح الموقف وترتيب الموقع، **وبمقدار ما يخاف حدّ السيف نراه يركن اليه** في إسداء البيّنة وإقامة البرهان. . . كذلك بمقدار ما يرهب **حدّ السلطة وحدّ الله**، فإنّه يمنّي النفس دائماً بتجاوز السلطان والرحمن لإرهاب غيره.

---

(٢٨) ﴿وما تدري نفس بأي أرضٍ تموت﴾ (سورة لقمان - ٣٤)

(٢٩) كان مالك بن الريب التميمي النهشلي قد دخل الإسلام ونهض للجهاد في عهد عثمان بن عفّان، فأصيب في إحدى المعارك إصابة قاتلة ونطق خلال احتضاره بالقصيدة التي مطلعها:

الا ليتَ شعري هل أَبيتَنَّ ليلةً بوادي الغَضا أُزجي القِلاصَ النَواجِيا

فليتَ الغَضا لم يقطعِ الركبُ متنَهُ وليتَ الغَضا ماشى الرِكابَ لياليا

وهي من أكثر قصائد الشعر العربي تعبيراً عن خلائق النفس البدوية.

وانطلاقاً من هذه العلّة الجذرية العائدة الى النفس البدوية لم تعرف أي دولة عربية في التاريخ، ولم تعترف إطلاقاً، **بأية حدود سياسية أو جغرافية أو إقليمية**. فالدنيا مشاع وحدّ التوسع والانتشار ما تصل اليه سنابك الخيل. أمّا التخطيط البعيد والبرمجة الصارمة فهما ضربان من ضروب الافتراء على أحكام القدر. لأن كلّ يوم كفيل بما يعتريه وما يحدث فيه. والواقع أنّ للخُطّة والخُطَطُ معنى قاموسياً يراوح بين الحدود وترسيمها والأماكن وتعيينها والأحياء والطرق وتوصيفها، لكنه لا يدلّ في أيّ من جوانبه على منهاج ثابت يوضع للتنفيذ في مرحلة أو مراحل زمنية معينة.

قلق دائم إزاء «المجهول»!

وممّا ترتب على «الخوف من الحدّ» في الطباع الأساسية قلق دائم من عناصر الطبيعة والمجهول الكامن في البحار والمناطق الجبلية والمفازات والمسافات البعيدة. فقد تعوّد البدوي الأرض المنبسطة البطحاء ورضي بالدقعاء من التراب دون المشارف المرتفعة، حتى أن بشر بن عوانة الشخصية الأسطورية الخيالية في مقامات بديع الزمان هاله أن يجفل جواده عندما تصدى له الأسد فخاطبه بقوله:

أَعِــزْ قَــدَمــيَّ ظَـهــرَ الأرضِ إنّــي   رأيت الأرضَ أثبَتَ منـكَ ظَـهـرا[٣٠]

ولاحظ ابن خلدون في مقدّمته أن العرب كانوا في حروبهم **يبلون البلاء الحسن في السهول، ويتراجعون امام الجبال** الوعرة والقمم الفارعة ذات الشناخيب والمهاوي السحيقة والعقاب الكأداء، دون إيضاح السبب الحقيقي لذلك، وهو ما أشرنا اليه من ترددهم امام المجهول وارتيابهم في أن يكون «**وراء الأكمة ما وراءها**» على ما يقول بعض الكتّاب في التعبير عن غموض الأحداث المتوقعة والتباس معترضاتها الممكنة.

والشاهد على ذلك ان الفتح العربي الذي امتدّ من نهر جيحون (Amou-Daria) على بحيرة آرال في أواسط آسيا الى أغادير على الأطلسي في أقاصي المغرب، لم يرقَ الى جبال لبنان، بالرغم من الغزوات التي كان الجراجم والمردة النصارى يشنونها على القوافل العربية في مفازات سهل البقاع من مواقعهم في أعالي الجبال، حتى أيام المعتصم العباسي الذي حمل عليهم بجيش من المرتزقة الأتراك والخزر فأخضعهم الى حين. ولم تتمكن القبائل العربية من دخول الجبل اللبناني إلّا ابتداء من القرن الثاني عشر الميلادي (السادس للهجرة) بعد انتصارات صلاح الدين الأيوبي على الصليبيين وطردهم من الإمارات الساحلية

---

(٣٠) ورد هذا البيت على لسان الصعلوك الخيالي بشر بن عوانة العَبْدي في «المقامة البشرية» لبديع الزمان الهمذاني، وهو من قصيدة شهيرة يصف بشر فيها لقاءه الأسد، مطلعها:

أفـاطِمَ لـو شـهـدتِ ببطـنِ خبـتٍ   وقـد لاقـى الـهـزبـرُ أخـاكِ بـشـرَا
إذاً لـرأيـتِ لَـيـثـاً أمَّ لَـيـثـاً   هـزبـراً أغـلـبـاً لاقـى هِـزَبـرا

والداخلية، وكان اول العرب اللّاجئين الى الجبل من الشيعة العلوية والدروز وغساسنة حوران والبلقاء النصارى، وذلك بعدما استتاب صلاح الدين اهل البلاد السورية الى المذهب الحنفي السنّي، وكان قد حوّل مصر الفاطمية الشيعية الى السنّة هي أيضاً.

ويجدر التنويه في هذا المجال بان دخول العنصر العربي جبال لبنان كان دخول اللّاجئ المضطهد وليس الفاتح الطامع، وهو ما حصل تماماً بالنسبة لجبال اليمن المنيعة التي استوطنها العرب قبل ظهور الإسلام بقرون، فدخلوها لاجئين من تنكيل فرعون والبابليين والفرس وغيرهم ممّن كانت امبراطورياتهم تتمدّد في مراحل تاريخية مؤاتية نحو خليج عدن عبر باب المندب، ونحو شواطئ حضرموت وسهول عُمان عبر مضيق هرمز.

أمّا المسافات البعيدة فقد كان البدوي، والعربي لاحقاً، يتوجس من فجاءاتها ويفرق من تصوّر معاناتها، فيكتفي بحوضه المتواضع ومضربه الواهي في الصحراء، متنقلاً على قدميه أو بواسطة خيله للوصول الى غدير ماء أو سيل شحيح يجد فيه الريّ الذي يشفي غليله وغليل مواشيه من الضان والماعز والدواجن، وكذلك النجعة الخضراء اليانعة التي يكابد الأمرّين لانتزاعها من الضريب وحمايتها من وطء الغريب. ويعود «قِصَر النَفَس» الذي تأخذه الأمم الأخرى على العرب، الى هذه المرحلة السابقة لترويض الجمل في القرن الحادي عشر قبل الميلاد، حيث تعلموا العدو ليردفوا خيلاً قصيرة النَفَس هي أيضاً سرعان ما ينهكها المجال الطويل. ويمكن القول أن قدامى البدو أصبحوا عدّائين

بإلحاح الضرورة قبل أن يحظوا «**بسفينة الصحراء**»[٣١] ويتركوا مأثـرة العدو السريع لبعض المشاهير من صعاليكهم.

..والمجهول الأكبر!..

ولعل أعمق المواريث البدوية تأثيراً في النفس العربية الى يومنا هذا، هو **الخوف من «البحر العجّاج، المتلاطم بالأمواج، الواسع الفجاج، الداخل اليه مفقود والخارج منه مولود»**.[٣٢] فرغم أن العَرَبَة شبه جزيرة يطوّقها البحر من جهات ثلاث، ورغم أن المدن التي استوطنها أهل الحَضَر يقع معظمها على شاطئ البحر، وكان البحر مورد رزقهم وباب تجارتهم مع الأمم الأخرى، وقاعدة اتصالهم بالشعوب ذات الحضارات العريقة، فقد ظلّ هو «**المجهول الأكبر**» الذي يملأ قلوب العرب، وخصوصاً أهل الوَبَر منهم، رهبة وتساؤلاً واحتساباً. إنه القاع السحيق والمدى غير المنظور الذي يحتوي عجائب المخلوقات، وعصائب الجنّ والعفاريت، وملاعب الريح السافية والكنوز الخافية، بل إنه وكر العواصف وكهف الأعاصير، يتردّد في أبعاده صفير العرائس ورفيف الأرواح والأشباح، كما يتمادى هدير

---

(٣١) لقب الجمل «سفينة الصحراء» تمخر عُباب الرمال وأحقافها، وهو يصمد أمام العطش أياماً بما حبته الطبيعة من قدرة على تخزين الماء في وعاء جسدي خاص يتعلّل بجرعات منه في المسار المضني بحيث يقوى على اجتياز المسافات وتحمّل الحرّ دونما إرهاق.

(٣٢) من أوصاف البحر على لسان السندباد البحري في كتاب «ألف ليلة وليلة».

العمالقة وعربدة المجانين وقهقهة الشياطين! حتى قال شاعرهم:
«المرءُ طينٌ- والبحرُ ماءٌ- والطينُ في الماءِ ذائِبْ!!..»

ولقد وجد قادة الجيش في زمن معاوية بن أبي سفيان الذي بنى أسطولاً هائلاً من السفن لغزو الروم في ديارهم... وجد هؤلاء القادة، وفي طليعتهم أبو أيوب الأنصاري وفضلة بن عبيد الأنصاري ويزيد بن معاوية، صعوبة قصوى في إقناع الجند من العرب والأعراب بركوب البحر، تفوق ألف مرّة صعوبة حثهم على خوض القتال، كما يقول البلاذري في «فتوح البلدان». ويرى المؤرخ الكبير أسد رستم أن ذلك العائق المعنوي أدى الى هزيمة الجيش العربي خلال أربع حملات متوالية بين عامي ٦٧٣ و ٦٧٨م. وعجزه عن فتح عاصمة الروم، فقتل البطل المقدام أبو أيوب الأنصاري ودفن خارج أسوار قسطنطينية.(٣٣)

ويذهب بعض المؤرخين الى أن الكونت يوليان حاكم سبته كان حاقداً على آخر ملوك القوط في اسبانيا الذي يسمّونه «لذريق» أي (Rodrigue)، فأغرى موسى بن نصير بفتح الأندلس. وقد تردّد موسى طويلاً في تصديق يوليان، خوف أن يكون في الأمر مكيدة، لاسيما وأن العرب الذين يتألف منهم جيشه كانوا «يرهبون البحر». وقد تمكن بعد لأي أن يجمع فريقاً منهم لا يتجاوز بضع مئات بقيادة طريف بن مالك أبحروا الى اسبانيا على سفن يملكها يوليان سنة ٧١٠م. (٩١هـ) وعادوا منها بغنائم وافرة حيث لم يصادفوا

---

(٣٣) أسد رستم: «الروم وصلاتهم بالعرب» - الجزء الأول (ص ٢٦٠ - ٢٦٢)

مقاومة تذكر. ولا تزال المنطقة التي أغاروا عليها تحمل **اسم «طريف»** الى اليوم. عندها اطمأن موسى بن نصير الى صدق الكونت يوليان فوجه الحملة الشهيرة، وقوامها سبعة آلاف مقاتل معظمهم من البربر، بقيادة طارق بن زياد وهو من أصل بربري.

ويقول المؤرخ البريطاني ستانلي لين پول[٣٤] أن طارقاً «وجد صعوبة فائقة في إقناع رجاله، ولا سيما العرب منهم بركوب البحر الذي واجهت مراكبه فيه عواصف شديدة، وهو عندما واجه القوط في معركة وادي بكّة، وخاطب جنوده قائلاً **«أيها الناس. العدو أمامكم والبحر وراءكم، وليس لكم والله إلّا الجلد والصبر الخ...»** لم يكن قد أحرق المراكب كما يزعم بعض المؤرخين، بل أعادها الى المغرب حيث أمده موسى بخمسة آلاف مقاتل آخر من البربر حملتها تلك المراكب اليه، وإنه قال ذلك ليذكرهم بالأهوال التي صادفوها في ركوب البحر وهو عند الكثيرين منهم أبطش من ايّ عدو، فنجح هكذا في بلوغ أقصى حماستهم وتصميمهم على خوض القتال...»

التشاؤم والتفاؤل وضربة «العين»!

ولا بدّ لنا في البحث عن اثر الحياة الصحراوية في النفس العربية عبر الأزمنة من التوقف لحظات متأملين عزلة البدوي

---

(٣٤) ستانلي لين پول: «قصة العرب في إسبانيا» - تعريب علي الجارم - القاهرة، ١٩٤٤م.

الضارب في اطراف الأودية الخالية من أي عمران والقفار الموحشة التي تتبدّل معالمها بين ليلة وضحاها بانتقال كثبان الرمل من مكان الى آخر مع هبوب الرياح العاتية، حيث تختلف على ذلك الإنسان الشريد التائه معالم الاستدلال ومسالك التوجه، وتتحول الطرق المألوفة أمامه بساطاً أحمر لا ينبئ بوجودها السالف طلل دارس او علامة فارقة.

فقد حفرت عناصر الطبيعة في شخصية الإنسان العربي أخاديد جِنات موروثة أخطرها التشاؤم والتطير اللذان يفقدانه لذّة الاستمتاع بالجوانب المشرقة من الأحداث، حتى ولو عادت عليه بالخير **لأنه يتوقع انقلابها دائماً**. فلو مرّت على العربي موجة من التمتع بلقاء الأحبة الأقربين بعد طول فراق نسمعه يردّد «**عسى أن يدوم!**» ولو أكثر من الضحك والمرح والمزاح في مناسبة اجتماعية لطيفة سرعان ما يقول: «**كفانا الله شرّ هذه الفرحة!.**» ولو أرعدت السماء وأبرقت تجمّع وتقوقع حذر الصاعقة بحركة عفوية عائدة الى عُصابه المزمن قبل ان يفكّر بان ذلك يحمل اليه المزن وهو غيث يغيث وعائن يعين!.

وتخطر لي إزاء مسالة البرق والرعد حادثة دونتها في دفتر ذكرياتي عام ١٩٦٥. فقد سلكت يومها طريق البرّ في المملكة العربية السعودية بين الرياض والدّمام في سيّارة مستأجرة توقّف سائقها عند مخفر في وسط الصحراء لإجراء بعض المعاملات. ولفتني وجود بعض العسكريين في ذلك المكان كما رأيت شاحنات الجيش تحمل عدداً من البدو وكأنها تهمّ بنقلهم الى

مكان آخر. فسألت ضابطاً جالساً هناك عمّا يجري في تلك المنطقة النائية المعزولة. وجلّ ما كانت دهشتي عندما أخبرني أنه مكلّف إعادة أولئك البدو الى منازلهم في مجمع سكني قريب. وأوضح لي أن الملك فيصل كان قد فوّض الى رجل من آل ثنيّان بناء مساكن للبدو الرحّل ضمن برنامج حكومي يهدف، الى تحضير البادية. وقد تمّ ذلك فعلاً وسلّمت مفاتيح عدد من المنازل الى نخبة من أهل الوَبَر الذين أقاموا فيها خلال موسم الجفاف. لكنهم ما أن أقبل الشتاء برعوده وبروقه حتى أصابتهم موجة قلق بالغ واضطراب، فتركوا المنازل المبنيّة وما فيها من ادوات الراحة والطمأنينة والدفء والسكينة، وهربوا مع أطفالهم ونسائهم الى الصحراء مذعورين وكأن هنالك سيفاً مصلتاً يطارد أعناقهم!

لقد أطرقت حيناً وارتسمت على وجهي ابتسامة فيها كلّ العبرة وكلّ المرارة، وأنا أستمع الى حكاية الضابط. فسألني رأيي في ما سمعت. فقلت له: لا تظنّ أن شيئاً يتبدّل في بلادنا العربية. فقد ذكّرتني اليوم بأغنية شعبية منتشرة في بلاد الشام منذ مئات السنين على لحن معروف «بأبو الزُلُف» مطلعها:

أَروح بيت العربْ واسكُنْ جِذا طْنابو
واقول بيتْ الحجرْ يِهدُمْ على صْحابو

ولعلّ في طليعة المؤثرات البدوية الصحراوية في النفس العربية **مسألة الإصابة بالعين،** وهي غير معروفة او ملحوظة على حدّ علمنا في أخبار الشعوب البدوية الأخرى غير المتطيّرة التي

كانت تنعم بخيرات الأرض في السهوب الآسيوية والأوروبية الخضراء.

وقد سبق وأشرنا الى ان العربي محكوم بالتشاؤم والتطيّر حتى عندما يبتسم له الدهر وتصلح الأيام. لذلك تراه إن عثر حظّه يصدّق ما تحسّب له من طوالع الشؤم، وإن أقبلت عليه الدنيا يجتنب المجاهرة بالنعيم والتبجح بالمكاسب الوافرة خوفاً من العين! وفي الأحاديث النبوية الشريفة عدد من الصحاح التي تنصح بالتقية والامتناع والزهد والورع والاقتصار على الكفاية من متاع الدنيا، كما في قول الرسول: «**الدنيا سجن المؤمِن وجنَّةُ الكافر**»[٣٥] أو قوله: «**لو كان لي مثل أُحُدٍ ذهباً، لسرّني أن لا تمرّ عليّ ثلاث ليالٍ وعندي منه شيء، إلّا شيء أرصده لِدَيْن**».[٣٦]

والواقع أن العربي الذي يحب المال والدنيا ويفتتن بهما، كما سلف وذكرنا في الفصل الأول من هذا الكتاب، تصديقاً لقول الرسول أيضاً «**إنّ لكلّ أمّة فتنة، وفتنة أمّتي المال**»،[٣٧] إنما كان، خلافاً لبعض السفلة من أهل الغرور المباهين بحداثة النعمة، يستحيي، ويخجل من التشوّف بالثروة، خصوصاً في مجتمع فارقته العدالة وتردّت شرائح واسعة منه لباس الفقر والمسكنة. وياتي هذا الالتزام الخلقي بتعاليم النبي محمد وسائر الأنبياء والمرسلين مطابقاً في دخيلة النفس العربية للتعوّذ البدائي الموروث

---

(٣٥) أخرجه مسلم عن أبي هريرة

(٣٦) أخرجه البخاري عن أبي هريرة

(٣٧) أخرجه الترمذي عن كعب بن عياض

بالرُقْية عبر الجاهلية الجهلاء من الرجم بالسوء **وشهوة «العين الفارغة»**، كما يسمّونها.

وعلى أن معظم العلماء ينكرون فعالية العين في الإساءة الى الآخر، وينسبونها الى معتقدات بالية عائدة الى عصور التنجيم والسحر والشحوذة إلّا أن تجارب مخبرية متقدمة أجريت طيلة العقود الثلاثة الأخيرة من القرن العشرين في الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي السابق، ادت الى كشوف مذهلة للمؤثرات غير المنظورة الكامنة في الذات الإنسانية والتي تُستشعر بالبيّنة الحسّية الملموسة، على الآخرين.(٣٨)

ولا بدّ من الملاحظة في هذا المجال أخيراً أن السواد الأعظم من العرب لا يزالون يؤمنون «بضربة العين» إن جاز التعبير، ويقدّمون على ذلك أمثلة واقعية لا تعدّ ولا تحصى، مع أن معظمهم لا يؤمن بالرُقْية(٣٩) علاجاً لها او شفاء من عواقبها المشؤومة.

---

(٣٨) أجريت هذه التجارب ولا تزال تجرى في إطار علم مستقبلي بالغ الأهمية يعرف باسم (Parapsycologie) أي علم «تظهير المكنونات النفسية».

(٣٩) الرُقْية ممارسة سحرية قديمة تدّعي استخدام قوى ماورائية من أرواح الخير والشرّ كالملائكة والأبالسة في علاج ضربة العين.

- ٣ -

الوطن شجاعة.. والسيادة فروسية!..

يقول الإمام علي في «نهج البلاغة»: «**ليس بلدٌ أحقّ بكَ من بلد. خير البلاد ما حَمَلَك...**» والواقع أن الوطن لم يكن يوماً في العقل العربي الباطن كياناً جغرافياً ثابتاً موصوف الخصائص مرسوم الحدود الطبيعية أو المصطنعة، بل إنه مزاج بشري فردي منسجم على أرض جماعية متوحدة بالقوم أو بالمعتقد. فأرض العروبة واحدة في هذا المفهوم الفريد للوطن، شرط ان ينعم الإنسان فيها بالسعادة والعزّة والكرامة. «**فكُلُّ مكانٍ يُنبتُ العزَّ طيِّبُ**» كما يقول المتنبي. وبلاد الله واسعة يتنقل فيها المرءُ كما يشاء ويحلو له، غير ملزم بالقيود الإدارية أو مراسم الاندماج العضوي في هذه البقعة أو تلك اجتماعياً أو حياتياً أو سياسياً. لذلك هو يرفض مبدأ القانون في المطلق، ويعتبر المطالبة بالحقوق وتأدية الواجبات مسألة كيفية، يتمّ تقويمها بحسب الظروف الموضوعية على أساس مكارم الأخلاق، انطلاقاً من بوادر فردية يقوم بها المحكوم، دونما إكراه يفرضه الحاكم!

والعربي الذي يحمل هذه النظرة الغامضة المشوشة الى الوطن من العصور الخوالي التي لم يتعرف خلال ردح طويل من تواليها الى معنى الاستقرار، هو في دخيلة وجدانه ابن الجهة أو الناحية أو الإقليم، قبل أن يكون ابن هذا الوطن أو ذاك!.. إنّه عربي مشرقي أو مغربي، يسكن بلاد الشام أو صعيد مصر أو الفراتين أو اليمنات(٤٠) أو بعض أقاليم المغرب الكبير الخ...

وهو في بداوة نفسه غير المتركِّنة في إطار وطني دائم ومتواصل، يهوى السفر لهدف أو لغير هدف، على قدر ما يسمح بذلك اليسر أو توفره الوسائل الممكنة. ولعل خير ما يعبّر عن أهمية السفر ومنافع الانتقال أبيات منسوبة الى الإمام الشافعي يقول فيها:

سافِرْ تَجدْ عِوضاً عمَّنْ تفارقُهُ وانصَبْ فإنَّ لذيذَ العيشِ في النَصَبِ
إنّي رأيتُ ركودَ الماءِ يُفسدُهُ إنْ سالَ طابَ وإنْ لم يَجرِ لم يَطِبِ
والشمسُ لو وقفتْ في الفلكِ جامدةً لملّها الناسُ من عُجْمٍ ومن عَرَبِ
والتِبرُ كالتِبنِ ملقىً في أماكنه والعودُ في أرضِهِ نوعٌ من الحطبِ
والأُسدُ لولا فراقُ الغابِ ما افترسَتْ والسهمُ لولا فراقُ القوسِ لم يُصِبِ

وقديماً قيل: «كلب جوّال خير من أسد بارك»

(٤٠) أطلق القدماء اسم اليمن - وقال بعضهم «يمنات» - على كلّ بلدان الجنوب العربي المحيطة باليمن والواقعة على المحيط الهندي وجنوبي البحر الأحمر والخليج العربي- الفارسي، أو حتى في شرق أفريقيا.

مفهوم «الوطن» الغامض المشوَّش!

ثم إن النفس العربية تـفرّق تـفريقاً عميقاً بين النزوح من مكان الى آخر في بلاد العرب، وهو ما تقبله بارتياح وتجد فيه برءاً من رتابة الحياة ودوامة الوجود الاجترار ي الحزين في إطار واحد تألفه المشاعر حتى الملالة والكمد، بمشاهده المكرورة وملامحه المنظورة وأشيائه الباهتة وأحيائه الماثلين... وبين الهجرة المرغمة والنزوح الاضطراري الى أرض غربة يتعين على من يطأها أن يتخلّق بأخلاق ناسها وينطق بلغات أجناسها، ويكسب رزقه فيها بالكَدود من العمل والمديد من الصبر والأمل، ليحفظ ماء الوجه ويصون العوائل والحرمات.

ولا تـنطبق هذه الحقيقة بأي حال، على ادّعاء الحركة الصهيونية باطلاً أن تهجير الشعب الفلسطيني عامي ١٩٤٨ و ١٩٦٧، بالرغم من تـنفيذه بقوة السلاح، كان يمكن ألّا يحدث الآثار السلبية الرهيبة التي أحدثها باعتباره قد تمّ باتجاه بلدان عربية شقيقة قريبة أو بعيدة(!) ذلك أن قضية فلسطين لا تتعلّق فقط بنزاع شعبين على أرض، ويمكن بالتالي أن تـنطبق عليها ردود الفعل الخاصة بكلّ من الشعبين المتـنازعين، بل إنها في الأساس قضية صراع قدري بين أنبياء الساميين يتوقف على نتائجه الآجلة مصير «**الكوميديا الإلهية**» المرغمة على إخلاف الوعد والعهد و«**الكوميديا الإنسانية**» الصائرة الى الانتحار!!

بعد هذه المعترضة البيانية الطارئة عرضاً، نعود فنؤكد أن في

طليعة الأسباب التي أدّت الى ضعف التعلّق بالوطن في النفس العربية، كون المجتمع البدوي الذي يشكل قاعدة الهرم في بناء الخلائق العربية، **لم يعرف الزراعة بوجه عام لكي يتمسك بالأرض** وينعم بخيراتها ويدافع عنها ثم يستميت في سبيلها.

وقد ظهرت في اليمن قديماً أنشطة زراعية محدودة اقتصرت على الجبال ذات المناطق الوعرة التي يصعب استصلاحها للزراعة. وما لبث الأمر أن تطوّر بعد إقامة سدّ مأرب الشهير في مملكة سبأ وبات بالإمكان ريّ السهول المحيطة بمدينة مأرب وشناخيبها العالية. لكن انهيار ذلك السدّ في القرن الثاني للميلاد أغرق الزرائع واتلف المحاصيل فتحوّلت السهول الى مستنقعات ونزحت القبائل القحطانية العاربة في اتجاه الحجاز والشام والعراق، كما سبق وذكرنا.

واستطاعت تلك القبائل أن تؤسس موائل زراعية، في العسيرين وتهامة حيث حلّ بعضها على مقربة من اليمن نظراً لوجود المياه، كما حلّ آخرون في يثرب حيث اعتنوا بزراعات ضئيلة نسبياً. لكن الغساسنة الذين توطنوا في حوران والبلقاء حيث الأراضي الخصيبة، وجدوا البيئة الملائمة لاختصاصهم الزراعي في بلاد الشام، وعملوا بحماية الروم البيزنطيين في زراعة الأرض، وكذلك المناذرة اللّخميّون الذين أسّسوا مملكة في الحيرة بجنوب العراق، فقد عملوا في الزراعة تحت سلطة الكسرويين الفرس الساسانيين. وكانت لليهود، السواحل الجنوبية

ووادي حضرموت من عدن الى مضيق هرمز، وهي شريط زراعي ضئيل المساحة على ضفاف المحيط الهندي.

قليلون جداً من العرب إذن، عرفوا المجتمع الزراعي قبل الإسلام، فلمّا خرجوا للفتح بعد ظهور الدعوة المحمّدية، وجدوا أنفسهم في الشام والعراق ثم في مصر وبعد ذلك في المغرب الأقصى أمام مجتمعات زراعية عريقة، فتركوا الشعوب الأصلية في تلك الأمصار تمارس أعمالها في الزراعة وما تستتبعه من صناعات وحرف، واقتطعهم الخلفاء مناطق في البلدان التي أخضعوها، فظلوا منذ تلك المرحلة، وبعضهم الى يومنا هذا، يمارسون مهنة الفروسية والسيادة على مجتمع يصفونه بمجتمع القيون (أي الصناعيين) والأحلاس (أي المزارعين).[٤١]

ومن هذا المنطلق **نفهم لماذا انتصرت فكرة «الأمّة» في النفس العربية على فكرة «الوطن»**. وقد جاء الإسلام انعكاساً لتوجهات تلك النفس، فعزّز الأممية على القومية، وقيل في ظلّه المديد أن «**دار الإسلام واحدة**» وهي مقولة أفاد منها الاستعمار الأوروبي الذي جزأ البلاد العربية في سبيل مصالحه على الصعيد السياسي، وأبقاها مع ذلك واحدة الشرع، واحدة العادات والتقاليد، واحدة التخلّف، ومن مهازل الزمن أنه تركها في الوقت نفسه واحدة التطلع والطموح الى التوحد!

---

(٤١) القين هو الذي يحترف الحدادة، وكان كلّ صاحب حرفة في نظر السادة الذين يحترفون مهنة الحرب قيناً محتقراً، وكذلك الحِلس وهو الفلاح الذي يلزم أرضه.

وفي الحقيقة **أن العكس كان هو المطلب الأساسي لخير تلك الشعوب**، أي أن تبقى لها عقيدتها الإسلامية الواحدة، ومبادئ حياتها الاجتماعية الواحدة، وأن يكون تركيز كيانها السياسي في أوطان لا يحدّدها استقلال مفروض بل يتم التخطيط لوجودها على أساس مكوّناتها البشرية في أطر طبيعية أسهم في تحديدها التاريخ وعمل على تثبيتها التفاعل الحياتي الوجودي المتواصل غير المنقطع. فليس من المعقول أن يكون في وادي النيل الوطن الطبيعي الواحد دولتان أو ثلاث، وعدة دول في وطن طبيعي آخر هو الهلال الخصيب، وكذلك في جزيرة العرب أو المغرب العربي الكبير، وأن تسمّى هذه المجمّعات السياسية المجزوءة في أشباه الدول أوطاناً، ثم **أن** يلام ويُكفَّر الذين عملوا على إكمال المجزوءات ولمّ الشتات وردّ الفروع الى أصولها والفتات المبعثر الى كيانه المتماسك.

وقد زاد التدخّل الأجنبي بذلك فكرة الوطن غموضاً وتشويشاً. وبانتظار إعادة النظر في كلّ التخطيط الذي وضع بعد الحرب العالمية الأولى للدول العربية التي يسمّونها أوطاناً، يجب أن يدرك الهادفون الى تأسيس نظام دولي جديد في هذه المنطقة **أن المواطن العربي لا يشعر اليوم بانتمائه الى وطن، لأنه إمّا يعتبر نفسه موجوداً في أقلّ من وطنه، أو موجوداً في أكثر من وطنه،** فيعود في قرارة إحساسه الى إنكار فكرة الأوطان، وهو إنكار متوارث من حياته الدهرية القديمة في الصحراء، فيقول «**بالأمّة العربية**» حيناً و«**الأمّة الإسلامية**» حيناً آخر وحتى «**بأمّة عدم**

الانحياز» بمعنى من المعاني، أو أمة «**العالم الثالث**» إن لزم الأمر، أو «**الأمّة التي لا وطن لها!..**»

إنّ القضية الأكثر إلحاحاً من أي قضية أخرى تطرح أمام المجتمع الدولي في الظروف الراهنة، هي **الحاجة الى خريطة سياسية جديدة** للعالم العربي بعد الخريطة التي فرضها الاستعمار الأوروبي في العشرينات من القرن الماضي إثر انهيار الأمبراطورية العثمانية، فكان ترسيمها الكيفي الأخرق، مطابقاً لمصالح فرنسا وبريطانيا ومن لفّ لفهما من المستعمرين، ومخالفاً لمنطق الطبيعة الجغرافية والوقائع التاريخية وطموحات شعوب المنطقة، وهو الأمر الذي مسخها جريمة مرتكبة حقيقية **أفرزت حروباً وفتناً وصدامات سياسية وانقلابات عسكرية وآفات اقتصادية واجتماعية** لا تحصى، وعصبيات دينية، وغير ذلك مما انصبَّ كلياً في نكبة إقليمية تعرف اليوم «**بالإرهاب**» الذي تمدّد من هذه البقعة القطبية في الوجود الإنساني الى العالم بأسره.

قبل الحديث عن «**الشرق الأوسط الأكبر**» ومحاولة إصلاح الأنظمة... وقبل الحديث عما يدّعونه من حرص على حقوق الإنسان وعتق المرأة ورعي الطفولة، ونبذ العصبيات... وقبل التمتع بالحديث الهيولي عن الحرّية والديموقراطية وطبائع الاستبداد والتخلص من حكم الأفراد والميليشيات والمافيات ودكتاتوريات المقابر الجماعية... قبل ذلك كلّه يجب التقويم الجديد الكامل للكيانات السياسية التي يعيش في إطارها وضمن حدودها البشر!.

قبل أن نصلح الحكم ومؤسساته يجب أن نعرف من هم الذين فرض هذا الحكم عليهم؟.. هل هم منسجمون في حياة مشتركة، قابلون لتلك الشركة الحياتية في كيان طبيعي جغرافي وتاريخي تمثّل وترتّب عبر الأزمنة واكتسب مقومات الوطن الواحد الثابت القادر على مواجهة التحديات المستجدة والتطورات الإتنية والسوسيولوجية والروحية الدينية والمصلحية المادية بالمستوى الذي تتميّز به الأوطان الكاملة؟!

لقد أثبت المنتصرون في الحرب العالمية الثانية أنهم قادرون على فرض شروطهم على سائر الأمم، **فخلقوا منظمة الأمم المتحدة، وبلوروا حقوق الإنسان، ونادوا بمبدأ تقرير المصير للشعوب المقهورة**، وتمكنوا بعد زوال الاتحاد السوفياتي أن يضعوا خريطة سياسية جديدة لأوروبا، ففرضوا الخط النهري «**أودر-نايس**» حدوداً نهائية بين ألمانيا وبولندة، وسمحوا بعد ترويض الألمان بإزالة ما كان يسمّى «**البطن الجرماني**»، في قلب أوروبا. ومن خلال تعاونهم مع الروس ألغوا سيطرة موسكو على دول البلطيق، كما تمكنوا بسياسة حكيمة متوازنة بعد معاهدة ماستريخت أن يوسعوا الاتحاد الأوروبي بحيث أصبح يتألف من ٢٥ دولة، دون أن تخاف أي من القوى العظمى كالولايات المتحدة والصين وروسيا الاتحادية هذا الضريب العملاق الذي يرعى ٤٥٠ مليون إنسان متحضر متطور!.. فهل تكون القوى العظمى وفي طليعتها الولايات المتحدة عاجزة اليوم أو غداً عن حلّ مشكلة الأوطان العربية والإنسان العربي، بغير التورّط



مصباح دمشقي من الزجاج المموّه بالمينا ، قطره ٢٧ سم .
وعلوّه ٣٥ سم .
وهو عائد الى القرن الثامن الهجري (الرابع عشر للميلاد) ـ
إيداع متحف اللوفر .



شمعدان من العهد الأيوبي عائد
الى العراق في القرن السابع للهجرة (الثالث عشر للميلاد)
وهو من النحاس المنقوش والمرصّع بالفضة.
قطره ٢٢ سم. وارتفاعه ٢٤ سم
(متحف معهد العالم العربي ـ باريس).



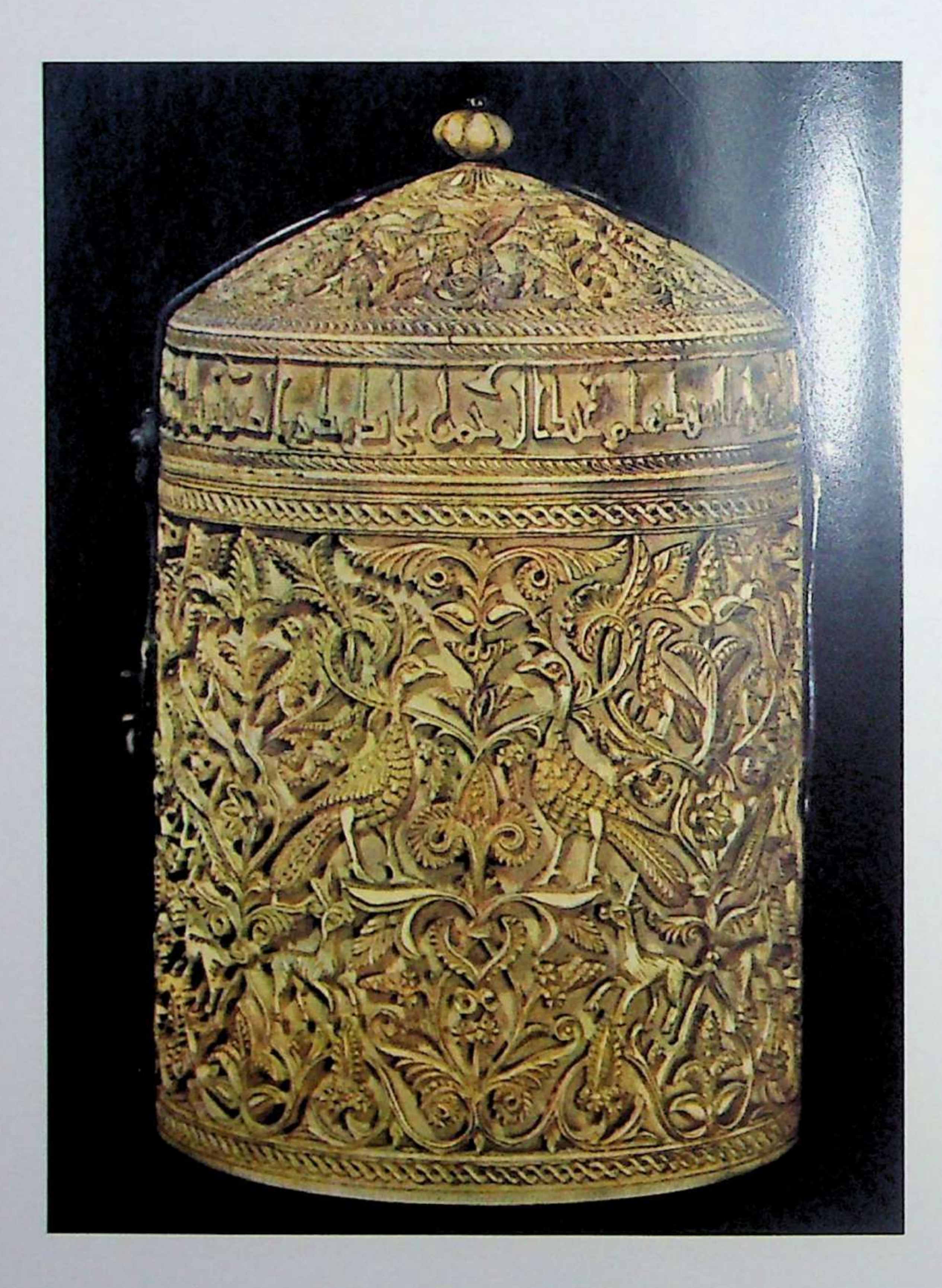
اسطرلاب من المغرب العربي قطره ١٠٢ سم.
ويعود الى سنة ١٠٩٨ هجرية الموافقة للسنة ١٦٨٦ ميلادية (متحف اللوفر)



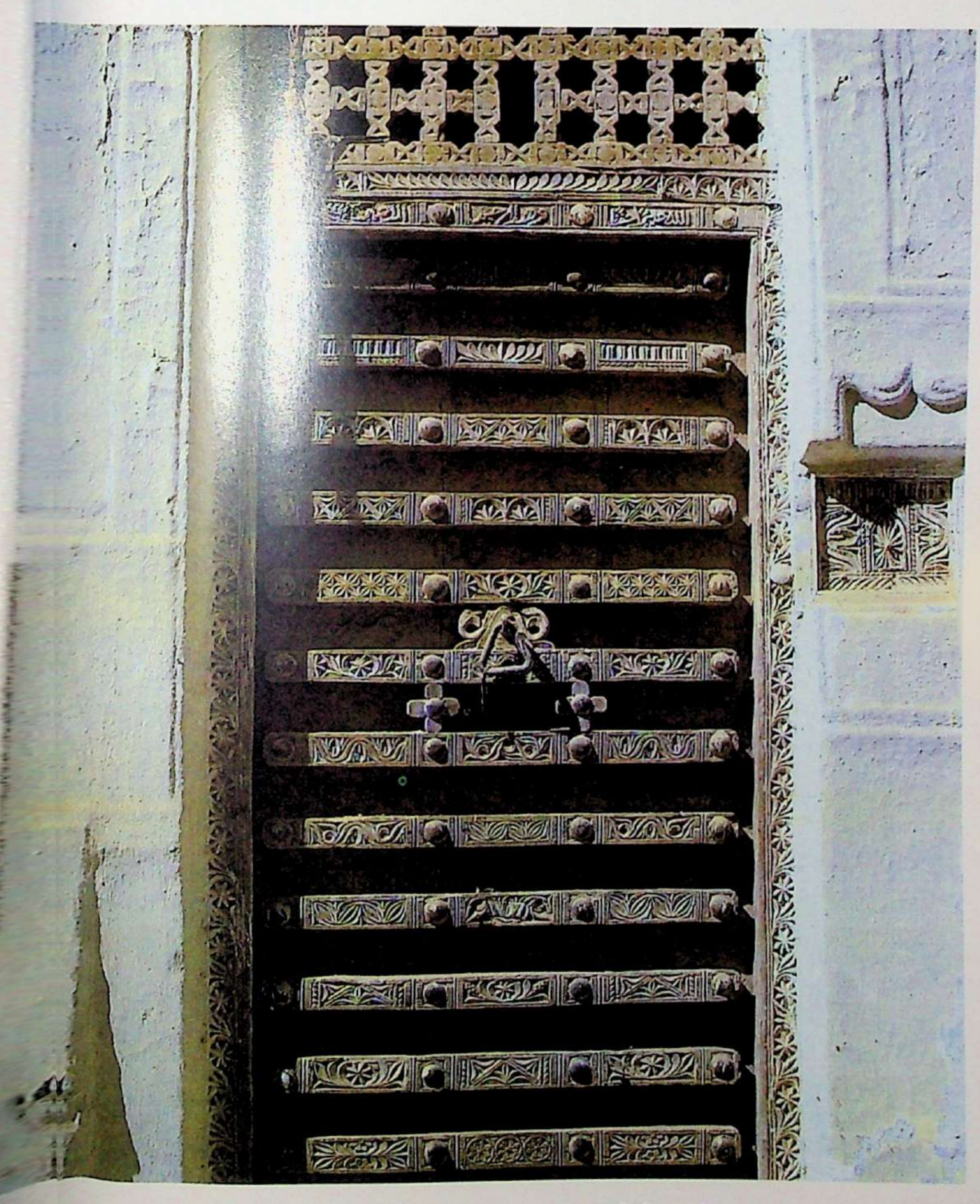
علبة خشبية نادرة مزينة بالنقوش والآيات القرآنية المحفورة تعود الى إحدى سيدات البلاط الأموي في الأندلس سنة ٩٦٤م. (المتحف الوطني الإسباني بمدريد)



صندوقة من العاج والفضة عائدة الى الأندلس (٣٥٥هـ. ٩٦٦م.)
متحف معهد العالم العربي في باريس



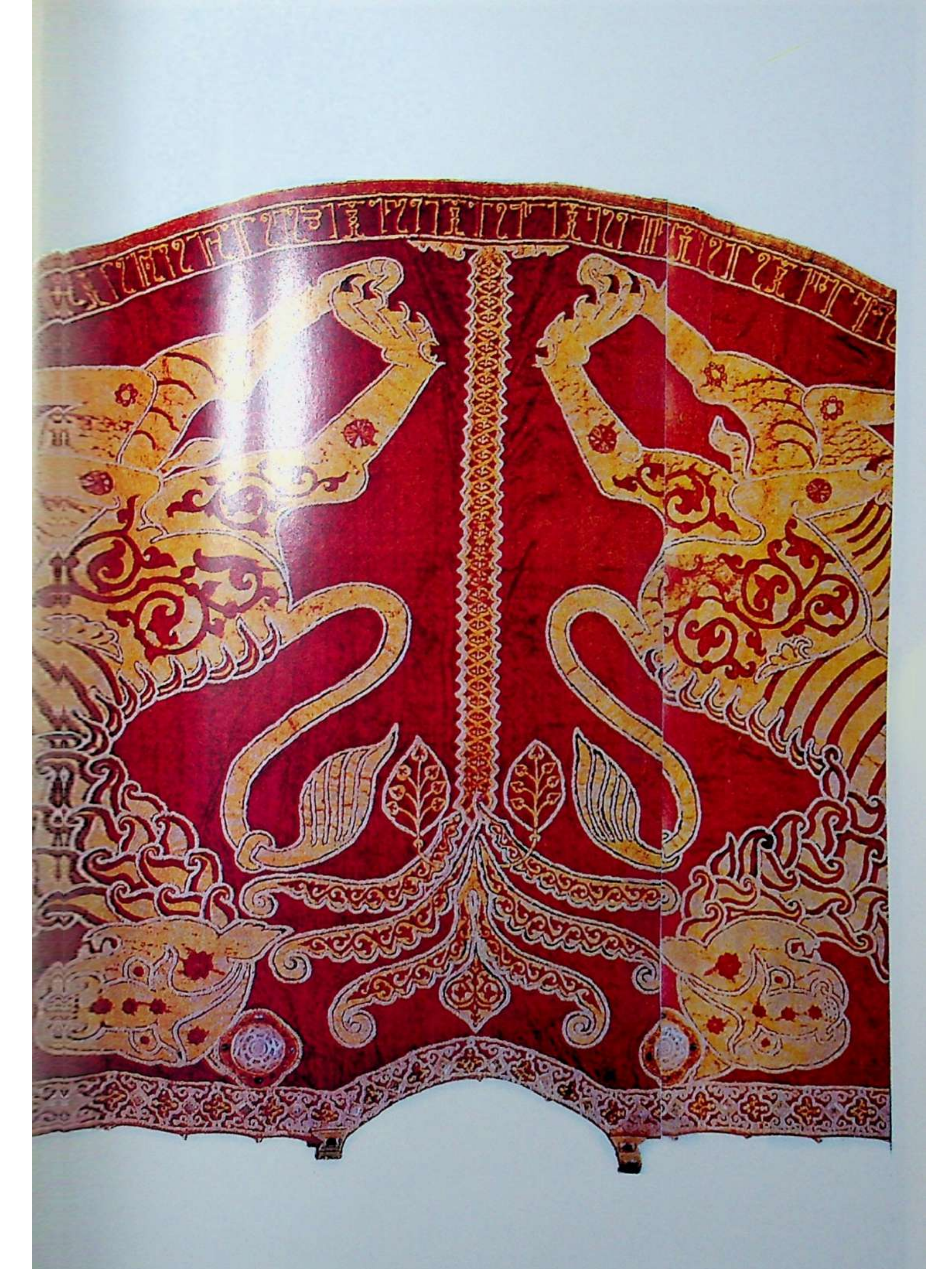
صندوق خشبي رائع وفريد صنع من سن الفيل للخليفة المنصور في الأندلس على يد الفنان «فاراي» سنة ١٠٠٥م. (متحف مدينة باميلونا بمقاطعة نافارو الإسبانية)



باب خشبي منقوش يعود الى القرون المسيحية القديمة في اليمن.

خريطة الخليج العربي ـ الفارسي كما رسمها الرحالة كارستن نيبور سنة ١٧٦٥م.

سفن شراعية تعمل على طريق الهند في القرن الثامن عشر (المتحف البحري البريطاني ـ غرنيتش)



جزء من رداء الأمبراطور الجرماني فردريك الأول بربروس المحفوظ في متحف تاريخ الفن بمدينة فيينا.
وهو تحفة نادرة من صنع الحرفيين العرب في باليرمو بجزيرة صقليّة سنة ١١٣٣م.

العسكري الذي تعتقد مخططة أنه سيتمكن في غضون عقدين او ثلاثة أن يخلق ذلك الإنسان خلقاً جديداً؟!

بين الحاكم والمحكوم.. طبقيّة الصراحة!

وعلى صعيد آخر يمكن القول إنّه استتبع غياب الصورة الحقيقية للوطن الثابت في النفس العربية تحولاً في الولاء الى زعماء القبائل والحكّام الذين يستمدون شرعيتهم من شفار السيوف وأسنّة الرماح، وقد حصلوا على البَيْعَة بالقوة في هذه المدينة وما حولها، أو تلك المقاطعة وما يليها، فشاه بالتالي مفهوم الحكم والسلطان، وفقد معنى الرعاية والخدمة العامة، ليصبح ضرباً من ضروب التملّك الخاص، القائم على صكوك انتفاعية خدماتية بين الحاكم والمحكوم، لا يخضع لأي رادع خلقي أو ضابط قانوني، ولا يقيده حتى أي عقد من عقود الشرف أو ميثاق من مواثيق الائتمان، الأمر الذي أدّى الى استعمال كلمة «**صاحب**» عوضاً عن «**حاكم**» للتعبير عمّن ولي الأمر هنا أو هناك، فيقال «صاحب دمشق» أو «صاحب صنعاء» أو «صاحب المدينة» الخ...

أمّا لقب «**الأمير**» فلا يعني رئيس الإمارة باعتبارها مؤسسة دولة في أصول استعماله، بمقدار ما يحتفظ بمؤدّاه اللّغوي في النظام العشائري القبلي. فهو الذي يأمر وينهى ويسدي النصيحة ويؤُمّ الناس في المناسبات العامة، وهو المقدّم بينهم في تدبير أمورهم خلال السلم، والقائد الذي يرأس جندهم خلال الحرب،

كما في قول دريد بن الصِّمة:

أمرتُهُمُ أمري بمنعَرَجِ اللِوى   فلم يستبينوا الرشدَ إلّا ضُحى الغَدِ
وما أنا إلّا من غَزِيَّةَ إنْ غَوَتْ   غَويتُ وإنْ تَرشُدْ غَزِيَّةُ أَرشُدِ [٤٢]

وأمّا لقب «المَلِك» فلا يدلُّ على رأس البلاد - باعتبار أنّ المملكة دولة يحكمها نظام ملكي له قواعده وأصوله القانونية الدستورية كما في المفاهيم المتعارف عليها لدى الأمم الأخرى-، بقدر ما يعبّر عن امتلاك البلاد بمعنى حيازتها بالمفهوم البدوي وكأنّها حلّت لمن يمتلكها على هذا النحو بكلّ ما فيها. والفرق واضح قاموسياً بين من «ملكَ الشيء» أي حازَه وامتلكه، وبين من «ملكَ على الشيء» أي تعهّده وتولّى أمره، أو بتعبير آخر بين من «ملَكَ القومَ» أي أصبحوا مماليكه وعبيده، وبين من «ملَكَ على القوم» أي أصبح رئيسهم أو آمرهم...

وقد ميّز القرآن بين المُلكِ بمعنى الحُكم والسلطان[٤٣] والمُلكِ بمعنى حيازة الشيء وامتلاكه،[٤٤] ثمَ المُلك بمعنى التصرف بمصائر الناس.[٤٥]

---

(٤٢) أمرتُهُمُ أمري أي نَصَحْتُهُمْ، فلم يدركوا معنى كلامي أو يفهموا نصحي إلّا صبيحة اليوم التالي بعد فوات الأوان. ولكنني عدت فقلت لنفسي أنني من رجال غَزِيَّة في أي حال اضلُّ إن ضلّوا وأهتدي إن اهتدوا ولا ملامة عليّ في ذلك.

(٤٣) كما في الآية الكريمة: ﴿تَبارَكَ الذي بيدِهِ المُلكُ وهو على كلِّ شيءٍ قدير﴾ (سورة الملك - ١)، وفي الآية: ﴿ قلْ اللّهُمَّ مالِكَ المُلكِ تُؤتي المُلكَ من تَشاء...﴾ (سورة آل عمران - ٢٦)

(٤٤) كما في قوله: ﴿... وما ملكتْ يمينُك مِمّا أفاءَ اللهُ عليكَ...﴾، وقوله: ﴿... قد علِمنا ما فَرَضنا عليهِم في أزواجِهِم وما ملكَتْ أيْمانُهُم...﴾، (سورة الأحزاب - ٥٠)

(٤٥) كما في الآية: ﴿... قالوا أنّى يكونُ له الملكُ علَينا ونحن أحقُّ بالملكِ منه...﴾ (سورة البقرة - ٢٤٧).

ولا بدّ لنا من التوقف هنا وإنعام النظر في الآية القرآنية: ﴿قالتْ إنّ الملوكَ إذا دخلوا قريةً أفسَدوها وجَعلوا أَعِزَّةَ أَهلِها أَذِلَّةً وكذلكَ يَفعلون.﴾ (سورة النمل - ٣٤).

فقد تسلّح بعض الحاقدين على الأنظمة الملكية بالآية المشار اليها للادّعاء الباطل، دونما إثباتٍ منطقي مقبول، بأنّ الله ينبذ الملوك ويكفرّهم ويفضح الجرائم التي يرتكبون في الممالك والقُرى!.. ولو عاد المتسرّعون من أصحاب هذا الرأي المغرض الى ما سبق هذه الآية وما أعقبها في النصّ المبين لاتضح لهم أنهم مخطئون. ذلك أن ما ورد في الآية إنما ورد على لسان ملكة سبأ عندما بعث اليها سليمان الملِك بكتاب الله يدعوها الى الإسلام. فاستخارت قومها الأشداء في أن يقبلوا الدعوة أو يرفضوها ويقيموا على ما هم عليه من عبادة الشمس دون الله، فقالوا لها: ﴿نحنُ أُوْلُوا قوّةٍ وأُوْلُوا بأْسٍ شَديد﴾ (النمل - ٣٣) ثم تركوا لها القرار ﴿والأمرُ إليكِ فانظُري ماذا تأمُرين﴾ ... عندها نطقت بذمّ الملوك على نحو ما ورد في الآية المثيرة للجدل، وتقصد بذلك سليمان. لكنها عادت عن هذا الرأي في الآيات اللّاحقة وخرجت من عبادة الشمس قائلة: ﴿... ربِّ إنّي ظَلمتُ نَفْسي وأَسْلَمْتُ معَ سُليمانَ للهِ ربِّ العالَمين﴾ (النمل - ٤٤)

وفي الحديث على الحكم والسلطان والعلاقة بين الحاكم والمحكوم ومسألة الولاء، نلاحظ أنّ العربي، سواء أكان حاكماً أم محكوماً، يعمد الى الخطاب المباشر الصريح إن كان حاكماً دونما تستر في توجيه اللوم والاتهام الى الجماعة التي يرعى

ويفترض أن تطيعه. كذلك هو لا يوارب إن كان محكوماً، في تحدّي صاحب السلطة الذي يفترض أن يستقيم ويعدل.

فالفاروق عمر بن الخطّاب لم يربأ بنفسه قطعاً عندما أعلن أمام الناس بمنتهى الوضوح والبساطة: «**إن رأيتم فيّ اعوجاجاً فقوّموه...**» والجماعة يومذاك لم تجامله إطلاقاً عندما ردّت عليه بصوت واحد: «**لو رأينا فيك اعوجاجاً لقوّمناه بحدّ السيف!**»

ولم يتورع الحجّاج بن يوسف الثقفي والي الأمويين على العراق أن يهدّد العراقيين بقسوة لم يعرف لها مثيل كما في قوله: «**إني أرى رؤوساً قد أينعت وحان قطافها**»!! وذلك بعد وصفهم «**بأهل الشقاق والنفاق**»!!

ولعل خير مثال على الخطاب الجريء والعتاب الصريح بين الحاكم والمحكوم، ما وقع للحجّاج يوم ولّاه عبد الملك بن مروان إمرة العسكر الذي تفشى في صفوفه الانحلال والتراخي، فشدّد عليهم وأكرههم على الطاعة، حتى أنه أمر بإحراق خيام قائدهم رَوْح بن زِنْباع الجذامي وأرغمهم على الإقامة في العراء. وقد شكاه رَوْح الى الخليفة الذي دعاه وسأله لماذا فعل ذلك وهو يعرف أن رَوْح قائد ووزير، فقال: «**لست أنا الذي فعل، بل أنت! لأن يدي يدك وسوطي سوطك! وما على أمير المؤمنين إلّا أن يخلف على رَوْح عوض الخيمة خيمتين، وعوض الغلام غلامين، ولا يكسرني في ما قدّمني وأولاني.**» فأعجب الخليفة بجرأته وحزمه وأطلق يده في أمور الجيش...

أمّا الأخطل التغلبي الذي كان يتمتع بمنزلة خاصة لدى عبد الملك بن مروان، فقد دخل عليه مرّة ورأى زُفَر بن الحارث القيسي جالساً على سريره. وكانت بين تغلب الموالية للأمويين وقيس التي سبق أن قاومتهم، حروب وثارات. فكفى أن يقول الأخطل للخليفة: «كيف تسمح يا أمير المؤمنين بجلوس عدّو الله هذا على سريرك، وهو القائل:

«لقد ينبتُ المرعى على دِمَنِ الثرى   وتَبْقى حزازاتُ الصُدورِ كما هِيَا»؟![٤٦]

فما أن سمع عبد الملك ذلك حتى قبض رجله وضرب بها صدر زُفَر فألقاه خارج السرير غير مكترث لكونه صاحب مئة ألف سيف من القيسية!

وهنالك أمثلة يصعب تعدادها في الحياة العربية ماضياً وحاضراً، تبيّن هذا الأسلوب الجريء المباشر **في التخاطب والتعامل بين الحاكم والمحكوم والسيّد والمسود**، وهو ما كان يحدث في كثير من الأحيان مآزق دراماتيكية وردود فعل مأساوية خطيرة من جانب أحد الفريقين، من مثل ما تورط فيه **ديك الجنّ الحمصي** الذي أرخى العنان لشهواته ورفع الكلفة أكثر ممّا يجب في علاقته الجنسية بغلامه بدر وجاريته ورد، الأمر الذي جعله يقتلهما معاً، ويصيبه الندم بعد الجنون فيقول متلهفاً على ورد:

---

(٤٦) الدِمَن جمع دمنة وهي المكان الذي تجمع فيه نفايات الناس والحيوانات الأليفة فتصبح كالأسمدة سرعان ما ينبت العشب حولها وعليها. ومعنى البيت أن الدمن التي تبدو نضرة في الظاهر يظلّ باطنها قذراً خبيثاً، وصدورنا تظهر الولاء للأمويين كما تبدو المراعي الخضراء على صفحة الدِمَن، لكن الأحقاد والحزازات تبقى كامنة فيها .

أجريتُ سيفي في مجالِ خِناقِها ومدامعي تجري على خَدَّيْها
روَّيتُ من دمِها الثرى ولطالما روَّى الهوى شفَتيَّ من شفتيها

أو كما حصل لأبي الطيّب المتنبّي عندما كمن له فاتك بن أبي جهل الأسدي بالقرب من دير العاقول الى الجانب الغربي من بغداد، وداهمه بأكثر من ٧٠ فارساً، ولم يكن في صحبة المتنبي إلّا ابنه محسّد وغلامه مفلح، مع الجمال المحملة بالكتب والهدايا النفيسة التي جاء بها من بلاد فارس.

وسرعان ما أدرك أبو الطيّب الخطر الداهم فحاول الهرب من المواجهة، لكن غلامه سخر منه في تلك اللحظة وبادره بالقول: أتهرب وأنت القائل:

الخيلُ والليلُ والبيداءُ تعرفني والسيفُ والرمحُ والقرطاسُ والقلمُ؟؟!

فنهره المتنبي قائلاً: «قتلتَني يا ابن الزانية!.» ثم ثنى عِنان جواده وحمل على المهاجمين، فما زال يُقاتلهم حتى خرّ صريعاً مع ابنه محسّد، وسلم الغلام.[٤٧]

---

(٤٧) يقول معظم المؤرخين أن المتنبّي كان قد هجا رجلاً يدعى ضبّة بن زيد العُتبي أساءَ معاملته مع بعض رفاقه من أهل الكوفة وهم في طريقهم الى فارس بقصيدة بذيئة الألفاظ، مطلعها:

ما أنصفَ القومَ ضَبَّة وأمُّهُ الطُرْطُبَّة

وصدف أنَّ أمّ ضبّة المذكور كانت شقيقة فاتك الأسدي فحقد هذا عليه وتعمد قتله في طريق عودته.

وقد أوغرت هذه العلاقة الإنسانية البعيدة عن أي تمييز طبقي في المجتمع العربي حيث لا يزال الرئيس الى يومنا هذا يعتبر المرؤوس كأحد أبنائه أو فرداً من أفراد عائلته، كما يخاطب هذا مولاه بعبارة «يا عمّي» في معظم الأحيان، وخصوصاً في البلدان الحافظة لتقاليد البداوة... أوغرت هذه العلاقة الأصيلة في الديموقراطية العفوية، صدور الشعوبيين[٤٨] الحاقدين على العرب، لا سيّما وأن رسول قيصر الذي وفد على أمير المؤمنين عمر بن الخطّاب فوجده نائماً في ظلّ نخلة وبادره بالقول: «**كيف تنام هكذا وحيداً. ألا تخشى اعتداء أحد من العامة وأنت أمير الدولة وصاحب السلطان؟! إن مولاي القيصر لا يخرج من قصره إلّا محاطاً بأربعين ألف فارس.**» **فأجابه الفاروق: «لست بحاجة لأي حماية يا رجل. لقد عدلتُ، فأمِنتُ، فنمتُ»!!**

والواقع أن هذه الروح الديموقراطية القائمة على العدالة والمساواة، والتي كان يردفها النسب الواضح والخطاب الصريح، إنما قطعت دابر الازدواجية في المفاهيم والمعايير، وتضارب

(٤٨) الشعوبية حركة نشأت ضدّ العرب في صفوف الأعاجم الفرس والروم وغيرهم من الأمم التي اعتنقت الإسلام بعد الفتح، فأذلها العرب الغزاة واستعبدوا فريقاً نابهاً متفوقاً من رجالها في مختلف الميادين الاجتماعية والاقتصادية والثقافية، وقد سمّي هؤلاء بالموالي، ونسبوا الى قبائل كانت تعتقهم من الرقّ، لكنها تمنعهم من تزوج نسائها، وتعاملهم بأسلوب طبقي يذكّر بأصولهم الأعجمية. الأمر الذي دفعهم الى الحقد والكراهة والكيد للعرب ودولتهم بأساليب شتّى، وتواطأوا مع العبّاسيين على الأمويين كما أسهموا إسهاماً أساسياً في إزالة حكمهم.

الصلاحيات، وميوعة التقرير والتدبير، وحفظت كيان الدولة، ولم تكن بعض عواقبها السيئة في العلائق بين الأفراد، لتكتسب طابع الشيوع والتعميم بأي حال، بل كانت تحسب دائماً في عداد التصرفات الظرفية الشاذة... ولكن لها العديد من الخصائص الإيجابية التي تنادى الشعوبيون الى تخريبها بمختلف الأساليب الخفية والظاهرة... فيقول الإمام علي: «**لقد أصبحتْ الأممُ تخاف ظُلمَ رعاتها وأصبحتُ أخاف ظلمَ رعيّتي.**»

ولدينا شواهد ناطقة تفضح التآمر الشعوبي المبكر على الدولة العربية في مختلف الميادين، أهمها شعارات وكتابات من نتاج أعلام من الأعاجم لا يحمدون على ما أدخلوه الى الحياة العربية من قناعات خاطئة واتجاهات فكرية باطلة ومسيئة، من مثل المقولة التي لا تزال شائعة بأنّ «**النسب علم لا ينفع وجهالة لا تضرّ!**» فكأن من الأفضل ألّا يعرف المرء أنه ذو أصل كريم فيسعى الى تظهير محاسنه وتعزيز هويته بالأعمال الصالحة النافذة والخيّرة، أو لا يعرف أنه ذو أصل وضيع فيعمل على تشريفه بالمكارم والمآثر الفاضلة والأخلاق الحميدة!

والحق يقال أن مثل هذه المقولة التي يستخدمها بعض المفكرين من دعاة الإصلاح الاجتماعي، ويتصدون بها للعنصرية القومية الشوفينية في عصرنا، قد تنجح الى حدّ ما في التأسيس للغيريّة واستئصال كره الآخر ودفع نوازع التعصب والاستكبار، لكنها تفتح الباب على مصراعيه أمام نكران الذات وإضعاف الشخصية وتقويض الانتماء القومي الطبيعي خدمة للعولمة

الافتراسية اقتصادياً وسياسياً وثقافياً.

وتأكيداً للمقولة المشار اليها التي عمل الشعوبيون على ترسيخ آثارها في النفس العربية وخصوصياتها أخذوا يروّجون لها حتى غدت لدى الرأي العام من المسلّمات الخلقية المألوفة، فسلكت سبيلها الى الشعر، وهو ديوان العرب وأغلى ذخائرهم يتفاخرون به ويتبارون، ويحفظون من جيل الى جيل، وكان في عداد الذين غُرّر بهم على هذا الصعيد قاضي منبج الشاعر زين الدين عمر بن الوردي الذي أوصى بإهمال النسب في «نصيحة الإخوان» القصيدة التي ذاعت شهرتها بين العرب(٤٩) وقد ورد فيها:

لا تقلْ اصلي وفصلي أبداً ... إنما أصلُ الفتى ما قد حَصَلْ
قيمةُ الإنسانِ ما يُحسِنُهُ ... أكثرَ الإنسانُ منهُ أو أقَلّ

ومقابل هذه القهقرية النفسية التي وصمت بها الشعوبية العنصر العربي، راح الأعاجم يدّعون لأنفسهم الصفات التي كان العرب يعتزّون بها، من مثل ما يقوله الطغرائي(٥٠) في

(٤٩) هي القصيدة التي مطلعها: «إعتزِلْ ذكر الأغاني والغَزَلْ وقُلِ الفصلَ وجانِبْ مَنْ هَزَلْ». وقد جنح فيها ابن الوردي الى ما ليس يحمد من تقاعس وخمول مغاير للعمل والجهاد ممّا يطبع الإنسان العربي ويصون قوته وصلابته، حيث يقول:=

إطرحِ الدنيا فمن عاداتها ... تَخفِضُ العالي وتُعلي مَنْ سَفَلْ
كمْ شجاعٍ لم يَنَلْ منها المُنى ... وجبانٍ نالَ غاياتِ الأمَلْ
فاتركِ الحيلَةَ فيها واتّكِلْ ... إنما الحيلةُ في تركِ الحِيَلْ

(٥٠) هو مؤيد الدين الطغرائي الأصفهاني الفارسي، ومطلع قصيدته الشهيرة «لاميّة العجم»:

أصالةُ الرأي صانَتْني عنِ الخَطَلِ ... وحِلْيَةُ الفضلِ زانَتْني لدى العَطَلِ

«لاميّة العجم»:

غالى بنفسيَ عرفاني بقيمتها فصُنْتُها عن رخيصِ القَدرِ مبتَذَلِ
وإنْ علانيَ مَنْ دوني فلا عَجَبٌ لي أُسوةٌ بانحطاط الشمسِ عن زُحَلِ
ما كنتُ أُؤثر أن يمتدَّ بي زمني حتّى أرى دولةَ الأَوْغادِ والسَفَلِ
أعْدى عدوِّكَ أدنى مَنْ وثِقتَ بِه فحاذِرِ الناسَ واصْحَبْهُم على دَغَلِ
فإنما رجلُ الدنيا وواحدُها مَنْ لا يُعَوِّلُ في الدنيا على رجُلِ

وخلافاً لما سلف ذكره من جرأة العربي في مخاطبة الحاكم وشجاعته في مواجهة السلطان وعسفه واعتراض هواه، نرى بعض النافذين من الكتّاب والشعراء الأعاجم يعلّمون الخنوع والخداع ومصانعة أولياء الأمر ومحاذرة بطشهم كما في قول ابن الوردي في موضع آخر من لاميته:

جانِبِ السلطانَ واحذرْ بطشهُ لا تُعانِدْ من إذا قالَ فَعَلْ

أمّا عبد الله بن المقفع، فقد نقل كتاب «كليلة ودمنة» من اللغة البهلوية الفارسية القديمة الى العربية. ولمّا كان الأصل الهندي للكتاب وترجمته الفارسية التي وضعها بَرزُوَيْه الحكيم في عهد كسرى أنوشروان (القرن السادس للميلاد)، قد فقدا لاحقاً، فلم يعرف هذا الكتاب الشهير إلّا بنصّه العربي المنقول.

ويقول بعض العلماء من العرب والمستشرقين أن عبد الله بن المقفّع حشر فيه مقاطع وفصولاً من صنعه لا توافق الشيم العربية التقليدية، خصوصاً فيما يتعلّق بخداع السلطان ومداهنته والإيقاع بينه وبين شرفاء مملكته، وجعل في الكتاب من تعاليم الكذب

والدسّ والحيلة ما يعادل تعاليم الأخلاق ومكارمها الظاهرة في نصّه الأصلي. ويعود ذلك في رأي أولئك العلماء، الى أن ابن المقفّع، واسمه الفارسي «رَوْزَبَيْه بن دادُوَيْه»، كان حاقداً على العرب منذ أن نكّل الحجاج بن يوسف بأبيه المقفّع[٥١] الذي كان مؤتمناً على الخراج في العراق وفارس، بعد اتهامه بسرقة أموال الدولة.

وكان ابن المقفّع قد تظاهر باعتناق الإسلام، لكنه بقي على المجوسية وعبادة النار، وعرف بالزندقة والكيد والتآمر الى حدّ ان الخليفة أبا جعفر المنصور أمر بقتله والتمثيل به وهو في السادسة والثلاثين من عمره سنة ٧٥٩ للهجرة.[٥٢]

ومهما يكن من أمر، فإن كلّ هذه المحاولات الهادفة الى نقض الشخصية العربية وزلزلة كيانها الأصيل وقناعاتها الثابتة، لم تتمكن من تحقيق أغراضها، وظلّ العرب متحفّظين وحافظين لشخصيتهم وقناعاتهم، وخفيت العوامل الفعالة التي أمّنت ذلك

---

(٥١) دعي والد عبد الله بالمقفّع أي المتشنّجة يداه، لانقباض في أصابعه.

(٥٢) لعل خير مثال على زندقة ابن المقفّع ما رواه صاحب الأغاني من أنه كان يمرّ يوماً بهيكل مجوسي يعبدون فيه النار، فوقف عنده، وقال:

يا بيتَ عاتِكَةَ الذي أتَعزَّلُ ... حَذَرَ العِدى وبهِ الفؤادُ موكَّلُ
إنّي لأمْنَحكَ الصدودَ وإنّني ... قسماً إليكَ معَ الصدودِ لأمْيَلُ

والبيتان مطلع قصيدة لعبدالله الأحوَص يمدح فيها عمر بن عبد العزيز الخليفة الأموي، ومعناهما: يا أيها البيت الذي تعبد فيه العاتكة (أي النار) إني أبتعد عنك مع أن قَلبي متعلّق بك، وأنا أميل اليك مع تظاهري بالصدود عنك.

والعاتكة كما وردت في قصيدة الأحوص لها معنى آخر قاموسياً هو النبيذ الأحمر، وكان الأحوص معروفاً بمعاقرة الخمرة.

الصمود على من تكنّى بهم وتعامل معهم في مختلف العصور. ذلك أن معظم الذين درسوا طبائعهم من الباحثين والمؤرخين انطلقوا من مسلّمة غير دقيقة مفادها أن الإسلام قد خلق العربَ خلقاً آخر مختلفاً، والحق يقال أنهم «عرّبوه» بمعنى من المعاني عن طريق بعض تصرّفاتهم المنافية لتعاليمه أكثر ممّا أسلمهم، وكأن بينهم وبين الجاهلية رباطاً، أو كأنّ لهم في مضارب الصحراء مَناطاً.

الفردية والأنانية والسلاح . .

فقد استعصت الفردية الجاهلية ذات الجذور البدوية والهوية السامية المتألهة في النفس العربية بالذات على كلّ المراهم والتمائم والشفاعات والأدعية والإغراءات الحضارية من كلّ نوع، وتمرّدت حتى على الانقلاب الهائل الذي أحدثه الإسلام في المجتمع العربي وسائر المجتمعات الإنسانية المتخلّفة والمتطورة في العالم القديم. ولا يزال الإنسان العربي اليوم يقول في عقله الباطن مع الفارس الجاهلي صاحب الصمصامة(٥٣) عمرو بن

(٥٣) هو الاسم الذي يطلق على سيف عمرو بن معدي كرب. وكان أشهر سيوف الجاهلية وأمضاها. ويقال إن عمر بن الخطاب طلب الصمصامة مرّة من صاحبها ليجربها وينظر في مدى فاعليتها، فوجدها كسائر السيوف، وردّها الى عمرو مع رسول أخبره أن الخليفة لم يرَ فيها ما يفوق غيرها من السيوف، فقال أبو ثور (وهي كنية عمرو بن معدي كرب): «قل لأمير المؤمنين إن السيف لا يكون بمقبضه ونصله، بل باليد التي تضرب به!» ويروي الطبري أن عمر بن الخطاب كان يعتبر كلاً من عمرو بن معدي كرب وطليحة الأسدي بألف فارس!=

معدي كرب الزُبَيْدي:

كَمْ مِن أخٍ لِيَ صالحٍ بَوَّأْتُهُ بيَدَيَّ لَحْدَا
ذَهَبَ الذينَ أُحِبُّهُم وبقيتُ مثلَ السيفِ فَرْدَا

والفردية التي فرضتها الحياة القاسية على العربي في صحرائه، وهي متواصلة في أعماق نفسه الى اليوم، تختلف اختلافاً كلياً عن الأنانية المتوحشة التي تقوم على حبّ الذات وتفضيلها، وتعتمد الأثرة في الغنم والفلاح والثراء، في حين أن الفردية التي يسمّيها بعضهم بالأوحدية تقوم على تطرّف وغلوّ في حرّية الرأي وشعور كبير بالمسؤولية في العمل والتدبير، واستقلال شخصي في الموقف والسلوك. وممّا أوقع التباساً شائعاً بين الأنانية والفردية لدى المؤرخين والباحثين، كونهما يستندان معاً الى «الأنا» وينبعان منها. ولكن **«أنا» الأنانية تعني «أنا وكلّ ما هو في الوجود لنفسي وشخصي» فيما تعني «أنا» الفردية «أنا مستقل حرّ فيما هو نفسي وشخصي دون سواي.»** وانطلاقاً من هذا المدلول المختلف يمكن القول إن الأنانية استئثار متوحّش لا أخلاقي بخيرات الدنيا، في حين أن الفردية استئثار بالذات وتمسّك شبه غريزي بحرّيتها واستقلالها ومسؤوليتها مع غيرية وطيدة وسماح متساهل فيما يتعلّق بمكاسب الآخر من الدنيا.

= لكنه لم يكن يسمح بتوليتهما رئاسة الجند لحماستهما التي تبلغ حدّ التهور. وقد بعث بهما الى سعد بن أبي وقاص لضمّهما الى وفد كان سعد يرغب في إرساله الى كسرى يزدجرد قبل وقعة القادسية للتأثير على معنوياته عندما ينظر الى قامتيهما الجبّارتين، وكتب الخليفة الى سعد يقول: «**بعثت اليك بألفي رجل! فشاورهما في الحرب لكن لا تكلّفهما أي قيادة!**.»

لذلك نستطيع القول إنّ العربي الكريم المضياف المغيث المجير والحادب على أهله وبنيه، حافظ الأمانات والكرامات والأعراض، ليس أنانياً على الإطلاق، وقد يكون فردياً مستبداً يقف دون رأيه ومعتقده الى حدّ الاستماتة في سبيلهما. وهو أمر يخالف كلياً ما يذهب اليه فريق من المستشرقين والناقدين العرب والأجانب من المتأثرين بآرائهم، عندما يتهمون العرب، وحتى الأعراب الى حدّ ما، بما يسمّى الأنانية، وهم منها براء.(٥٤)

وكان من البديهي، بل من المتحتّم في أي حال، أن يتميّز العربي في الحياة الصحراوية بفرديته، ويتعود من خلالها الثقة المفرطة بنفسه واتكاله عليها دون أي شريك، ما دام مضطراً بصورة مستمرة دائمة على المواجهة والتصدي للضريب الذي يغير عليه في موقعه، إمّا للسلب والنهب والسبي، وإمّا للسيطرة على ذلك الموقع المطموع بمائه ونجعته وخضرائه أو لطيف مناخه... ولعناصر الطبيعة القاسية كالرياح والعواصف الرملية والسيول الفجائية الجارفة، وكلها تخرّب مضاربه وتتلف أمتعته وتقضّ مضاجع أهله وعياله فلا يبقى أمامه سوى التحمّل والرحيل.

وقد تعلّم العربي من أهل الوَبَر في استعداده الدائم للمواجهة والتصدي، فضيلة الصبر الطويل على المكاره، وتعلّم في الوقت نفسه أن يعدّ العدّة للحرب. فالحرب في نظره قاعدة الوجود، وعلى المرء أن يألف الصراع الدائم في سبيل البقاء. صراع مع

(٥٤) أنظر «المقاصد في نوازع العرب وسجاياهم»، تأليف هداية سلطان السالم: «العرب والأوحدية الفردية والأنانية» - (ص ١٦١ - ١٨١)

العدو المتربص الطامع، والمرض الكامن الذي لا تنفع معه التمائم والعقاقير البدائية المتوافرة عندما يظهر، وخصوصاً عندما يتحوّل الى وباء يضربه مع أهل بيته وعشيرته وخيله وإبله ومواشيه... وكذلك صراع مع المجهول من مزاج الطبيعة، كالجفاف وانحباس المطر، والزوابع والفيضانات والزلازل وغيرها... وصراع مع الزمن الذي يبادره بتقادم العمر غِبّاً وضياع الشباب وعزمه وصلابته، الخ...

ثمّ أن الحرب عند أهل البادية شرّ لا بدّ منه ولا مناص، فالبدوي يلعنها في قرارة نفسه، لكنه لا يغفل عنها لحظة، ويتأهب لها في كلّ حين. وإذا كان بعض الشعراء يزهّدون القبائل في الحرب وينعتونها بأقبح النعوت، فإنّ ذلك لا يقع من نفس البدوي الفرد موقع استحسان، لأن زهده في الحرب لا ينجيه من الغدر الذي قد يأتي من الصعاليك وشذاذ الآفاق إن لم يأتِ من القوم الآخرين من أهل الفاقة المتحفزين بحوباء الطمع وغُلواء الهوى. فيقول زهير بن أبي سلمى في معلّقته يذم الحرب:

وما الحربُ إلّا ما علمتُمْ وذقتُمُ وما هوَ عنها بالحديثِ المُرجَّمِ
متى تَبْعثوها تَبْعثوها ذَميمةً وتَضْرى إذا ضَرَّيْتموها، فتَضْرَمِ(٥٥)

ولعل أروع وأصدق ما قيل في وصف الحرب وذمّها ثلاثة أبيات لإمرئ القيس هي الآتية:

---

(٥٥) المرجّم أي غير المعروف القائم على الظن. والمعنى العام أنكم إن بعثتم الحرب تكُنْ أسبابها مذمومة، وعندما تبعثونها تصبح ضارية، وكلّما جعلتموها أكثر ضراوة باتت أكثر اشتعالاً.

الحربُ أولُ ما تكونُ فتيَّةً تبدو بزينَتِها لكلّ جَهولِ
حتى إذا حَمِيَتْ وشَبَّ ضِرامُها عادتْ عجوزاً غيرَ ذاتِ حَليلِ
شمطاءَ جزّتْ رأسَها وتنكّرتْ مكروهةً للشمِّ والتقبيلِ

كلّ هذا يشير الى الأخطار الكامنة في الحرب والتي كان البدوي يمقتها لما تلحق به وبقومه من بلاء، لكنه كان يعدّ لها السلاح يفاخر به ويباهي، ويعرضه أمام الخصم لتخويفه وردعه عن مهاجمته. وما زلنا الى هذا اليوم نسمع من يقول بأنّ «**السلاح زينة الرجال.**» وذلك بنفس المفهوم الفردي القديم لاقتناء السلاح.

ونقف لحظة في هذا المجال عند قول أبي الطيّب المتنبّي في رثاء أبي شجاع فاتك، وكان من سادات العرب في زمانه، فيكبر شأنه لأنه لم يقتنِ المال والذهب في حياته، بل كان همه في اجتباء المكارم واقتناء السلاح:

كُنّا نظنُّ ديارَهُ مملوءةً ذهباً فماتَ وكلُّ دارٍ بَلْقَعُ
وإذا المكارمُ والصوارمُ والقنا وبَناتُ أعوَجَ كلُّ شيءٍ يَجمعُ (٥٦)

ولو شئنا التنقيب في كتب السير والتاريخ ومعاجم اللغة عن أوصاف السلاح والنصائح التي كان القادة والأبطال يقدمونها للمحاربين والمواقف والحركات التاكتيكية التي يوصون بها لما اتسعت لذلك المجلّدات. ونكتفي هنا بتقديم بعض الأمثلة

(٥٦) بنات أعوج يقصد بها الخيل، على قياس بنات العنب أي الخمور وبنات عِرس وغيرها، وأعوج صفة جواد مشهور أصيل قيل أن أصحابه وضعوه في وعاء وكان مهراً يوم فاجأهم بعض الغزاة، وحمّلوه على ظهر ناقة وهم هاربون فاعوجّ ظهره وبقي فيه العوج.

والشواهد المعبرة على سبيل الدلالة النموذجية فقط.

فقد أوصى الإمام عليّ بن أبي طالب أصحابه يوم صفّين بقوله: «**عضّوا على النواجذ من الأضراس، فإنّه أنبى للسيوف عن الهام.**» أي إنه يحمي الرؤوس من وقع السيوف. والمقصود هو الصبر في ساحة القتال لأنه أنجى للمحارب وأسلم.

ويوصي عمر بن الخطّاب الفارس بأن ينزو على جواده، أي يثب على صهوته لامتطائه دون أن يستعين الركاب في ذلك، كما يوصي بأن يخفّف الفارس من أثقاله ويرمي كلّ غرض ليس بحاجة اليه، فيصبح أقدر على الحركة في حومة القتال. وقد كانت خفة الحركة التي يتميّز بها الفارس العربي سبباً رئيسياً في انتصاره على الروم والفرس خلال معارك الفتح في اليرموك والقادسية لأن هؤلاء كانوا مدجّجين بالسلاح الثقيل والدروع المعدنية التي أجهدتهم تحت وطأة حملها وقضت على مقاومتهم.

وقد فاخرت العرب بالسيوف التي أصابتها الفلول من طول استعمالها في المعارك، فيقول النابغة الذبياني مثلاً في مدح الغساسنة:

ولا عيبَ فيهم غير أنَّ سيوفَهم   بهنَّ فلولٌ من قراعِ الكتائبِ

واشتهر اليمنيون وأهل الهند بصنع أمضى السيوف وأغلاها، فيشبّه كعب بن زهير رسول الله بها حيث يقول: إنّه «**مهنّدٌ من سيوفِ اللهِ مسلولُ**».

ويعدّد عمرو بن معدي كرب ما يتميّز به كلّ سلاح من أسلحته، فيقول إن الترس هو «المِجنّ الدائر الذي تدور عليه الدوائر»، وإنّ الرمح هو «أخوك الذي قد يخونك فينقصف»، والنبال هي «المنايا تخطئ وتصيب»، والدرع «حصن حصين، لكنها مُثقلة للرجال ومُتعبة للفارس»... وقد سأله عمر بن الخطاب مرّة رأيه في السيف، وهو صاحب الصمصامة، فأجاب بخبث مشيراً الى عجز الخليفة عن استعماله كما سبق وذكرنا: «**إنّه هناك وكان بين يديك لا أمّ لك!!**» فغضب عمر وضربه بالسوط قائلاً: «**بل أنت لا أمّ لك...**» فقال عمرو: «**الحمّى أضرعتني لك**»، أي أذلّتني لك! وهو مثل يضرب عند الاضطرار حيث يكون لا بدّ من الخضوع. وقد عنى عمرو بن معدي كرب أنّ إسلامه أخضعه لأمير المؤمنين، ولو كان في الجاهلية لما سمح بأن يذلّه أحد على هذا النحو.

الشجاعة أمّ الفضائل البدوية.

أمّا الشجاعة فهي الصفة البارزة للبدوي العربي، تتقدم كلّ الصفات والخلائق الحسنى. وإذا كانت النجدة والإغاثة والضيافة وحماية الجار وغيرها من الفضائل، قد فرضت على البدوي فرضاً بفعل البيئة الصحراوية التي لا ترحم، وكونه قد يحتاج الى مثلها في حياته القاسية من جانب الآخرين إن أصابه مكروه أو تعرّض لنائبة من نوائب الدهر... فإنّ الشجاعة سجيّة من سجاياه

الراسخة في جِناته الطبيعية الأصيلة، يرضعها من ثدي أمّه ويشهدها حوله في تصرّف الأقربين والأبعدين، ويوطّد في قرارة نفسه بمرور الزمن قناعة لا تتزعزع بأنها مفتاح الأمان وقاهرة العدوان، بل أنها قاعدة البرهان كلما تمادى القهر واحتجب العدل وأشكلت على أولي الأمر دلالة العقل في غيهبان الشطط والانحراف.

ولقد أَوْلى العرب القدامى الثأر أهمية بالغة، خصوصاً عندما يهتك أحدهم عرض الآخر، ذلك أنهم يعتبرون العرض من الذخائر الثمينة التي يحيطونها بهالة من القدسية. وكان أهون على البدوي أن يموت من أن تسبى نساؤه ويخرق عرضه فيلبسه العار.

كذلك فرضت تقاليد الحياة البدوية عليه أن ينتقم لقاتل أبيه أو أخيه أو ولده، فأصبحت حاجته الى الشجاعة ضرورة متحتمة، وأحلّها المنزلة الأولى بين المزايا والخلال الواجبة للسيادة والفروسية. فممّا يذكره صاحب «الأغاني» أنّ الفارس المقدام قيس بن الخطيم قُتِل أبوه الخطيم قبل أن يثأر لجدّه عديّ الذي مات هو أيضاً مقتولاً، فعيّروه منذ نعومة أظفاره بتلك السبّة. ولمّا بلغ أشده راح يبحث في القبائل عن قاتلي أبيه وجدّه، حتى وجدهما فأرداهما، وعاد الى قومه موفور الكرامة. ويقول في ذلك:

ثأرتُ عَدياً والخطيمَ ولم أُضِعْ وصيّةَ أشياخٍ جُعِلتُ إزاءَها.

وقد لحظ المؤرخون والباحثون الثقات أن العرب يسوّدون الصعلوك من أمثال عروة بن الورد العبسي، كما يسوّدون الأسود

كعنترة بن شدّاد، والمكابر المفرط في التبجّح كعمرو بن كلثوم التغلبي، والجواد المبذار كحاتم الطائي، والغلام الطري العود كربيعة بن مكدّم، وزير النساء الفاسد السكير كمهلهل ربيعة، وغيرهم. . . لكنهم لم يسوّدوا الجبان والبخيل! وقد شذّ عن هذه القاعدة سيّد واحد عرف بالجبن والخوف، هو حسّان بن ثابت الأنصاري الخزرجي شاعر الرسول الذي كان يختبئ في دور الحريم مع النساء والأطفال خلال المعارك. . . لكنه لم يعرف بخيل واحد من العرب شذّ عن القاعدة المشار اليها وحصل على السيادة والزعامة.

وكثيراً ما كان العرب في أي حال يبرمون بالقتل والتقاتل المفروض عليهم ويأسفون له كبير الأسف. وخير من عبّر عن ذلك شاعر من بني عقيل ذكره أبو تمّام في «ديوان الحماسة»، يقول:

ونبكي حين نقتلُكُمْ عليكم ونقتلُكُمْ كأنّا لا نبالي

ويذكر أبو تمّام شاعراً آخر باسم الحارث بن وَعْلَةَ الجَرمي يتحرق لاضطراره الى الانتقام من قومه الذين قتلوا أخاه، فيقول:

قومي هُمُ قتلوا أُمَيْمَ أخي فلَئِن رَميتُ يصيبني سَهْمي

ومهما يكن من أمر، فقد شهد المؤرخون جميعاً بالشجاعة المثالية المقرونة بالبصيرة الثاقبة والحكمة والإيمان، لأبي الحسن الإمام الغالب علي بن أبي طالب الذي ما نبا سيفه «ذو الفقار» في أي قتال حتى قيل: «**لا فتى إلّا عليّ، ولا سيف إلّا ذو الفقار**»... وهو لم يخرج إلّا منتصراً من جميع المعارك التي خاضها بإقدام

يشبه الأساطير ضدّ الخوارج وفيهم أحد الفرسان المشاهير قطري بن الفجاءة المازني، وضدّ الأمويين الذين زرع الرعب في قلوبهم وأذلّ قادتهم وفرسانهم الأشداء، فلم ينالوا منه إلّا بالكيد والحيلة.

ويقال إنه يوم خرج من العراق بسبعين ألف مقاتل الى صفّين، وقد حشد له معاوية أهل الشام، بغمرهم وغميرهم، جبن معاوية عن مواجهته لأنه كان يعرف أنه هالك لا محالة، فنزل عند نصيحة الداهية عمرو بن العاص السهمي، وأمر جنوده برفع المصاحف. وقد أفلحت هذه الخدعة في شقّ أصحاب علي، وقام فريق منهم يدعو الى وقف الحرب والقبول بالتحكيم. فقال الإمام: «أيها القوم. **إنها كلمة حق أريد بها باطل.**» لكن المنشقين لم يرعوَوا. عندها طلب اليه مالك الأشتر، وكان بطلاً مغواراً يعدله شجاعة وإقداماً، أن ينفردا هو والإمام علي في ضرب الجبهتين معاً: جبهة الأمويين وجبهة المنشقين. فقال علي: «**كلّا يا مالك بل نحقن دماء المسلمين...**»

ومن أقواله الشهيرة التي تعبّر عن حكمته وبعد نظره وحرصه على سلامة الأمّة ووحدتها وصيته لبنيه وصحبه وقد وافاه الأجل: «**لا تقاتلوا بعدي الخوارج، فإنّ من طلب الحق فأخطأه خير ممّن طلب الباطل فأصابه...**»

وقد جبن صاحبا معاوية، الوليد بن أبي المعيط، وعمرو بن العاص، وكانا من الفرسان الأشداء في جيش الأمويين، وهربا من وجه عليّ يوم أصرّ عليهما معاوية بمنازلة

الإمام، وأخذ كلّ منهما ينحي بالملامة على الآخر.(٥٧) وفي أي حال يمكن القول إن الهرب كان يعتبر من ضروب الحكمة عندما يصبح الإقدام سبيلاً الى الموت المحقّق، وإذا عُيّر الهارب بالجبن فالمتهوّر يعيّر بما هو أقبح، أي الانتحار الغبيّ. لذلك لم يتورّع عمرو بن معدي كرب الزبيدي المغوار عن الفرار من الموت في معركة القادسية عندما طوّقه العدو وأيقن أنه هالك، فيقول:

ولقد أَجمعُ رجليَّ بها (أي الفرس) حذرَ الموتِ وإنّي لَفَرورُ

وورث أبو عبد الله الحسين بن علي الشجاعة عن أبيه، ولما قتل في كربلاء كان دمه يسيل من جراح صدره، ولم يعثر في ظهره إلّا على جرح واحد هو موضع السهم الذي رماه به خولي بن يزيد الأصبحي ووقع في لَبّته، وقد انحنى الحسين البطل على مقدمة سرجه وهو ينزف وانتزعه من ظهره.

ويقودنا البحث في أمر الشجاعة الى كونها استجمعت في ذاتها جميع الفضائل. فالشجاعة تمثل أعلى درجات الكرم والجود، ما دامت تفترض تعريض صاحبها للموت في معرض

---

(٥٧) يقول الوليد بن أبي المعيط لائماً عمرو على فراره من وجه عليّ:

كأنَّ القومَ لما عايَنوهُ (أي علي) خلالَ النَّقْعِ ليسَ لهم قلوبُ
سوى عمروٍ وَقاهُ ما وَقاهُ وكانَ لقلبِهِ مِنهُ وَجيبُ
لقد ناداه في الهَيجا عَليٌّ فأسمَعَهُ ولكن لا يُجيبُ

فيردّ عمرو بن العاص على الوليد بقوله:

يُعَيِّرني الوليدُ لِقاءَ لَيثٍ إذا ما شدَّ هابتهُ الأُسودُ
أتهرُبُ يا ابنَ أبي مَعيطٍ وأنتَ الفارسُ البطلُ النَّجيدُ؟!

إقدامه وتحدّيه للمستصعبات، لأنه ما من جود يعدل الجود بالنفس. وبدون الشجاعة، لا وجود للنجدة، وإغاثة الملهوف، وإيواء من ضلّ السبيل، وردّ المعتدي الغازي، والذود عن حياض الشرف والأرزاق والأعراض. وبغير الشجاعة لا يقوى البدوي على سُرى الليل وتحمل المشاق في التنقل، والمصابرة والجلاد في حرارة الأَوداء والأحقاف ورياح الرمل، ومغالبة الأوبئة والأدواء، والاكتفاء بالبُلغة الضئيلة من الغذاء في شظف الحياة.

كلّ هذه وغيرها من فضائل الجاهلية لم يكن العربي ليتميّز بها في صحرائه لولا الشجاعة. ثمّ إنّه لم يكن ليلتزم فيما بعد لولا الشجاعة إيّاها، تلك الفرائض التي أوجبها الإسلام، وأولها الإذعان لإرادة القائد الآمر، والامتناع الصعب عن آثام الحياة الجاهلية ومغرياتها التي أوصى الإسلام باجتنابها كمعاقرة الخمر، وغيرها من العادات التي تقهر الإرادات. ولولا الشجاعة لما تنكّب العربي أوزار الجهاد وتحمل أعباءه في السلم والحرب، وأخطره بل أعظمه شأناً الجهاد في سبيل الله، ذلك الكائن الغامض المحتجب الأعلى الذي لا يتجسّد بصورة امرأة ولا ولد ولا بلد ولا ثروة ولا جاه ولا حكم ولا سلطان. ولو اقتصر الأمر على القتال في سبيله فقط لهان وكان في حيّز الإمكان، لكنه تخطّى ذلك الى الاستشهاد في سبيله استشهاداً بالاضطرار أو بالاختيار حسبما تسوّله للعربي نفسه أو تبلغ منه الشجاعة مبلغاً يرفعه الى مستوى الملأ الأعلى بالإفراج عن

الروح التي تستقبلها الجنّة بإكرام وتجِلَّة فائقة دونهما جزاء الخالدين.[٥٨]

وقد حسمت الشجاعة بالإضافة الى كلّ ذلك، مسالة الطبقية في المجتمع العربي قبل الإسلام، كما حسم الرسول تلك المسألة الدقيقة والبالغة الأهمية في مسار الأمم ومناهـج حياتها، وذلك حيث قال في خطبة الوداع: (**أيها الناس. إن ربّكم واحد، وإن أباكم واحد. كلّكم لآدم، وآدم من تراب. إن إكرمكم عند الله أتقاكم. ليس لعربي على أعجمي فضل إلّا بالتقوى.**) وهل كانت التقوى الحقيقية غير شجاعة قصوى لا يقدر على مثلها إلّا الكاظمون المؤمنون؟!

ولا بدّ من الإشارة في سياق الحديث عن الطبقية الاجتماعية، الى أنها فقدت منذ الجاهلية قدرتها على التمكّن والرسوخ في الحياة العربية القديمة، مع وجود الشجاعة. فبصرف النظر عن مفاهيم السيادة والإمارة والملك التي سبق وذكرنا، وهي

---

(٥٨) بالإضافة الى ما ورد في القرآن من آيات تحث على الجهاد وتوجبه، هنالك طائفة من الأحاديث النبوية التي تقدمه على سائر الفرائض وتمتدح الاستشهاد خلاله، كما في قوله:

«**مَن قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، فهو في سبيل الله.**» (أخرجه البخاري ومسلم عن أبي موسى الأشعري).

وقوله:

«**أرواح الشهداء في حواصِل طيورٍ خُضر**» (أخرجه مسلم عن ابن مسعود).

أو قوله:

«**أفضل العمل الإيمان بالله والجهاد في سبيله**» (أخرجه البخاري ومسلم عن أبي ذرّ الغفاري).

وغير هذا كثير.

ذات مدلولات تختلف كلّياً عن أي معنى طبقي، يبدو من تحصيل الحاصل في أي حال أن يكون سيّد القوم أو أميرهم أو مليكهم بالدرجة الأولى شجاعاً مقداماً، وكلّ ما عدا ذلك من شروط السيادة يأتي بالدرجة الثانية من الأهمية والاعتبار، حتى أن العرب كانت تفضّل الصعلوك الشجاع البطل على الكريم النسب من ساداتهم الذين يتميّزون بصفات أخرى حتى ولو كانت خارقة عظمى.

فالصعلكة في الحياة البدوية القديمة لم تكن طبقة اجتماعية، أو عصبة إجرامية، أو حركة حزبية منتظمة، بل «**طريقة حياة**» يتّبعها رجال دفعت بهم ظروف معينة الى الانفصال عن المجتمع القبلي وسلوك السبل المخالفة للقواعد الاجتماعية والأعراف التراثية المعتمدة في حياة البادية. وكثيراً ما كان هؤلاء يتحوّلون عبر تجاربهم الطويلة ومغامراتهم وبلائهم في الحروب الى شخصيات شبه أسطورية، فيحظون بمحبة الكثيرين واحترامهم، لا سيّما وأن معظمهم كانوا يقرضون الشعر وتنتشر مفاخر قصائدهم بين القبائل وتنتقل على ألسنة الركبان إنشاداً وحداء.

السادة والصعاليك وأبناء الإماء...

ومن جمهرة أولئك الصعاليك والملونين السود أبناء الإماء الذين كانوا يعاملون معاملة العبيد، حتى إذا تفوّقوا بالشجاعة والفروسية والنجدة انقلبوا أسياداً في قومهم، نختار اثنين يمثلان

مزايا خلقية ونفسية معبرة في سياق دراستنا هذه لجذور النفس العربية التي تواصل امتدادها عبر مختلف العصور، وهي تعكس في أصالة منبتها صور الحياة القديمة في مجاهل الصحراء.

الأول هو ثابت بن أوس الأزدي اليمني المعروف بلقب «الشنفرى» وهو يعني «العظيم الشفة». وتقول الأسطورة أن بني سلامان أسروه صغيراً في إحدى غزواتهم، فنشأ بينهم وهو يجهل انه من الأزد. وفي أحد الأيام قال لصبيّة من بنات مولاه: «ألَا غسلتِ رأسي يا أُخَيَّة؟» فصفعته وقالت: «أنا لست أختك!» وسأل عن سبب ذلك فأخبر بحقيقة نسبه. وبلغ منه الغيظ حداً جعله يضمر الشرّ لأولئك القوم، ثمّ هرب من حيّهم **وأقسم أن يقتل منهم مئة رجل** تعويضاً له عن استعباده. وقد تمكن، بحسب الرواة، أن يقتل تسعة وتسعين من هؤلاء. لكن بني سلامان تمكنوا من القبض عليه بالحيلة بعد جهد جهيد لأنه كان عدّاءً خارقاً يسبق الخيل! فقتلوه ورموا جثته في أرض قاحلة حيث انتاشتها السباع. ويقال أن رجلاً من سلامان مرّ بعد أعوام بذلك المكان فضرب الجمجمة بقدمه، ولعن صاحبها. وحدث أن دخلت شظية من الجمجمة في قدم الرجل فتسمّم ومات. واكتمل بذلك عدد المئة الذي حلف الشنفرى أن يقتل من مستعبديه!..

وتبيّن هذه الحكاية وغيرها من الحكايات العديدة المماثلة في الجاهلية، أن العرب كانت **تفضل الموت على العبودية**. وقد أظهرت وقائع الحروب التي يصعب تعدادها، والتي خاضها العرب سواء في الجاهلية أو بعد ذلك في الإسلام، أنهم كانوا

يواجهون الموت بشجاعة فائقة، وإن وقع أحدهم في الأسر يعملون بأي وسيلة لدفع فديته واسترداده. **لكننا لم نعثر في كتب التاريخ على ما يفيد بأن أي فرد أو مجموعة ممن أسروا قد بيعوا بيع الرقيق**، فيما كانت أسواق النخاسة أيام الحروب منتشرة في عواصم الأمبراطوريات القديمة وممالك القرون الوسطى.

وتدلنا قصة الشنفرى من جهة ثانية على أهمية الثأر الذي يتحكم بالنفس العربية الى اليوم. فالعربي في أعماق ذاته لا يعرف النسيان. وهو بمقدار ما يذكر الحسنة ويقابلها بالوفاء، يذكر السيئة ويقابلها بالثأر والانتقام، ولو بعد أعوام وعقود. وعبثاً حاول المشترعون المتأثرون بالقواعد الحضارية المعاصرة أن يلغوا الأسباب التخفيفية لجرائم الثار أو جرائم الشرف وما اليها من القوانين الجنائية المعمول بها، فإن المحاكم في العالم العربي لا تزال تجنح من طريق سلطاتها الاستنسابية الى نوع من التساهل الغريزي الموروث مع المنتقم الذي يثأر لقتيله المغدور أو عرضه المخروق، وقلّما فرضت العقوبة القصوى على تلك الفئة من أصحاب الجنايات. وتنطبق هذه السلائق الانتقامية الثأرية على الجماعات كما تنطبق على الأفراد، حيث تبين أن العرب يعرفون كيف ينتقمون من الحاكم الجائر أو الخائن أو المنحرف مهما يتمادى الزمن، وهم يعاملون الأمم الأخرى القوية بهذه الروح، فيربض الحقد وإرادة الثأر في أعماق صدورهم ويكمن كمون الجمر تحت الرماد، الى أن تتاح لتلك اللواعج الكامنة أن تتفجّر (...) ولا حاجة بنا الى تعداد الأمثلة التي لا تعدّ ولا تحصى

على هذه الخليقة الأصيلة في تاريخهم القديم والحديث.

ولعل خير أثر وصل إلينا من آثار الشنفرى ذلك الصعلوك المارد الفتّاك، وكان شاعراً مقلّاً، هي قصيدة على قافية اللام تعرف «بلامية العرب» مطلعها:

أَقيموا، بني أُمّي، صُدورَ مَطيِّكُمْ   فإنّي الى قومٍ سواكم، لأَمْيَلُ

وتتألّف هذه القصيدة من ٦٨ بيتاً على البحر الطويل، يصوّر فيها الشنفرى حياته القاسية المتوحشة في الصحراء، وغزواته وفتكه بأعدائه، وهي تمتاز بدقة الوصف الحسّي الواقعي والفطري، وذلك بأسلوب تعبيري بدائي معقد ومفردات غريبة عائدة الى الجاهلية الأولى أعجزت علماء اللغة، وتبارى العديد منهم في شرحها وتفسيرها.[٥٩] لكنها تعبر تعبيراً صادقاً ودقيقاً عما يختلج في النفس العربية من نوازع وميول، حتى لقد نسب الى الرسول قوله: «**علّموا أولادكم لاميّة العرب، فإنها تنطق بمكارم الأخلاق.**»

والواقع أن أهم ما يستخلص من هذه القصيدة، التوحّد والانفراد في مواجهة الأخطار، والصبر الكبير على المكاره، والجَلد على شظف العيش واحتقار الغنى، والترفع عن النميمة

---

(٥٩) كثيرون هم الذين شرحوا «لامية العرب»، لكن الشرح الأفضل وضعه الزمخشري في كتاب «أعجب العجب في شرح لاميّة العرب»، وطبع في القرن التاسع عشر. ومن شرّاحها الأوائل أبو العبّاس المبرِّد وأبو العبّاس ثعلب في أواخر القرن التاسع الميلادي، ويذكر فؤاد افرام البستاني في الجزء الأول من مجموعة «الروائع»، وجود شرح للّامية بقلم محمد بن يحيى بن كرم الواسطي يعود الى سنة ١٦٨٥م. وهو مخطوط في «المكتبة الشرقية» ببيروت.

والزهد بالغنيمة، وترويض النفس على الحرمان، وتفضيل التنقّل على القعود، ومؤالفة الوحوش والضواري دون البشر الذين فطروا على الخيانة والغدر...



أمّا الشخصية الثانية التي نختار فهي شخصية عنترة بن شدّاد العبسي الذي أخذ لونه الأسود من أمّه الأَمَة الحبشية زبيبة، وكان يعامل معاملة العبد في قبيلته أسوة بسائر أبناء الإماء قبل أن تظهر فروسيته الخارقة ويصبح شخصية أسطورية هو الآخر.

وقد ذكر الأصفهاني صاحب «الأغاني»، والتبريزي في «شرح المعلقات»، وابن قتيبة في «الشعر والشعراء»، وغيرهم من رواة الأدب ومؤرخيه، الكثير من أخبار عنترة ومآثره البطولية وآثاره الشعرية في الحماسة والفخر. ويقول ياقوت في «معجم البلدان» أن «العنتر» نوع من الذباب الأزرق الضخم والعنترة واحدة منه، وقد سمّي ابن الحبشية بهذا الاسم لأن لونه الأسود كان يضرب الى الزرقة. وروي أن أباه شدّاداً كان ينكره بسبب لونه، لكنه نماه اليه بعد ما ظهر من بسالته وتألق شاعريته.

ويمكن القول ان الشعبية التي يتمتع بها عنترة الى اليوم **تفوق شعبية أي بطل عربي في الجاهلية والإسلام**، لما يمثله من سموّ خلقي وترفع مسلكي، فضلاً عن العفة والشهامة والإباء، الأمر الذي جعل «قصة عنترة» الشهيرة تتكامل عبر الأزمنة على يدّ كتّاب

ورواة وشعراء معجبين بتلك الشخصية الفريدة، وتمتزج فيها الحقائق التاريخية بالنوازع الخيالية، والخوارق الأسطورية، ولا تزال تعقد حول قرّائها الحلقات في مختلف ديار العرب، وتلهب حماسة الناس الذين يتحزّبون لعنترة في مبارزة سائر الأبطال ومنازلة الفرسان الأشداء، ومقارعة غيره من الشعراء، فضلاً عن إعجابهم بعذرية غرامه وتشبيبه المهذّب الشريف بابنة عمّه عبلة، وغير ذلك من جوانب شخصيته المميّزة.

وأكثر ما نعوّل عليه في دراستنا هنا لفارس بني عبس، هو مجموعة أقواله ومواقفه التي تتجلّى فيها طبائع النفس العربية، وهو حسبنا دون غيره من التفاصيل المتعلقة بسيرته والتي يحتاج عرضها والتعليق عليها الى مجلّدات.

• يقول في نبذ عنصرية العبسيين وتعييرهم له بأمه مفتخراً بأنّه ينسب الى حام كانتسابه الى سام:

منهم أبي حقاً فهم لي والدٌ والأُمُّ من حام فهم أخوالي(٦٠)

وكان لزبيبة أمّ عنترة أولاد من غير شدّاد العبسي ألحقهم عنترة بعبس عندما اشتد ساعده وقويت شوكته وأصبحت عبس بحاجة اليه.

• وفي مكابرة الإنسان العربي العاتب على الزمن الذي

---

(٦٠) لم يكن أحد يعرف أيام الجاهلية أن الأحباش هم ساميون كالعرب وليسوا من الزنوج الحاميّين الأفريقيين، ولذلك نسبوهم الى لونهم الداكن وظنّوا أنهم حاميّون. والبيت المشار اليه ورد عند ابن قتيبة في كتابه «الشعر والشعراء».

أضعف همّته وهو يعترف بوجود «عمر ثالث» للبطولة أو ما يسمّيه الأجانب (Le troisième âge):

فما أوهى مِراسُ الحرب رُكني ... ولكنْ ما تَقادَمَ من زماني[٦١]

• ويقول ضارباً المثل الأعلى في **العفة والإباء**، وقد ورد هذا في ديوانه المثبت:

أَغْشى فتاةَ الحيِّ عند حليلها ... وإذا غزا في الجيشِ لا أَغشاها

وأَغضُّ طرفي إنْ بدتْ لي جارَتي ... حتى يُواري جارتي مَأْواها

• وهو لا يسدّ جوعه بالأكلة المتيسّرة كيفما اتفق، بل يتوخى **الطعام الكريم** الذي يأتيه بكد يمينه وجنى حسامه:

ولقد أَبيتُ على الطَّوى وأَظلُّه ... حتى أَنالَ به كريمَ المأْكلِ

• ثم إن **التواضع** شيمة يفتخر بها عنترة، ويقرّ بأنه ليس أكثر العرب شجاعة، بل إن أسلوبه في القتال أو ما يعرف «بالتاكتيك» هو الأساس الذي قامت عليه شهرته في الحرب، فقد ذكر صاحب الأغاني انه سئل مرَّةً: «**هل أنت أقوى العرب وأشدّها؟**» فقال: «**كنت أقدم إذا رأيت الإقدام عزماً، وأحجم إن رأيت الإحجام حزماً، ولا أدخل موضعاً لا أرى لي منه مخرجاً. وكنت أعتمد الضعيف الجبان، فأضربه الضربة الهائلة التي يطير لها قلب الشجاع، فأحمل عليه وأقتله (...)**

• ويقول متبجّحاً بفضله على بني أبيه من العبسيين الذين لم

---

(٦١) لم نعثر على هذا البيت في ديوان عنترة، لكن أبا العبّاس المبرّد العالم اللغوي المعروف أورده في كتابه «الكامل».

يؤمنوا بفروسيته إلّا في مرحلة متأخرة، دونما حقد أو ملامة:

قد كنتُ فيما مضى أرعى جِمالَهُمُ   واليومَ أَحمي حِماهُم كلَّما نُكبوا

كما يقول بنفس الحافز المعنوي:

ينادونني في السلمِ يا ابنَ زبيبةٍ   وعند اصطدامِ الخيل، يا ابنَ الأطايبِ

● وهو إذا شرب الخمر ينفق ماله، لكنه **يحرص على سلامة عرضه**، أي أنه لا يفرط بمبادئه الخلقية. أمّا عندما يصحو من نشوة الخمر فهو رجل الشمائل والفضائل:

فإذا شربتُ فإنَّني مستهلكٌ   مالي، وعرضي وافرٌ لم يُكلَمِ
وإذا صَحوتُ فما أُقصِّر عن ندى   وكما علمتِ شمائلي وتكرُّمي

● أمّا **علاقة الحب العذري** الذي نشأ بين عنترة الأسود وابنة عمّه عبلة البيضاء، فقد استأثرت باهتمام القصاصين والرواة الى أبعد مدى، وبلغت من عواطف الجماهير كلّ مبلغ، حتى أن الكثيرين من الشعراء تقمّصوا خيالياً شخصية عنترة وقالوا في عبلة شعراً خالداً لم يقله هو، فأضافوا الى معلّقته الشعرية التي مطلعها:

هل غادرَ الشعراءَ من مُتردَّمِ   أم هل عرفتَ الدارَ بعد تَوهُّمِ
يا دارَ عبلةَ بالجِواءِ تكلَّمي   وعِمي صباحاً دارَ عبلَةَ، واسلَمي(٦٢)

(٦٢) المكان المتردَّم الذي هُدم وأعيد ترميمه، والشاعر يقصد هنا أطلال الدار التي كانت تسكنها الحبيبة، فكأنه يقول: «هل فات الشعراء قبلي بكاء على طلل؟» وأغلب ظنّنا أن البيت الثاني من المعلقة والعديد من أبياتها منحول من صنع الرواة، لأنه يختلف عن لغة الجاهليين. وقد شكّ الدكتور طه حسين بنسبة معظم الشعر الجاهلي الى أصحابه. ولسنا هنا في صدد النقد الأدبي لشعر الجاهليين، لكننا نميل ميل عميد الأدب العربي في شكّه وتحفّظه البصير.=

. . . أضافوا الى هذه المعلّقة الكثير من الأبيات المنحولة مثل قوله:

هلّا سألتِ الخيلَ يا ابنةَ مالكٍ   إن كنتِ جاهلَةً، بما لم تَعلَمي
يُخْبِركِ من شهِدَ الوقيعةَ أنّني   أغشى الوغى وأعفُّ عند المغنَمِ

أو القول الذي نسبوه اليه وهو من روائع الشعر الذي لا يطابق بأي حال خشونة الغريب من مفردات الجاهلية، وأضافوه الى المعلقة:

ولقد ذكرتُكِ والرماحُ نواهلٌ   مني وبيضُ الهندِ تَقطرُ من دمي
فوددتُ تقبيلَ السيوفِ لأنها   لمعتْ كبارقِ ثغرِكِ المتبسِّمِ

وفي أي حال، نستطيع بعد هذه الجولة القصيرة في شخصية عنترة ونماذج من شعره، ان نكتشف، أن العربي الذي يؤثر الانتساب الى أبيه يضمر في أعماقه حباً لأمه عميق الأثر في وجدانه، وهو ما يحفزه على التفوّق واقتحام الصعاب فلا يخطر ببال أحد من قومه أن كونه ولد من أمّ أعجمية هو مصدر تخلّف أو قهقرية أو خمول، حتى ولو كانت تلك الأمّ ذات لون أو عنصر مختلف عن لون أبيه وعنصره. ثم إن العربي ليس اتكالياً في جوهر كيانه، ولديه، على اختلاف وضعه الاجتماعي والثقافي والمالي، طموح الى مزيد من العمر عسى أن يكسب بعد العسر يسراً، ولذلك يرى الحياة أقصر من ان يحقق الإنسان فيها أمله وطموحه!

= ومهما يكن من أمر فإنّ ما نقف عنده، سواء أكان من شعر عنترة الأصيل أو المنسوب اليه، هو ما يتضمّن من ملامح وإشارات حول طبائع النفس العربية وخصائصها فقط.

وهو في الوقت نفسه، خلافاً للثوب الذي ألبسوه إيّاه بالإدّعاءات المغرضة والافتراءات المنظّمة، وفي معزل عن بعض أصحاب الثروات القارونية الغارقين في المباذل الفاسدة، إنسان مؤمن **بعفّة النفس والجسد، مترفع عن الصغائر**، يؤثر الشبع الحلال على التخمة الحرام، ولا يجد حرجاً في القتل أو الزنى أو أي من الكبائر شرط أن تتم تحت بوصلة ضميرية أساسية هي «**العدالة**»!. وكلّما عزت تلك العدالة منالاً في المجتمع، كلّما عظم انتماؤه الى فرديته واعتصامه بها، وتعلّقه بالحرّية الرعناء تلك المرأة الخارقة الجمال التي تلد المجانين والمشوّهين، والتي ما كان ليقربها لو لم تمت أمّه العدالة التي كانت تحذّره منها!..



- ٤ -

ركائب وعصائب في حياة الأعارب..

لقد فرضت حياة العرب البدائية في الصحراء قيام علاقة متواصلة بينهم وبين حيوانها البري وطيورها. الأمر الذي انعكس انعكاساً مباشراً على تقاليدهم وأعرافهم، وانطبع في النفس العربية انطباعاً راسخاً متفاوت الأشكال والأحجام بحسب المناطق والأقاليم، وطبيعة الأرض، وتجارب الأفراد والجماعات.

وتنقسم مملكة الحيوان الصحراوي في تصنيف الباحثين والمؤرخين القدامى الى ثلاث فئات رئيسية يمكن ترتيبها كما يلي:

١ - الحيوانات والطيور الأليفة.

٢ - الضواري والسباع المفترسة والجوارح كالنسور والعقبان والصقور وغيرها.

٣ - الزواحف والحشرات القاتلة المتوحشة.

أرستوقراطية الخيل

أمّا الحيوانات الأليفة فمنها السوائم والمواشي التي يربيها البدوي ويتعهد مرعاها ومبيتها وتناسلها، فيغتذي بلحومها وألبانها ويكتسي بجلودها، كالضأن من الغنم والماعز، والجمال والأحصنة والعجول، السارحة في المراعي والتي أحلّ ذبحها لطعامه، وأجاز لنفسه أن يهبها لأي كان أو يقايض بها أو يبيعها. وهي عيون ثروته يتصرّف بها كما يشاء، لكنه في ظروف حياته الشحيحة الصعبة، يحرص بعناية فائقة على سلامتها وتكثيرها، ثمّ يحمي نجعتها بسلاحه لأنها مصدر حياته.

ويضاف الى هذه اللّبونات الغذائية الدواجن البيوضة كالدجاج والبطّ والإوزّ والحمام وغيرها التي تشكل جزءًا لا يتجزأ من يوميات البشر في الوبر وفي المدر، وهي ذات حضور شبه دائم على خوان البيت في المدائن والبوادي.

لكن العلاقة بين الإنسان وبعض الحيوانات الأليفة المختارة يتجاوز حدّ الألفة الناشئة عن الحاجة والاضطرار الى مستوى الصداقة والمودّة الحميمة والتعاطف الذي يندرج في طوايا النفس البشرية وأعماق وفائها وعرفانها.

وفي طليعة هذه الطبقة العزيزة المكرمة، وأكاد أقول «الأرستوقراطية» من الحيوان الأليف، ما عرف منذ القدم في جاهلية العرب الأولى بالركائب والمطايا، كالخيل والنوق. فقد كانت هذه، وأشرفها الخيل، آلة الحرب كراً وفراً، وركيبة الفتح

والغزو، يعتصم البدوي بظهورها لردّ المعتدي، وخوض المعارك، وهي عينه الكاشفة في البطاح ومرآة عواطفه ومشاعره، وكاتمة سرّه، ورفيقة سلاحه، حتى ليمتد بينها وبينه سلك خفيّ من الهواجس والأحاسيس والإشارات الصامتة والحركات المعبّرة. وفي الحديث النبوي أن «**الخيل معقود في نواصيها الخير الى يوم القيامة**»، وكثيراً ما كانت العرب تسمّيها «**الخير**» لقرب ما بين معنى المسمّى ومبنى الاسم من صلة الشبه والتوافق. وقد جاء في القرآن ﴿**إذْ عُرِضَ عليهِ - يقصد سليمان بن داود - بالعَشِيِّ الصّافِناتُ الجيادُ. فقالَ إنّي أَحبَبْتُ حُبَّ الخَيرِ عنْ ذِكرِ رَبّي حتى تَوارَتْ بالحِجابِ**﴾ (سورة ص: ٣١ - ٣٢)[٦٣]

وعني العرب عناية فائقة بالخيل، وأكثروا من أوصافها وتشبهوا بها وامتدحوا اخلاقها في آثارهم شعراً ونثراً، مؤتمّين ومهتدين بقول الرسول إن «**بطونها كَنز وظهورها حِرْز**» أي حمى. وهم قلّما اعدوا لها في الملمات البرادع والسُروج الفاخرة، بل كان المقدام الأمرد من فرسانهم ينزو[٦٤] على الأجرد منها ويثب عليه كالأسد على فريسته، ثم يلتحم بركيبته حتى ليحسبه الرائي قطعة من جسدها وكيانها. وفي ذلك يقول المتنبّي:

(٦٣) الصافنات من الخيل هي التي تقف على ثلاث قوائم وعلى طرف الحافر من القائمة الرابعة، وكأنها شاعرة بحضورها لأمر جلل. وفي شرح الآيتين يقول المفسّرون إن عددها كان يزيد على ألف جواد وفرس، عرضت على سليمان ليختار منها ما يشاء بعد صلاة الظهر، لكنه غفل عن حلول موعد صلاة العصر وغروب الشمس وهو يقلّبها بين يديه، فندم على ذلك وقال: «أحبَبْتُ حُبَّ الخير - يقصد الخيل - عن ذكرِ ربّي...»

(٦٤) ينزو: يثب

فكأنّما وُلِدَتْ قياماً تحتَهُمْ   وكأنّما وُلِدوا على صَهَواتِها

وما كان وصف من اوصاف الخيل في أي لغة من لغات العالم ليضاهي وصف امرئ القيس لجواده في معلقته الشهيرة: «**قفا نبكِ**»، حيث يقول:

مِكَرٍّ مِفَرٍّ، مقبلٍ مدبرٍ، معاً   كجلمودِ صخرٍ حطَّهُ السيلُ من علِ

ولم يعرف تاريخ الملاحم وأناشيد البطولة في زمن الفروسية وصفاً أدقّ ولا حواراً أبلغ من التعاطف الصميمي العميق والمشاعر الصامتة المتبادلة بين عنترة بن شدّاد وجواده حيث يقول:

إذْ لا أزالُ على رَحالةِ سابحٍ   نَهْدٍ تُعاوِرُه الكُماةُ مُكلَّمِ(٦٥)
لمّا رأيتُ القوم أقبلَ جمعُهُمْ   يتذامرون، كَرَرْتُ غيرَ مُذمَّمِ(٦٦)
يدعونَ عنترَ والرماحُ كأنها   أشطانُ بئرٍ في لَبانِ الأدهَمِ(٦٧)
فازْوَرَّ من وقع القنا بلَبانِهِ   وشكا اليَّ بَعَبْرةٍ وتَحَمْحُمِ
لو كان يدري ما المحاورة اشتكى   ولكانَ، لو علِمَ الكلامَ، مكلِّمي

ويمكن تعداد الألوف المؤلفة من الأبيات التي لم تدع حركة من حركات الخيل أو خطرات سكونها، أو جزءاً من جسدها أو لمحة من لمحات ذكائها ولمعة من لمع غريزتها التي كثيراً ما تشبه العقل الذي اختص به الله الآدميّين، إلّا أوغلت في تحديدها وتبيانها. ويكفي ان نذكر قليلها في هذه العجالة تدليلاً على وفرتها

---

(٦٥) نهد: مرتفع عال ؛ تعاوره الكماة: بمعنى تتناوب الأبطال على طعنه ؛ مكلّم: مجرّح

(٦٦) يتذامرون: يشدّد بعضهم بعضاً ويحرضه على القتال.

(٦٧) الأشطان: الحبال ؛ ويشبّه بها الرماح الممتدة الى لبان الجواد أي صدره

وبحرها الزاخر بالمعاني، كوصف أبي تمّام لجواد لونه أدهم، أي أسود قاتم، وغرّته وقوائمه بيضاء، فيقول:

مُسْوَدَّ شطرٍ مثلما اسوَدَّ الدُجى مُبْيَضَّ شطرٍ كابْيِضاضِ المَشرقِ

أو كتعبير أبي نصر بن عمر التميمي عن ذكاء جواده حيث يقول:

مُتَمهِّلاً، والبرقُ من أسمائِهِ مُتبرقعاً، والحسنُ من أكفائِهِ
ما كانتِ النيرانُ تكتمُ حَرّها لو كانَ للنيرانِ بعضُ ذَكائِهِ

ولعلّ أبلغ ما وصف به البدويّ جواده تمييزه بالوفاء، وإكبار بكائه على سيّده المقتول، فيرثي له ذلك السيّد المفارق ويأسف لذلّه بعده، على ما يقول مالك بن الرَيب التميمي وهو في حالة النزع قبل وفاته إثر جراح بليغة أصيب بها، وكان من جند الخليفة عثمان بن عفّان كما سبق وذكرنا:

تذكرتُ من يبكي عليّ فلم اجدْ سوى السيفِ والرمحِ الرُدَينيّ باكيا
وأَشقرِ خنذيذٍ يجرُّ عِنانَهُ الى الماء لم يتركْ له الدهرُ ساقيا
يُقادُ ذليلاً بعدما ماتَ رَبُّهُ يُباعُ بِوَكْسٍ بعدما كانَ غاليا[٦٨]

أمّا القرآن فلم يبخل هو أيضاً على الخيل بالكلام المبين، وقد شرّفها بالذكر في قوله: **﴿والعادياتِ ضَبْحاً. فالمورياتِ قَدْحاً. فالمغيراتِ صُبْحاً.﴾**[٦٩] أو في الآية: **﴿وأعِدّوا لهم ما**

(٦٨) الجواد الخنذيذ: الطويل القامة والصليب الهامة؛ يباع بوكس: أي بخسارة فادحة لا تعادل قيمته.

(٦٩) سورة العاديات (١-٢-٣) - العاديات: الراكضات؛ ضَبْحاً: أي المحدثات الضبح، وهو=

استطعتُمْ من قوّةٍ ومن رِباطِ الخيلِ تُرْهبونَ بهِ عدوَّ الله وعدُوَّكم...﴾ (سورة الأنفال ـ ٦٠)

ويذكر القدماء من المختصين في أنساب الخيل ثلاث مراتب لها: **مرتبة الخيول العراب، ومرتبة العجميّات، ثم المولَّدات**، ويعتبرون العراب أشرفها نسباً وأكرمها سليقة وأطوعها مراساً، وكانت باهظة الأثمان في مختلف العصور، يقتنيها الملوك والقادة المهرة والأبطال من الفرسان والأعيان، ويعدّونها إعداداً فائق التدريب والعناية للحرب والسبق والغزو. ومنابت هذه الفئة النادرة من الجياد الأصائل في أرض الحجاز ونجد من العَرَبَة، وبلاد اليمن، ومنادح الشام والعراق. أمّا العجميات، فهي المستوردة من البلدان الغريبة وقد عرفت عند العرب بالبراذين والمهاليج، وتسميها العامة أكاديش. وتصلح هذه الفئة للجرّ والنقل والخدمات الصعبة والمهمات العسيرة الشاقة، لضخامة هياكلها وعضيل مناكبها. وأمّا المولَّدات فمنها القوي الناشط والضعيف الخامل، وهي تعرف بالخيل الهجينة الناتجة عن التزاوج بين العراب والبراذين.(٧٠)

والعراب الى ذلك مختلفة الألوان، يفضلون منها الأبيض والأشهب، والأنمش والأبرش والأدهم. لكن أحبها الى العرب

= صوت يخرج من جوف الخيول عند جريها ؛ **الموريات قدحاً**: أي التي تحدث الشرر عند ارتطام حوافرها بالحجارة.

(٧٠) أنظر «**جواب السائل عن الخيل الأصائل**» في الآثار الكاملة للملك عبد الله بن الحسين بن علي الهاشمي - الدار المتحدة للنشر - بيروت.

الأشقر الذي ينسب الى الرسول قوله فيه: «**لو جمعت خيل العرب في صعيد واحد ما سبقها إلّا الأشقر.**» وقد امعنوا في دراسة أعضائها، وأطلقوا على كلّ عضو تسمية خاصة، ووصفوه وصفاً دقيقاً ملمّين بخصائصه التفصيلية، كما أحسنوا التمييز بين الأصائل والبراذين والهجان، وعرفوا العراب من طول أعناقها واستقامة هياكلها، فلو قدم الماء الى الفرس الهجينة وهي عطشى، على طست لاصق بالأرض، لما استطاعت ان تشرب منه إلّا بعد أن تثني إحدى قائمتيها الأماميّتين، في حين أن الأصيلة تدركه بفمها ومخطمها دون عناء، وهي واقفة على قوائمها الأربع باعتدال.

كذلك فضل القدماء الخيل المحجّلة، ذات الكعوب الدقيقة، لا سيما إن كانت بيضاء القوائم عند المفصل بين الحافر والرسغ، وآثروا سلاسة شعر الناصية وبهاء غرّة الفرس، ودقة أذنيها، وسعة عينيها، ورنّة صهيلها الصافية، وارتفاع كاهليها، واستواء كفلها، وملاسته واستدارته. ومن أشهر العراب الأصيلة في الجاهلية «**الأعوَج**» الذي سبقت الإشارة اليه وكان من رَسَن بني آكل المِرار، ثم تملكه بنو هلال بن عامر، و«**جَرْوَة**» فرس شدّاد بن عمرو العبسي والد عنترة، و «**الكلب**» أحد الجياد الموصوفة في خيل بني غَطَفان، و «**قُرزُل**» ركيبة عامر بن الطفيل، و «**ذو الخِمار**» جواد مالك بن نويرة، و«**الناعمة**» فرس الحارث بن عبّاد البكري، و «**الغَيَد**» من رَسَن تغلب، و«**الهطّال**» جواد زيد الخيل الطائي، و«**النحّام**» جواد السَليك بن السُلَكَة السعدي الصعلوك الشهير،

و«**داحس**» جواد قيس بن زهير سيّد بني عبس، و «**الغبراء**» فرس حذيفة بن بدر الذبياني سيّد بني فزارة.

وقد توارث العرب الى يومنا هذا، ممّا ألفوه في الجاهلية قبل انخراطهم في الحضارة الإسلامية، **نظرة الى المرأة** وجمالها النفسي والجسدي وصفاتها الحسنى ومحتدها الأصيل، **مطابقة بدرجة فائقة لنظرتهم الى الخيل العراب**. فهم يأنسون الى البيضاء القرطاسية البضّة الملساء ويميلون الى الشقراء الذهبية الشعر، ذات الكعوب الدقيقة والساق المشيقة والبطن الضامر والأفخاذ اللّفة والإهاب الضارب الى الحمرة، والأرداف المستقيمة العالية والصدر الناهد والجبين العريض والعنق الطويل والأقدام الرشيقة والأيدي الناعمة ذات الأصابع التي يمكن عقدها من لدانتها ورهافة مفاصلها. كذلك يعرضون عن السمراء الداكنة الكثّة الشعر، الغائرة العينين، السليطة اليد واللسان، الضخمة الخصر والقدمين الرهلة البدن والثديين، الطرطاء الحاجبين، صاحبة الصوت الأجشّ التي تكثر من الكلام وتشخر في المنام.

وقد نشأت عن هذه الميول العائدة الى صفات الخيول، **ظاهرة تكاد تشبه الآفة**، كثيراً ما تتمثل بانصراف العرب الذكور في أزمنة الرخاء والبحبوحة عن الاقتران ببنات جنسهم الحرائر اللواتي يعنَسْن في بيوت آبائهن عرضة لليأس، وحتى للانتحار، كما يشهد بذلك أبو الطيب المتنبي، وقد عاين، وهو الذي عاش في عصر بني العبّاس حيث بلغت فتوح المسلمين أقاصي الأرض وازدهرت بذلك تجارة النخّاسين، ذكور الأمّة يتسابقون الى أسواق

الرقيق الأبيض، فيبتاعون غنائم الحروب من الديلميات والخزريات والكرجيات والروسيات والفرنجيات والروميات، ويعرضون عن بنات العرب المؤمنات المؤتزرات بالعفة والحصانة، فيقول في إحدى قصائده العائرة:

وإذا لم تجدْ من الناسِ كُفْئاً ذاتُ خدرٍ تمنّتِ الموتَ بَعْلَا

ومن زمن العبّاسيين الى الزمن الذي نحن فيه، لا تزال المشكلة ماثلة في كلّ منعطف تاريخي تزدهر فيه الحياة المادية، ويشعر فيه العربي أنه يملك من المال ما يتيح له أن يعدل بين زوجتين أو أكثر، على ما سمح به كتاب الله بتحفظ بالغ وتحوّط محتسب، فيقدم على الاقتران بالأجنبيات ويطلق حرماته الشريفات المانعات أو يهملهن، طوعاً لغرائزه وخضوعاً لأهوائه وشهواته.

والحق يقال أن هذه الآفة أخذت في الربع الأخير من القرن العشرين وبعده حجماً هائلاً يصعب احتواؤه واجتناب آثاره المدمّرة في الحياة العائلية والاجتماعية، خصوصاً في المناطق والبلدان التي بلغت فيها الطفرة المالية أوجها. فلا يُفهم الحُدّاثَ في العائلات التي آوت بنات الأجانب إلّا التراجُم، على حدّ قول الشاعر. فالأمهات يعلّمن أبناءهن لغات بلدانهن، ويخلّقن بناتهن بأخلاقهن العائدة الى عالم آخر، وفي غمرة الفوضى العائلية التي تنشأ خصوصاً مع تعدّد الزوجات من دول أجنبية مختلفة، يتفسّخ الكيان العائلي، ومن خلاله الكيان الوطني، وتتعدد أشباه الثقافات في البلد العربي الواحد الذي يعتبر تراثه الثقافي

الحضاري وعاداته وتقاليده الأصيلة مصدر وحدته الوطنية وأنظمته الفكرية والخلقية والروحية الموروثة، فينتقل من مرحلة الاستقرار والمنعة والخصوصية والثبات الى مرحلة انعدام الوزن بكل ما تتضمن هذه العبارة من معنى.

وبالرغم من أن بعض الحكومات العربية المحافظة والطامحة الى تقدم حضاري لا بدّ منه، تنبّهت الى خطر هذه الآفة الانحرافية التي تستأصل من الأجيال الجديدة كلّ ذمام يقتضي شدّ الزمام، فقد عجزت مع التدابير الاحترازية الشكلية التي باشرت بها، عن صيانة مجتمعاتها من هذا الانزلاق الإفنائي البطيء الذي عنّس حرائرها فلا يحضن ولا يلدن، وسهل طلاق نسائها الحصينات، وتمادى في تعهير بناتها باسم التحرير والتلقين الهجين، وأقعد رجالها عن شرف العصمة الوفية ورهلّهم بطلب المتعة الزرية، وعطل اللغة والبيان، وشوّه الكلام المحكي وأسلوب الرواية وأصول الحديث ورصانة الحوار، واستأصل من قلوبهم جذوة الإيمان، وطلب الحق والخير والجمال فيما ينشدون، وخلّع بالتالي أبواب القلعة الخلقيّة الحصينة التي يسكنون أعزاء شرفاء بالدمع العصي والامتناع القصي.

الفرس الأصيلة في المرأة المثالية

بعد هذه الجولة الاستطرادية في مسألة «**الاغتراب العائلي**» الناشئ عن آفات التطبع بنظرة مختلفة الى المرأة سيئة الأثر في

النفس العربية، لا بدّ من تصوير بياني للمرأة المثالية خَلقاً وخُلقاً، كما ورد في عيون الأثر، وهو تصوير خارق إبداعي لو أدخلت عليه بعض التعديلات العصرية الطفيفة، لبات يصلح ولا ريب لكلّ زمان أو مكان. ولعل خير ما يعبّر عن صورة المرأة المثالية عند القدماء ممّا سبقت الإشارة اليه، وهو مقتبس من صورة الفرس الأصيلة وطباعها، حتى لكأنه مستنسخ عنها، ذلك النصّ الرائع الذي أورده الميداني في «**مجمع الأمثال**» حول خطبة أحد ملوك العرب العاربة في الجاهلية لفتاة كريمة المحتد من بنات الأعيان، وننقله هنا بصيغته الأصلية الجامعة كما يلي:(٧١)

«لمّا بلغ الحارث بن عمرو ملك كِنْدَة جمالُ ابنة عَوْف بن مُحَلِّم الشيباني وكمالها وقوة عقلها، دعا امراة من كِندة يقال لها عِصام، ذات عقل ولسان وأدب وبيان، وقال لها: إذهبي حتى تعلمي لي علم ابنة عوف. فمضت حتى انتهت الى أمّها أمامة بنت الحارث الغساني، فأعلمتها بما قدمت له. فارسلت أمامة الى ابنتها وقالت: إي بُنيّة. هذه خالتك اتت لتنظرَ اليك، فلا تستري عنها شيئاً إن أرادت النظر من وجه أو خُلُق، وناطقيها إن استنطَقتكِ. فدخلت اليها، فنظرت الى ما لم ترَقطّ مثله. فخرجت من عندها وهي تقول: **ترك الخداع مَن كشفَ القناع**. فأرسلتها مثلاً. ثم انطلقت الى الحارث الكندي. فلمّا رآها مقبلة قال لها: **ما وراءَكِ يا عصام؟!** قالت صرّح المَخْضُ عن الزَبَد. رأيت جبهة

---

(٧١) «مجمع الأمثال» للميداني - تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد - الجزء الثاني - المثل ٣٧٥٩ (ما وراءَك يا عصام) ص: ٢٦٢ - المكتبة العصرية - صيدا - لبنان - ١٩٩٨.

كالمرآة المصقولة، يزينها شعر حالك كأذانب الخيل. إن أرسلته خِلتَهُ السلاسل، وإن مَشطته قلتَ عناقيد جلاها الوابل، وحاجبين كأنّما خُطّا بقلم أو سُوِّدا بحَمَم، تَقوّسا على مثل عيني ظبية **عَبْهَرة**، بينهما أنفٌ كحدّ السيف الصنيع، حَفَّتْ به وجنتان كالأرجوان، في بياضٍ كالجُمان، شُقَّ فيه فمٌ كالخاتم، لذيذ المُبتسَم، فيه ثنايا غُرٌّ، ذات **أُشُر**، تَقلَّبَ فيه لسان ذو فصاحة وبيان. بعقلٍ وافر وجوابٍ حاضر. تلتقي فيه شفتان حمراوان تحلبان ريقاً كالشهدِ إذا دُلِك. في رقبةٍ بيضاء كعمود الفضّة رُكِّبتْ في صدر كصدر تمثال دُمية. وعَضُدان مُدْمَجان يتصل بهما ذراعان ليس فيهما عَظْم يُمَسّ ولا عِرق يُجَسّ. رُكِّبَ فيهما كفّان دقيقٌ قَصَبُهما لَيِّنٌ عَصَبُهما تَعْقِدُ إن شئتَ منهما الأنامل. نَتأَ في ذلك الصدر ثديان كالرمّانتين يَخرقان عليها ثيابها. تحت ذلك بطنٌ طُويَ طيّ **القِباطي** المُدْمَجَة، كسَرَ **عكناً** كالقراطيس المدرَجة. تحيط بتلك العَكَن سرّةٌ كالمُدْهُنِ المجلوِّ، خلفه ظهرٌ فيه كالجدول ينتهي الى خصر لولا رحمة الله لانْبَتَر. ولها كفلٌ يُقعدها إذا نهضتْ ويُنهضها إذا قعدتْ، كأنه **دِعْصُ الرمل** لَبَّدَه سقوط الطلّ. يحمله فخذان لُفّا كأنما قُلبا على **نضد جُمان**. تحتهما ساقان **خدلتان** كالبردتين، يحملهما قدمان **كحذو اللسان**، فتبارك الله مع صغرهما كيف تطيقان حملَ ما فوقهما!»(٧٢)

(٧٢) العبهرة: الممتلئة الجسم؛ ذات أُشُر: ذات فروق رقيقة بينها؛ القباطي: نوع من أقمشة الكتّان؛ العَكن: هي ثنايا لحم البطن؛ دِعْص الرمل: الكثيب أو التلة من الرمل؛ نَضُد جمان أي لؤلؤ منضّد منسّق؛ خدلتان: ممتلئتان؛ كحذو اللسان: أي كأنهما قطعة من لسان لدقّتهما.

«فأرسل الملك الى أبيها فخطبها فزوّجها إياه، وبعث بصداقها فجهّزت. ولما حملوها الى زوجها قالت لها أمّها: إي بنيّة. إن الوصيّة لو تُركت لفضل أدب تُركت لذلك منكِ. ولكنّها تذكرة للغافل ومعونة للعاقل. ولو أنّ امرأة استغنت عن الزوج لغنى أبويها وشدّة حاجتهما اليها كنت أغنى الناس عنه. ولكنّ النساء للرجال خلقن ولهنّ خلق الرجال. إي بنيّة. إنك فارقتِ الجو الذي منه خرجتِ، وخلَّفتِ العشّ الذي فيه درجت، الى وكر لم تعرفيه وقرين لم تألفيه، فأصبح بملكه عليك رقيباً ومليكاً. **فكوني له أمةً يكن لك عبداً وشيكا**. إي بنيّة. إحملي عني عشر خصال تكن لكِ ذخراً وذكراً: الصحبة بالقناعة. والمعاشرة بحسن السمع والطاعة. والتعهّد لموقع عينه، والتفقّد لموضع أنفه، فلا تقع عينه منكِ على قبيح، ولا يشمّ منكِ إلّا طيب ريح. والكحل أحسن الحسن. والماء أطيب الطيب المفقود. والتعهّد لوقت طعامه والهدوّ عند منامه، فإنّ حرارة الجوع مَلهبة، وتنغيص النوم مَبغضة. والاحتفاظ ببيته وماله، والإرعاء على نفسه وحشمه وعياله، فإن الاحتفاظ بالمال حسن التقدير، والإرعاء على العيال والحشم حسن التدبير. ولا تفشي له سراً، ولا تعصي له أمراً، فإنكِ إن أفشيتِ سرّه لم تأمني غدره، وإن عصيتِ امره أوغرتِ صدره. ثمّ اتّقي مع ذلك الفرح إن كان ترحاً، والاكتئاب عنده إن كان فرحاً، فإن الخصلة الأولى من التقصير، والثانية من التكدير. وكوني أشدّ ما تكونين له إعظاماً، يكن أشدّ ما يكون لكِ إكراماً، وأشدّ ما تكونين له موافقة، يكن أطول ما يكون لكِ مرافقة. واعلمي أنكِ لا تصلين الى ما تحبين حتى تؤثري رضاه على رضاكِ

وهواه على هواكِ، فيما أحببتِ أو كرهتِ. والله يخير لكِ. فحُملتْ فسلّمتْ اليه، فعظُم موقعها منه، وولدتْ له الملوك السبعة الذين ملكوا بعده اليمن.»

الكرامة والضيافة أغلى من الكنوز

وبالعودة الى موضوع الخيل نذكر أن الأصائل العراب كانت منذ القدم، ولا تزال بمثابة التحف النادرة يفاخر الملوك والرؤساء باقتنائها ويتسابق الموسرون الهواة الى امتلاك أشرفها نسباً وأكرمها محتداً، ويحرصون عليها حرصهم على كنوز لا تقدر بثمن. إلّا أن بعض السادات والفرسان الذين اشتهروا بالكرم والضيافة وتبوأوا منازل عليا في الجود والقِرى، لم يبخلوا بها في مناسبات ذهبت في المجتمع القبلي مذهب الأمثال. فقد تعود العربي في أزمنة عزلته الصحراوية ان يشرع بابه للتائه الضلّيل دونما ريبة لا سيّما بعد ان ينتسب وتعرف هويته وانتماؤه، فلا يسأل الطارق عن حاجته قبل أن يقريه ويحسن وفادته، حتى ولو كان أعجمياً. ولا غرو أن يحمل ذلك منه على محمل التهوّر وقلة الاحتراس، خصوصاً مع انتقال هذه البوادر السخية تقليدياً الى عصرنا هذا الذي يتنكر فيه الجواسيس بالوجوه المستعارة فيستغلّون روح الضيافة العربية للغدر والتآمر والأذى.

ومن مثل تلك المبادرة بإكرام الضيف الجليل عند وفادته وقبل معرفة غايته، ما ذكره المؤرخون القدامى عن **حاتم الطائي**

كبير أجواد العرب في الجاهلية، من أن رسول قيصر جاءه وهو في عسر وضيق، فعقر فرساً أصيلة كانت في حوزته ليقريه، وأقام له وليمة لائقة بمقامه الرفيع، معبراً له في الوقت نفسه عن كونه لم ينـزل على قوم خسائف القدر من أهل البادية، بل على سادة نجباء يكرمون الضيف وهم كاظمون الشظف والحَيْف.

وفي الرواية أن حاتم سأل الرسول القيصري عن مطلبه بعدما أكل هذا وشرب واطمأن واستراح، فقال: سمع مولاي الملك أن في عداد خيلك نعامة شقراء ليس لها ضريب في بلاد العرب، فأوصاني بشرائها منك لضمّها الى مرابط خيله أياً كان الثمن، وقد جئتك لهذا الغرض الذي ينـزلك عند مولاي القيصر منزلة اعزّ من أموال الدنيا بأسرها!! فابْتسم حاتم واكتـفى بالقول: **آسف أشدّ الأسف أيها الأخ الكريم لأن ضيق ذات اليد وافتقارنا الى أسباب النعيم في هذه الفلوات القاحلة، جعلني أعقر الفرس لأقري بها رسول قيصر العظيم.**

فدهش الرسول لما سمع، وانصرف خائباً لا يلوي على شيء، وهو يحدث مرتبكاً بما رأى، حزيناً آسفاً لما جرى. أمّا ماويّة زوجة حاتم، فراحت تلطم حزناً وتبكي ألماً، وتقرّع زوجها على ما فعل بعدما ثبت لها أنه خسر بحفاظه على سمعته وكرامته ثروة طائلة، فانتهرها قائلاً:

أَمــاويَّ إنّ الــمــالَ غــادٍ ورائــحٌ ويبقى من المرءِ الأحاديثُ والذِكرُ

ومن أجمل ما ذكره «الأغاني» في باب الضيافة أنّ ذا الإصبع العدواني أوصى إبنه بالضيافة عندما حضره الأجل قائلاً:

وابْسـط يـمـيـنـكَ بـالـنـدى وامـدُدْ لـهـا بـاعـاً طـويـلا
وابـذل لـضـيـفِـكَ ذاتَ رحـلِـكَ مُـكـرِمـاً حـتـى يـزولا

ويقول جواد آخر من أجواد العرب:

لحافي لحافُ الضيفِ والبيتُ بيتُه ولـم يُـلْـهِـنـي عـنـهُ غـزالٌ مُـقَـنَّـعُ
أحـدثـهُ إنّ الـحـديـثَ مـنَ الـقِـرى وتـعـلـمُ عـيـنـي أنّـه سـوف يَـهـجَـعُ

★ ★ ★

ولو شئنا تعداد ما ذكره الأوائل والأواخر من روايات وأخبار وأشعار تتعلق بالخيل وصفاتها ومحاسنها وسموّ أخلاقها وطيب سلائقها وما اكتسبه الإنسان العربي من صحبتها عبر الحقب والأزمنة، حتى طوحت بها الآلة الحديثة، وأنزلتها الثورة العلمية والمكننة الماهرة عن عرشها، لما وسعت ذلك المجلدات. فقد غدت مضرب الأمثال في كلام العرب والتعبير عن أحوال الزمن، فيدل بعضهم على حال الفقير المعدم بالقول: «باع الكحيلة - أي الفرس الكحلاء - بعشاء ليلة»، أو يشير آخرون الى وجوب التستّر على العيوب والذنوب في قولهم: «خلِّ على الشقراء جلالها»، وألمح غيرهم الى وجوب التحوّط للأمور وأخذ الأهبة للفجاءات بالقول: «الخيل بلا أعنّة كالجند بلا أسنّة»، وتشبهوا بنباهتها فامتدحوا الفطنة عندها واكتناه ما وراء القصد بقولهم: «الخيل تعرف أذناب فرسانها»، وأدركوا ما تمتلكه الخيل الكريمة من خبيء القوة التي تكبر وتزداد بتوالي الأيام، فقالوا: «الخيل الأصايل في تالي الزمان تجود».

النوق سفائن الصحراء..

أوضحنا فيما تقدم أن الخيل كانت اقرب وأحب أصناف الحيوان الى الإنسان العربي القديم، فأكرمها إكراماً لا مزيد عليه وتخلّق بأخلاقها. ويتجلّى أثر ذلك في طباعه وخصائصه النفسية الثابتة. أمّا الفئة الثانية من الحيوانات المحببة اليه، فهي النوق. لكنها لم تكن موضع مفاخرة واعتزاز، بقدر ما كانت موضع اهتمام وعناية وحماية، **نظراً لخدماتها الجلّى في مواجهة الحياة الصعبة في البوادي**. وعلى أنها كانت في الوقت نفسه وسيلة الانتقال الأساسية الأولى من نجعة الى أخرى، إلّا أنها تعرّضت في بعض الأحيان للإجحاف والازدراء، «**فبنو أنف الناقة**» مثلاً حملوا اسمهم على مضض من فرط ما عيّروهم به، حتى قال أحد الشعراء منكراً ذلك التحامل ومدافعاً عنهم:

قومٌ هُمُ الأنفُ والأذْنابُ غيرُهُمُ   ومَنْ يساوي بأنفِ الناقة الذَنَبا؟!

وقد سبق وأشرنا الى أن الجمل «**سفينة الصحراء**» يستخدمها البدوي في اجتياز المسافات البعيدة، كما ان الإبل كانت مصدر غذائه من لحومها وألبانها، وهي الثروة العينية التي يتعامل بها تجارة ومقايضة ويدخرها احتساباً للزمن العصيب. فإن حَمَلَتْ أَثْقَلَتْ، وإن سارت أبعدتْ، وإن حُلبت أروتْ، وإن نُحرت أشبعت. وفي القرآن **﴿وإنّ لكمْ في الأنْعامِ ـ أي الإبل والبقر والغنم ـ لَعِبْرَةً نَسقيكُمْ ممّا في بطونِها ولكمْ فيها منافع كثيرةٌ ومنها تأكلونَ. وعليها وعلى الفُلْكِ تُحمَلون﴾** (سورة المؤمنون: ٢١، ٢٢). وليس لأي من فحول الحيوان ما للجمل من سوء الخُلُق إذا

غضب، فيطفر الزبد من فمه ويقلّ رغاؤه، وتتجلى الحرية المطلقة في تصرّفه، **لكنه لا يخرق عرضه عند الشبـق، ولا يقرب أمّه ولا أختـه، مهما يبلغ من الهيجان.**

ولما انتقل العرب من الوَبَر الى الحَضَر وأسسوا الدول والممالك، هال الخلفاء والقادة والحكام أن يترهل أخلافهم بالإنصراف الى الحياة المدنية، وإقلاعهم عن سلوك المستصعبات، وأزعجهم قعود النشء في اللعب وملازمة الحريم، وذلك خلافاً لما أوصى به السلف الصالح من الصحابة، وخصوصاً القول المنسوب الى الإمام علي بن أبي طالب، ومنه: «**أوصيكم بتقوى الله في السرّ والعلن، وقلة المنام، وقلة الطعام، واجتـناب الأنام، والتزام الصيام، ودوام القيام، ومصاحبة الكرام، وما قلّ ودلّ من خير الكلام.**»

لقد هالهم ذلك الانحراف الذي ابتليت به الأجيال الجديدة في أواخر العصر الأموي، ثمّ في العصور العبّاسية، فكان أولياء الأمر في الشام والعراق والحجاز ومصر، يبعثون بفتيانهم، وهم دون العاشرة من أعمارهم، الى البادية، حيث تستقيم ألسنـتهم على الفصاحة، وينقطعون الى غذاء واحد من اللبن والتمر، ويروضون أجسادهم على احتمال الصعاب، متخلّقين بأخلاق البداوة، حتى صدق القائل: «**ما صحّت بطونُ العرب إلّا بألبانِ الإبل.**»

وتكاد ألّا تخلو قصيدة في الجاهلية من ذكر الناقة وأوصافها وصبرها في حرّ الفيافي القفار، فيقول شاعرهم:

كالعيسِ في البيداءِ يقتلها الظما والماءُ فوقَ ظهورِها محمولُ

وقد شبّهوها «بقبة الرومي»، وهي القنطرة المعروفة في هذه المنطقة منذ أيام اليونان والرومان، لعلوّها وتقوّس ظهرها وارتفاع قوائمها.[٧٣] وبلغ من حرص البدوي على جماله ونياقه أنه كان يستميت في حمايتها وردع الطامعين بها من غزاة القبائل المعادية والصعاليك الضاربين في الصحراء، مستعيناً قومه الأقربين للمساعدة في الذود عن قطعانها كي لا تتعرض للسبي في النازلات العصيبة. ويتجلّى الشعور بالخيبة في قصائد الرعيان المستضعفين الذين لا ينتمون الى قبائل مرهوبة، حيث يأسفون لهتك منازلهم وسرقة مواشيهم دون أن يبادر أحد في تلك الأراضي الموحشة لنصرتهم على الغاصبين من شذاذ الآفاق. وهي قصائد يعثر عليها الباحث في العديد من كتب الأدب وأخبار العرب وأشعارها، خصوصاً في «ديوان الحماسة» الذي جمعه أبو تمام من شعر العرب العاربة في الجاهلية وصدر الإسلام، وما جمعه البحتري أيضاً من ذلك الشعر في ديوان مماثل يحمل نفس العنوان. فيذكر ابو تمام فيما يذكر أبياتاً لشاعر بدوي من بني العنبر يدعى قُرَيْط بن أُنَيْف، قالها يوم انقض عليه صعاليك يسميهم «بني

(٧٣) يقول طرفة بن العبد في معلقته يصف ناقته:

وإنيّ لأمضي الهمَّ عند احتضارِهِ بعَوْجاءَ مِرْقالٍ تروحُ وتغتدي

كقنطرة الروميّ أقسمَ ربُّها لَتُكْتَنَفَنْ، حتى تُشادَ بِقَرْمَدِ

العوجاء المرقال: الناقة النشيطة السريعة الركض؛ لَتُكْتَنَفَنْ: أي لَتُبنى أكنافها ويقصد محيطها.

ومن أبلغ أوصاف الناقة قول الأخطل:

صُكّوا على شارفٍ صعبٍ مراكبُها حصّاءَ ليس لها هُلْبٌ ولا وَبَرُ

أي أنهم ثُبّتوا على ناقة (شارف) ملساء صعبة الركوب ليس لها شعر غليظ ولا وبر ناعم.

اللّقيطة» (أي الساقطة المرذولة) من قبيلة شيبان القويّة، فسلبوه إبله وتركوه أعزل صريع الحسرة والخيبة في نجعته السائبة بلا معين ولا نصير، وكأنما كان ذلك البدوي ينعي المبدأ القَبَلي الشهير القائل: **«أنصر أخاك ظالماً أو مظلوماً»**. وفيما يلي أبياته:

لو كنتُ من مازنٍ لم تَستبح إبلي ... بنو اللّقيطةِ من ذُهْلِ بن شَيْبانا
إذن لقامَ بنصري معشرٌ نُدُبٌ ... عند الحفيظةِ إنْ ذو لوثةٍ لانا
قومٌ إذا الشرُّ أبدى ناجذَيْهِ لهم ... قاموا اليه زَرافاتٍ ووِحدانا
لا يسألونَ أخاهم حين يَنْدُبُهم ... في النائباتِ على ما قال بُرهانا
لكنَّ قومي، وإن كانوا ذوي عددٍ ... ليسوا من الشرِّ في شيءٍ وإن هانا
يُجزونَ من ظلمِ أهلِ الظلمِ مغفِرَةً ... ومن إساءةِ أهلِ السوءِ إحسانا

وقد أسبغ القرآن على الناقة مسحة من القداسة والطهر، من خلال تسميتها **«ناقة الله»** في مواضع وسور شتى امتدح فيها صالح ونبوءته، فجاء ذلك تجاوباً كلياً مع إكرام العرب للنوق التي شبهوا بها خير نسائهم في الصبر والاحتمال والخصب والتضحية والعطاء، وذهبوا حتى الى الثناء على جمال قامتها الفارعة كالنخلة، وكثيراً ما نصادف عند القدماء أقوالاً تصف المراة بانها مستحسنة لعلوّ هامتها وانتصاب جسدها، فكأنها الناقة الرفيعة أو النخلة العمودية الوارفة الظلّ الحالية بالرطب الشهيّة اليانعة. ففي الكتاب المبين أن أهل ثمود عقروا ناقة صالح فأساخ الله بهم الأرض: **﴿والى ثَمودَ أخاهُم صالحاً قالَ يا قومُ اعبُدوا اللهَ ما لكُمْ مِنْ إلهٍ غيرُهُ قد جاءَتكم بيِّنَةٌ من ربِّكُمْ هذِهِ ناقَةُ اللهِ لكُمْ آيَةً فَذَروها تَأْكُلُ في أرضِ اللهِ ولا تَمَسّوها بسوءٍ فيأْخُذَكُم عذابٌ**

أليمٌ. قالَ المَلأ الذين استَكْبَروا من قَوْمِهِ للَّذين استُضعفوا لِمَنْ آمَنَ منهُمْ أَتَعْلَمونَ أَنَّ صالحاً مُرْسَلٌ من رَبِّهِ قالوا إِنَّا بما أُرسِلَ بِهِ مُؤْمِنون. قالَ الذينَ استَكْبَروا إِنَّا بالذي آمَنْتُمْ بِهِ كافِرون. فَعَقَروا الناقَةَ وعَتَوْا عن أمرِ رَبِّهِمْ وقالوا يا صالحُ ائْتِنا بما تَعِدُنا إِنْ كنتَ منَ المُرْسَلين. فأَخَذَتْهُمُ الرَجفَةُ فأَصْبَحوا في دارِهِمْ جاثِمين. ﴾[٧٤]

ويأتي الكتاب على ذكر صالح وناقته في سور وآيات عديدة أخرى، بالمعنى نفسه مثلما ورد في سورة «هود»، (من الآية ٦١ الى ٦٧) وغيرها.

طرائد القنص من الغزلان

وإذا كانت السوائم والمواشي الأليفة بضاعة الاستهلاك المتيسّرة بسهولة للبدوي الصحراوي، فإن الغزلان وبقر الوحش تحتل منـزلة خاصة في حياته، وقد احترف قنصها لطيب لحومها وأناقة جلودها، وكان يطاردها في البوادي المترامية على صهوات خيله السريعة، فيطوقها الجواد الكريم حتى يحشرها في مأزق لا خروج منه، ثمّ يرميها الفارس بسهامه. وقد عرفت الخيل الأصيلة عندهم بأنها أسرع من الطرائد في جريها، بحيث تَبدو في سرعة دورانها المذهل حول الطريدة، وكأنها طوق لها أو قيد، فيقول

(٧٤) سورة الأعراف: ٧٣ ـ ٧٥ ـ ٧٦ ـ ٧٧ ـ ٧٨.

امرؤُ القيس على سبيل المثال:

وقد أغتدي والطيرُ في وُكُناتها	بمنجردٍ قيدِ الأوابدِ هيكَلِ
دَريرٍ كخذروف الوليد أَمَضَّهُ	تَتابُعُ كفَّيْهِ بخيطٍ مُوَصَّلِ[75]

وكان امرؤ القيس اول من وقف واستوقف وبكى على الأطلال واستبكى في مطلع معلّقته «قفا نبكِ من ذكرى حبيبٍ ومنزلِ. . .»، وهو أول من «**قيّد الأوابد**» فيما اتفق عليه مؤرخو الأدب ونقّاد الشعر.

وفي عداد الأوابد التي كان يهتمّ لها الصحراويون اهتماماً بالغاً ما عرف عندهم بالثور الوحشي والحمار الوحشي، وهما قريبان من الخيل، وتسكن تلك الأبقار والحُمرُ المتوحشة الأوجار، وتنتشر في الأوداء بعيداً عن مضارب البشر. وقد اختصت بجمال الأعين كالغزلان، وكثيراً ما يرد ذكرها في الشعر القديم، كقول أحدهم: «**مِنْ وحشِ وَجْرَةَ أو من وحشِ ذي قارِ**»[76] **وقول آخر:**

(٧٥) **الوكنات**: أعشاش الطيور؛ **المنجرد**: الجواد الأجرد القليل شعر العنق؛ **الأوابد**: الحيوانات البرّية المتوحشة؛ ومعنى البيت أنني أتوجه للقنص باكراً قبل أن تنطلق الطير من أعشاشها على ظهر جواد أجرد يطوّق الطرائد أو يقيّدها بسرعة جرية ـ **الدرير**: بمعنى السريع؛ **الخذروف**: آلة بدائية خشبية تشبه الزر المثقوب في موضعين يديرها الفتيان بواسطة خيط يربطان طرفيه بعد إدخاله في ثقبيها فيودّي شدّ الخيط باليدين الى دورانها بسرعة تصعب مجاراتها

(٧٦) **الوجرة**: مبيت الحيوانات المتوحشة والضارية في البراري. وفي «لسان العرب» أنها موقع بين مكة والبصرة. ويقول الأصعمي إنها مكان موحش لا منازل فيه يمتدّ أربعين ميلاً؛ **ذو قار**: اسم مكان يكثر فيه بقر الوحش. وهو يقع بين الكوفة وواسط من أرض العراق وشهد معركة شهيرة بين قبائل وائل (بكر وتغلب) والفرس سنة ٦١٠م. انتصر فيها العرب.

تَصُدُّ وتُبدي عن أسيلٍ وتَتَّقي بناظرةٍ من وحشِ وَجْرَةَ مُطْفِلِ[٧٧]

ويعرف حمار الوحش (Zèbre) عندهم بالفرأ أو الفرا (غير المهموز)، كما في المثل: «**كلّ الصيد في جوف الفرا**» الذي يضرب، حسبما جاء في «لسان العرب» وغيره من المعاجم، لصاحب حاجات إحداها كبيرة، فإن هي قضيت أغنته عن سائر حاجاته الصغيرة، باعتبار أن جوف حمار الوحش يتسع لما هو دونه حجماً. وينبثق هذا المثل من طيبة النفس العربية البدوية الميالة الى تفضيل الكلّيات على الجزئيات، وكثيراً ما تضحّي بالمكاسب الجزئية في التمنيات الكلّية، وهيهات لا تتحقق الأماني الكبرى إلّا بتراكم الفوائد الصغرى. وعلى أن الصبر والجلد هما في طليعة ما التزمه العرب من سلوك في حياة الصحراء المضنية الشاقة، وتكاد الآيات القرآنية والأحاديث النبوية وسير الصحابة والسلف الصالح التي أوصت بالصبر تستعصي على التعداد في جمهرة الأثر الفكري والروحي، فقد تميّزت النفس العربية باختزال التبصر في الأمور والميل الى الانفعال السريع، شأنها في ذلك شأن الخيول العِراب التي تجلّي في المسافات القريبة وتقصّر عن أي سبق في المجالات البعيدة.

أمّا الغزال ويعرف بالظبي، ففي عداد أنواعه الآرام التي تنتشر في المناطق الرملية والأحقاف، وهي رمادية اللون، والعُفُر ذات اللون الأحمر، والأَدَم الطويلة الأعناق القوية النظر، وكذلك

---

(٧٧) المعنى أنها تخفي وتبدي خدّها الجميل الناعم، وتَتَّقي من يشتهيه بنظرة من عين تشبه أعين بقر الوحش الساحرة في وجرة.

الأيائل إناث الوعول ذات القرون المتشعبة، وغيرها ممّا لامجال الى تعداده في بحثنا. وقد تفنّن الشعراء في وصف الغزال الشادن، فيقول عنترة مشبّها حبيبته عبلة بالغزالة:

وكأنما نظرتْ بعَيْنَيْ شادنٍ رشإٍ من الغزلانِ ليسَ بِتَوْأَمِ[٧٨]

ويقول البحتري:

لي حبيبٌ قد لجَّ في الهَجْرِ جدّا وأعادَ الصُدودَ منه وأَبْدى
ذو فنون يريك في كلّ يوم خُلُقاً منْ جَفائِهِ مُسْتَجِدّا
يتبدّى وصلاً ويُنعمُ إسعافاً ويَدنو قُرباً ويَبْعُدُ صَدّا
وأنا أَفْتَدي على أيِّ حالٍ شادناً لو مُسَّ بالحسنِ أعْدى

ويقول أبو نواس:

قَنعتُ من الدنيا بكأسٍ وشادنٍ تَحَيَّرُ في تفصيله فتنُ الفكرِ

وممّا كان يدهشهم في طبائع الغزلان سرعة جريها حتى يقصر عنها الكلب الدارب العدّاء، وبهاء طلعتها وجمال عينيها الواسعتين الكحلاوين، ودقة سيقانها الرشيقة ورخامة جلودها الحريرية، وقد تفاءلوا برؤيتها في رأد الضحى، فكنوا بها عن الشمس، وقالوا «غزالة الضحى» أي شمسه في آناء انتشار الضوء وطالما وضح النهار، حتى إذا غابت الشمس وصفوها بالجَوْنة أي الفحمة السوداء.[٧٩]

---

(٧٨) أي إنه وحيد أمه المدلّل ولا توأم له ينازعه ذلك الدلال.

(٧٩) انظر «لسان العرب» في باب «غزل».

صديق الإنسان في كلّ زمان

ثم إن للكلب مركزاً أساسياً في حياة البادية وكان له أبلغ الأثر في النفس العربية. فهو عنوان الوفاء ومثال الصداقة والحضور الدائم والتصرف النافع والغوث العاجل في النوازل والملمات. وقد اتخذ بعض البدو من العرب اسم الكلب أفراداً وجماعات، وعرف منهم «بنو كلب» و «بنو كلاب». فيقول جرير في بائيته الشهيرة يهجو الفرزدق و«راعي الإبل» الذي ينتسب الى نُمَيرْ مفضِّلا عليه أخويه «كعباً» و «كلاباً»:

فَغُضِّ الطَرْفَ إنَّك من نُمَيْرٍ فلا كعباً بلغتَ ولا كِلابَا

ويتضح من خلال أمثلة كهذه أن الفردية الأوحدية التي يتميّز بها العربي كانت ولا تزال تأبى عليه أن يقبل بمنزلة دون منزلة أخيه أو منزلة ابن عمه في نظر الناس، فهو يعتبر تفضيل أخيه أو أي نسيب من أنسبائه عاراً يحطّ من قدره، ويعتمد كلّ وسيلة ممكنة، ليظلّ المقدّم بين قومه والوائل الأجود والأكبر والأوحد والأقوى له عليهم فوق ما لهم عليه، ويأسف إن أُفرد بين قومه وعصاه الأقربون كما يقول عَبْدَةُ بن الطبيب أحد أصحاب «المفضّليات»:

إنَّ الكبيرَ إذا عَصاهُ أهلُهُ ضاقتْ يداهُ بأمرِهِ ما يَصْنَعُ
فبكى بناتي شَجْوَهنَّ وزوجتي والأقربونَ إليّ ثم تصَدَّعوا
وتُركتُ في غبراءَ يُكْرَهُ وِرْدُها تَسْفي عليّ الريحُ حين أُوَدَّعُ

وقد استغلّ أعداء العرب والطامعون بأرضهم وخيراتهم من

الأجانب المعادين لهم في مختلف الأزمنة والعصور، هذه المفاخرة الكامنة في أعماقهم لتحريض الأخ على أخيه والأَدنَوْن منهم على الأعلَوْن في مختلف ميادين الحياة الاجتماعية والسياسية والسلطوية، وروّجوا بالوسائل الإعلامية التي تخدم مصالح القوى المعادية مقولة ظالمة خبيثة مفادها أن العرب لا يتفقون إلّا على ما يفرّقهم، ولا يأتلفون إلّا لكي يختلفوا!

ونعود في سياق هذا البحث الى موضوع الكلب في الحياة البدوية القديمة، فيذهلنا فعلاً أن يكون تقدير هذا الحيوان الأليف وتكريمه بلغا في مجتمع الجاهلية حداً لا عهد لأي أمة أخرى بمثله، سواء في مراحل بداوتها أو حضارتها، حيث أنّ «كليب **وائل» التغلبي صاحب «الحمى» الشهير، وسيد قبائل معدّ وربيعة ومضر، وهو من عظماء العرب وفرسانها وسادتها، كان يحمل اسماً مصغراً لإسم الكلب!**. وقد طعنه صهره جسّاس بن مرّة البكري في ظهره فقتله انتقاماً لناقة امرأة تدعى البسوس كان جسّاس هذا قد أجارها، فسرحت ترعى في حمى كليب، ورماها الأخير بسهم فأرداها. ونشأت عن ذلك حرب البسوس التي دامت أكثر من أربعين سنة بين قبيلتي بكر وتغلب!.

وغني عن الإشارة أن الوجود في الصحراء فرض على أهلها التنبّه الدائم للطارقين تحت جنح الظلام، خصوصاً في ليالي الشتاء القارسة التي يلجأ البدوي فيها الى خيمته للرقاد والراحة مطمئنّاً فتظلّ كلابه تمرح في العراء بأنوفها ذات الحساسية الخارقة،

تراقب عابر السبيل، وترصد الحيوانات المفترسة والذئاب الجائعة والزواحف والحشرات القاتلة، فتنذر الرجل وقومه بنباحها كلّما طرأ على هدأة الليل طارئ.

وقد نسج الخيال الشعبي منذ القدم حكايات ونوادر لا عدّ لها ولا حصر، في تعلّق الكلب بصاحبه، ووفائه له والتضحية في سبيله. من مثل ذلك ما ذكره الأبشيهي في «المستطرف» من أن رجلاً ثرياً كان يقتني كلباً دارباً مفترساً دخل مقصورة زوجته فرآها تجامع أحد أصدقاء الرجل، فانقض عليهما وقتلهما، ولمّا اكتشف صاحب الدار ما جرى أنشد يقول:

وما زال يَرعى ذمتي ويَحوطُني ويحفظُ عهدي والخليلُ يَخونُ
فوا عَجَباً للخلِّ يَهتكُ حُرمتي ووا عَجباً للكلبِ كيف يَصونُ

واشتهرت الكلاب السلوقية بالذكاء والفراسة حتى كان معظمها يميّز تمييزاً دقيقاً بين المحسن والمسيء من الزائرين قبل أن تظهر من جانبهم أي كلمة أو إشارة. وفي المنازل العامرة المعروفة بالقِرى والضيافة، قلما كانت الكلاب تنبح لفرط ما كانت تستقبل من أصحاب الحاجات وروّاد نزلاء. وقد ألمح الى ذلك حسان بن ثابت الأنصاري شاعر الرسول الذي كان ينزل على الغساسنة في الجاهلية، حيث يمتدح سخاءهم وإقبال الناس على ديارهم، فيقول في إحدى قصائده المميّزة:

بيضُ الوجوهِ كريمةٌ أحسابُهُمْ شُمُّ الأُنوفِ من الطرازِ الأوَّلِ
يَسْقونَ مَن وَرَدَ البَريصَ عليهِمُ بَردى يُصَفِّقُ بالرَحيقِ السَلْسَلِ

يُغْشَوْنَ حتى ما تَهرُّ كِلابُهُمْ   لا يَسألونَ عن السوادِ المقبِلِ(٨٠)

ونوّه القرآن في سورة «الكهف» بكلب رافق الفتيان الذين لجأوا الى الكهف ومكثوا فيه ثلاثمئة من السنين وتسعاً بعثوا بعدها من رقادهم، فيقول: ﴿**وتَحسَبُهُم أيْقاظاً وهُم رُقودٌ ونُقَلِّبُهُم ذاتَ اليمينِ وذاتَ الشِّمالِ وكَلْبُهُم باسطٌ ذِراعَيْهِ بالوَصيد...**﴾ (٨١)ثم يذكر ذلك الكلب في آية لآحقة: ﴿**سيَقولونَ ثلاثةٌ رابِعُهُم كلبُهُم ويَقولونَ خمسةٌ سادِسُهُم كلبُهُم رَجماً بالغيبِ ويَقولونَ سبعَةٌ وثامنُهُم كلبُهُم...**﴾ (٨٢) وقد أطلق بعض الباحثين السالفين عليه اسم «قِطمير» أي قشرة النواة التي تفصلها عن التمرة، وقال بعضهم إنّ قِطمير هذا دخل الجنة مع أربعة من الحيوانات فقط هي: كبش إسماعيل، وناقة صالح، وحمار العزيز، وبُراق النبي.

ومهما يكن من أمر، فالكلب لم يكن فقط ذلك الصديق الطيّب المحبّب، الذي يلقن العرب الأوائل درساً في التضحية والخدمة والوفاء، بل إنه كان في الوقت نفسه حيواناً يمثل الطاعة والمذلة أو العدوان والإرهاب، فتأباه نفوسهم ويخلق لدى الكثيرين منهم نفوراً وازدراء، فيقول أحدهم على سبيل المثال:

لو كلُّ كلبٍ عوى ألقَمْتَه حجراً   لأصبَحَ الصخرُ مِثقالاً بدينارِ

وطالما تذمّروا من نباح الكلاب وهريرها لغير ما سبب،

---

(٨٠) البَريص: ينبوع ماء كان الغساسنة ينزلون قربه في الشام، وهو أحد روافد بردى؛ يغشون: يكثر عليهم الوافدون؛ السواد المقبل: يعني به الزائر أو الزوار الآتين من بعيد.

(٨١) سورة الكهف ـ ١٨ ـ الوَصيد: يقصد فناء الكهف.

(٨٢) سورة الكهف ـ ٢٢.

فقالوا: «**القافلة تسير والكلاب تنبح**» وذهبت مثلاً. كما أنّ القدماء قبل عصر العلم الذي اكتشفت فيه اللقاحات والعقاقير الشافية، عانوا الأمرّين من داء «الكَلَب» الذي ينتج عن عضة الكلب وأبناء عمه من الثعالب والذئاب وبنات آوى، ويؤدي الى الوفاة. وقد ترامى هذا الحذر من أنياب الكلاب الى زمن متأخر، فنسمع الشيخ ناصيف اليازجي في القرن التاسع عشر يقول:

متى تَرَ الكلبَ في أيامِ دولَتِهِ   فاجعلْ لرجليكَ أطواقاً من الزردِ
واعلمْ بأن عليك العار تلبَسُهُ   من عضّةِ الكلبِ لا من عضّةِ الأسدِ

ويقودنا هذا الحديث على امتداح الكلب وذمّه، الى ظاهرة لغوية عميمة تكاد تميّز كلّ «فعل» من الأفعال أو اسم أو صفة من الأسماء والصفات في لسان العرب، هي ظاهرة التعبير عن معنى الشيء وضدّه معاً. وإن دلّت هذه الظاهرة على أمر، فإنها تدلّ على اضطراب كياني في النفس العربية وتردّد ملحوظ في التقرير والتنفيذ، تولدت عنه آفات ومصائب وهزائم يصعب تعدادها، على صعيد الأفراد والجماعات والدول في مختلف العصور. ولنا عود الى هذه المسألة النادرة التي لا مثيل لها إطلاقاً، في موضع لاحق من هذا الكتاب.

الحمام والقطا أجنحة الشوق والحنين

وننتقل هنا الى فئة من الحيوان الأليف عرفت بالقرب من العربي القديم، لكنها كانت أقل تأثيراً في خصائص النفس العربية

من الخيل والنوق والكلاب، أهمها القطا واليمام، فالقطا طير بحجم اليمام يتحرّك ويطير أسراباً، وهو أبطأ من اليمام في طيرانه ومساره على الأرض. لكنه اشتهر خصوصاً بغريزة الاهتداء الى ينابيع الماء وسواقيه، فهو لا يضيّع طريقه في الصحراء الخالية من أي مَعْلَم إرشادي. وقد غدا مثلاً يحتذى في تلك الميزة، فيقال «أهدى من القطا» كما في هجاء أحد الشعراء لبني تميم:

تميمٌ بِطُرْقِ اللُّؤمِ أهدى من القَطا   وإن سلكَتْ سُبْلَ المكارمِ ضَلَّتِ

ويشبه قيس بن الملوّح العامري المعروف بمجنون ليلى قلبه الخفاق عند فراق حبيبته بقطاة علقت في شرك صياد فراحت تجاذبه مختلجة للتفلت منه، فيقول:

كأنَّ القلبَ ليلةَ قيلَ يُغدى   بليلى العامريةِ أو يُراحُ
قَطاةٌ غرَّها شَرَكٌ فراحتْ   تجاذِبُهُ وقد عَلِقَ الجناحُ

أو يتمنى قيس بن ذريح لو أعاره القطا جناحاً ينقله الى ديار حبيبته:

أسِرْبَ القَطا، هلْ مَنْ يُعيرُجناحَهُ   فإنيّ الى مَنْ قد هَوَيْتُ أطيرُ. . .

وسميّت المواقع التي يحط فيها القطا لورود الماء عندهم «رياض القطا» وكان يقصدها الصيّادون وينصبون لطيورها الشباك، وهي كثيراً ما تكون رطبة مروية في موسم الأمطار:

على روضةٍ من رِياضِ القَطا   أَلَثَّ بها عارضٌ مُمْطِرُ[83]

(٨٣) ألثّ: ألحّ ودام؛ العارض الممطر: الغمام أو السحاب الذي يحمل المطر الغزير

وإذا كان إحصاء ما ورد في أخبار العرب وأشعارها من ذكر القطا مستصعب الحصر والإحاطة في هذا البحث الذي قصدنا من خلاله الى تظهير الشاعرية والحنين الذي يطبع النفس العربية وقد تعايشت مع طير أليف لطيف مهاجر يهتدي بسهولة الى ما يقتات به ويشرب منه، وشبهت به الحسناء الناعمة في خطواتها المدلّة ومشيتها الخَيْزَلى(٨٤) . . . فإنّ لليمام قسطاً أوفر من الحديث الذي تمتزج فيه التباريح والشجون ويرسم في عمق المشاعر الإنسانية صورة واضحة للكئابة العربية الدهرية.

فقد كان سجع الحمام يتعهد في قلوبهم رجع الذكريات ويحفزهم على التأمل المقرون بالحزن على أنه يبتعث الأمل والبشر والتفاؤل أحياناً. وفي «لسان العرب» عن الكسائي قوله إن الحمام طائر برّي لا يألف البيوت والذي يألفها هو اليمام، ويقول الأصمعي خلاف ذلك كلياً. ولكن اللغويّين يتفقون على أنّ الحمام هو كلّ طائر مطوّق كالقُمْريّ والفاختة والقطا، وصوت الحمام أو اليمام هو الهديل الذي يشبه النواح. يقول أبو فراس الحمداني في إحدى قصائده المعروفة بالروميات وهو أسير في

---

(٨٤) الخَيزلى: مشية متثاقلة مخلّعة لا تخلو من التحدي الصامت، وقد أشار المُنَخّل اليشكري الى تلك المشية القَطَوية في قصيدة مطلعها (إنْ كنتِ عاذلتي فسيري ـ نحو العراقِ ولا تَحوري) حيث يقول:

ولقد دخلتُ على الفتاةِ الخدْرَ في اليومِ المطيرِ
الكاعبَ الحسناء تَرفُلُ في الدمَقسِ وفي الحريرِ
وزَجَرتُها فتَنَفّرَتْ كتَنَفُّرِ الظبي الغريرِ
وزحمتها فتخطرتْ مشي القطاة الى الغديرِ

بلاد الروم:

أَقولُ وقد ناحتْ بقربي حمامةٌ ... أيا جارَتَا. هل تَشعُرينَ بحالي

معاذَ الهوى. ما ذُقتِ طارِقَةَ النوى ... ولا خطرتْ منكِ الهمومُ ببالِ

أيضحكُ مأسورٌ وتبكي طليقةٌ ... ويَسكُتُ محزونٌ ويندُبُ سالِ؟!

لقد كنتُ أَوْلى منكِ بالدمعِ مقلةً ... ولكنّ دَمعي في الحوادثِ غالِ!!

وكانوا يدرّبون الحمام الزاجل ويحمّلونه الرسائل السرّية من بلد الى آخر، فيلبي حاجات الملوك والحكّام في ذلك وينقل شكاوى الغرام وهواجسه بين المحبين. فمن خصائصه النباهة والطيران مسافات بعيدة، إن هو سلم من صيد الجوارح كالعقبان والشواهين. وكثيراً ما وقع ضحية لصوص الحمام أو الكشّاشين كما تسميهم العامة، وهؤلاء كانوا يطيرون أسرابهم الخاصة الأليفة، فتغري حمائم الآخرين المفردة أو القليلة العدد فتنضم الى السرب الطائر، ويدعي صاحب السرب امتلاكها زوراً.

والحمام يجاور الحُرُم ودور العبادة منذ القدم حيث لا يؤذيه قانص أو جارح، فقيل «آمن من حمام مكة» وحمام المدينة وبيت المقدس. وفي عداد الأساطير القديمة أن نوحاً أطلق الغراب بعد أن هدأ الطوفان فلم يعد الى الفُلك، فأطلق الحمامة في إثره، لتعود وفي منقارها غصن الزيتون، فقيل «غراب البَيْن» و «حمامة الأمل والبشرى».

من الحشرات الى الأسود..

وقد جاورت العرب في صحرائها أنواع الزواحف والأفاعي التي يصف بعضها الجاحظ في كتاب «الحيوان» كالأفعى التي يقول إنها تنتصب كالقضيب اليابس في رمالِ بَلْعَنْبر حيث تحرقها الرمضاء إن هي زحفت على الرمال، فيراها الطائر المتعب من مغالبة الحرّ اللّاهب في الهواجر، ويحسبها عوداً أو بقية من شجرة بائدة، فيغط عليها للاستراحة، فتبتلعه فوراً!

ويطلق أهل البادية أعنّة خيالهم في أخبار الحيّات السامة وعاداتها وافتراسها الضبّ في البراري، ويطول حديثهم وحديث الرواة والمؤرّخين والشعراء في شأن الأفاعي السود والرقش والبرش وسمومها القاتلة، وهربها من المرأة الخبيثة والحامل، الى آخر ما هنالك من أوصاف وروايات وأخبار، تعبر عن قلق بالغ من لسعاتها الخطرة، كما في قول نابغة بني ذبيان في إحدى اعتذارياته الشهيرة من النعمان بن المنذر الذي هدر دمه:

فَبِتُّ كأنيّ ساوَرَتْني ضئيلةٌ   من الرُّقْشِ في أنيابها السُّمُّ ناقِعُ

ويجري على سائر الزواحف والحشرات السامة ما يجري على الأفاعي من تطيّر وحذر. وقد ترسخ في النفس العربية عبر مجاورة تلك الكائنات المؤذية كالعقارب والعناكب السود الشرسة، وأمّ الأربعة والأربعين والبق والبراغيت وغيرها ممّا لا مجال الى تعداده، شعور دائم بالخطر المحدق في المقام وفي المنام، وهو ما يكاد يكون غير منظور في بيئة الشعوب غير

الصحراوية ومحيطها. ذلك أن المناخ الحار في بوادي العرب كان ولا يزال يفسح في المجال أمام تكاثر هذه الحشرات والزواحف، كما إن المضارب والخيام في الصحارى والمناطق الريفية، وكذلك العمارة العربية الحجرية في المدن، ذات الانفتاح الدائم على الخارج للابتراد بالنسم البليل العليل آناء الليل والنهار، إنما تسهّل الى حدّ بعيد ولوج الزواحف والحشرات الى مضاجع الناس ومجالسهم.

وإذا كان فتح قناة السويس في القرن التاسع عشر، وتوسّع الحضارة والعمران خلال القرنين الماضيين في جزيرة العرب وبلاد الشام والعراق، قد منعا الوحوش الضارية كالأسود والفهود والنمور والذئاب من التغلغل في هذه البلدان والمناطق، انطلاقاً من القارة الأفريقية والسهوب الأسيوية البعيدة... فقد تعود العرب قبل ذلك في مختلف العصور الجاهلية والإسلامية معايشة الضواري والجوارح طويلاً، وأثر بعضها في أخلاقهم وطبائعهم، بالإضافة الى كونها أسهمت مع سائر الحشرات والزواحف التي لا تزال متكاثرة حولهم، في الاحساس الدائم بالخطر والتطيّر والتحفّز والتعوّذ من المحجوب والمجهول.



أماّ الأسد فيحتلّ في تراث العرب أعلى منزلة بين الحيوانات الوحشية المفترسة. إنه ملك الغاب دون منازع، وأسماؤه في اللغة العربية تـفوق مع الكنى سبعين إسماً وكنية، فهو الليث، وأسامة،

والحَارث، والقِسوَر، والهِزَبْر، والرئْبال، والغَضَنْفر، والضِرغام، وحَيْدَرة، والورد، والسبنتى، وأبو شبل، وأبو العبّاس الخ...

وهو شريف النفس لا يفترس إلّا إذا جاع، ويأخذ من الفريسة القليل الذي يشبعه ويترك ما بقي منها لسباع البرّ وعقبان الفضاء، كما إنه لا يشرب من ماء ولغ فيه كلب، وفي ذلك يقول الشاعر:

سأترك حبَّكُمْ من غير حقد وذاكَ لكثرةِ الشركاءِ فيه
وتجتنب الأسود ورود ماءٍ إذا كان الكلابُ يلِغْنَ فيه

وللأسد شجاعة فائقة وبطش رهيب لكنه يجبن أحياناً ويفرّ من صياح الديك وبعض الأصوات الغريبة ويخاف النار، ولا يفترس المرأة، ولا يقربها إطلاقاً إذا كانت حائضاً، وله نظر ثاقب حاد يخترق الظلمة، وأشهر المأسدات التي عرفها القدماء وادي الزرقاء في الأردن ووادي الشرى بين الفراتين.

وقد أبدع الكتّاب العرب في وصفه ونظم شعراؤهم قصائد أشبه ما تكون بالملاحم في ذكره وتعداد ظواهر قوته وعزّة نفسه وترفعه وأخبار وقائعه وغزواته، ومن روائع ذلك قصيدة المتنبّي في الفارس بدر بن عمار الذي ضرب الأسد بالسوط فأرداه، حيث يقول:

أَمُعَفِّرَ الليْثِ الهِزَبْر بسوطِهِ لِمَنِ ادّخرتَ الصارمَ المصقولا؟!
وَرْدٌ إذا وَرَدَ البحيرَةَ شارِباً وَرَدَ الفراتَ زئيرُهُ والنيلا[٨٥]

كذلك لم يقصّر الكتاب والشعراء في توصيف النسور

(٨٥) يقصد بالبحيرة بحيرة طبريا.

القشاعم، والذئاب الغوادر والضباع والفهود وغيرها من الحيوانات المتوحشة، وقد تمكنوا من ترويض بعضها كالصقور للقنص، والكلاب البرية وغيرها، وكان منهم مراقص الدببة وحاوي الأفاعي ومدرب الخيول والثيران الشاردة ممّا لا مجال الى ذكره تفصيلاً. ولكن القاسم المشترك الذي انطبع في النفس العربية من مراقبة هذه الوحوش المتنوعة **هو الإعجاب بالقوّة دون عبادتها**، لا سيما وإنّ القوة الجسدية كانت بالإضافة الى قوة الإرادة والصبر على المكاره صفة مميّزة للإنسان المكره على الصراع المتواصل مع الطبيعة ومهالك تحدياتها وغرابة أطوارها وفجاءاتها، الأمر الذي جعل بعضهم يطلقون أسماء العنف والقوة على أبنائهم، من مثل **طعّان، ودعّاس، وصدّام، وسطّام، وعبّاس، وفوّاز وفرّاس وقوّاس**، وغيرها، **كالظافر، والغالب، والسفّاح، والمنصور، الخ...** أو حتى أسماء الحيوانات المتوحشة من مثل **أسد، وفهد، وسبع، وذيب، وذياب، وشاهين، وصقر، وأسامة، وليث، وثعبان، وضرغام، ونمر، الخ...** وهو ما يصعب استئصاله من أعماق النفس العربية، بأجيال مستحدثة في زمن الميوعة المتخنثة التي لا تلبث كلما تمادت في رخاوتها تحدث من ردود الفعل ما يجعلها تدور تباعاً في الحلقة المفرغة.

- ٥ -

الأساطير والغيبيّات وحديث خرافة!.

تتمثل الأفكار والكائنات في نفس الإنسان الصحراوي وعقله بالصيغة التجريدية المطلقة. وكما تبيّن لنا في مواضع سابقة من هذا البحث أنّ مفهوم الوطن عند أهل البادية لا يرتكز على حدود جغرافية مادية ثابتة، كذلك يتضح في سياق النظر والاستقراء أنّ مفهوم الزمن لا يستند الى حدود رقمية موثوقة واضحة القياس. ففي القرآن ﴿**وإنَّ يوماً عندَ ربِّكَ كَأَلفِ سنة ممّا تَعُدُّون**﴾(٨٦) وهو قول يطابق في معناه كلياً ما ورد على لسان موسى في التوراة ﴿**ألفُ سنةٍ في عينيكَ يا ربّ كأمسِ الذي عَبَرْ**﴾(٨٧). ذلك أن العبرانيين كانوا في صحراء التيه يعيشون حياة البداوة العربية يوم نزلت هذه الآية التوراتية على موسى. وإن دلّ هذا التوافق على شيء، فإنما يدلّ على أنّ الزمن بالنسبة للساميين غير محدود لارتباطه بأزلية الخالق الذي لا حدود لوجوده وديمومته. وقد

(٨٦) سورة الحجّ ـ ٤٧

(٨٧) سفر المزامير ـ المزمور ـ ٨٩

سمى قدماء العرب السنة «حولاً» لأنها تتحول وتحول أي تمضي، وكانت لهم «حوليّات»، أي أعمال ومناسبات يستغرق إنجازها حولاً كاملاً، أي سنة أو ما يقربها، كقصائد زهير بن أبي سلمى التي كان يصرف على توقيعها ونظمها سنة كاملة. ويطلقون على السنة اسم «الحجة» التي تحدث مرة كلّ عام، في شهر ذي الحجة الى بيت الله الحرام في مكة. وهم لم يعرفوا التقويم الشمسي والقمري إلّا في زمن متأخر قبيل ظهور الإسلام حيث اعتمدوا التقويم القمري واستعملوا أسلوب «الكّبْسِ» في ترتيب حساب السنة القمرية على حساب السنة الشمسية دونما احتفال بأنصاف الأيام أو أرباعها، ثمّ بأسلوب «النَّسيءِ» الذي يسمح لهم بإضافة أحد عشر يوماً الى السنة القمرية، فتصبح معادلة تماماً للسنة الشمسيّة كلّ ثلاثة وثلاثين عاماً من أعوامهم القمرية على وجه التقريب(٨٨)

ومهما يكن من أمر فقد بقي الزمن وقياسه وحسابه مرتبطاً الى حدّ بعيد بكلّية الله وأزليته، متصلاً بقَدَرِه وقضائه، والله وحده يقرّر مدّ أعمار البشر أو تقصيرها، حسبما يراه من استحقاق الإنسان وحسن عبادته وصلاح سيرته. وعلى قَدْر إعظامهم لهذه الشخصية التاريخية أو تلك من الأنبياء والمرسلين القدامى الذين لم يدركوهم لتقادم الزمن على عهودهم في الجاهلية الأولى، إنما كانوا يتصوّرون مقدار سخاء الله في إطالة أعمارهم، فيقول بعض

---

(٨٨) أنظر «المواسم وحساب الزمن عند العرب قبل الإسلام» - تأليف عرفان محمد حمّور - مؤسسة الرحاب الحديثة - بيروت - ٢٠٠٠

النسّابين والكتّاب الأوائل أن آدم عاش أكثر من سبعة آلاف سنة، وأنّ نوحاً عمّر حوالي ثلاثة آلاف، وأنّ عاداً جاوز الألف سنة الخ... ويذهب آخرون في تضخيم أحجام الأوّلين الى حدود خارجة عن مألوف الطبيعة، «كالعمالقة» مثلاً أو بعض العرب البائدة كأهل عاد وثمود وطسم وجديس وغيرهم.

وتلتقي الشعوب الصحراوية والشعوب البحرية في هذا الشطط المتعلق بالأحجام والأعمار تحت تأثير الآفاق البعيدة والمساحات اللّامتناهية لمياه البحار ورمال الصحارى، من مثل أخبار «السيكلوب» **العملاق الوحيد العين**، وعرائس البحر، في الأوذيسية وغيرها من ملاحم الإغريق، وقصص الأشباح والأرواح الهائمة في قصور اسكوتلانده وانجلتره والدانمارك وبلاد الشمال التي يقطنها أخلاف «الفايكينغ».

وفي التراث العربي القديم أن لقمان بن عاد عُمِّر ألوف السنين وكان له سبعة نسور. ولأنه اشتهر بالحكمة والعبادة وهبه الله أن يعيش مقدار أعمار نسوره التي كان آخر من بقي حياً منها «لُبَدْ» الذي عاش في زعمهم اكثر من أربعة آلاف سنة، وطال عمره على الدهر حتى كاد يبلغ الخلود، وأصبح مضرب المثل، فقيل «**طال الأبدُ على لُبَد**»، وكثيراً ما يرد ذكره في الشعر العربي تدليلاً على طول زمانه، فيقول النابغة الذبياني، واصفاً تقادم الأطلال التي خلت من أهلها وكأنما أصابها ما أصاب لُبَدْ من ثِقَل الأيام:

أَضْحَتْ خلاءً وأَضْحى أَهلُها احْتَمَلوا   أَخْنى عليها الذي أخنى على لُبَدِ

ولعلّ خير الأمثلة على تضخيم الأحجام في التراث القديم،

ما وصف به السندباد البحري (وهو أيضاً شخصية أسطورية) طائر «الرُخّ» الأسطوري، خلال رحلته الثانية في كتاب «ألف ليلة وليلة»(٨٩) حيث يقول:

«ما زلنا نسير من جزيرة الى جزيرة، ونحن نبيع ونشتري ونتعوّض، حتى نزلنا ذات يوم على جزيرة كثيرة الأشجار والأثمار، فرسا المركب عليها وطلع التجّار اليها فجمعوا من أزهارها وأثمارها، وأنا قد أخذت السُفرة والمُدام وجلست عند ساقية جارية، فطاب لي المنام.. وما استيقظتُ إلّا والمركب قد أقلع وغاص في البحر. فقمت ولم أجد عندي أنيساً ولا جليساً... فنظرت، فإذا شيء أبيض قد لاح لي من البعد. ثمّ إني قصدت ذلك البياض، فإذا هي قبّة شاهقة ملسة ناعمة. وكانت استدارتها خمسين خطوة. وكانت الشمس قد قاربت الغروب، فظهرت لي غيمة كبيرة تأمّلتها فإذا هي طائر، فتذكّرت ما أخبر به البحريون عن طائر الرُخّ الذي هو بقدر الغيمة، وتلك القبة هي بيضته. وإذا بالطائر قد نزل عليها وأنا بجانبها، فوقع أحد مخالبه قُدّامي كأنه سكة حديد كبيرة. فحللت عمامتي عن رأسي وشددت نفسي بطرف العمامة وربطتها بالمخلب ربطاً وثيقاً، وقلت لعل هذا الطائر يخرجني من هذه الجزيرة الى مكان عامر. فلمّا أصبح الصباح أقلع الرخّ وطار في الفضاء وأنا مشدود الى مخلبه. فلم يزل يرتفع وأنا مربوط بالمخلب حتى علا في الجوّ وظننت أنّه قد

(٨٩) أنظر «مجاني الأدب في حدائق العرب» للأب شيخو اليسوعي ـ الجزء الأول ـ ص ١٥٢ ـ بيروت ١٩٠٠

احتكّ بالسماء. ثمّ نكّس رأسه وطلب الأرض. فحللت العمامة من مخلبه، وإذا به يضرب حيّة في حجم جمل فيأخذها ويطير. وبقيت وحدي في واد عميق سحيق لا يبلغ النظر الى علوّه، ولا سبيل الى الصعود منه أو النزول اليه. فقلت إنّا لله وإنّا اليه راجعون...»!

ويقول السندباد في موضع آخر: «**إن الكَركدَنّ يشكّ الفيلَ بقرنه، ويحمله على رأسه، فيسيل دهنه على عيني الكركدَنّ فيُعميه، ويبقى ملقى على الأرض. ويأتي الرخّ فيأخذ الإثنين بمخالبه ويطير في الجوّ ليطعمهما فراخه!!**»

وقد بالغ الدُمَيْري في كتاب «حياة الحيوان» بأوصاف الرخّ وعظم هيكله وحجمه. ويقول الفريق أمين المعلوف في «معجم الحيوان» إنه كان أقلّ ضخامة مما يصفه القدماء، وكان في جزائر الهند، لكنه انقرض في القرن السابع عشر الميلادي، وقد عثر على بعض بيوضه في جزيرة مَدَغشْقر، وطول البيضة منها ثلاثون سنتمتراً. ويذهب داود الانطاكي المتوفي سنة ١٠٠٥م. الى أنّ الرخّ في حجم الجمل، أبيض العنق مع ميل الى الصفرة، وقال إنه يأوي الى جبال سرنديب.

وقد جمح الخيال بالعرب في أزمنة حياتهم الصحراوية جموحاً لم يبلغ الى مثله شعب آخر من الشعوب القديمة باستثناء قدامى اليونان في حياتهم البحرية، ولا يزال هذا الجموح الخياليّ متجذّراً في النفس العربية الى هذا اليوم. لا سيما وإن كلّ شخصية من الشخصيات الأسطورية الخرافية التي وردت في كتابات

مؤرخيهم كانت متميّزة بصفة أساسية من صفات الخير أو الشرّ. وتجدر الإشارة الى أن المؤرخين الأوائل ظلوا حتى ظهور ابن خلدون في القرن الرابع عشر الميلادي (١٣٣٢ - ١٤٠٦) الذي وضع القواعد العلمية للتاريخ وعلم الاجتماع، **يتأثرون بالقصص والروايات الخيالية الشعبية ويوردونها في مؤلفاتهم على أنها حقائق ثابتة.** وسنعدّد فيما يلي بعض تلك الشخصيات الخرافية وما ترمز اليه من نوازع البداوة وطباعها التي انتقلت الى خصائص النفس العربية ونظرتها الى الفضائل والمكارم أو الى المثالب والشوائب في عصرنا.

العرب البائدة وإِرَمْ ذات العماد

العرب البائدة هم وُلد إِرَم بن سام بن نوح، ويؤلفون تسع قبائل: **عاد، وثمود، وأميم، وعُبَيْل، وطسم، وجديس، وعَمليق، وجُرْهُمْ الأول، ووبّار.**[٩٠] وقد انتقلوا من اليمن الى الحجاز ونجد والشام والعراق، وهلكوا جميعاً، فلم يبق لهم أثر يذكر. ويفرد جرجي زيدان فصلاً خاصاً بهذا الموضوع في كتابه «**العرب قبل الإسلام**». أمّا أشهر هذه العرب البائدة فهم قوم عاد الذين حملوا اسمه، وأهل ثمود الذين قتلوا صالح وناقته ممّا سبقت الإشارة اليه، وطسم وجديس الذين سكنوا اليمامة في جزيرة العرب وسمّوها باسم امرأة زرقاء العينين عرفت «بزرقاء اليمامة»

(٩٠) «الكتاب المنتخب في ذكر قبائل العرب» تأليف عبد الرحمن بن حمد بن زيد المغيري - دار المدني - جدّة

يقال إنها كانت تبصر عن بعد (مسيرة ثلاثة أيام)، وقد أبادهم حسان بن تُبَّع. ثم عمليق أبو القوم المعروفين بالعمالقة الذين لم يبرحوا اليمن وقيل إن بعضهم نزح الى الشام، وجُرهُم الأول الذي سكن الحجاز مع قومه.

ويقول معظم المؤرخين القدامى أن طول الرجل من العمالقة وقوم عاد كان يبلغ ٧٠ ذراعاً، وأنّ أوّلهم عاد عُمِّر حوالي ألف سنة وتزوج ألف امرأة، ووُلد من صلبه أربعة آلاف ذكر. وقد ورد ذكر عاد ٢٤ مرّة في القرآن(٩١). وأهم أولاده الذكور «شديد» «وشدّاد» **الذي بنى المدينة الخيالية المعروفة باسم «إِرَم ذات العِماد»**. وقد تبارى المؤرخون القدامى في وصفها والتنويه بعظمة بنيانها وأخبار هلاكها. ويقول ياقوت الحموي في «معجم البلدان» أنّ الجبّار العملاق شدّاد بن عاد بناها في بعض أطراف اليمن، وأرادها على مثال الجنّة روعة وبهاء، فاستحدث فيها الأنهار والقصور والأبراج، وسمكها بالذهب والفضة، وملأها بالجواهر والحجارة الكريمة. وقد أهلك الله شدّاداً هذا، لتماديه في الكفر والتجبّر، كما أهلك أهلها، فلم يدخلها أحد بعد ذلك اليوم إلّا عبد الله بن قِلابة في زمن معاوية بن أبي سفيان.(٩٢)

---

(٩١) ورد اسم عاد في السور القرآنية الآتية: الأعراف، ٦٥، ٧٤ ـ التوبة، ٧٠ ـ هود، ٥٠، ٥٩، ٦٠ ـ إبراهيم، ٩ ـ الحجّ، ٤٢ ـ الشعراء، ١٢٣ ـ ص، ١٢ ـ غافر، ٣١ ـ فصّلت، ١٣، ١٥ ـ الأحقاف، ٢١ ـ قاف، ١٣ ـ الذّاريات، ٤١ ـ القمر، ١٨ ـ الحاقة، ٤،٦ ـ الفجر، ٦ ـ الفرقان، ٣٨ ـ العنكبوت، ٣٨ ـ النجم، ٥٠

(٩٢) في «معجم البلدان» لياقوت (الجزء الأول: ١٨٦،١٨٧ ـ منشورات «دار الكتب العلمية» ـ بيروت) وصف دقيق لبناء شداد بن عاد تلك المدينة الخيالية على صورة الجنة، وكيف جمع=

وقد أكثر الشعراء من ذكر «إرم ذات العماد»، ويذكر ياقوت أنها ربما اندثرت، وربما كانت هي دمشق التي يقول فيها شبيب بن يزيد بن النعمان بن بشير الدمشقي:

لولا التي عَلِقَتْني منْ عَلائِقِها لم تُمْسِ لي إِرَمٌ داراً ولا وطنا

ويقول فيها البحتري ويعني دمشق:

الى إِرَمٍ ذاتِ العِمادِ وإنَّها لَمَوْضِعُ قصدي موجِفاً وتعمُّدي

وفي التنزيل الحكيم: ﴿أَلَمْ تَرَ كيفَ فعلَ رَبُّكَ بِعادٍ. إِرَمَ ذاتِ العِمادِ. الّتي لم يُخْلَقْ مثلُها في البلادِ.﴾ (سورة الفجر ـ ٦، ٧، ٨)

وقد آمن قدماء العرب بالسحر والكهانة والرَجْم والزَجْر والأوثان. ويبدو أن هذه الظواهر الغيبية انتقلت اليهم بقوة الاستمرار التاريخي من حضارة البابليين الشعب الساميّ الآخر،

= لها الذهب والفضة والجواهر من أطراف العالم القديم، وجعل طولها ١٢ فرسخاً (أي ما يقارب ١٠٠ كيلومتر) وعرضها كذلك، وجعل كلّ عمارة من عماراتها ترتفع ٣٠٠ ذراع في الهواء، ويرتفع فوقها برج علوه ٣٠٠ ذراع أيضاً، ثم إنه قضى ٥٠٠ سنة من عمره الذي بلغ ٧٠٠ سنة، في بنائها حتى اكتملت، فأتاه النبي هود بن الخلود بن عاد بن إرَم بن سام بن نوح، وهو أحد أبناء عمّه، فدعاه الى عبادة الله والإقلاع عن ذلك الكفر، لكنه لم يرتدع، بل حشد ثلاثمئة ألف من رجاله وقصد هوداً للقضاء عليه مع قومه، فضربته «صيحة من السماء» قضت عليه فمات مع سائر جنوده، وكلّ من كان بالمدينة من الفعلة والناس والصنّاع وبقيت خلاءً لا إنس فيها. ثم ساخت في الأرض، ولم يدخلها بعد خرابها إلّا رجل واحد هو عبد الله بن قِلابة الذي جمع من أرضها بعض الجواهر وجاز الفيافي الى الشام حيث دخل على معاوية بن أبي سفيان وأخبره بما رأى وقدم اليه الذهب والجواهر التي عثر عليها هناك، فاستشار معاوية كعب الأحبار في أمر تلك المدينة، فأجابه أن الله حرّم دخولها على أي إنسان باستثناء رجل واحد وصفه كعب فطابق وصف عبد الله بن قلابة. عندها قال معاوية لهذا الأخير: «لقد نصحتنا وأحسنت في نصحنا، ولكن لا حيلة لنا في ما لا سبيل اليه».

وهي حضارة مصدرها الأصلي جزيرة العرب لكنها ازدهرت قروناً طويلة في العراق. ويذهب العديد من الباحثين الى أن «**مردوخ**» إلَه الآلهة عند البابليين، أقدم من «**آمون**» إلَه الآلهة عند الفراعنة، ونظيره «**زُفُس**» الإغريقي. وكانت هنالك أصنام في الكعبة من أصل بابلي، نصبت جنباً الى جنب مع «**هُبَل**» كبير الآلهة في قريش الوثنية قبل الإسلام، الذي يعود بحسب جرجي زيدان في «أنساب العرب القدماء» الى «**بعل**» الفينيقي أو «**هُبَعْل**» العبراني. وأهم هذه الأصنام هي «**اللّات ومَناة والعُزّى**».

ويقول محمد عبد المعيد خان في كتاب «**الأساطير العربية قبل الإسلام**»، أنّ «العُزّى» وهي أضخم أصنام العرب، كان القرشيون قد نصبوها قرب شجرة معمّرة معبودة في الجاهلية، والكلمة ذات أصل بابلي (Izzu) وتعني النار باللغة البابلية. وممّا رواه الجاحظ أن خالد بن الوليد يوم دخل مكة وهدم بيت العزّى، أطلقت عليه شرراً فاحترق جانب من فخذه. (سبق الحديث على العزّى في الفصل الثاني من هذا الكتاب).

أمّا «مَناة» فكانت لقبائل خَزاعة وهُذيل بين مكة والمدينة، وهي أيضاً ذات أصل بابلي وقد وجدت أيضاً باسمها ورسمها في آثار مصر على ما نقله عيسى اسكندر المعلوف عن أحمد كمال في مجلة «المقتطف»، وعثر عليها كذلك في الآثار النبطية باسم «مناواة» القريب من اسمها البابلي (Mamnatu) ويعني إلَهة القدر والموت.

وأمّا «اللّات» أو (Allatu) في الأدب البابلي، فهي كذلك ملكة الهاوية والموت.

ويذهب أحمد كمال في المقتطف (**٢٣ : ٥٠٥**) الى أن معظم أصنام العرب في الجاهلية تحمل أسماء فرعونية كاللّات ومناة والعزّى التي نقلها العرب بأسمائها المصرية القديمة، وغيرها بالأسماء المحرّفة كالصنم سعد (بالفرعونية شعث) ووَدّ (حود) ويغوث (يوسِس) ورضا (رتاو) وغيرها. ومهما يكن من أمر، فنميل الى كون تلك الأصنام تداولتها الشعوب السامية التي كانت متلازمة متداخلة ومتفاعلة سلماً وحرباً في جاهلية الأمم من اليمن الى مصر فالحجاز ونجد والعراق والشام، حتى الأناضول حيث يقول محمد معروف الدواليبي **أن قلعة طروادة التاريخية التي تدور حولها أناشيد هوميروس** في الإلياذة، والتي غزاها اليونانيون وأزالوا معالمها عند مضيق الدردانيل، **إنما كانت رأساً سامياً متقدماً** يسيطر على الحركة التجارية والحضارية بين الشرق الأدنى وأوروبا الشرقية والسهوب الروسية عبر البحر الأسود.[٩٣]

ويذهب الدواليبي الى أنّ **اسم «طروادة» مشتق من اسم جزيرة «أروادة» الفينيقية،** (Arados) باللّاتيني، المعروفة اليوم باسم **«ارواد»** تجاه ميناء طرطوس على الساحل السوري.

وغنيّ عن الإشارة أن الإسلام كفّر السَحَرَة وشياطين بابل.

(٩٣) «قلعة طروادة التاريخية وصلتها بالهجرات العربية القديمة الى أوروبا» ـ محمد معروف الدواليبي ـ منشورات مكتبة لبنان ـ بيروت ١٩٦٤.

ففي التنزيل الحكيم ﴿واتَّبعوا ما تَتْلو الشياطينُ على مُلْكِ سليمانَ وما كَفَرَ سليمانُ ولكنَّ الشياطينَ كَفَروا يُعَلِّمون الناسَ السحرَ وما أُنْزِلَ على الملَكَيْنِ ببابلَ هاروتَ وماروتَ وما يُعَلِّمانِ من أحدٍ حتى يَقُولَا إِنَّما نحنُ فِتنةٌ فلا تكْفُرْ فيَتعلَّمون منها ما يُفَرِّقون بهِ بينَ المرءِ وزوجِهِ وما هُمْ بِضارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بإِذْنِ اللهِ ويتعلَّمونَ ما يَضُرُّهُمْ ولا يَنْفَعُهُمْ. . .﴾ (البقرة ـ ١٠٢)

كذلك نهى الإسلام عن الزَجْر والرَجْم بالغيب والكهانة والتطيُّر ونسب الى النبي قوله «**لا طيرة في الإسلام.**» هذا مع العلم أن معظم العرب، حتى الجاهليين منهم لم يكونوا يؤمنون بالعرافين والزاجرين والمتفائلين أو المتشائمين بمساقط الطير واتجاهاتها، أو بالمنجّمين عموماً. فيقول لبيد بن ربيعة في الجاهلية:

لَعَمْريَ ما تدري الطوارقُ بالحصى ولا زاجراتُ الطَيْرِ ما اللهُ صانعُ

ويقول بعده المبرَّد في الإسلام:

الفألُ والزجرُ والكُهَّانُ كلُّهِمُ مُضَلَّلونَ ودون الغيبِ أَقْفالُ

الجن والأبالسة وعجائب المخلوقات

تختلف آراء المفكّرين والمؤرخين القدامى في أصول الجنّ ومنبتها وأماكن وجودها. وقد جاء في القرآن إنها من نار ﴿**والجانَّ خَلقناهُ منْ قَبلُ منْ نارِ السَمومِ**﴾(٩٤) وفي آية أخرى ﴿**وخَلَقَ الجانَّ**

(٩٤) سورة الحِجر: ٢٧

من مارجٍ من نَارٍ﴾[٩٥]. ويقول القزويني وبعض الباحثين نقلاً عن الطبري أنّ الجنّ سكنت الأرض قبل آدم، وأنها انهزمت أمام الملائكة التي شرّدتهم في البحار البعيدة، ثم اجتمعت بعد شتاتها لسليمان وظهرت أمامه بأشكالها المختلفة ورؤوسها الحيوانية وأذنابها وأظافرها وأنيابها بما في ذلك الشياطين والعفاريت، فأخضعها لإرادته.

وتباينت الآراء حول منازلها، فقيل إنها سكنت أرض «وبّار» وهي من العرب البائدة التي أهلكها الله وفي غير ذلك من الأودية والقفار ذات الأسماء المعروفة في الجزيرة، وقيل إن بعضها استوطن «عَبْقَرْ» وينسب الى هذا الفريق كلّ شيء متقن وجيّد. ففي «لسان العرب» أن عبقر «**قرية يسكنها الجن وينسبون اليها كلّ عمل دقيق وعظيم**» لكن أحداً لا يعرف مكانها بالضبط.

ومن غرائب مقولاتهم أن الجن تتبدّل طبيعة وصورة بحسب المواقع والمناسبات، وأنها تركب الديك والغراب والحمام والقنفذ والأرنب والظبي واليربوع والحيّة وغيرها من الحيوان، وأن لها أصواتاً عجيبة أهمها «**العزيف**» كان المغنّي المكيّ المعروف بالغريض يستوحي منه تقطيع أناشيده. وقيل إن الجنّ طوائف وفئات، منها الجانّ والشيطان والعفريت وأعظمها المارد الذي ينسبون اليه الخوارق. وذهب بعضهم الى أن الجن تركب البشر أحياناً وتتقمص الأقزام والمسوخ، وكانوا يستعيذون بها في

---

(٩٥) سورة الرحمن: ١٥

الأودية والأماكن الموحشة، فإذا حط البدوي رحله في إحدى المفازات الخالية قال: «**أعوذ بصاحب هذا المكان**» يقصد كبير الجنّ الذي يحكم هناك. ويروى أن أحد البدو استعاذ بأمير الجنّ في واد مقفر، وكان معه ابنه فداهمه الأسد وافترس الولد، فقال: «**قد استعذنا بعظيم الوادي / من شرّ ما فيه من العوادي / فلم يجرنا من هزبرٍ عادِ...**»

ونسب الكثيرون منهم المباني العظيمة الى الجن، فقال نابغة بني ذبيان مثلاً، إن الله أشار على سليمان أن يأمر الجِنّ ببناء تدمر:

قُمْ جَيِّشِ الجِنَّ إنّي قد أذِنتُ لَهُمْ   يَبنونَ تدمُرَ بالصُفّاحِ والعَمَدِ

وأضافوا الى خوارق أعمالهم أن منهم شعراء كذلك الجنّيّ الذي قال:

وكُلُّ المَطايا قد رَكِبنا فلم نَجدْ   ألذَّ وأشهى من ركوبِ الأرانِبِ

وفي بعض الخرافات أن الجنّ لا تأكل وتحسد البشر على ذلك. وروى سمير بن الحارس الضبّي أن فريقاً من الجنّ ظهر عليه وهو يوقد النار لطعامه فدعاهم اليه فأبوا، ويقول في ذلك:

أَتَوْا ناري، فقلتُ مَنونَ؟ قالوا: سراةُ الجِنّ. قلتُ: عِموا ظلاما
فقلتُ: الى الطعامِ. فقالَ منهُمْ   زعيمٌ: نَحسدُ الإنسَ الطعاما

ولعل أغرب ما رواه القدماء من حكايات الجنّ أن الملك الحميري الهَدْهاد بن شرحبيل خرج ذات يوم للقنص، فرأى غزالة يطاردها ذئب حتى تمكن من حشرها في مأزق بين

صخرتين، فحمل الهدهاد على الذئب وأبعده عن الغزالة المهددة التي همّت بالفرار، ولحق بها منقطعاً عن مرافقيه. وبينما هو يجري وراءَها ظهرت له مدينة عظيمة، تحيط بها الغياض والبساتين والأنهار، فوقف دونها مندهشاً. وإذا برجل من أهل تلك المدينة يمر به ويلقي عليه السلام قائلاً: أراك متعجباً، أَبيتَ اللعن، أيها الملك ممّا ترى. فقال الهدهاد: أنني كذلك فعلاً! فما هذه المدينة؟ ومن سكانها؟!! قال: **إنها مأرب مدينة العَرِم وأنت فيها بحيّ الجنّ!!**

ومرت خلال ذلك بالمكان امرأة باهرة الحسن رائعة الجمال تفوح منها روائح الطيب الزكية، فعلقها الملك وفتنه منظرها الخارق وابتسامها الوضّاح، فقال له الرجل وهو جنّي بهيئة إنسان: يا ابن شرحبيل، إن كنت هويتها، فهي لك. إنها الغزالة التي أنقذتها من الذئب، وباستطاعتي أن أزفّها اليك، لأنها أعربت لي عن حبها لك وعرفانها لفضلك. فإن شئت ذلك تأتي الى هنا في شهر رجب مع خاصة قومك وأعيان رعيتك وأزوّجك بها في احتفال عظيم بشهادة الله تعالى وملائكته!

قيل إن الهدهاد فرح لذلك وأبدى موافقته. وعندها غابت عنه المدينة، وأدركه رفاق صيده بعد طول بحث في البادية، فإذا هو يتغنّى بأبيات من الشعر قائلاً:

عجائبُ الدهرِ لا تفنى أوابدُها   والمرءُ ما عاش لا يخلو منَ العَجَبِ
ما كنتُ أحسبُ أنَّ الأرضَ يَعمُرها   غيرُ الأعاجمِ في الآناقِ والعَرَبِ
وكنتُ أُخبَرُ بالجنِّ الجُفاةِ ولا   أَردُّ أخبارَها إلّا الى الكذبِ

حتـى رأيــتُ مـقــاصيــراً مـشـيَّــدةً   للجنِّ مضروبة الأبـوابِ والحُجُبِ
يحفُّـهـا الزرعُ والـماءُ المحيطُ بهـا   مع الـمـواقيـر من نـخلٍ ومن عـنـبِ

وما إن حلّ رجب حتى رجع الهدهاد مع اعيان مملكته الى ذلك المكان فإذا بالجنّ قد بنوا له قصراً منيفاً مكث فيه ثلاثة أيام زفت له بعدها تلك المرأة الجنّية التي هام بها **وتدعى الحَرورى بنت يَلَب بن الصعب العرم ملك الجن**. وقد أقام في المدينة السحرية مأرب وقصرها العامر **فولدت له الحَرورى بلقيس التي ذاع صيتها في الأمصار**، وتزوّجت ابن عمّ أبيها شمّر يهرعش بعد وفاة الهدهاد.

أمّا إبليس فيكاد الطبري والقزويني والمسعودي والدميري وغيرهم يجمعون أنه بعث على رأس الملائكة الى الأرض لتطهيرها من الجِنّ، فلما نجح في ذلك وشتّتهم في البحار، قويت شوكته وتمرّد على الله، فغضب عليه وخلق الإنسان.

وأمر الله إبليس بالسجود لآدم مع سائر الملائكة، فأبى **﴿... ثمَّ قلنا للملائِكَةِ اسْجُدوا لآدمَ فسَجَدوا إِلَّا إِبليسَ لَمْ يَكُنْ منَ الساجدينَ. قال ما مَنَعَكَ أَلّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قالَ أنا خيرٌ منه خلَقْتَني منْ نارٍ وخلَقْتَهُ من طين﴾**(٩٦)

ويزعم العرب أن لإبليس خمسة أبناء من الشياطين الذين يؤلفون جيوشه الخفية الشرّيرة، هم: «ثَبَرْ» شيطان الفتن والحروب، و«داسِمْ» شيطان الغضب والحقد والضغينة،

---

(٩٦) سورة الأعراف: ١٢،١١

و«أعور» شيطان الشهوات، و«زَلَنْبور» شيطان المال، و«مِسْوَط» شيطان الكذب. وقيل إنّ لإبليس وشياطينه قروناً وأنّ الجِنّ أصبحت من جنده بعدما طردها من ظاهر الأرض وكفر بربّه، وكذلك السعالى والغيلان.[٩٧]

ويقولون إن كنيته «أبو مرّة» و«أبو ناجية»، وكانت له ابنة اسمها «لُبينى» فسقت في الأرض، وهو في رأي المسعودي صاحب «مروج الذهب» لا يلد بل يُلقح كالطير ويبيض ويُفرخ، ويخرج من كلّ بيضة له ستون ألف شيطان تتسلّط على الخلق، وأقرب تلك الشياطين اليه أكثرها فتكاً بالبشر ووسوسة في عقولهم. وروي أنه يوم لعنه الله، خاطبه بقوله: لقد طردتني وجعلتني رجيماً، فأرجوك أن تجعل لي مسكناً، قال: مسكنك الأسواق، قال: وهل لي من طعام؟ قال: ما لا يذكر اسمي في صنعه. قال: وما هو مشربي؟ قال: كلّ مسكر. قال: وما أتصيّده؟ قال: مصايدك النساء!!

وفي عداد الشخصيات الخرافية شياطين وعمالقة من قدماء ما قبل التاريخ المدوّن يرمزون الى قوى الشرّ والخير في معجم التراث البدوي، منهم «العَنَق» أو «العناق» بنت آدم التي يقول القزويني في «عجائب المخلوقات» إنها كانت «وحيدة بلا أخ، ذات رأسين، مشوّهة الخلقة، وفي كلّ يد من يديها عشرة أصابع،

(٩٧) أنظر مقدمة ملحمة «عبقر» لشفيق المعلوف، بقلم عيسى اسكندر المعلوف ـ منشورات العصبة الأندلسية ـ الطبعة الرابعة ـ سانبولو (البرازيل) ١٩٤٩. وكذلك «في طريق الميثولوجيا عند العرب» لمحمود سليم الحوت ـ الطبعة الثالثة ـ دار «النهار» للنشر ـ بيروت ١٩٨٣.

ولكل إصبع ظفران كالمِنْجَلِيْن». ونقل الطبري في «تاريخ الأمم والملوك» عن الإمام علي بن أبي طالب أنها «أوّل من بغى في الأرض، وعمل الفجور، وجاهر بالمعاصي، واستخدم الشياطين وصرفهم في وجوه السحر.»

ومنهم **عُوجُ بن العَنَق** الذي يقول ابن خلدون في «كتاب العبر» أنه رجل من العمالقة تصدّى لبني إسرائيل في الشام، «وزعموا انه كان لطوله يتناول السمك من البحر ويشويه الى الشمس»!! ويضيف القزويني أنه «خاض في الطوفان فلم يبلغ ركبتيه!.. واقتلع قطعة ضخمة من جبل ثم رفعها ليلقيها على بني إسرائيل في التيه بقصد إبادتهم فخرج اليه موسى وسلّط عليه عصاه فقتله!!»

ومنهم أيضاً «ظليم» وهو مارد كان في قصص الرحّالة وأساطير الجِنّ والمتشيطنة يخطف النساء. ويروي الأبشيهي في «المستطرف» أن أحد المسافرين ضلّ طريقه في أرض موحشة، فصادف خيمة تجلس تحتها جارية حسناء، سألها عن حالها فقالت إنها من فزارة وأن عفريتاً يقال له «ظليم» اختطفها وحملها الى ذلك المكان، وهو يأتيها نهاراً ويغيب عنها في الليل، فأخذ الرجل في إقناعها بوجوب الفرار معه للتخلص من ذلك الجحيم، حتى رضيت وهي خائفة، ثم سرى بها الى مطلع الفجر، وإذا بشخص مهول قادم نحوهما، ورجلاه تخطان أخاديد في الرمل، فصاحت الجارية: ها هو قد أتانا، قال المسافر: فأنختُ ناقتي وتلوت آياتٍ من القرآن وتعوّذت بالله العظيم من ذلك الشيطان الرجيم الذي

بادرني بالقول:

يا ذا الذي للحَيْن يَدْعوه القَدَرْ   خَلِّ عن الحسناءِ رَسْلاً ثمّ سِر
وإنْ تَكُنْ ذا خبرةٍ فينا اصْطَبِرْ

قال: فأَجَبْتُهُ:

يا ذا الذي للحَيْن يَدْعوه الحَمَقْ   خَلِّ عن الحسناءِ رَسْلاً وانْطَلِقْ
ما أَنتَ بينَ الجنّ أولُ من عَشِقْ

قال: فتبدّى لي في صورة أسد جاذبتُه وجاذبني ساعة، فلم يظفر أحد منّا بصاحبه، فلمّا يئِس منّي انصرف وهو يتمتم كلاماً لا أفهمه، فسرت بالجارية الى أهلها وتزوّجتها.

ثم إن من تلك الوجوه الخرافية كذلك الشيطان المعروف باسم «قُطْرُبْ» وهو عفريت مارد مختص بسفك الدماء يزعم القزويني أنه يظهر في اليمن وصعيد مصر، واشتهر بشراسته حتى أنه يقتل المرء بمجرد الظهور عليه لشدّة خوفه منه. ولا يقوى عليه إلّا من كان ثابت القلب مؤمناً متسامحاً شهماً.

وتصعب الإحاطة بمجمل التركيبة الخيالية للأساطير وشخصياتها الخرافية في الحياة العربية منذ الجاهلية الأولى وحتى بزوغ فجر الإسلام. فبالإضافة الى ما ذكرناه من الطيور العجائبية، نشير الى «**العنقاء**» التي يقول القزويني إنها أعظم الطيور جثّة، وهي قادرة على خطف الفيل ولريشها صوت عندما تحلّق كصوت هبوط السيل أو هبوب الريح، و«**الفَيْنَق**»، كما يسميه «معجم الحيوان» أو «**قوقيس**» كما يسميه القزويني، وله ألوان زاهية، وهو

يحرق نفسه ليبعث من جديد، ويسميه اليونانيون (Phénix) وتقول أساطيرهم إنه يعيش في جزيرة العرب ويعمر سنين طويلة، و«**السَمَنْدَل**» الذي قيل إنه لا يحترق بالنار، و«**الهامة**» المعروف أيضاً «**بالصدى**» الذي يشبه البوم، وقيل إنه يخرج من رأس القتيل ولا ينفك يصيح: «أسقوني. أسقوني.» حتى يؤخذ بثأره.

يضاف الى ذلك الغيلان وإناث الجنّ التي عرفت عندهم بالسَعالى. ويقول بعض العلماء أن اسم القرد الهائل المعروف «بالغوريلّا» مشتق من الغول. غير أن الغول في التراث العربي حيوان خرافي هائل، وقد جاء في الأمثال المتأخرة أن «المستحيلات ثلاثة: الغول والعنقاء والخلّ الوفي». ولكن الكثيرين من الرواة والشعراء العرب حدّثوا به وقالوا إنه من الشياطين التي تتلوّن، فيقول كعب بن زهير:

ولا تدومُ على حالٍ تكونُ بها　　كما تَلَوَّنُ في أثوابها الغولُ

ويقول امرؤ القيس:

أَيقتلني والمَشرفيُّ مُضاجعي　　ومسنونةٌ زرقٌ كأنيابِ أغوالِ

إنطباعات وعبر...

ولا بد لنا بعد هذه المطالعة الجامعة قدر المستطاع للعبادات والمعتقدات والروايات الخيالية الأسطورية في التراث العربي الجاهلي الذي تواصل بحدود معينة وأشكال متنوعة في الإسلام،

من استخلاص بعض العبر والانطباعات التي أسهمت في تكوين النفس العربية وبرزت في عداد خصائصها، وأهمها ما يلي:

أولاً: لقد تبلورت فكرة الله الى حدّ بعيد في المجتمع العربي منذ الجاهلية الأولى بفضل انتشار اليهودية ثلاثة آلاف سنة قبل الإسلام ثم ازدهار المسيحية في القرون الستة التي مهدت لظهوره. وقد سبقت الإشارة الى أن عبادة الأصنام كانت ضرباً من ضروب الزُلْفى التي تقرّب القبائل الى الله، وهو الخالق الأعظم الأوحد بالمفهوم اليهودي الذي انتقل الى المسيحية، فتجسّد بحسب معتقدها، دون أن يخسر في ذلك التجسيد صفاته التجريدية الجوهرية. ولكن ثمة ظاهرة في الإسلام تخرج دعوته عن الإطار التاريخي المحدّد بمرحلة وجود الرسول محمد بن عبد الله في الحياة الدنيا والمراحل التي أعقبتها، وذلك خلافاً للدعوة المسيحية التي تبدأ بميلاد المسيح ومراحل التاريخ اللّاحقة، بل إن الإسلام في المطلق هو دين الله السابق واللّاحق من الأزل والى الأبد، بدليل أن الأنبياء والمرسلين والأولياء الصالحين كانوا جميعاً في النصوص القرآنية مسلمين، قبل مجيء محمد وبعده. الأمر الذي يحرّر الدعوة الإسلامية من أي ارتباط بالزمان والمكان، ويجعلها أقرب الى استيعاب الإنسان العربي لملاءَمتها خصائصه النفسية النافرة من الحدود الزمنية والجغرافية على أنواعها.

ثمّ إن فكرة الله انتقلت من «**التخصيص**» في اليهودية، حيث كانت مرتبطة بشعب إسرائيل الذي اختاره الله وحده كما يزعمون،

واختصّه بحديثه المباشر أمراً ونهياً، وقصر عليه وحده ثوابه النادر وعقابه الشائع... انتقلت هذه الفكرة الى «**التوكيل**» في المسيحية، حيث يعبر الله عن وجوده وإرادته بالتجلي في شخصية ابنه عيسى المسيح، والروح القدس، على ما يعتقدون... الى «**التعميم**» الكلّي في الإسلام، حيث يصبح الله الشخصية الفوقية العظمى التي يشمل خطابها البشرية، منذ بدء الخليقة الى يوم حشرها، الى آخر الدهر، تقويماً وتذكيراً وتشريعاً وتحكيماً.

ثانياً: إنّ الضغط الهائل الذي فرضته طبيعة الصحراء على الإنسان العربي ألوف السنين قبل التاريخ المدوّن، وما تعيّن عليه أن يلتزم في حياته القاسية وموارده الشحيحة من قبول واقعي بالحصار الوجودي المفروض اضطراراً وليس اختياراً، إنما استدرجه الى تفجّر خيالي يتحدّى الواقع بالوهم والحلم الذي لم يشفع في تبديل مثقال ذرة من ذلك الواقع، لكنه أحدث في نفس الإنسان البدوي ثم الحضري من العرب شعوراً مزدوجاً بفردوس مصطنع وجحيم مصطنع يتخطيان آماله الضئيلة وآلامه الحياتية المبرّحة، فاشتطّ في تحريف الأحداث العادية وترسيم أشكالها ومعانيها ومفاعيلها القريبة والبعيدة ترسيماً بعيداً عن الحقائق المعقولة، ومندرجاً عموماً في بوتقة الخيال.

وعلى أن الأوائل من العرب لم يتركوا لنا ملاحم شعرية كبرى تمتزج فيها الحقيقة بالخيال، على غرار ما فعله اليونان والرومان والفرس والهنود، وحتى السومريون الساميون، إلّا أنّ

مجمل أشعارهم وأخبارهم التي وصلتنا من جاهليتهم الأولى والأخيرة، تشكّل على نمط متفرّق خاص، ملحمة كبرى، يخرج فيها الخيال عن حدود المعقول، والعاطفة عن مستوى الانتظام المرئي والمحسوس. ذلك أن قدماء العرب لم يعرفوا الحياة المدنية التي عرفتها الأمم الأخرى في جاهليتها لكي يستطيع صاحب العبقرية من شعرائهم ورواتهم أن يبني عمارة شعرية متكاملة ذات وحدة موضوعية وأُطُر بيانية منطقية مترابطة، أو تأليف قصص وروايات ذات فصول ومسلسلات تدور حول نقاط مركزية وتتلاحق أحداثها المتناوبة تصعيداً من قاعدة المنطلق الى قمّة الخلاصة والعبرة المبتغاة. بل إن حياة البداوة الفوضوية غير المستقرة، فرضت على الموهوبين من الشعراء قصائد مطوّلة شكلاً ومجتزأة بل متنوعة وربما متغايرة متناقضة مضموناً... كما فرضت على البارعين من الرواة حكايات وقصصاً قصيرة مختزلة تحيّر الألباب، وتحدث في النفوس شعوراً مثيراً للدهشة حيناً وللأسف تارة وللخوف والهول أحياناً، دون أن يعلق في الذهن منها الكثير من العبر والعظات وسرعان ما يكتشف المجتمع القبلي نفسه أنها ترهات!(٩٨) وتجدر الإشارة في هذا المجال الى أن

(٩٨) خير مثال على الشتات الموضوعي ما نلاحظه في المعلقات السبع الطوال، وما عرف بالمجمهَرات والمذهَبات والمَشوبات وغيرها من قصائد الجاهليين المطوّلة، حيث يجتمع في القصيدة الواحدة البكاء على الأطلال، والتشبيب بالمعشوقة الحسناء، ووصف الناقة أو الفرس، والمفاخرة والحماسة، وذكر المعارك، والحكمة والموعظة، وامتداح الخمر والتباهي بمعاقرتها، الخ... وهو إن دلّ على شيء فإنما يدل على اضطراب نفسي، وقصور عن أي تركيز فكري أو تسلسل موضوعي هادف.

القصيدة ذات الموضوع الواحد، التي تختلف مقوّماتها أساساً عن مقوّمات الملحمة لم تصبح حقيقة راهنة إلّا في الزمن العبّاسي المتأخر، وكذلك المطولات القصصية الشعبية كسيرة عنترة، ومهلهل ربيعة، وأبي زيد الهلالي وغيرها.

ثالثاً: كان لتضخيم الأَحجام والأَحداث والأَخبار والأَعمار في حياة العرب القدامى أثر بالغ في التعبير اللغوي، ما لبث أن أصبح جزءاً لا يتجزأ من اللغة العربية لا نجد له مثيلاً في اللغات الأخرى. ويتجلّى هذا التضخيم في «**أفعل التفضيل**» و «**صِيَغ المبالغة**».

أمّا التـفضيل على وزن «**أفعل**» فهو أن يوصف الموصوف بزيادة فائقة على صفة ما عداه تخصيصاً أو إطلاقاً، فتقول مثلاً: فلان «أكبر من فلان» على سبيل الحصر، أو «الله أكبر» على سبيل التعميم.

وأمّا المبالغة، فتأتي على صِيَغ متعدّدة، بأوزان مختلفة، كوزن «**فَعّال**» مثل حمّال وقتّال، أو وزن «**مِفْعال**» مثل مِقْدام، أو وزن «**فِعِّيل**» مثل صِدِّيق، أو وزن «**فَعِلْ**» مثل حَذِرْ، أو وزن «**فَعول**» مثل لَدود وحَرور وفرور، أو وزن «**فَعّالة**» مثل علّامة ونسّابة، الخ...

وقد أكثر العرب من استعمال هذا الأسلوب التضخيمي في الكتابة والخطابة وإصدار الأحكام والأوصاف قبل أن تشيع لغة الصحافة بين الناس وهي أقرب الى الواقعية والاتزان والمنطق.

فكم قرأنا في نقد الأدب أن فلاناً «أشعر العرب»، وفي نقد الفنّ أن هذه اللوحة «أجمل ما صنعه رسّام» وفي امتداح مجتهد باحث أنه «علّامة الزمان وفهّامة الأوان» أو توصيف إنسان شائه أنه «أقبح خلق الله» أو ذكر امرأة دميمة أنها «قطاعة الشهية قتالة الرغبة» الخ...

ولعل المثل الأكثر تعبيراً عن المبالغة هو قول زهير بن أبي سلمى في مدح هرم بن سنان الذي كان يجزل له العطاء:

لَوْ نالَ حيٌّ من الدنيا بِمَكْرُمَةٍ   وسْطَ السماءِ لنالَتْ كفُّهُ الأُفقَا

وقد شاء جهل البداوة في الجاهلية أن يكون وسط السماء أقرب من الأفق، وذلك تحت مرأى العين المجرّدة، ولهم في ذلك عذر الغافل الذي لم يعرف إمامة العقل واكتفى بحسّه مرشداً ودليلاً.

- ٦ -

موقع المرأة في مغالق النفس العربية

دأب الرحالة والمؤرخون الباحثون الأجانب منذ قرون على اجترار فكرة خاطئة ناتجة عن انطباع مظهري، حول ما يسمّونه «**مأساة المرأة**» العربية خصوصاً والمرأة الإسلامية أو الشرقية بوجه عام. وقد ازداد هذا الاعتقاد الانفعالي حدّة وتفاقماً من منتصف القرن التاسع عشر الى هذا اليوم، وذلك بعد «**تحرّر**» المرأة في المجتمعات الغربية من التسلط الذكوري، ولو نظرياً، ومساواتها بالرجل، على صعيد حق العمل والرأي والمخالفة، والاستقلال الاقتصادي، والحقوق الشخصية المتعلقة بالإرث والطلاق وحضانة القاصرين من الأبناء، وغيرها من الحقوق السياسية كحق الانتخاب والمشاركة في الحكم، وحق التظاهر والإضراب والنزول الى الشارع، وتأسيس الأحزاب وقيادتها، وإشغال الوظائف العامة، سواءً أكانت إدارية مدنية أو دبلوماسية أو تراتبية عسكرية، وذلك من المجالس البلدية الى رئاسة الدول.

وعلى أن الحكم على هذه التبدّلات التي يعتبرها الغربيون

«مكتسبات»، يخرج عن موضوع هذا الكتاب، إلّا أنّه لابدّ من تسجيل بعض الوقائع التي سبقت هذا الانقلاب المصيري المتعلق بحياة المرأة الغربية، والتي أعقبته، قبل الولوج الى الموقع الحقيقي الذي تختص به المرأة في النفس العربية والإسلامية الشرقية عموماً.

أولاً: في العصور الإغريقية ـ الرومانية الوثنية السابقة للمسيحية، والتي تعتبر الأساس الانتمائي الثابت للحضارة المسيحية الغربية(٩٩) تقع المراة على طرفي نقيض: **فهي إمّا إلَهة** كآثينا ومينرفا وآفروديت وفينوس الخ... **وإمّا كائن مسخّر للانجاب في** مرحلة محدّدة من حياته، **ومسخّر للمتعة** والفجور واللّذة في سائر المراحل... أي أنها العنصر الفوقي المرهوب، أو العنصر التحتي المرغوب!.

وقد حاول المسيح أن يحدث **مقاربة إنسانية رحيمة بين المَريَمَيْن المرأتين**: مريم العذراء البتول التي تعتبر شبه إلَهة في عمق أعماق العبادة المسيحية، ومريم المجدلية الزانية التي تمثل رغم توبتها، الشهوات الإغريقية والرومانية الوثنية القديمة... وذلك، على الأرجح، لإيجاد صورة مثالية للمرأة المسيحية الصالحة.

---

(٩٩) يذهب بعض المفكرين في الغرب الى اعتبار اليهودية أساساً انتمائياً للحضارة المسيحية الغربية، فيسمون هذه بالحضارة اليهودية ـ المسيحية (Judéo-Chrétienne)، وهي نظرية ترتكز على كون المسيح يهودياً بهويته العرقية البشرية دون هويته العلوية الروحية الإلهية التي تتمثل في الإنجيل.

والواقع أن هذه المحاولة التقربية المثالية الخارقة لقيت التزاماً طوعياً واسعاً لدى الشعوب الشرقية، حيث كان مبدأ «**التكامل**» يسود العلائق بين الرجل والمرأة منذ أقدم العصور، قبل المسيحية والإسلام، وقد تواصل اعتماده في المجتمع الشرقي حتى أواسط القرن العشرين، مشفوعاً بحكم الديانتين السماويتين المتوازن على الحقوق والواجبات الخاصة بالمرأة والرجل.

أمّا الشعوب المسيحية في العالم الغربي، فقد تحزّبت، منذ تنصير القبائل الهمجيّة (Les barbares)، لأمّ المسيح، تحزّباً اضطرارياً **يكاد يكون إرغامياً**، بفعل السيطرة المطلقة للكنيسة الكاثوليكية الصارمة على الأباطرة والملوك وسائر الأجهزة السلطوية في الحياة العامة... حتى إذا بدأ حكم الكنيسة بالتراجع في أعقاب الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩، تراجع في الوقت نفسه مشروع المسيح المتعلق بالمرأة المثالية المتوسطة بين المريَمَيْن، وانقلب المجتمع من موقع التمسك المرغم بالعذراء البتول، الى موقع التَبذل الحرّ تحت أقدام المجدلية. وهو - أي المجتمع - في كلا الموقعين، لم يخرج بفعل مسيحيته المشوبة، من عبادته الوثنية القديمة «**للمرأة الإلَهة**» بالإكراه، ثم «**للمرأة الساقطة**» بالخيار الحرّ!.

ثانياً: يأخذ المتحاملون على أهل الجاهلية العرب أن بعض القبائل البدوية **كانت تئد البنت عند ولادتها!** وقد برّر فريق متعصّب للعروبة من قدماء المؤرخين وحتى من الباحثين المتأخرين، هذا

الإجراء الهمجي المتوحش بأنه عائد الى **الخوف من العار**. ولكن المسألة أخطر من ذلك لأنها تتعلق بالخوف من المسؤولية الساحقة في محيط لا رحمة فيه للمستضعف سواء أكان ذكراً أم أنثى. فقد كان أولئك البدو يئدون المولود الذكر أيضاً وليس البنت فقط إذا تبين عند ولادته أنه يحمل عاهة جسدية لا سبيل الى إزالتها. يضاف الى ذلك أن أساليب تحديد النسل والإنجاب لم تكن معروفة في عصور الظلام تلك حيث يتعرض المُعْيِلُ للفاقة خصوصاً في الصحارى القاحلة. وإذا كانت القبائل الآرية وغيرها من بدو السهوب الأسيوية والأوروبية، أو حتى القبائل السوداء في أفريقيا الوسطى، لم تعرف مثل هذه الحالات النادرة من وأد البنات - أقول «**النادرة**» باعتبار أن المعدمين فقط من فقراء البوادي العربية والأفريقية، كانوا يقدمون على مثلها -... إذا كانت «**الأرستوقراطية البدوية**» - إن جاز التعبير - لم تقدم على تصرفات متوحشة من هذا النوع في زمن بداوتها، فلأنها كانت تنعم بالحياة الريفية في مناطق يانعة الثمر والكلأ على ضفاف الأنهار الغزيرة، «**حيث تتوافر المراعي الخصبة والصيد اليسير فضلاً عن مغانم الاجتياح المتواتر لحواضر العالم القديم الغنية الزاهرة**» كما يقول «رينيه غروسيه» الذي كتب سيرة جنكيز خان.(١٠٠)

ثالثاً: في طليعة الآفات التي واكبت حياة المرأة في الجاهلية واستمرت في المجتمع الإسلامي الى اليوم، ولو في أطر محدودة

---

(١٠٠) René Grousset: le Conquérant du Monde (vie de gengis Khan) éd. Albin Michel - Paris - 1944

وظروف موضوعية مختلفة، **آفة «العار»** الذي يلحق بالسبّية والمغتصبة ويصيب أهلها وذويها ،أو الذي يلحق بالجماعة القبلية إثر جريمة قتل يتعرض لها أحد أفرادها ، أو أعمال شائنة كالسرقة ، وإذلال المستجير، والاعتداء الجنسي على القاصر، وخرق الأعراض المانعة بالحيلة أو بالعنف، يقوم بها فرد أو مجموعة شاذة، فتُعَيَّر بها القبيلة التي ينتمي اليها أولئك المنحرفون، خصوصاً عندما يكون أهلها ممّن عرفوا بالحصانة الخلقية والمنعة والذمام.

وقد أساء الكثيرون من عِلماء الاجتماع الأجانب تفسير مسألة العار في شرعة الصحراء العربية والثارات المترتبة عليها ، وعزوها الى ردود فعل بدائية تقضي بغسل الشرف بالدم كي يسلم من المهانة. ولا شك في أنّ ذلك الغضب الانفعالي الذي يحتكم الى السيف يدلّ على شيء من العصبيّة العفوية المنكرة لأحكام العقل ومبرّرات العدالة في كثير من الأحيان. . . لكنه لم يقتصر على العرب وحدهم، بل إنه ظلّ، الى زمن متأخر، **تقليداً راسخاً من تقاليد الفروسية** لدى شعوب متطورة ورثتها عن مراحل بداوتها ، من مثل ما يقول الشاعر الفرنسي «كورناي» في مسرحية «السيد» (Le Cid) العائدة الى سنة **١٦٣٦**م. على لسان أحد أبطال الرواية الشيخ «دون دياج» (Don Diègue) محرّضاً ابنه رودريك (Rodrigue) على الانتقام له من غريمه:

«هاكَ سيفي الذي لم يعد زندي الواهي جديراً به»
«أَكِلُه اليك لكي تثأرَ وتَقتصّ لي من غريمي»
«فلا سبيل الى غسل الهوان إلّا بالدم المراق!..»(١٠١)

وهو قول يكاد يطابق حرفياً قول أبي الطيّب المتنبّي الذي عاش قبل «كورناي» بخمسة قرون:

لا يَسْلَمُ الشَرَفُ الرَفيعُ منَ الأذى حتى يُراقَ على جوانبِهِ الدَمُ

غير أن مسألة العار أكثر تعقيداً من التفسير البسيط الذي وجد بعض المؤرخين السطحيين سهولة فائقة في اعتماده، لأن هنالك **ثلاثة أوجه للعار الذي يستتبع الثأر**، كما يتجلّى في انفعال النفس العربية.

الأول هو «العاطفي»، وينشأ في الأساس عن تعرض المرأة للسبي أو المهانة والأذى، سواء ألحق ذلك الأذى بالأم أو الأخت أو الزوجة والبنت والحبيبة، كما ينشأ عن الاعتداء على الطفل القاصر الضعيف أو الشيخ العاجز القعيد!..

ولا يعود ذلك الانزعاج العاطفي أو ما سمّي بالعار فقط الى انتهاك العِرض واستباحة المحارم والمنازل وامتهان الحشم والعيال، بل إنه يعود فوق ذلك، وعلى الأخص، **الى شحنة عميقة في النفس العربية من خلجات الوجد المشقّع بالحنين**، والكآبة

---

(١٠١) «Et ce fer que mon bras ne peut plus soutenir»
«Je le remets au tien pour venger et punir»
«Ce n'est que dans le sang qu'on lave un tel outrage»
Corneille: Le Cid - Acte I, scène V -

المقترنة بالحنان، حتى يكاد مدمع الإنسان العربي يفيض لمجرد ذكر الديار وهو فيها، والشوق الى الأحبة وهو لم يفارقهم، والحزن على الطلل الدارس وهو لا يعرف الذين سكنوه، أو ينتصر لظلم لحق بالأبعدين ممن لا علاقة له بهم. والأمثلة على ذلك أكثر من أن تعدّ، وهي صفة من صفات الغيرة والحسّاسية المفرطة التي أسمّيها بلا تحفظ أو تردّد «**حَوْبة الذكرى**». كما في قول الحفيد بن زهر الأندلسي في الموشح الشهير المنسوب اليه «أيها الساقي اليك المشتكى..» واصفاً أحد ندامامه:

غصنُ بانٍ مال منْ حيثُ الْتَوى   ماتَ من يَهواهُ من فرطِ الجَوى
خَفِقُ الأَحشاءِ موهونُ القوى
كُلَّما فَكَّرَ في البَيْنِ بكى   وَيْحَهُ يَبكي لِما لمْ يَقَعِ

ولنا عودة في أي حال الى «**حوبة الذكرى**» هذه في موضع لاحق.

أمّا الوجه الثاني من أوجه العار، فهو «القَدَري» الذي لا يردّ، ويتّصل أساساً بجرائم قتل الأفراد والتنكيل بالجماعات، ويعود الثأر والانتقام الحاصل في أعقابه الى رغبة طبيعية في الاقتصاص من الفاعل، وتحقيق العدالة الذاتية. وأسميه «**القَدَري**» باعتبار أنّ حدوثه قَدَرٌ تحتَّم بقصد أو بغير قصد، والانتقام الناتج عنه قَدَر مفروض على طالبه لا فكاك له عنه في الحياة البدوية حيث لا وجود للدولة القادرة على فرض العدالة بالثواب والعقاب.

وقد شرّع القرآن للقِصاص الثأري أو الانتقام في الآية: ﴿**يا أَيُّها الذين آمنوا كُتِبَ عليكمُ القِصاصُ في القتلى الحرُّ بالحرِّ والعبدُ**

بالعبدِ والأُنثى بالأُنثى فَمَنْ عُفِيَ له من أخيه شيءٌ فاتِّباعٌ بالمعروفِ وأَداءٌ اليه بإِحسانٍ ذلك تخفيفٌ من ربِّكُم ورحمةٌ فمنِ اعتدى بعدَ ذلك فَلَهُ عذابٌ أليمٌ﴾(١٠٢)

وتفسيرها أنّ الحرّ يُقتل انتقاماً للحرّ والعبد انتقاماً للعبد والأنثى انتقاماً للأنثى، ومَن أسقط قِصاصه عن أخيه المؤمن بالعفو عنه، يمكنه أن يعامله بالمعروف طالباً دية القتيل دونما عنف أو قِصاص، وهو تسهيل من الله ورحمة، ولا يجوز بعد أداء الدية أن يطلب العافي أي ثأر لقتيله وإلّا ابتلاه الله بالعذاب الأليم.

وأمّا الوجه الثالث للعار، فهو «الطوعي» المفتعل الذي يجلبه المرء لنفسه، كأن يخرق عرضه بيده، أو يقتل أباه أو أمّه أو ولده أو من يلوذ به من أقرب الناس اليه دونما سبب معيب يرفضه المجتمع كالزنى المنحرف الشاذ أو غير ذلك ممّا لا مجال الى توصيفه أو تعداده في عجالتنا هذه، وكان يستوجب في الجاهلية وفي الإسلام **حكماً صارماً يصدره المجتمع** إمّا بقتل الفاعل أو انتباذه من المحيط، والتشهير به، عند القاصي والداني على نحو يجعل السبّة له في كلّ مكان لباساً والعار قناعاً، فيهرب من نفسه البغيضة اليها، ولا ينفك يمضغ المعصية حتى يشرق بها فتميته. وقد سقط العديد من اللواطيين **والسحاقيين في هذا الجحيم النفسي** والاجتماعي من حضانة العار وكانوا يسمون المبتلي بذلك «**حامل اللواء**» تدليلاً على مجاهرته بالفسق والشذوذ.

---

(١٠٢) البقرة ـ ١٧٨

رابعاً: إن ثمة ظاهرة أساءَت بدرجة قصوى الى المرأة العربية والإسلامية في مختلف العوالم، كما أساءَت الى تلك المرأة نفسها وعمّقت في ذاتها النضرة المتحفزة شعوراً متزايداً بالكبت والنقص والحرمان، هي ظاهرة الحجاب العائدة الى بعض المراحل الظلامية القهقرية من التاريخ، والتي أسيء تفسير النصوص القرآنية المتعلقة بها، فتواصلت عبر اجتهادات مريبة **حتى أصبحت عنواناً بارزاً للتخلّف والدونّية والإكراه.**

فليس في كتاب الله المبين ما يشير الى الحجاب وجوباً وإلزاماً، إلّا في مواضع حصرية تخصيصية لا تحتمل معنى التعميم إطلاقاً، بل إن ما ورد خارج ذلك التخصيص الحصري المحدّد هو **أقرب الى النصح باحتشام المرأة**، لتعزيز كيانها الخلقي، منه الى إخفائها على نحو يدمّر شخصيتها تدميراً كاملاً!.. فقد يبدو أقرب الى الاجتهاد المقبول والإيمان السديد أن تحجّب المرأة شعرها الذي يمكن اعتباره عورة، وكذلك ما يثير الرجل من مخالع جسدها المرغوب. أمّا أن تستر الوجه والعينين والفم والأنف واليدين وتظهر كأنها متاع في صندوق من القماش المغلق أشبه بالكفن الأسود... فهو أمر يدفع بالرجل الى تزايد **حرمانه المرضي**، ويدفعها بالتالي الى تعاظم **كيدها الغرضي**، وكلاهما يستتبع خللاً في موازين الحياة الإنسانية وتكامل عناصرها، لا يقرّه الله ولا أي شرع أو قانون.

ونحتكم في رأينا هذا الى آيات القرآن البينات، وهي المرجع الأساسي المنزة للشريعة الإسلامية السمحاء قبل أي مرجع آخر،

فنقرأ في الآية (٥٩) من سورة «الأحزاب»: ﴿**يا أيها النبيُّ قُلْ لأَزواجكَ وبناتِكَ ونساءِ المؤْمنينَ يُدْنِينَ عليهنَّ من جلابيبِهِنَّ ذلكَ أدْنى أَنْ يُعْرَفْنَ فلا يُؤْذَيْنَ...**﴾ وقد نزلت هذه الآية المدنية بعد الهجرة، حيث كان الرسول والصحابة يعيشون في مجتمع يَثْرِب المكتظّ بقبائل اليهود اليمنية كالأَوْس والخزرج وغيرهما، بمن فيهم السوقة والفاسقون، فأوصاه الله بأن تستر نساؤه ونساء المؤمنين الوجوه بالملاءَات كي لا يتحرش بهنّ المفسدون، كما يتحرشون بالجواري السافرات المتهتّكات. وإن دلّت هذه الآية على شيء، فإنّما تدلّ على وقاية محدّدة لفئة محدّدة من النساء، في مكان محدّد، ومناسبة تاريخية محدّدة... وتنتهي الآية في أي حال بقوله ﴿**...وكان الله غفورا رحيما**﴾ أي إنه يغفر لمخالفة التوصية المشار اليها، وبمعنى آخر إنه لا يعتبر سفور النسوة محرَّماً كلّياً.

ومن مثل ذلك ما ورد في الآية (٥٣) من سورة «الأحزاب» نفسها: ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتَ النبيّ إلّا أنْ يُؤْذَنَ لكم... وإذا سألتُموهُنَّ مَتاعاً فاسألوهُنَّ من وراء حجابٍ ذلكم أطهرُ لقلوبِكم وقلوبِهنَّ وما كان لكم أنْ تؤْذوا رسول الله...**﴾ وهذا أيضاً يبدو أقرب الى الأمر بالاحتراس اتقاءً للخطيئة منه الى التحريم المطلق، وهو يتعلق فقط بنساء النبيّ وبيوته.

ولعل أوضح النصوص القرآنية في مسألة الحجاب، مضمون الآية (٣١) من سورة «النور»: ﴿**وقُلْ للمؤمناتِ يَغْضُضْنَ من أبصارِهِنَّ ويَحفَظْنَ فُروجَهُنَّ ولا يُبْدِينَ زينتهنَّ إلّا ما ظَهَرَ منها**

وليضرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ على جيوبِهِنَّ ولا يُبْدِينَ زينتهنَّ إلّا لبُعولَتِهِنَّ أو آبائِهِنَّ أو آباءِ بعولَتِهِنَّ أو أبنائِهِنَّ أو أبناءِ بعولَتِهِنَّ أو إخوانِهِنَّ أو بني إخوانِهِنَّ أو بني أخواتِهِنَّ أو نسائِهِنَّ أو ما مَلَكَتْ أيْمانُهُنَّ أو التابعينَ غير أولي الإرْبَةِ من الرجالِ أو الطِّفلِ الذين لم يَظهروا على عوراتِ النساءِ. . .﴾

وقد أحلّت هذه الآية إبداء المرأة زينتها للعديد من أنسبائها وأنسباء بعلها ومن يليهم من العبيد والخدم والتابعين الغرباء، شرط ألّا يكونوا من ذوي الإربة أي أصحاب الحاجة والرغبة، **وفي ذلك ما فيه من سماح يصعب حصره كما يصعب تحديد نيّات من يشملهم.** وقد يستحيل على المرأة أن تميّز تمييزاً دقيقاً في جمهرة الرجال المحيطين بها، بين من يعتصم بالعفة إن هي سفرت أمامه، ومن يصعب عليه الامتناع والترفع ولزوم الحياء.

ويتضح ممّا تقدم في أي حال أن ما توخاه القرآن تحديداً وإطلاقاً **هو صيانة المرأة وإخراجها من دائرة الإثارة حفظاً لمكارم الأخلاق** ونبذاً للفساد الاجتماعي والتهافت الجنسي، وهو يتنافى كلياً مع الأساليب التطبيقية المعتمدة للحجاب في بعض المجتمعات الإسلامية المتشدّدة التي لم تترك للمرأة إلّا ثقوباً تتنفس منها داخل حجابها.

ولا بدّ من الإشادة في هذا المجال بالاهتمام الكبير الذي أولاه العلماء الأزهريون لمسألة الحجاب وفضل العلّامة شيخ الأزهر الأسبق الإمام محمد عبده، ثمّ الإمام الشيخ مصطفى عبد الرازق، وأخيراً إمام الأزهر المعاصر العلّامة الطنطاوي، في

الدفاع عن المرأة. ونذكر على سبيل المثال ما قاله الإمام محمد عبده بهذا الصدد في ردّه على وزير خارجية فرنسا الأسبق كبريال هانوتو: «**أمّا النساء، فقد ضرب بينهنّ وبين العلم ما يجب عليهنّ في دينهنّ ودنياهُنَّ بستار لا يُدرى متى يُرفع...**»(١٠٣)

كما نذكر قول الشاعر العراقي جميل صدقي الزهاوي في موضوع الحجاب:

كيف يَسْمو الى الحضارةِ شعبٌ　　منه نصفٌ عن نصفه مستورُ

وقول أمير الشعراء أحمد شوقي في نهضة المرأة المصرية:

هذا رسولُ اللهِ لمْ　　يُنْقِصْ حقوقَ المؤمناتْ
العلمُ كان شريعةً　　لنسائِه المتفقّهاتْ
مصرٌ تُجدِّدُ مجدَها　　بنسائها المتجدّداتْ
النافرات من الحجابِ　　كأنه شبحُ المماتْ

ثمّ قصيدة شوقي الرائعة في رثاء قاسم أمين رائد سفور المرأة وتحريرها في مصر حيث يقول:

ظلمٌ رأيتَ من الحجابِ وعُسرِهِ　　فدعوتنا لترفُّقٍ ويسارِ
رأيٌ بدا لكَ لمْ تَجدْه مخالفاً　　ما في الكتابِ وسُنَّةِ المختارِ
إنّ الحجابَ سماحةٌ ويسارةٌ　　لولا وحوشٌ في الرجالِ ضَواري
جهلوا حقيقتَهُ وحكمةَ حُكمِهِ　　فتجاوزوه الى أذىً وضِرارِ

---

(١٠٣) أورده عباس محمود العقاد معلقاً على كتاب الإمام محمد عبده «الإسلام بين العلم والمدنية» وذلك في كتاب العقّاد «عبقرية الإصلاح والتعليم ـ الأستاذ محمد عبده» ـ ص ٢٦١ ـ

نابغات متفوّقات منذ القِدم

بعد هذه الجولة الإيضاحية الخاطفة لشطط فريق لا يستهان به من المفكرين والباحثين الأجانب وبعض المتأثرين بهم من العرب، حول تخلّف المرأة العربية، ونظرة العرب والمسلمين إليها، لا بدّ من جلاء الصورة **وتظهير المنزلة الرفيعة التي احتلتها المرأة** في الحياة العربية سواء في العصور الجاهلية أو العصور الإسلامية كافة، وهي منزلة متصلة بنياط القلب وصميم الوجدان العربي قبل الإسلام وبعده.

فقد عرفت الجاهلية العربية الأولى قدراً من المساواة بين المرأة والرجل يكاد يُعزى، لولا اختلاف الزمان، الى حداثة عصرنا الذي وصلت فيه المرأة الى أعلى المراتب والمناصب في الحياة العامة والخاصة. فقد تولت الحكم نساء في ممالك اليمن القديمة، وأشهرهن بلقيس ملكة سبأ التي قدمت الى سليمان على ما جاء في القرآن: ﴿**. . . قالتْ ربِّ إنّي ظَلَمْتُ نفسي وأَسلَمْتُ مَعَ سليمانَ للّهِ ربِّ العالمين.**﴾ (سورة النمل ـ ٤٤). وفي الإنجيل: ﴿**. . .لقد جاءَت من أقاصي الأرضَ لتسمعَ حكمةَ سليمانَ، وهنا من هو أعظم من سليمان.**﴾ (لوقا ـ١١ـ ٣١).

ومن أهم النساء اللواتي حكمن الممالك زنوبيا التي يسمّيها العرب الزبّاء. فقد خلفت هذه الملكة العربية زوجها أُذَيْنَة، وحكمت تدمر أو «بالميرا» بالوصاية على ابنها بين عامي **٢٦٦** و **٢٧٢**م. وأعلنت استقلالها عن الأمبراطورية الرومانية، ثم فتحت

مصر وآسيا الصغرى وأخضعت معظم الشرق الأدنى لدولتها. وأطلقت زنوبيا على ابنها لقب «اوغسطس» كما صكّت النقود باسمها، وبلغت من السلطان شأواً عظيماً حتى غدت مضرب المثل فقيل «**أعزّ من الزبّاء**». وما لبث الرومان أن تنبّهوا لخطرها المتفاقم، فجرّد عليها القيصر الروماني اورليانوس حملة عسكرية هائلة وهزم جيشها بين انطاكيا وحمص سنة **٢٧٢**م. ثم أسرها واقتادها الى روما حيث قضت نحبها، ودمر عاصمتها تدمر التي لا تزال أطلالها الى اليوم في الصحراء السورية الوسطى تشهد بعظمة تلك المملكة العربية البائدة.

وقد عرفت اليمن في الجاهلية الأولى سيّدات متفوّقات أنشأن الدول وأخضعن القبائل، وكنّ يخترن أزواجهنّ ويبدِّلنهم حسبما تقتضيه مصلحة الحكم. وممّا شجع المرأة على تأدية هذه الأدوار التاريخية أنها كانت تعتصم بالاعتدال بين الجماعات الحزبية المتناحرة، وتستعمل بامتياز قدرتها النسوية على الإغراء وتعرف كيف توظف كيدها في الوقت نفسه لتوسيع نفوذها، بحيث كان المتنافسون الأقوياء يركنون الى حكمها العادل بينهم، ويتنازلون لها عن مقاليد الأمور اتقاء لويلات الحروب وتواتر الثارات والعصبيات المستشرية بينهم.

ولعل في حكاية «**القصيدة اليتيمة**» خير دليل على تفوّق المرأة العربية القديمة ونفاذ رأيها في الأمور المصيرية وأهمها اختيار الزوج الذي تبني حياتها الخاصة معه. ففي أخبار الأوّلين أن أميرة نجدية آلت على نفسها أن تتزوج الشاعر الذي ينظم فيها أجمل

قصيدة. فانتشر الخبر في أحياء العرب، وراح الشعراء يتبارون في وصف محاسنها غزلاً وتشبيباً.

وصدف أن شاعراً تهامياً وآخر عراقياً نظما قصيدتين في الأميرة الحسناء وتوجها الى ديارها، فتلاقيا في منتجع على الطريق ليلاً، وقرأ كلّ منهما على الآخر قصيدته. وسرعان ما اكتشف العراقي أن قصيدة التهاميّ أفضل من قصيدته، وأنه سيفوز بالأميرة الموعودة، فبادر الى قتل غريمه، واستولى على قصيدته.

ولمّا وقف يلقي ذلك الشعر أمام الأميرة وقد أحاط بها قومها الأشداء ووصل الى البيت القائل:

إن تُتْهِمي فتهامةٌ بلدي أو تُنْجِدي إنَّ الهوى نَجْدُ

صاحت الحسناء: اقتلوا هذا الرجل! إنّه قاتل زوجي!!

فقد أدركت أنه ليس من أهل تهامة بحكم لهجته العراقية، وأنه ربما يكون قتل التهاميّ صاحب القصيدة واستولى عليها. وعلى الأثر تمّ التحقيق في الأمر ولقي العراقي ما يستحق من عقاب. وبقيت القصيدة في التراث العربي مجهولة المبدع الذي نظمها، فسمّيت «باليتيمة»، وهي من روائع الشعر، مطلعها:

هلْ بالطُلولِ لِسائلٍ ردُّ أمْ هل لها بِتَكَلُّمٍ عَهدُ

وقد جاء فيها من بدائع الوصف قوله:

فالوجهُ مثلُ الصبحِ مُبْيَضٌّ والشَعرُ مثلُ الليلِ مُسْوَدُّ
ضِدَّانِ لَمَّا استُجْمِعا حَسُنا والضدُّ يُظْهِرُ حسنَهُ الضِدُّ

وكـأنَّـهـا وَسْـنـى إذا نـظـرتْ أو مُـدْنَـفٌ لَـمَّـا يُـفِـقْ بَـعْـدُ
بِـفـتـورِ عـيـنٍ مـا بـهـا رَمَـدٌ وبـهـا تُـداوى الأعـيُـنُ الـرُمْـدُ
ولـهـا بـنـانٌ لـو أردتَ لَـهُ عَـقـداً بِـكـفِّـكَ أمـكـنَ الـعَـقْـدُ
إنْ لَـمْ يَـكـنْ وصـلٌ لـديـكِ لـنـا يَـشـفـي الـصـبـابَـةَ فـلـيَـكُـنْ وَعْـدُ
إن تُـتْـهِـمـي فـتـهـامـةٌ بـلـدي أو تُـنْـجِـدي إنَّ الـهـوى نَـجْـدُ

غير أن المرأة كانت تعاني معاناة الرجل بل أشدّ منها وأقوى، في حياة البادية، فيؤثر شظف العيش كما تؤثّر الأعمال الشاقة في الاهتمام بحاجات العائلة وخدمة الأولاد ورعاية الدواجن والسوائم والكدّ المتواصل في الليل والنهار، على زينتها وتبرّجها النادر وجمالها الذي يتسارع اليه البهتان ويدركه الذبول قبل الأوان. ولذلك نشأت في الجاهلية وصدر الإسلام طبقة من الجميلات المنعّمات القلائل اللواتي يتهالك في الوصول اليهن الفرسان الصناديد، ويتقرّب اليهن كبار الشعراء تملّقاً وإغراءً. ونذكر منهنّ زرقاء اليمامة التي يقال إن زيد الخيل الطائي خطفها فتعقبه عامر بن الطفيل أعواماً قبل أن يقع على امرأة من فزارة تدعى هنداً، فظنّها الزرقاء وسباها. وقد لحق به زيد الخيل وردّ الحسناء الى قومها بعد منازلة موصوفة انتصر فيها زيد على غريمه عامر فجزّ ناصيته وكلاهما في الجاهلية فارس مقدام.

ويشبه ذلك على صعيد الشعر المنافسة الشديدة التي وقعت بين النابغة الذبياني والمنخّل بن عُبيد اليشكري للحظوة برضى المتجرّدة زوجة النعمان بن المنذر الفائقة الجمال. وكانت المتجرّدة من نساء المنذر والد النعمان، فتزوّجها بعد أبيه، وكان

دميم الخلقة أبرش يغار عليها من النسمة العابرة. ويقول صاحب «الأغاني» إن النابغة التقاها فجأة في القصر وكانت غير مستترة، فأسرعت في اتقاء نظره وردّت ملاءَتها على محاسنها، الأمر الذي أثار الشاعر فنظم قصيدة من روائع الشعر يقول فيها:

أَمِنْ آلِ مَيَّةَ رائحٌ أو مُغتدي ... عجلانَ ذا زادٍ وغيرَ مُزَوَّدِ
في إثر غانيةٍ رمتكَ بسهمها ... فأصابَ قلبكَ غيرَ أن لم تُقصِدِ[١٠٤]
بالدرِّ والياقوتِ زُيِّنَ نحرُها ... ومُفَصَّلٍ من لُؤلؤٍ وزَبَرْجَدِ
سقط النصيفُ ولم تُرِدْ إسقاطَهُ ... فتناولَتْهُ واتَّقَتْنا باليَدِ[١٠٥]
بمُخَضَّبٍ رَخصٍ كأنَّ بَنانَه ... عَنَمٌ على أغصانِهِ لم يُعْقَدِ
نظرتْ اليكَ بحاجةٍ لم تَقْضِها ... نظرَ السقيمِ الى وجوهِ العُوَّدِ[١٠٦]

وقد تمادى النابغة في وصف المتجرّدة خلال قصيدته تلك، حتى أتى على تصوير بطنها وروادفها وفرجها، ممّا بعث الغيرة في نفس عشيقها المنخّل اليشكري الذي كان شاعراً يتمتع بصباحة نادرة، ويقال إنه الأب الحقيقي لولدي النعمان منها، فأوغر صدر هذا الأخير على النابغة حيث قال له: لا يستطيع ان يصف هذه المواضع من جسد الملكة إلّا من ولج اليها. فبلغت النابغة تلك الوشاية وخشي أن يفتك به النعمان فهرب والتحق بالغساسنة في الشام.[١٠٧]

(١٠٤) أقْصَدَ: بمعنى أصاب، أي أن سهمها أصاب قلبك دونما قصد.

(١٠٥) النصيف: الإزار ذو اللّونين.

(١٠٦) العُوَّد: زوّار المريض.

(١٠٧) أنظر كتاب «الأغاني» للأصفهاني ـ الجزء الحادي عشر ـ الصفحة ٥ وما يليها ـ طبعة دار الفكر ـ بيروت.

في ذكاء المرأة العربية وسرعة خاطرها

وتحتل المرأة في النفس العربية منذ القدم منزلة رفيعة لا تدانيها رفعة أي منزلة أخرى. ولا تحظى بذلك القدر من الاحترام والحب وحدها الزوجة الوفية الكريمة أو المعشوقة الحسناء أو الأخت والبنت والعمة والخالة والجدة وسائر الحرائر المحصَنات، بل خصوصاً وبالدرجة القصوى من الإعزاز والتقدير، الأم الصالحة المؤمنة ذات المكارم والخلال السوية والنسب العريق. ويقول العلّامة المؤرخ **عرفان محمد حمور** في كتابه «**المرأة والجمال والحبّ في لغة العرب**» إن كبير أجواد العرب حاتم الطائي يعترف أنه ورث الكرم والسخاء عن أمّه التي لم تكن تبقي عندها شيئاً إلّا جادت به على العفاة السائلين، وأنّ عمرو بن كلثوم سيّد بني تغلب وشاعرهم قتل عمرو بن هند ملك الحيرة عندما أراد إذلال أمّه ليلى بنت مهلهل ربيعة البطل الشهير (كنيته «أبو ليلى») وزوجة كلثوم بن مالك أحد الفرسان الأشاهب في الجاهلية.

ويضيف عرفان حمور قوله: «كان بعض ملوك العرب ينتسبون الى أمهاتهم أيضاً، كالمنذر بن امرئ القيس الذي عرف بابن ماء السماء(١٠٨) وهو لقب أمّه ماوِيَّة بنتِ عوفِ بنِ جُشَم الخَزْرجيَّة، وعمرو بن المنذر اللّخمي الذي غلبت نسبته الى أمّه

---

(١٠٨) في تقديرنا أن اسم «أسماء» تحريف لفظي لعبارة «ماء السماء» المركّبة التي كانوا يطلقونها على بناتهم من مثل «زاد الخير» و «ستّ الكلّ»، وهي ترمز الى الرونق والنضارة والبشرة الناعمة البهيّة.

هند بنت عمرو بن حجر ملك كندة فعرف بعمرو بن هند، والملك الغسّاني الحارث بن جَبلة الأكبر الذي عرف بالحارث بن مارية الحضرمية الكنديّة ذات القُرطَيْن من اللؤلؤ النادر...»(١٠٩)

وعلى أن المجتمع العربي في الجاهلية ثم الإسلامي بوجه عام كان مجتمعاً ذكرياً بامتياز، إلّا أنه لم يكن يختلف عن سائر المجتمعات القديمة الأسيوية عموماً والأوروبية المسيحية خصوصاً بهذه الصفة، على تفوّق ملحوظ في العادات والتقاليد المتعلقة بالمرأة، والرعاية المستدامة لها والحرص على تعليمها وتثقيفها وحفظ كرامتها، **الأمر الذي نزه الحرائر الشرقيات عن الأهواء الشاذة ومزالق الشطط الخلقي، وثبّت رقيّهن وترفّعهن عن** الزّنا والتهتك والفجور، حتى ولو كره بعضهن أزواجاً من الأجلاف العتاة المستبدين الطغاة. فلم يذكر التاريخ في بلاد العرب وديار المسلمين في العصور القديمة والوسطى رجلاً أمر بالحجر على نسائه وهو ذاهب الى الحرب أو فرض عليهن أي تدبير من تدابير التقية والاحتراز، فيما كان الأوروبيون يلبسون نساءَهم ما عرف «**بقفل الطهارة**» الذي يحمل الفارس مفتاحه في جيبه عند اغترابه كي يطمئن الى أن زوجته لن تجامع رجلاً آخر في غيابه، فكأنها من الأموال المنقولة، المعرّضة للسرقة، أو كأن عرضها باب منتجع يتعين قفله وتحصينه كي لا يلمّ به الغرباء، وهو دليل ساطع على انعدام الثقة بالمرأة وإرادتها المانعة وحتى

---

(١٠٩) عرفان محمد حمور: «المراة والجمال والحبّ في لغة العرب» ـ ص: ٢٢، ٢٣ ـ مؤسسة الرحاب الحديثة ـ بيروت ١٩٩٨.

شخصيتها الإنسانية، بل اعتبارها في عداد الأمتعة النفيسة، فيما اعتبرها العرب والمسلمون منذ فجر الأزمنة الحضارية ظهير الرجل ورديفه الأعلى، بل سيّدة وجوده وكيانه التي تهزّ المهود وتقيم العروش **ولها فوق ما له من كرامة وشخصية وإرادة.**

ويُخطئ من يعتقد أن العربي ينظر الى المرأة بمنظار المتعة الجنسية وحدها. فإذا كانت هذه المتعة من لوازم الغريزة الجسدية التي يشترك فيها البشر جميعاً، ذكوراً وإناثاً، فإنّ بعض الامتيازات العائدة الى طبيعة المرأة كانت ولا تزال موضع اهتمام كبير وتقدير وإعجاب من جانب الإنسان العربي في كلّ زمان. وفي طليعة هذه الصفات الأنثوية المميزة، **صفة التضحية ونكران الذات التي يعجز عن مثلها الرجل** في مختلف الميادين، ومعرفة حدود القناعة بعد الكفاية، وهو ما يجنب المرأة خطر المطامع والمطامح والشهوات التي تتعهد في النفس جرثومة التهور وروح المغامرة في طلب المال والسلطان، وكثيراً ما تؤدي الى الحتف دون الفتح، ثم **القدرة الفائقة على التكيّف مع الأحداث العامة والظروف الموضوعية الخاصة وسرعة الخاطر** واتقاد الذهن في مواجهة الفجاءَات والحالات المستجدّة الطارئة، وهي صفات يعزوها الرواة الأقدمون الى الذكاء الأنثوي الحاد المستند الى الحدس دون الكثير من التبصّر والحسبان، ممّا لا يملكه الرجال بوجه عام، فيؤخذون على حين غرّة من فرط ما يتردّدون في معالجة الأمور ويبطئون. وهنالك العديد ممّا تداوله المؤرخون من أخبار السلف في هذا السياق، وتكفي مراجعة كتاب «الأغاني» لأبي

الفرج الأصفهاني، و«مصارع العشّاق» لجعفر بن أحمد بن الحسين السرّاج، و«طوق الحمامة» و «أخبار النساء» لابن حزم الأندلسي، وغيرها من المؤلفات الخبرية المسندة، لاكتشاف سلسلة لا متناهية من القصص والحكايات التي تدلّ على فهم وافر وجواب حاضر عند المرأة العربية يأخذ بمجامع القلب ويستوقف العقل في ذهول واعتبار. وقد نسب بعضهم سرعة الخاطر هذه عند المرأة المتفوّقة الى الكيد، استناداً الى ما ورد في القرآن ﴿...**إنَّ كيدَكُنَّ عظيم**﴾(١١٠) ولكن الفرق واضح بين حدّة الذكاء والكيد الذي يحمل في معانيه النيّة السيئة والأذى.

ومن أطرف ما عرض له أصحاب السِيَر **قصة هند الخزرجيّة بنت النعمان بن بشير** التي زفت الى رَوْح بن زِنْباع الجُذامي أمير الجند في جيش عبد الملك بن مروان، وكان دميم الخلقة أسود اللون شديد الغيرة على نسائه، فكرهت مصيرها، وما فتئت تصطنع الصدود وتفتعل الحيل والأحابيل حتى طلّقها، وهام بها الحجّاج بن يوسف الثقفي، فبذل لها مالاً جزيلاً وبعث بمن يخطبها، ثم تزوج بها وشرط لها عليه بعد الصِداق مائتي ألف درهم، ثم توجه بها الى دار أبيها في المعرّة حيث أقاما ردحاً من الزمن انتقلا بعده الى العراق. وكانت هند من أجمل نساء عصرها ذات أدب وبيان وذكاء متّقد ومزاج مرح، فدخل الحجّاج البيت في أحد الأيام وسمعها تقول وهي تقلّب محاسنها أمام المرآة:

وما هندُ إلّا مُهْرةٌ عربيةٌ سليلةُ أفراسٍ تَحَلَّلها بَغْلُ

---

(١١٠) سورة يوسف ـ ٢٨

فإنْ نُتِجَتْ مُهراً كريماً فَبِالحَرى   وإنْ يكُ إقْرافٌ فما أَنجبَ الفَحْلُ[111]

فاستاء الحجّاج ممّا سمع وعزم على طلاقها، فانفذ اليها عبدالله بن طاهر ومعه مبلغ المائتي ألف درهم التي كانت لها في ذمّته بموجب عقد النكاح، كما طلب منه أن يطلّقها بكلمتين هما: «كنتِ، فبِنْتِ» أي فارقتِ. فدخل عليها عبدالله وأعلمها بذلك، فقالت له: «**والله كنّا فما حَمَدْنا، وبِنّا فما نَدِمْنا!**» ثمّ همّ بتسليمها المبلغ فردّته قائلة: «**إقبله منّي هدية وقد بشرتني جزاك الله خيراً، بخلاصي من كلب بني ثقيف**»...

وما لبث أن وصل خبرها مع الحجّاج الى أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان ووصفوا له جمالها وذكاءَها، فأرسل من يخطبها لنفسه، فبعثت اليه كتاباً تقول فيه بعد الثناء عليه: «**إعلم يا أمير المؤمنين أن هذا الإناء ولغ فيه الكلب، وقد لا يصلح لمقامك العظيم.**» ولمّا قرأ عبد الملك كتابها ضحك حتى استلقى، وزاد رغبة فيها، فأجابها بما يلي: «إذا ولغ الكلب في إناء، وجب غسله سبع مرّات إحداهنّ بالتراب. فعليك بغسل الإناء كما يجب لكي يحلّ استعماله ويصلح.»

عندها لم تستطع مخالفة الأمر، لكنها كتبت الى أمير المؤمنين تقول: «**إن لي في تلبية رغبة مولاي شرطاً واحداً، هو أن يأمر الحجّاج بأن يقود محملي من المعرّة الى دمشق وهو يمشي حافي القدمين.**»

---

(١١١) المقرف: الذي أمّه عربية وأبوه أعجمي، ويقصد به الهجين.

وسرعان ما لبّى الخليفة طلبها وقد سرّه حرصها على كرامتها وشرف منبتها إزاء رجل طمع في إذلالها. وما أن تلقى الحجّاج أمر الخليفة بذلك حتى امتثل، وأنفذ الى هند يطلب اليها تجهيز القافلة، ثم قدم الى المعرّة من العراق، وأخذ بزمام البعير الذي ركبته هند في هودجها وحولها بعض جواريها وخدمها. وكانت معها في الهودج دايتها الهيفاء، وهو يقود الجمل حافي القدمين تحت الشمس المحرقة.

ويقول الرواة أن هنداً أخذت تتواغد على الحجّاج في الطريق، وتسمعه لواذع الكلام لاهية ضاحكة، ثم فتحت سجف المحمل وتصدّت له مستهزئة به، فقال على البداهة:

لَئِنْ تضحكي منّي فيا طولَ ليلةٍ تركتُكِ فيها كالقباءِ المُفَلَّجِ

وردّت له فوراً:

ولا نُبالي إذا أرواحُنا سَلِمتْ بما فَقدناهُ من مالٍ ومن نشبِ[١١٢]

فالمالُ مُكتَسبٌ والعزُّ مُرتَجَعٌ إذا النفوسُ وقاها اللهُ من عطَبِ

وما زالت هند على تلك الحال من التحامل على الرجل والتجريح والهزء حتى اقتربت القافلة من دار الخلافة، فرمت بدينار من نافذة الهودج، ونادت: «**يا حجّاج. لقد سقط منا درهم!**» فراح يبحث عنه في الرمل حتى عثر عليه وقال لها: «**ليس هذا درهماً. إنه دينار!**» فقالت: «**الحمد لله الذي عوّضنا درهماً بدينار!**» أي عوضنا عنك بأمير المؤمنين. فكتم الحجّاج غيظه ولم

(١١٢) النشب يقصد به الأموال الثابتة غير المنقولة.

يحر جواباً حتى أوصلها الى عبد الملك صاغراً.

ومن الفصيحات المفوّهات تلك العالمة بأنساب العرب التي التقاها المأمون مع أبيها على الفرات، وهي فتاة رائعة الجمال ملأت قربتها ماء من النهر وحملتها على كتفها، فانحلّ رباط فوهتها فصاحت: «**يا أَبتِ أدرِك فاها. قد غلبني فوها. لا طاقة لي بفيها.**» فعجب المأمون لفصاحتها، واقترب فسألها: من أي العرب أنت؟ قالت: أنا من قوم كرام يقرون الضيف ويضربون بالسيف... وأنت من أي العرب أنت؟ قال: أنا من مضر الحمراء. قالت: من أي مضر؟ قال: من أكرمها نسباً وخيرها أماً وأباً. قالت: أظنك من كنانة! قال: نعم. قالت: من أي كنانة؟ قال: من أشرفها. قالت: إذن أنت من قريش. ومن أيها؟ قال: ممن تهابه قريش وهاشم جمعاء! عندها ركعت وقبلت الأرض بين يديه وقالت: السلام عليك يا أمير المؤمنين. فدهش المأمون ممّا سمع ورأى وطلبها من أبيها فزوّجه بها. وولدت له ابنه العبّاس.

ولعل خير الأدلّة على ذكاء المرأة العربية وسرعة بداهتها، ما رواه الأبشيهي في «المستطرف» من أن «كريم الملك» وهو من الكتاب الظرفاء، عبر يوماً تحت «جوسق»[(١١٣)] ببستان فرأى حسناء ذات وجه زاهر وكمال باهر، يعجز البيان عن وصف جمالها، كادت أن تذهل عقله وتذهب بلبّه فقرّر أن يتوسّل اليها بهدية نفيسة تليق بها وتقرّبها الى قلبه، وبعث تلك الهدية مع خادمته العجوز، فقبلت الحسناء الهديّة ورحّبت بزيارته، ولما

---

(١١٣) الجوسق: مقصورة ريفية تبنى في الحدائق والبساتين (بالفرنسية Hameau)

طلبت اليها الرسولة تحديد الموعد، استمهلتها ثمّ جاءَت بقطعة من العنبر الأسود ثبتت في قلبها زراً من ذهب، وقالت للخادمة: خذي هذا لصاحبنا وقولي له إن الموعد محدّد فيه، فعادت الخادمة الى كريم الملك وسلمته الغرض قائلة: قبلَتْ الهدية والموعد في هذا المنديل. وقد حاول الرجل وهو يقلّب العنبرة بين يديه أن يفهم شيئاً، لكنه لم يستطع وأشكل عليه الأمر. وكان له ابنة لم تتخطَّ العاشرة من العمر، آلمها أن ترى أباها حائراً في المسألة مرتبكاً، فقالت له: أنا أعرف ما الذي تعنيه بهذا الجواب. **الزرّ الذهبي معناه «زُر» ووضعه داخل العنبرة السوداء معناه «تحت جنح الظلام!»**. . .

وقيل دخلت على الحجّاج امرأة من الخوارج تطلب حاجة، فسأل من في المجلس من أصحابه عما يفعل. فقالوا: يحلّ قتلها أيها الأمير لأنها من الخوارج. فبادرت المرأة فوراً بالقول: كان المستشارون عند صاحبك الذي تجلّه أفضل وأشرف من مستشاريك! قال الحجّاج: ومن هو صاحبي هذا؟ قالت: فرعون الكافر الذي استشارهم في قتل موسى، فنصحوه بالعفو عنه وعن أخيه!

وصدف أن دخلت على الحجّاج امرأة غيرها من الخوارج جاءَت تطلب شفاعة. فراح يكلّمها وهي مطأطئةً رأسها لا تنظر اليه. واستهجن بعض الحضور منها ذلك، فعنّفوها قائلين: إنّ الأمير يخاطبك، فلماذا لا تنظرين اليه؟ قالت: أخشى حساب الآخرة إن نظرت الى امرئ صرف الله وجهه عنه!

ديوان الأرستوقراطيات العاشقات!

وعلى صعيد آخر يميل معظم الباحثين في الغرب، متعمّدين أو متأثرين باقتناع خاطئ له صفة الرواج المغرض، الى رجم المرأة العربية خصوصاً، والمسلمة عموماً، بالاستسلام الغريزي للشهوات الجنسية، مستندين في ذلك الى الحجم الهائل الضخم الذي تحتويه أخبار السلف من وقائع النكاح والطلاق، وقصص المضاجعة والمجامعة والخيانات الزوجية، وروايات الجواري، وحكايات الفسق والإباحة والفجور، وهي وقائع لا يكاد يخلو منها أي مؤلف من كتب التاريخ العربي وكتب السيرة، حتى الكتب المتعلقة بالصحابة والأولياء والخلفاء والملوك وغيرهم من نخبة المجتمع القديم وعلية القوم في ممالك الإسلام.

ولكن من يتفحّص باهتمام علمي هذا الإقبال الاستثنائي على الجنس الذي يشبه الوباء المستشري في أخبار العرب، سرعان ما يتضح له أنّ معظمه **يعود الى الشبق الذكري أكثر منه الى الفجور الغريزي الأنثوي**. ذلك أن المناخ الجاف والحار في أفريقيا الشمالية والشرق الأوسط والأدنى، يؤثر تأثيراً بالغاً في نمو الشهوة الجنسية عند الذكور، كما يتعّهد الرغبة المتواصلة في المتعة والنكاح، وهو أمر يختلف كلياً عن الطبيعة الجنسية للرجل في المناطق الباردة. أمّا المرأة الشرقية فهي، بصرف النظر عن تأثير تربيتها المحافظة، تذعن لمحظورات اجتماعية تراثية وظروف متصلة بالنظم العائلية التقليدية، وذلك خلافاً لأوضاع المرأة في

الغرب حيث تدفعها الظروف الموضوعية الى الجموح، وقد ظهر ذلك بجلاء سواء في الولايات المتحدة بعد تقلّص حكم التزمّت البروتستاني خلال القرن العشرين، او في أوروبا الغربية على إثر تقلّص التزمّت الكاثوليكي خلال القرنين الأخيرين.

فمن أغرب ما سجّله المراقبون الاجتماعيون ظاهرة منتشرة في الولايات المتحدة منذ أواسط القرن الماضي، هي تأسيس بضع عشرة جمعية أهلية «**للدفاع عن حقوق الرجل**»، لها نظمها الداخلية وموازناتها الخاصة، والمحامون وكلاؤها، وهي تنشط لإعانة رجال أصبحت نساؤهم **قوّامات عليهم** في مختلف ميادين الإرث والطلاق وحضانة الأولاد والخيانات الزوجية، وما يضاف الى ذلك من تعرض الرجل للمهانة والضرب وحتى الاغتيال، في وقائع جرمية تتخطى حدود الخيال!

أمّا في بعض الدول الأوروبية، فيزداد التفتّح الجنسي عند المرأة الى درجة مذهلة حتى أن بعض الإحصاءَات غير الرسمية يؤكد أن ما يقارب **أربعين في المئة** من السكان يجهلون آباءَهم الحقيقيين! وكنّا نظنّ في أي حال، أن ذلك ناتج عن استشراء الفجور والفسق الذي يصيب المجتمعات الإنسانية جراء الحروب، وهو من الأمور الملحوظة عبر التاريخ. وقد شهد العالم خصوصاً بعد الحرب العالمية الثانية التي أودت بحياة أكثر من **ثلاثين مليون قتيل**، تهافتاً خلقياً لم يعرف له مثيل بسبب النقص الفادح في عدد الذكور الذين أتت عليهم الحرب. وكثيراً ما تحدَّث شهود عيان

صادفوا امرأة شابة **تجامع كلباً أو تقبّله في فمه وتلعق لسانه في** مترو الأنفاق بلندن وباريس!... أو سيّدة أنيقة بيضاء تعانق زنجياً في مرحاض، أو تشدّ بعربي من شمال أفريقيا لارتكاب الفحشاء معه تحت شجرة على الطريق العام أو على مقعد في الحديقة البلدية. وقد أفادت جيوش الحلفاء الذين اجتاحوا فرنسا وألمانيا أواخر الأربعينات، من الكبت النسائي المتفجّر في أوروبا الغربية، كما أفاد الجيش السوفياتي الأحمر من تفجّر ذلك الكبت إياه في أوروبا الشرقية لارتكاب الفواحش، في زمن **لم يكن فيه العلم قد ابتكر بعد كوابح منع الحمل**. ولعل أغرب ما دونته الصحافة العالمية في تلك المرحلة، أنّ الزنوج من الجند الأميركيين كانوا الأكثر حظوة في ألمانيا حيث لم يبق **إلّا رجل واحد مقابل كلّ ٤٣ امرأة بعد الحرب!!** وقد عثر في خرائب دوسلدورف، وفرانكفورت وهامبورغ، وغيرها من مدن الرايخ الثالث الغربية، كما في برلين على ألوف الجثث من المواليد السود **مدفونة بين الأطلال**، إذ كانت الألمانية ترضي شبقها الجنسي مع الزنجي، فتأبى عليها ثقافتها النازية العنصرية أن تحتفظ بالطفل الناتج عن تلك العلاقة، فتقدم على قتله ودفنه في الخرائب!..

لقد كنت أميل في الواقع الى الاعتقاد الراسخ بان الحروب وأهوالها والانهيار الوجودي الناشئ عنها تؤدي الى مثل هذه الظواهر المفجعة المنكرة، حتى عثرت في إحدى مكتبات باريس التي زرتها عام ١٩٦٦، على مجموعة كتب نصحني أحد الأصدقاء بابتياعها للتسلية، وهي بعنوان «**حكايات الحبّ في تاريخ فرنسا**»،

فأخذت العبرة منها فوق ما استأنست وتسلّيت، وهي لا تزال في مكتبتي الى هذا اليوم.(١١٤)

وتتألف هذه المجموعة من عشرة أجزاء أولها صدر عام **١٩٥٦** وآخرها عام **١٩٦٥**، ويقول صاحبها «**غي برتون**» (Guy Breton) في مقدمة الجزء الأول ما يلي:

«خلف الملوك الأربعين الذين صنعوا مجد أوروبا ألف سنة، فتّش عن المرأة الحاضرة في تاريخنا حضوراً دائماً. فهي التي صنعت الملوك، ودحرجت عن رؤوس معظمهم تيجانها، وهي التي افتعلت الحروب، وفي سبيلها ارتكبت جرائم الخنق والسفك وحيكت الدسائس والمؤامرات، وأريقت دماء الأبطال، وتحولت بعض المدائن الى أطلال.»

ويدرج الكاتب في مجموعته من الوقائع التاريخية ما يعجزني تعدادها، ويردّها الى مراجعها الموثوقة. وهي نماذج من حكايات الغرام وقصص الفجور تنطق بالغرائب ممّا تختزنه بطلات ذلك المسلسل المدهش والمخزي، **ملكات وأميرات وسيدات نبيلات**، من أحابيل الشذوذ الجنسي وألوان الشرور الناتجة عن شهوات الحسّ والتهتّك والانحراف... أمثال الملكة «**جان**» زوجة «**فيليب لوبلّ**» التي شعرت بالضجر وملّت حياة الرتابة في ظلّ رجل يهتمّ بشؤون الدولة فوق اهتمامه بها، فجهّزت غرفتين في برج مقابل

---

(١١٤) Guy Breton: «Histoires d'Amour de l'Histoire de France» - éd. Noir et Blanc - Paris - (1956-1965)

لقصر «**اللّوفر**» **على نهر السين، حيث كانت تستقبل فحول الطلبة في فراشها... ثمّ** «**كاترين دي ميدسيس**» (Catherine de Médicis) ولية عهد الملك «**فرنسوا الأول**» وخليفته لاحقاً، التي كانت تعوّض عن دمامة خلقتها بإبراز محاسن ساقيها وفخذيها وما خفي من جسدها البضّ المكتنز... وكذلك مارغريت بنت هنري الثاني وكاترين دي ميدسيس، وزوجة ملك ناڤار هنري الثالث، المعروفة عند المؤرخين باسم «**الملكة مارغو**»، والتي تعتبر من أكثر النساء انحرافاً وشذوذاً في تاريخ الجنس... الى آخر العاهرات اللواتي نخجل من تعداد قصص مغامراتهن الخلاعية التي يحفل بها تاريخ أوروبا.

ونكتفي هنا بهذا القدر اليسير من الأحداث المتصلة بشخصيات نسائية تمثلت عرضاً في سياق استطراد قصدنا به الى تصحيح الصورة التي رسمها المستشرقون الأجانب ومن حذا حذوهم أو تأثر بهم من المؤرخين المشارقة، للمرأة العربية، وتقدير البون الشاسع بين ما يدعيه هؤلاء من حرور النساء الشرقيات، وما اختزنته المرأة في الغرب من لهب الانحراف الجنسي وتواتر الشهوات. ولو شئنا الخوض في بحار المعاصي التي ارتكبتها **محظيّات الملوك الفرنجة والألمان والإنكليز والروس** وغيرهم، وما تدبّرن في الخفاء من مؤامرات الخيانة ومهالك الجنس وفنون الإثارة والدعارة، وضروب الفتك بالسمّ، على ما يرويه التاريخ من شذوذ «**مدام دي مونتسبان**» محظية لويس الرابع عشر، «**ومدام دي بومبادور**» محظية لويس الخامس عشر،

واليزبيت الأولى ملكة بريطانيا، **وكاترين الثانية** قيصرة الروسيا، الى أخبار الصراع بين **ماري انطوانيت** ملكة فرنسا ومدام «**دي باري**» التي انتقلت من مواخير باريس الى قصر ڤرساي، وما تخلّل «**زمن الإرهاب**» في الثورة الفرنسية من ولائم الفجور، ثم خيانات «**جوزفين دي بوهارنيه**» زوجة نابوليون بونابرت وعلاقات هذا الأخير الجنسية بشقيقته «**بولين**»، وغراميات «**مدام دي كاستيليون**» مع نابوليون الثالث وإقناعه باجتياح إيطاليا، ودور عشيقة بسمارك **المركيزة** «**دي بايفا**» في التجسس على أمبراطور فرنسا، الى آخر ما هنالك من سقطات أميرات ومليكات في حياة أوروبا خلال قرون. . . لو شئنا الخوض في وحل تلك المفاسد والفضائح هذا، لما اتسعت لمغامرتنا المؤلفات الفضفاضة والصحائف اللّامتناهية.

الإنسان العربي «وحَوْبة الذكرى»!

أمّا وقد اختزلنا أعلاه محتوى الذاكرة ومراجع الخزانة المرصودة من صور الانحطاط والتهافت الخلقي للطبقة العليا من سيدات الحلّ والعقد في تاريخ أوروبا، وذلك إبراء للمرأة العربية في التزامها العفة والامتناع، وتنزيها لها عن قذارة الانحراف الجنسي والنفسي، بعدما ألصقه بها المؤرخون السطحيون من تهم الإغراء والكيد الباطلة. . . فلا بدّ من الإحاطة بجانب أساسي من طبائع النفس العربية قبل اختتام هذا الفصل، هو ما سبق أن سمّيته

«حَوْبة الذكرى» وأقصد به **التألق الوجداني** الذي يجتاح الإنسان العربي، ويضجّ في أعماقه كالنهر يحجب هديره كلّ صوت آخر، ويحجب التأمل في رقراق مائه كلّ رؤية أخرى. فقد طغى **الوجد العاطفي العربي** الى حدّ بعيد على اجتهاد العقل وترويض الإرادة، كما عطّل السعي الحثيث الدؤوب الى الاختراع، والإفادة المادية من التطبيق العملي للنظريات التجريدية في العلوم.

ذلك أن العربي مهما يتغمَّر فيه من وحلة الإثم وطَميِّ الفساد، يظلّ يتعهّد في أعماق نفسه رعياً دائماً بالحفيظة لمحارم العُذْرية وميول الصبى الهفهاف البريء، مردّداً مع أبي تمّام:

نقِّلْ فؤادَكَ حيث شئتَ من الهوىٰ   ما الحبُّ إلّا للحبيبِ الأولِ
كمْ منزلٍ في الأرضِ يألفُه الفتى   وحنينُه أبداً لأولِ منزلِ

ويختصّ العربي في تألقه الوجداني بظواهر ثلاث تكاد تكون مفقودة على صعيد الحبّ في حياة الشعوب الأخرى، هي **الحبّ العذري**، **والموت بالعشق**، **ومتعة الحرمان!..** والشواهد على ذلك ماثلة بصحائف خالدة في الأدب.

• أما **الهوى العذري**، فيعود أصلاً الى نشأته الأولى في بني **عذرة**، وهي إحدى قبائل قضاعة. وتقع ديار عُذْرة في **«وادي القُرى»** على ما يذكر صاحب «الأغاني» وصاحب «معجم البلدان»، بين الحُجْر والبيضاء والرُحَيْبَة، من أعمال المدينة المنوّرة، وقد سمّاه بعضهم **«وادي القِرى»** لما اشتهر به أهله من كريم الضيافة حيث كانت تحطّ فيه القوافل المتنقلة بين الحجاز والشام، فتلقى الرعاية والإكرام.

وكثيراً ما تغنّى الشعراء العرب، سواء أكانوا من عذرة أو غيرها بوادي القُرى، فيقول **مجنون ليلى قيس بن الملوّح العامري**، وهو أشهرهم:

لَعَمْرُ أبي ليلى لئن هي أَصبحتْ   بوادي القُرى ما ضَرَّ غيري اغترابُها

ويقول **جميل بن عبد الله بن مَعْمَر** عاشق بثينة وهو أشعرهم:

ألا ليتَ شعري هلْ أبيتن ليلةً   بوادي القُرى إنّي إذاً لَسَعيدُ
وهلْ أَلْقَيَنْ فرداً بُثينةَ مرَّةً   تجودُ لنا من وُدها ونجودُ
عَلقتُ الهوى منها وليداً فلم يَزَلْ   الى اليومِ ينمو حُبُّها ويزيدُ
فأفنَيْتُ عمري بانتظاريَ وعدَها   وأَبْلَيْتُ فيها الدهرَ وهو جديدُ

وقد ذاعت أخبار عذرة وشعراء وادي القرى خلال العصر الأموي في أطراف بلاد العرب، فنشأت مدرسة في الحبّ عرفت بمدرسة «**الحب العذري**» تقوم على هيام روحي منزه عن شهوات الجسد بين الرجل والمرأة لا يستهلك أحدهما الآخر، وخصوصاً الرجل، إلّا بالنظرة العابرة والوجد العميق واجتناب اللمس بتعبير عن الرغبة لا يتجاوز حدود الهمس، فيؤدي الى استهلاك الحياة **في مسلك صوفي معذّب ينعم بالفراق ويجترح الجنون**، بحيث لا يرى العُذري في المرأة «مخلوقة من لحم ودم وأعصاب، وإنما يراها سبيكة نورانية صاغتها المقادير طبقاً لجامح هواه السامي» على ما يقول زكي مبارك.(١١٥)

والحق يقال إنّ أياً من الآداب العالمية، قديمها وحديثها، لم

---

(١١٥) زكي مبارك: «العشاق الثلاثة» - سلسلة «إقرأ» - القاهرة - ١٩٤٥

يعرف حبّ رجل لامرأة أذهب عقل صاحبه وأودى بحياته، حتى في مثاليات الحبّ المعروف **بالأفلاطوني** عند سائر الأمم، من مثل ما حدث **لقيس بن الملوّح الذي هام بابنة عمّه ليلى** ومنع من لقائها، فأحرق عمره في جحيم غرامه العذري وقصر شعره على ذكرها، حتى قضيا معاً في سبيل هذا الحب النوراني القاتل والمستحيل!

كذلك لم يعرف تاريخ الحضارة الإنسانية هيام رجل **بامرأة متزوجة** تعيش في كنف رجل آخر، فيقضي حياته وهو يتغزل بها من بعيد دون أن يتقابلا أو يتعانقا مرّة واحدة، فيما تتحرق هي أيضاً في ذلك اللّهب الغرامي المنزّه لكي لا نقول المقدس، من مثل ما حدث **لجميل بن مَعْمَر العذري** الذي عشق بثينة زوجة المدعو حُجْنَةَ الهلالي فملكت عليه روحه وقلبه، وقهر ذلك الحب رغائب نفسه ومطالب حسّه. ثمّ أهدر والي المدينة دمه إن هو فكّر بلقاء بثينة، فنزح عن بلده الى اليمن، وبعدها الى الشام، وحطّ رحاله أخيراً في مصر حيث مات هاتفاً وهو يلفظ الروح باسم حبيبته مردّداً هذا البيت:

أرى في سوادِ القلبِ للحبِّ مَيْعَةً   هيَ الموتُ أو كادَتْ على الموتِ تُشْرِفُ

وكانت وصيته الوحيدة إبلاغ بثينة أنّ اسمها هو آخر كلمة تفوّه بها عند الموت!.. فصدف أن كان أحد أصحابه قد أزمع السفر من مصر الى الحجاز، فحمل الى بثينة معه حلّة جميل، ولما رأتها أخذت تلطم صدرها حزناً وتقول:

سواءٌ علينا يا جميلَ بنَ مَعْمَر إذا متَّ بأساءُ الحياة ولينُها
فإنَّ سُلُوِّي عن هواكَ لَساعةٌ من الدهرِ لا كانت ولا حانَ حينُها

وفي تاريخ الأدب ذكر العديد من الشعراء العذريين الذين لا مجال الى تفصيل أخبارهم في هذا المجال، ومن أشهرهم **قيس بن ذريح**، **وكُثَيِّر بن عبد الرحمن الخزاعي** صاحب **عَزَّة** التي كانت شاعرة ذكيّة حاضرة الجواب. وقد دخلت مرّة على عبد الملك بن مروان، وكانت قد أصبحت عاجزة مسنّة، فقال لها: أنتِ عَزَّة كُثَيِّر؟ فقالت أنا عَزَّةُ بنتُ جُمَيْل. قال: أنتِ التي يقول فيك كُثَيِّر:

لِعَزَّةَ نارٌ ما تبوخُ كأنها إذا ما رمقناها من البعدِ كوكبُ

فما الذي أعجبه منك؟ فقالت له فوراً: **أعجبه مني ما أعجب المسلمين منك حين صيَّروك خليفة!** فضحك عبد الملك حتى بدت سنّ له سوداء كان يخفيها.

ويقول كُثَيِّر في وصف العذوبة التي تتسم بها أحاديث عَزَّة ورجاحة برهانها:

رُهبانُ مَدْيَنَ والذينَ عهدتَهُم يَبكونَ من حَذَرِ العذابِ قُعودا
لو يسمعون، كما سمعتُ، حديثَها خرّوا لعَزَّةَ رُكَّعاً وسُجودا (١١٦)

• **إنه قليل من كثير يتعلّق بالحبّ العذري، أمّا الذين ماتوا بالعشق، فيؤلفون ملحمة رائعة من ملاحم الفداء العاطفي الذي**

---

(١١٦) يعني أنّ الرهبان المقيمين في جبال مَدْيَنْ على البحر الأحمر غربي الحجاز، والذين يبكون من حرارة الإيمان تحسباً للآخرة ويوم الدين، لو سمعوا حديث عَزَّة بنفحته العلوية السماوية لسجدوا لها إكراماً وتمجيداً. ويستدلّ المؤرخون بهذين البيتين على وجود الرهبانية المسيحية واستمرارها في جزيرة العرب ردحاً من الزمن بعد ظهور الإسلام.

ينقل المحبّين في شطحة صوفية إشراقية الى الضفة الأخرى.(١١٧)

والأمثلة على الموت بالعشق وافرة متنوعة في أخبار العرب، وهي تعبّر في معظمها تعبيراً صارخاً صادقاً عن مكارم الوفاء والإخلاص للمحبوب والجهاد الخائب في إرضائه، وروح المغامرة والتضحية والطموح، كما تعبّر عن عزّة النفس وبعد الهمّة وركوب المخاطر وارتياد المهالك طلباً لثقته وطمأنينته وحفظاً لعهده وصيانة لمقامه ومنزلته العليا المنزّهة.

ومن أروع تلك الحوادث المحكية ما حدث **لعلي بن زريق البغدادي** الذي كلف بابنة عمّه كلفاً نورانياً فائقاً، فمنعوه منها

---

(١١٧) نسبة الى الفلسفة الإشراقية المعروفة بهذه التسمية عند المتصوفين المسلمين. ويجمع الباحثون في أصول «الإشراق» الصوفي على أن الاسم عائد الى الشرق مصدر شروق الشمس ومطلع الأنوار وانتشارها في الكون، بما تختزن الأنوار من قدرة الكشف عن المرئيات الظاهرة والمعاني الخبيئة لأسرار الوجود. (أنظر مقدمة شرح كتاب «اللمحات» للسهروردي بقلم د. إميل المعلوف ـ دار النهار للنشر ـ بيروت (١٩٦٩).

ولكن ما استوقفنا في سياق البحث عن أصل هذه التسمية، بصرف النظر عن ترجيحنا حكم الباحثين المشار اليهم، ما ورد في «لسان العرب» من إن «الشمس إذا شَرِقت مالت للغروب». وفي الحديث: «**لعلكم تدركون قوماً يؤخّرون الصلاة الى شَرَقِ الموتى فصلّوا الصلاة للوقت الذي تعرفون ثم صلوا معهم.**» وأراد بهذا الحديث ذكر الدنيا، فقال إنّه يشبّه ما بقي من نور الشمس عند الغروب بما يكون قد بقي من الدنيا في حياة المشرف على الموت عندما يشرَق بريقه ويغصّ وهو يلفظ الروح.

ويضيف «لسان العرب» أن الشَرَق هو الشجا والغصة. وقد تكون «الحالة الإشراقية» ناتجة عن الشَرَقِ والانقباض الذي يشعر به المرء في العصر قبيل غروب الشمس، تصديقاً للآية: ﴿والعصرِ. إنّ الإنسانَ لفي خُسْرٍ. إلّا الذين آمنوا وعملوا الصالحات...﴾ (سورة العصر: ١-٢-٣) ذلك أنّ الإشراقيين الصوفيين يدخلون في حال من الشَرَق أي الشجا والغصص النفسية في حضرة الملأ الأعلى والعوالم الماورائية الغامضة. (راجع لسان العرب في باب «شرق»).

لضيق ذات يده، فضرب في الأرض يسعى وراء المال والثروة كي يحظى بها، وساقته المقادير الى **عبد الرحمن المرتضى** في قرطبة بالأندلس ومدحه فأجازه بعطاء ضئيل، وقيل إن الملك أراد أن يختبره بذلك. لكنه تذكّر ابنة عمّه وفراقها وبعد المسافة بين قرطبة وبغداد، وخاب أمله بعد طول السفر وصعوبة الارتزاق، فغاب أياماً وهو عليل. وسأل عنه عبد الرحمن بعد أيام، وأرسل من يتفقّده في الخان الذي ينزل فيه، **فوجدوه ميتاً وعند رأسه رقعة كتبت عليها قصيدة** لا ضريب لها في شعر العرب لوعة وأسى يخاطب فيها حبيبته البعيدة مطلعها:

لا تَعذُليه فإنَّ العذلَ يولِعُهُ ... قد قلتِ حقاً ولكنْ ليسَ يسمَعُهُ
جاوزتِ في نُصحِهِ حداً أضرَّ بهِ ... من حيثُ قدَّرتِ أنَّ النُصحَ يَنْفَعُهُ

ومِمّا يقول:

ما آبَ من سفرٍ إلّا الى سفرٍ ... موكَّلٌ بفضاءِ اللهِ يَذْرَعُهُ
أستَودعُ اللهَ في بغدادَ لي قمراً ... بالكَرْخِ من فلكِ الأقمارِ مطلِعُهُ
وَدَّعتُه وبِودّي لو يودِّعني ... صَفْوُ الحياةِ وأنّي لا أُودّعُهُ
وكمْ تشبَّثَ بي يومَ الرحيلِ ضحىً ... وأدمُعي مستهلّاتٌ وأدمُعُهُ
أُعطيتُ ملكاً فلمْ أُحسن سياستَهُ ... كذاكَ مَنْ لا يسوسُ المُلكَ يَخلعُهُ

وتقع هذه القصيدة في **أكثر من أربعين بيتاً**؛ وهي تفيض بأرقّ مشاعر اللّوعة والحسرة والندم.(١١٨)

---

(١١٨) «مصارع العشاق» لجعفر بن أحمد بن الحسين السرّاج ـ شرح البستاني ـ الجزء الأول ـ (ص ٢٣) دار صادر ـ بيروت.

ومثل هذا الكثير من القصص والحكايات الشعبية على ألسنة الرواة والمؤرخين وأصحاب السِيَر. **فمما رواه الأصمعي** أنّه مرّ في البادية بحجر مكتوب عليه:

أيا معشرَ العُشّاقِ باللهِ خَبِّروا ... إذا حلّ عشقٌ بالفتى كيفَ يصنَعُ؟

فكتب الأصمعي تحته:

يُداري هواهُ ثم يكتُمُ سرَّهُ ... ويخشعُ في كلّ الأمور ويخضعُ

وعاد في اليوم التالي فوجد مكتوباً تحته:

فكيفَ يُداري والهوى قاتلُ الفتى ... وفي كلِّ يوم قلبه يتقطَّعُ

فكتب تحته:

إذا لم يجد صبراً لكتمانِ سرِّهِ ... فليس له شيءٌ سوى الموتِ أنفعُ

قال الأصمعي: ثم عدت في اليوم الثالث فوجدت شاباً ملقى بالقرب من ذلك الحجر ميتاً. فقلت: لا حول ولا قوّة إلّا بالله، وقد كتب قبل موته:

سمعنا. أطعنا. ثم متنا. فبلِّغوا ... سلامي الى من كان للوصلِ يمنعُ

ومضى **الأصعمي يقول**: وفيما أنا مطرق أفكّر بتلك الواقعة، إذا بجارية تقترب من الفتى الصريع وتنشد:

بروحي فتىً أوفى البرِيَّةِ كلِّها ... وأقواهمُ في الحبِّ صبراً على الحبِّ

فقلت لها: بأي شيء كان أوفى؟ وكيف كان أقوى؟ فقالت: كان **إن باح زجروه، وإن كتم لاموه!** وأنشدت:

يقولون لي إن بحتُ قد غرّكَ الهوى ... وإن لم أَبُحْ بالحبِّ قالوا: تَصبَّرا

فـمـا لامـرئٍ يـهـوى ويـكـتُـمُ أمـرَه   مـن الـحـبِّ إلّا أنْ يـمـوتَ فـيُـعـذَرا

ثم سقطت فوق ذلك الشاب جثة هامدة! (119)

وفي «**مصارع العشّاق**» طائفة مختارة من أخبار الذين ماتوا بالعشق، منها أن مالك بن عمرو الغسّاني تزوّج بابنة عمّ النعمان بن بشير الخزرجي وكانا متحابّين متآلفين، فاشترطت عليه ألّا يقاتل أحداً لضنّها به وخوفها أن يصيبه مكروه، لكنه لم يرتدع وكان فارساً مغواراً، فصدف أن أصيب في غزوة لبني لخم وسقط مثقلاً بجراحه، فأنشد:

ألا ليـتَ شـعـري عـن غـزالٍ تـركـتُـهُ   إذا مـا أتـاهُ مـصـرعـي كـيـفَ يـصـنَـعُ؟

فـلـو أنـنـي كـنـتُ الـمـؤَخَّـرَ بـعـده   لـمـا بـرحـت نـفـسـي إلـيـه تَـطَـلَّـعُ...

ثم إنه توفي بعد يوم وليلة متأثراً بتلك الجراح، فبكته الزوجة الوفية سنة كاملة **حتى اعتقل لسانها** فلم تقوَ بعد ذلك على الكلام. وكانت على درجة فائقة من العفة والجمال، فكثر خطّابها، وتوافق ولاة أمرها على تزويجها عسى أن تنحلّ عقدة لسانها، ويذهب حزنها، فزوّجوها أحد أبناء الملوك وكان مشغوفاً بها، فساق اليها ألف بعير. وفي الليلة التي حملت اليه، وقفت بباب الدار وأنشدت:

يـقـول رجـال: زوِّجـوهـا لـعـلّـهـا   تـقـرُّ وتـرضـى بـعـده بـخـلـيـل

فأخفيتُ في النفسِ اشتياقاً لمالكٍ   عـسـى أن أُوفّـي عـهـده بـرحـيـلـي

(119) «المستطرف» للأبشيهي ـ الجزء الثاني - (ص 170)

وما أن فرغت من قولها ذاك حتى شهقت شهقة وماتت.[١٢٠]

وروي عن **أبي الخطّاب الأخفش** قوله: خرجت في سفر، فنزلنا على ماء لطيّ، فبصرت بخيمة من بعيد، وقصدت نحوها، فإذا فيها شابٌ على فراش المرض كأنه الخيال من فرط الهزال، وقد أنشأ يقول:

ألا ما للحبيبةِ لا تعودُ أبخلٌ بالحبيبة أم صدودُ
مرضتُ فعادني عواد قومي فما لي لا أراكِ بمن يعودُ
فلو كنتِ المريضَ ولا تكوني لما أبطأتُ لو كثُرَ الوعيدُ

ثم **أغمي عليه ومات**. ووقعت الصيحة في الحيّ، فأقبلت من آخر الماء **فتاة كأنها فلقة قمر**، تخطّت رقاب الناس حتى وقفت عليه وقبّلته وهي تقول:

عداني أن أعودك يا حبيبي معاشرُ فيهِمُ الواشي الحسودُ
أذاعوا ما علمتَ من الدواهي وعابونا وما فيهمْ رشيدُ

قال: وما أن أتمت حتى شهقت شهقة وسقطت فوق الفتى جثة هامدة. وخرج من القوم شيخ ترحّم عليهما قائلاً: والله لقد فاتني أن أجمع بينكما في الحياة، وليغفر لي الله، فلأجمعنَّ بينكما في الممات. واحتفر لهما قبراً واحداً دفنهما فيه. ولما استوضحته الأمر قال: هذه ابنتي وهذا ابن أخي![١٢١]

- **وأمّا «متعة الحرمان»**، وهي الظاهرة الثالثة من تألق الوجدان

---

(١٢٠) مصارع العشّاق ـ الجزء الأول ـ (ص ٤٩)

(١٢١) مصارع العشّاق ـ الجزء الأول ـ (ص ١١٠)

العربي في ما سميته «**حَوْبة الذكرى**»، فلا وجود لها على الإطلاق في طباع الأمم الحضارية المختلفة عبر الأزمنة القديمة والحديثة. فالإنسان العربي، ذلك المقدام الصابر الجواد الذي لا يهاب الموت ولا يعرف المذلة والهوان. . . ذلك المثال الحيّ المكابر في الملمّات، الشديد البأس والرابط الجأش، يبدو في مرآة الحياة العاطفية **هزيلاً ضعيفاً على جفنه دمعة وفي قلبه غصّة**، حتى لكأنه يتمتع بالعذاب النفسي الذي ابتلي به في تكوين جناته الأصلية، دونما سبب واضح أو خطب فادح يدفعه الى تلك الحالة الدرامية الكئيبة واللفتة الخلفيّة العجيبة.

فالعربي مهما تتبدّل مواقعه وحالات دهره من سعود أو نحوس، ومهما يطرأ عليه من بلاء أو رخاء، يبقى **ذلك المحروم!** . . يئن من لوعة الهجر وصدود الأحبة وانقلاب الزمان. وهو حتى في أريكة الحكم وسدّة المجد والسلطان عملاق متألم يشقى ويبكي . . . فإن فاته الوقوف على الأطلال والبكاء على حياضها وأوتاد مضاربها الزائلة وعهودها الغاربة، بكى على المدائن والقصور الدوارس والممالك البائدة، حتى إذا فاته ذلك **أيضاً بكى على نفسه بالذات ورثى لازورار أيامه وغروب شبابه**. ولعل خير ما يعبّر عن «**حوبة الذكرى**» بيت للشاعر الأمير عبد الله الفيصل آل سعود يقول فيه:

كلّما قلتُ على الذكرى سلامٌ   هتفتْ بالقلبِ أيامٌ خوالي

والأمثلة على ذلك موصولة عبر الزمن **يعبّر عنها الشعر** في موسوعة الوجود العربي أكمل تعبير، **كما تظهر بجلاء في التراث**

الديني. ويعود هذا الجنوح باتجاه الحرمان والألم في النفس العربية الى جذور ساميّة واغلة في القدم، تنطلق من الإيمان بتدخل القوى الغيبية العليا في أمور الحياة الدنيا! وإذا كان هذا التدخّل الغيبي المتمثل عموماً وبامتياز، في «مشيئة الله»، **قد أحدث في العمق النفسي العربي شعوراً دائماً بالحرمان**، فإنه بالمقابل **أحدث في العمق النفسي العبري شعوراً دائماً بالاضطهاد!**.. ذلك أن يد الله تمنع العربي أضعاف ما يمني النفس بالحصول عليه من آلاء النعم الوجودية الدنيوية، فتولّد عنده شعوراً بالحرمان يعطّله الى حدّ بعيد، **ما تعده به من نعيم الجنة في الآخرة!** لكنها - أي يد الله أيضاً - فيما تمنع اليهودي أضعاف ما يمنّي نفسه بالحصول عليه من شهوات المال والسلطان الدنيوي، إنّما تولد عنده شعوراً بالاضطهاد **لا يعطله أي وعد** بإرضاء تلك الشهوات في الحياة الآخرة **التي لا يؤمن بها!**..

وخلاصة ما يتّضح في سياق هذا التحليل على صعيد النفس العربية الذي يعنينا هنا بالدرجة الأولى، هو أن التوكّل على الله الذي نصّ عليه القرآن والإكثار من ذكر الله الذي أوصى به الرسول، بالإضافة الى ما يختزنه الإسلام والمسيحية من زهد بمتاع الدنيا وطلب للآخرة، إنما يحتوي **فضلاً عن مؤثراته الإيجابية الفائقة** في تعهّد الضمير الحيّ ومكارم الأخلاق وإنماء الفضائل والشمائل، وهي قوام الحياة الاجتماعية والإنسانية المثالية... يحتوي جانباً خلقياً ونفسياً يؤدي - على ضئالة مؤثراته السلبية - الى **إحساس بالخيبة والشعور بالحرمان**. فالتفريط في

التوكّل كثيراً ما يستتبع التواكل، والمبالغة في الذكر كثيراً ما تستأخر العرفان وتستتبع إغفال الشكر...

ولا حاجة الى الاستعانة بالشواهد الشعرية المتعلقة بالحرمان والتألق الوجداني في مجال بحثنا الضيق والمحدود، لأنه يحتاج من جهة الى مجلّدات لضخامة حجمه، وتنوع أغراضه، كما يصرفنا من جهة ثانية عن أغراضنا الأساسية وهي الكشف بالوسيلة العلمية وحدها عن نوازع النفس العربية وإيجابية قدرتها الفائقة على مغالبة القدر، وذلك على نحو ما يقول ابن الرومي:

وإذا أتاكَ من الأمورِ مقدَّرٌ ... وهربتَ منهُ فنحوَهُ تتوجَّهُ

ونكتفي أخيراً **ببعض الأبيات التعبيرية** التي تصوّر **الوجد المتألق والبكاء على الديار**، وهي مختارة من ركام هائل بمعانيها السحرية غير المطروقة في الشعر العربي.

يقول المتنبّي:

وَجَدَ الحمامُ ولو كوَجْديَ لانْبرى ... شجرُ الأراكِ مع الحمامِ ينوحُ

ويقول أبو تمّام:

كادتْ لعرفانِ النوى ألفاظُها ... من رقَّةِ الشكوى تكونُ دموعَا

وللعباس بن الأحنف:

أبكي الذينَ أذاقوني مودّتَهُمْ ... حتى إذا أيقظوني في الهوى رَقَدوا

واستنهضوني فلمّا قمتُ منتصباً ... بثقلِ ما حمّلوني في الهوى قعدوا

لأخرُجَنَّ منَ الدنيا وحُبُّكُمُ ... بينَ الجوانحِ لمْ يشعُرْ بهِ أَحَدُ

حسبي بأَن تعلموا أنْ قدْ أحَبَّكُمُ   قلبي وأنْ تَسمعوا صوتَ الذي أجِدُ

ويقول شاعر لا أذكر اسمه:

مَرَرْنا بأكنافِ العقيقِ فأعشَبَتْ   أباطحُ من أجفانِنا ومَسَايِلُ

فمنْ واقفٍ في جفنِهِ الدمعُ واقفٌ   ومن سائِلٍ في خدِّهِ الدمعُ سائِلُ

وكادتْ تُناجينا الديارُ صبابةً   فنبكي كما تبكي علينا المنازلُ

- ٧ -

تعلَّموا وعلِّموا، ولا تموتوا جُهّالاً . . .

سلك العربي منذ وجوده البدائي في الصحراء، ثمّ خلال حياته المدنية في العمران، سبيل المعرفة والعلم، عسى أن يتمكّن من فضّ المغلَقات وارتياد الآفاق البعيدة في تحدي المجهول. ولا تزال هذه الرغبة في تحصيل العلم واكتناه المعرفة ماثلة في عقله الباطن الى هذا اليوم. فلو سألت أي امرئ في أي صقع من الأصقاع النائية في العالم العربي والإسلامي المعاصر، أياً كانت منزلته الاجتماعية وموارده الحياتية، عمّا يطلب لأولاده في مستقبل أيامهم، وما يرجوه لهم من متاع الدنيا، لأجاب دون أي تحفظ أو تردّد: **أن يتعلّموا!**

وإذا كان العلم في عصرنا قد توسّع وتشعّب حتى أصبح اختصاصاً في معظم الفروع بل تخصّصاً محدّداً في دائرة الاختصاص الأكبر والأعم - أي بعبارة أخرى، لا يكفي أن يكون «طبيب الرأس» متخصّصاً على سبيل المثال في الأنف، بل يتعيّن أن يردفه طبيب آخر متخصّص في أرنبة الأنف أو مارن الأنف أو

خياشيمه أو عضلاته، الى ما هنالك من تفاصيل - إذا كان العلم في عصرنا يضرب في المسالك اللّامتناهية لاختصاص الاختصاص، في الميادين التطبيقية والنظرية كافة... فقد سبق أن كان العلم يشمل حتى العصور النهضوية المتأخرة، **مجموعة من المعارف والمعلومات الثقافية الموسوعية**، كالفلسفة والأدب والتاريخ والتربية والشرع والرياضيات والفلك والطبّ والسيمياء والتنجيم وكشف الطوالع والتكهن بالغيب، الخ... وفي طليعتها جميعاً **علوم الدين**. وانطلاقاً من هذا التحديد الشمولي للعلم سمّي المختصّون في الإلَهيات والماورائيات من رجال الدين والفلاسفة وحدهم بالعلماء، لا سيما وإن هؤلاء كانوا في معظم الأحيان على درجة متقدّمة من الثقافة والإلمام المتفاوت قدراً بسائر علوم الدنيا.

ولم يعرف قدماء العرب وغيرهم من الأمم في الأزمنة الغابرة **فصلاً دوغماتياً جوهرياً** بين **العلم** (science) في كونه انتظاماً للمعلومات والملاحظات المتعلقة بالمواد أو الأشياء الخاضعة لقوانين معيّنة والتي يمكن تطويعها وتطويرها بالأساليب الاختبارية التطبيقية، وبين **الأدب** (littérature) في كونه طائفة من الأعمال والانجازات الخطية والشفهية ذات الأسلوب والهدف الفني والجمالي الخالص، كالإنشاء والبلاغة والخطابة والرواية والشعر والمسرح الخ...

كذلك اعتبر العرب الأولّون أن التعلّم والتأدب واحد، وأنّهما يؤلفان الجانب الأساسي من التربية الفكرية والتعبئة الخلقية

والروحية السليمة للأجيال الجديدة. وجاء في أمثالهم: «**من أدّب ولده صغيراً سرّ به كبيراً**»، و «**العلم في الصغر كالنقش في الحجر**». ولم يكن التأديب عندهم يوماً بالعصا، بل بالقدوة والعظة والنصح والإرشاد. فقد سئل ابن المقفّع: من أدّبك؟ قال: نفسي. كنت إن رأيت من أحد عملاً جيداً أَتَيْتُه، وإن رأيت منه سيئاً أَبَيْتُه.

ويحتل العلم والعلماء بمعناهما الواسع، وليس المتعلّق فقط بعلوم الدين، منزلة رفيعة في كتاب الله المبين والحديث النبوي الشريف. فقد جاء في القرآن قوله: ﴿**...إنما يَخْشَى اللهَ من عِبادِهِ العلماءُ**﴾[١٢٢] وقوله في موضع آخر: ﴿**...يَرفعُ اللهُ الذينَ آمنوا منكُم والذينَ أوتوا العلمَ درجاتٍ واللهُ بما تعملونَ خبيرٌ**﴾[١٢٣]

كذلك فضل الرسول العلم تفضيلاً مميّزاً وأوصى به في أحاديث عائرة حتى لتقرأ الكثير من امتداح العلم في الصحاح، وهو يعتبره في منزلة أعلى من العبادة ويقول إن العلماء ورثة الأنبياء:

- «**فضلُ العالم على العابدِ كفضلِ ليلةِ البدرِ على سائرِ الكواكِبِ والعلماءُ ورثة الأنبيَاء.**»[١٢٤]

---

(١٢٢) سورة فاطر - ٢٨

(١٢٣) سورة المجادلة - ١١

(١٢٤) أخرجه أبو داود والترمذي عن أبي الدّرداء.

أو يقول:

- **«فضلُ العلم أحبُّ اليَّ من فضلِ العبادة، وخيرُ دينِكم الوَرَع.»**(١٢٥)

ولم يقتصر تفضيل النبي العلم على العبادة، بل تعدى ذلك الى التوصية بنشره، كما في قوله:

- **«. . . أَجْوَدُكم من بعدي رجل علم علماً فنشر علمه يُبعثُ** يوم القيامة أُمَّةً وحده.»(١٢٦)

أو قوله:

- **«ما تَصدَّقَ الناسُ بصدقةٍ مثلِ علمٍ يُنشر»**(١٢٧)

ثمّ إن الرسول يحفز المسلم على تعليم أخيه المسلم على ما جاء في الحديث:

- **«أفضلُ الصَدقة أن يتعَلَّمَ المسلم علماً ثم يعلّمُه أخاه المسلم.»**(١٢٨)

وينظر الى العلم نظرته الى فرض من فروض الإسلام، فيقول:

---

(١٢٥) أخرجه البزّاز والطبراني عن حذيفة.

(١٢٦) أخرجه البيهقي عن أَنس بن مالك.

(١٢٧) أخرجه الطبراني عن سمرة بن جَندب.

(١٢٨) أخرجه ابن ماجة عن أبي هريرة.

- **«طلب العلم فريضة على كلّ مسلم»**[١٢٩]

وهو يحثّ المؤمن على طلب العلم في أي حال حيث يقول:

- **«مَنْ خرج من بيته في طلب العلم، فهو في سبيل الله حتى يرجع»**.[١٣٠]

أي أن طالب العلم شأنه شأن المجاهد «في سبيل الله». ولعل إنعام النظر في هذا الحديث يجعلنا نفهم كيف أن الكثيرين من العرب والمسلمين يبيعون الغالي والنفيس من ممتلكاتهم الى هذا اليوم، بما في ذلك بيوتهم، للإنفاق على تعليم أبنائهم وتأمين متابعة اختصاصهم المكلف في الجامعات الراقية والبلدان البعيدة، وقد أصبحت هذه التضحية الكبرى ميزة أساسية في عمق النفس العربية، لأنّ في الحديث النبوي أيضاً:

- **«إذا مات الإنسان انقطع عمله إلّا في ثلاث: صدقة جارية، أو علم يُنْتفعُ به، أو ولد صالح يدعو له.»**[١٣١]

وربّما كانت أعظم رتبة عيّنها النبي للعلم والعلماء أنه رفعهم الى منزلة الشهداء وحتى الأنبياء والمرسلين في قوله:

---

(١٢٩) أخرجه البيهقي عن أَنَس بن مالك.

(١٣٠) أخرجه الترمذي عن أنس.

(١٣١) أخرجه مسلم عن أبي هريرة.

• **«يشفع يوم القيامة ثلاثة: الأنبياء والعلماء والشهداء.»**(١٣٢)

وهو فيما أخّرهم عن الأنبياء، قدّمهم بوضوح على الشهداء! ثم قرن بمنتهى الدقة بين حق العالم في التكريم، وحق الشيخ في الإجلال، وحق الطفل في الرحمة حيث قال:

• **«ليس منّا مَنْ لا يُجلّ كبيرنا، ويرحم صغيرنا، ويعرف لعالمنا حقّه.»**(١٣٣)

ولا مشاحة في أن أبلغ ما أوصى به الرسول، وقد جعلناه عنواناً لهذا الفصل السابع من الكتاب، هو قوله الحاسم بالبيان الصريح:

• **«قلبٌ ليس فيه من الحكمة شيءٌ كبيتٍ خَرِب! فتعلّموا وعلّموا وتفقّهوا ولا تموتوا جهّالاً، فإنَّ اللهَ لا يعذرُ على الجهل.»**(١٣٤)

وفي هذا الحديث ما فيه من إيثار للعلم والتعلّم والتضلّع من كنوز المعرفة، ويصلح شعاراً خالداً لمكافحة الأمّية وداء الجهل الذي يقود الأفراد والجماعات الى الهلاك.

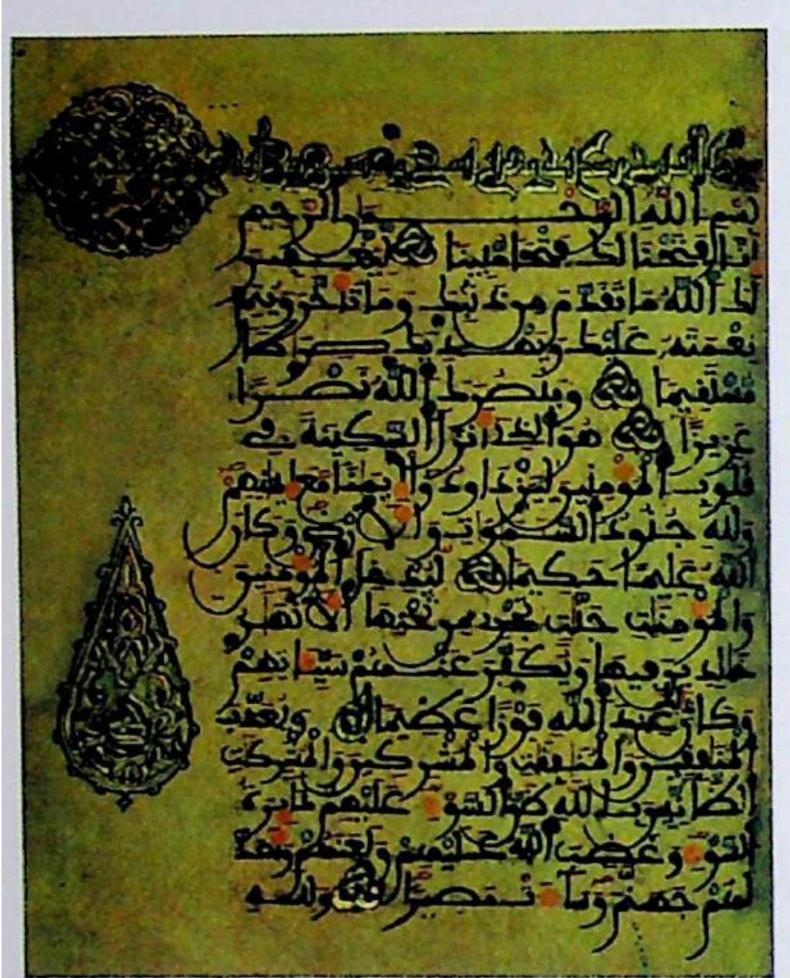
---

(١٣٢) أخرجه ابن ماجة عن أمير المؤمنين عثمان.

(١٣٣) أخرجه الإمام أحمد عن عبادة عن الصامت.

(١٣٤) أخرجه ابن السني عن ابن عمر.



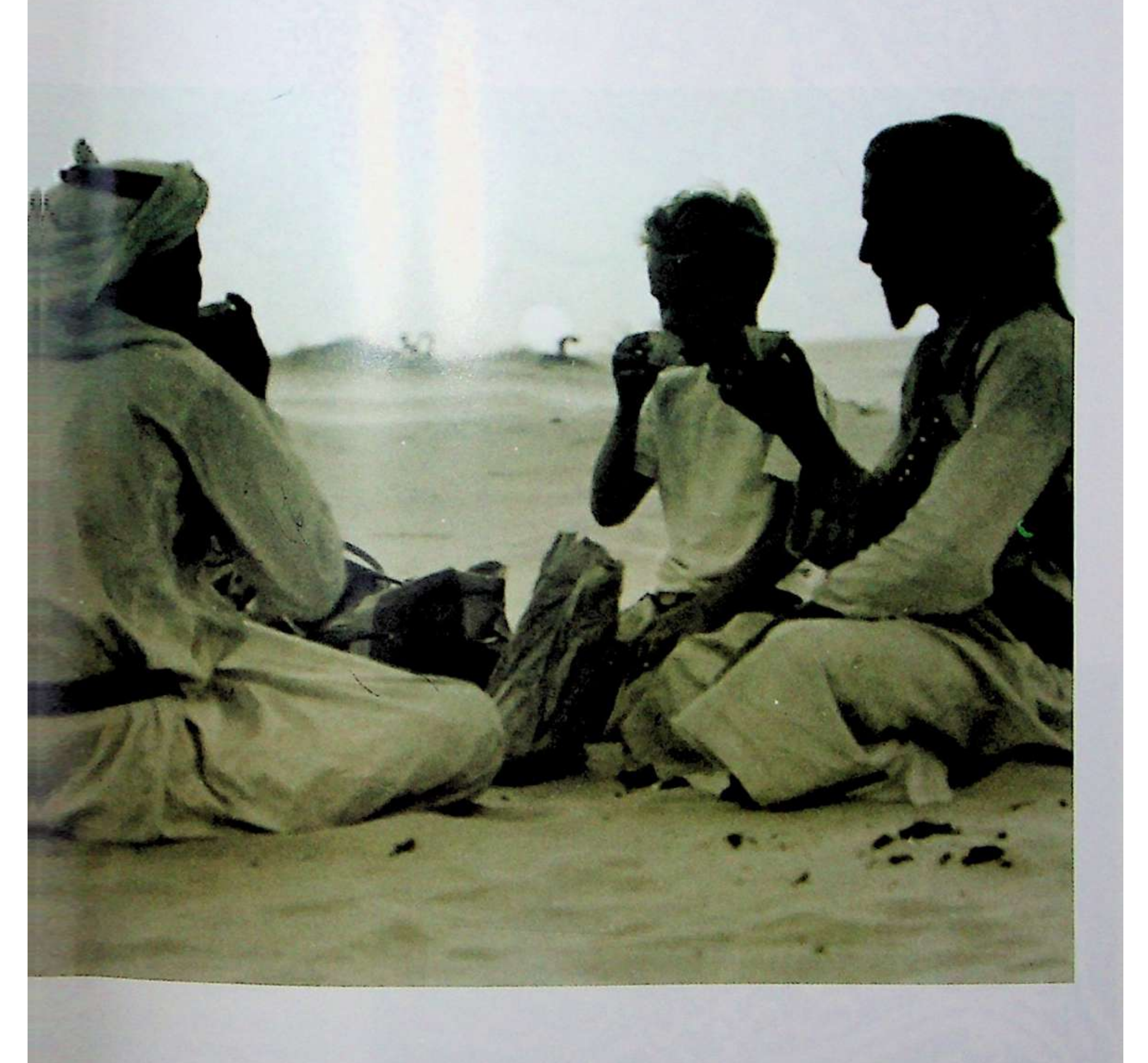




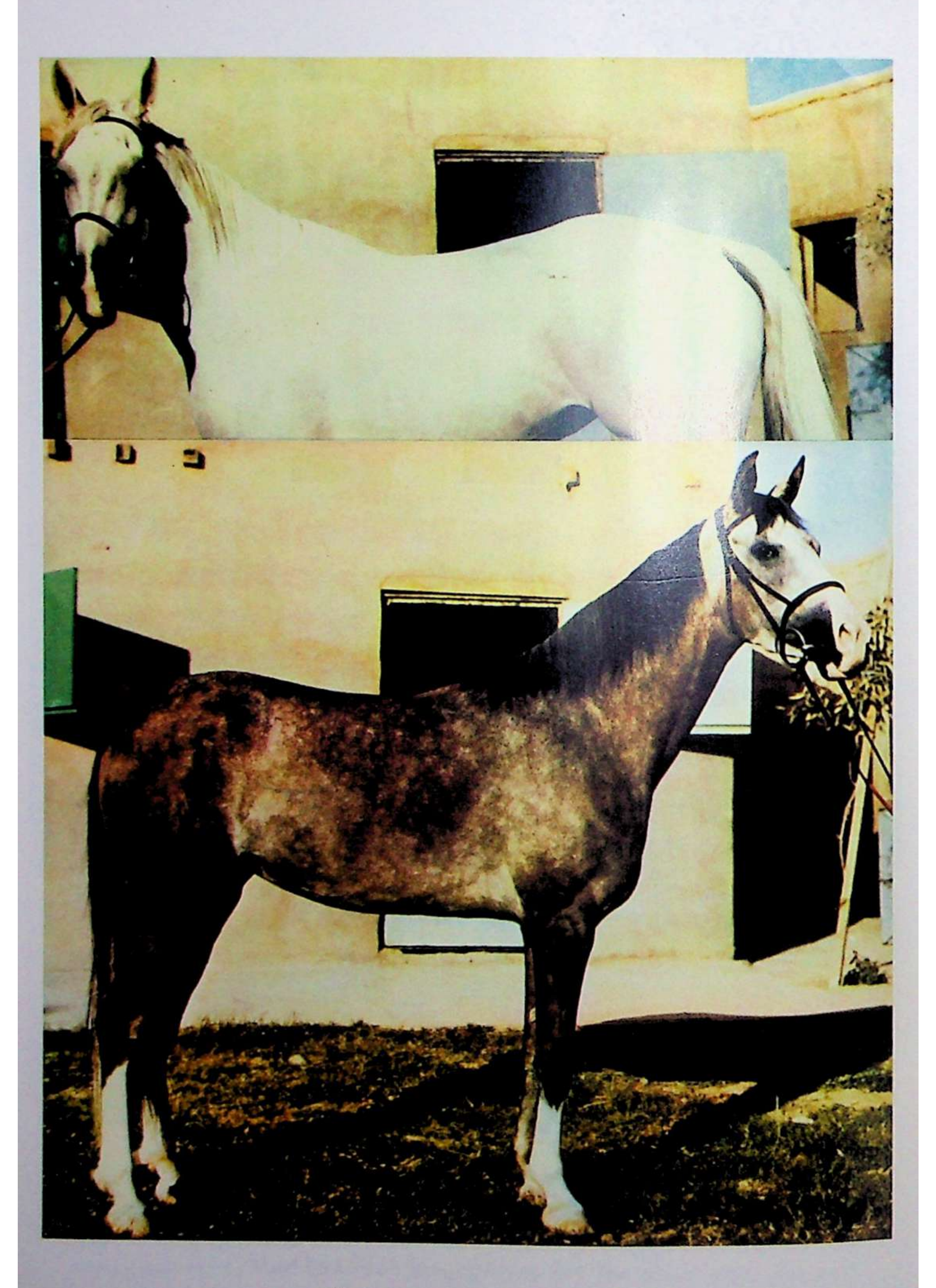
نماذج من خطوط القرآن

فوق: (الى اليمين) مطلع سورة العلق
القرن الرابع عشرم. - القاهرة
(الى اليسار) مطلع سورة الفتح
القرن الثامن عشر م. مراكش
تحت: (الى اليمين) مطلع سورة الضحى
القرن الرابع عشرم. القاهرة

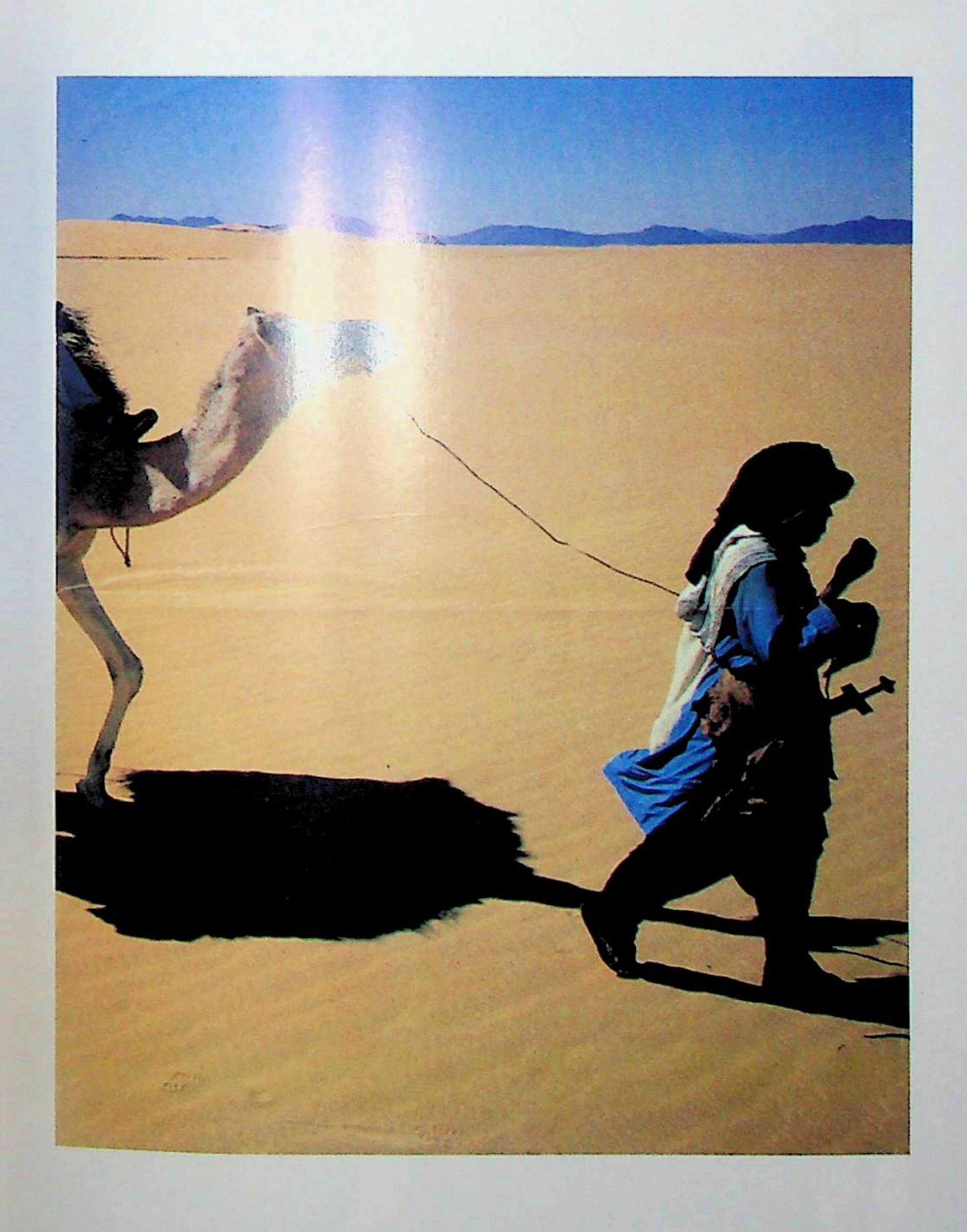
(نسخ موجودة في المتحف البريطاني)



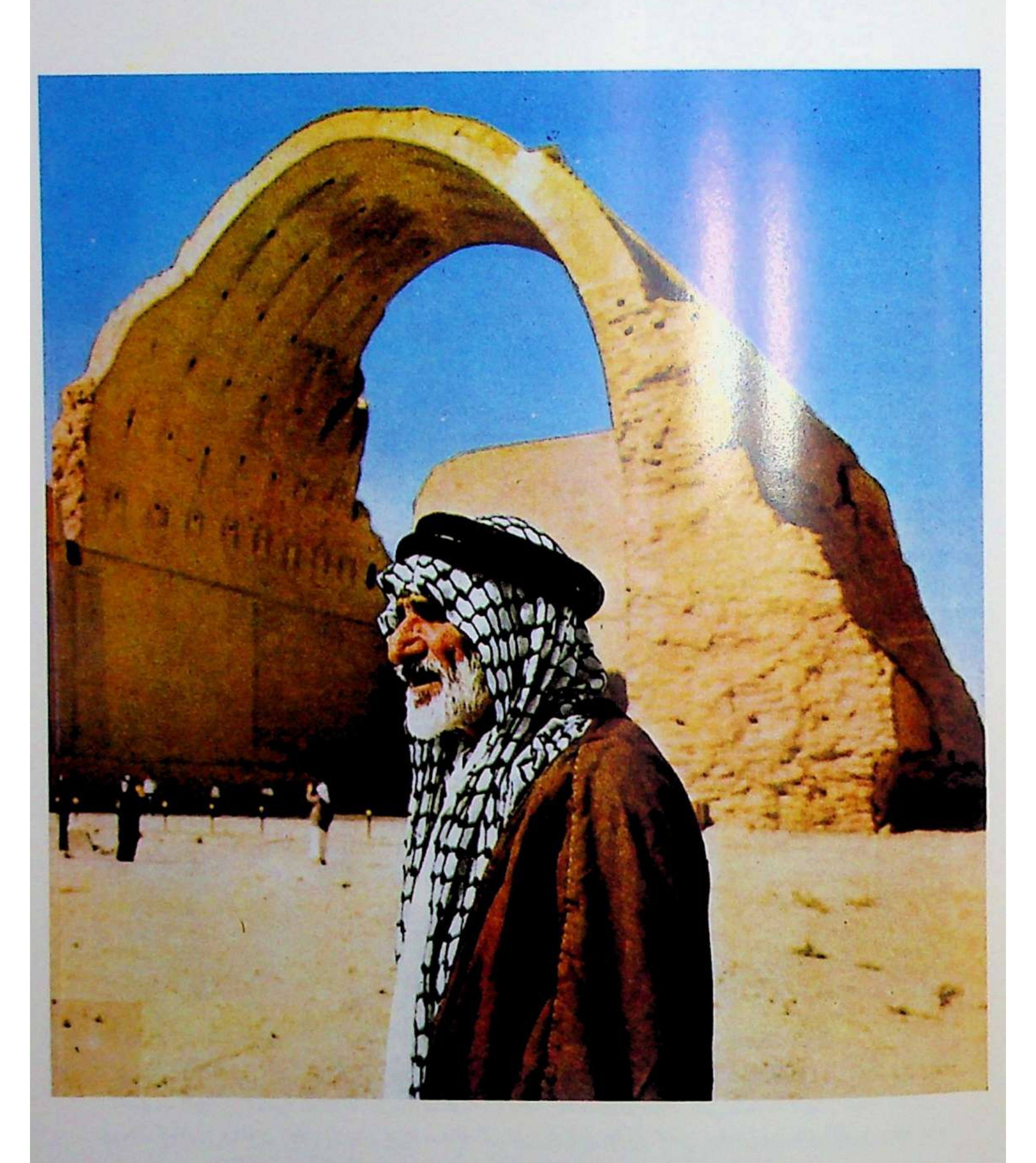
جلسة بدوية لاحتساء القهوة في صحراء الربع الخالي بالمملكة العربية السعودية



خيول عربية من رسن بني صخر في الأردن



بدوي يقود جملاً في الصحراء الأفريقية الكبرى. وقديماً لقب الجمل «سفينة الصحراء»
وارتبط اسمه بالتراث العربي منذ أكثر من ثلاثة آلاف سنة.



«طاق كسرى»، وهو الأثر الباقي من الإيوان الساساني الشهير في «المدائن» على بعد حوالي ١٠ كلم. من بغداد. ويعتبر هذا القوس أعظم شاهد أثري بني بالآجر في العالم، حيث يبلغ ارتفاعه ٣٧ متراً، وعرضه ٢٦ متراً. وقد انهار الجانب الأيمن منه إثر فيضان عارم سنة ١٨٨٧م. وتداركت مصلحة الآثار العراقية هذا الجانب الأيسر الباقي بدعائم الاسمنت سنة ١٩٤٠م. وكان الإيوان معجزة عمرانية فنيّة رائعة. وقد أجاد البحتري وصف تماثيله ورسومه التي شاهدها فيه خلال قصيدته السينية التي مطلعها: «صنت نفسي عمّا يدنس نفسي».



اشتهرت البوادي النجدية بتقاليدها التراثية الشعبية، ومنها رقصة «العرضة» التي يشترك فيها زعماء القبائل ورجال البادية، وأعيان البلاد. ويبدو حاكم منطقة الرياض ووادي حنيفة الأمير سلمان بن عبد العزيز وهو يهمّ بدخول حلبة المتبارين في الصورة أعلاه العائدة الى أواسط القرن الماضي.

النسب قاعدة الحياة القبلية

لكنه بمقدار ما يقع كلام الرسول موقع الاحترام والالتزام في مسألة العلم والتعلّم، يقع العالم الدجّال والواعظ المرتكب للذنوب، الدارب في مسالك الشهوات والسيئات، موقع الاحتقار والاستهجان من نفوس العرب وتقاليدهم. فينسب الى الإمام علي الذي كان يستفظع الكذب والخداع قوله: «**من نصّب نفسه بين الناس عالماً، فليبدأ بتعليم نفسه قبل تعليم غيره، وليكن تأديبه بسيرته قبل تأديبه بلسانه**».

وقد أحسن أحد الشعراء حيث يقول:

يا أيها الرجلُ المعلِّمُ غيرَهُ   هلَّا لنفسِكَ كانَ ذا التعليمُ
لا تَنْهَ عن خلقٍ وتأتي مثله   عارٌ عليك إذا فعلتَ عظيمُ

ومهما يكن من أمر، فإنّ ثمّة علوماً ثلاثة كان لها الأثر البالغ في تكوين شخصية الإنسان العربي منذ الجاهلية الأولى، ولكن مواريثها التقريرية في رسم الأطر المعتمدة للحياة تزايلت تدريجياً عبر توالي الزمن واختلاف الدول والثقافات الشرقية والغربية على المجتمع العربي، خلال قرون. هذه العلوم هي - مع التحفظ المسبق على كونها علوماً بالمعنى الحديث المعاصر لهذه الكلمة - **النسب والأدب والسلوك**.

أمّا فيما يتعلّق بعلم الأنساب، فقد فرضته الظروف الموضوعية في المجتمع القبلي منذ بدء التاريخ. وكان هذا المجتمع المعرّض لاعتداء الآخرين في الصراع القائم بين القبائل

على النجعة ضمن بيئة رهيبة لا تعرف الرحمة أو الغفلة، يتعهد الشك في الطارئين والطارقين من أي جهة أتوا. وكان لا بدّ بالتالي للجماعة القبلية المقيمة في مكانٍ ثري التراب ثرِّ المياه حافظت عليه في الحدثان وحمت ذماره بسيوفها، من التماسك فيما بينها ومعرفة عدوّها من صديقها. الأمر الذي جعل **نظام الأنساب علماً قائماً في ذاته**، خصوصاً **بعد سيل العَرِم** الذي تفسخ معه **سدّ مأرب** وتداعى، فاضطرت القبائل القحطانية اليمنية الى النزوح باتجاه الشمال نحو الحجاز ونجد والشام والعراق، واختلطت بالقبائل العدنانية، فأصبح البدوي بحاجة ماسة الى التعريف بنفسه كي لا يتعرض للطرد أو الانتباذ وحتى القتل إن نزل على قوم بينهم وبين قومه ثارات.

وتنقسم كلّ من العدنانية والقحطانية اللتين تؤلفان الأرومتين الأساسيتين للأنساب العربية، الى قبائل وعشائر وأفخاذ أو فصائل شتى، بحيث يصعب إحصاؤها وترتيبها بالدقة العلمية الوافية، لا سيما وإن مصادر تاريخها مترامية في كتب النسّابة الأقدمين التي كثيراً ما تتداخل في مضامينها الحقيقة والخيال.[١٣٥]

---

(١٣٥) كان أبو بكر الصديق من النسّابين المرجعيين الأوائل الملمّين إلماماً واسعاً بأصول القبائل وأخلاطها لكنه لم يترك أثراً مكتوباً في علم النسب. أمّا الذين ألفوا في هذا الموضوع الشائك واعتمدناهم في هذا الفصل من بحثنا، فمنهم هشام بن محمد بن السايب الكلبي المتوفي سنة ٢٠٦هـ. صاحب كتاب «جمهرة النسب»، ومصعب بن عبدالله المتوفي سنة ٢٣٦هـ. صاحب كتاب «نسب قريش»، وابن حزم المتوفي سنة ٤٥٦هـ. صاحب كتاب «جمهرة أنساب العرب».

وتنتسب القبائل القحطانية التي يصفونها بالعاربة العرباء، الى قحطان بن هود بن عابر بن شالخ بن أَرفَخْشَذ بن سام بن نوح، وكانت منازل هؤلاء في الحجاز منذ الألف الثالث قبل الميلاد، فلما سقط ملك العرب البائدة، دخلوا بلاد اليمن الغنية بقيادة قحطان بن هود بن عابر واستوطنوها. وهود هو من أنبياء الله، على ما جاء في القرآن.(١٣٦) يقول الشاعر القحطاني:

أبونا نبيُّ الله هودُ بنُ عابرٍ فنحنُ بنو هودَ النبيِّ المطهَّرِ

ويذهب المفسّرون والمؤرخون القدامى الى أن قوم هود الأوائل كانوا من اليهود، وأن ما أصابهم من مذمّة في القرآن هو في الواقع ذمّ لليهود. **أما قحطان فهو يقطان في التوراة**، الأمر الذي حدا بالعديد من الباحثين والمستشرقين فيما بعد الى **نسبة العبرانيين الى عابر جدّ قحطان المباشر**، ومنه الى سام بن نوح.(١٣٧)

أمّا العدنانية، فهم **بنو إسماعيل بن إبراهيم الخليل**، ويرقى نسبهم أيضاً من إبراهيم الى سام بن نوح، كما يتصل بنسب

---

(١٣٦) ﴿والى عادٍ أخاهُم هوداً قال يا قوم اعبُدوا اللهَ ما لكم من إله غيرُه إنْ أنتُم إلّا مُفتَرون﴾ ﴿قالوا يا هودُ ما جِئتنا بِبَيِّنَةٍ وما نحنُ بِتاركي آلهتِنا عن قولِكَ وما نحن لكَ بمؤمنين﴾ - سورة هود ــ ٥٠ و ٥٣.

وفي بعض السور القرآنية (البقرة، النساء، المائدة، الأنعام، الشعراء، الأعراف، النحل، الحج، والجمعة، وغيرها) غضب من الله على من أخلفوا عهد هود من قومه وأصحابه.

(١٣٧) يرى فريق آخر من الباحثين أن اسم العبرانيين عائد الى العبور من فعل «عَبَرَ»، يوم عبروا بحر القلزم من أرض فرعون الى أرض كنعان.

القحطانية على ما يذهب اليه بعض النسّابين إذ يقولون أن عدنان الذي تعود اليه القبائل العدنانية برمتها، **هو ابن أُدُد بن مقوَّم، بن ناحور، بن يَتْرَح، بن يَشْجُب، بن يَعْرُب، بن قحطان.**

ويقول السيوطي في كتاب «الدُرّ المنثور في التفسير بالمأثور» أن إبراهيم الخليل عندما دخل مكّة نزل على جُرْهُم الثانية سدنة البيت قبل الهجرة بأكثر من ألفي سنة، وهم من بني قحطان وكان ابنه إسماعيل لا يتجاوز الرابعة عشرة من عمره، وقد تعلم العربية منهم، ثمّ تزوّج امرأة من جُرْهُم ولدت له اثني عشر ولداً وصارت مفاتيح البيت الى بني إسماعيل.

وبالاستناد الى هذه الخطوط الرئيسية لأنساب العرب ممّا توافقت عليه معظم النصوص التاريخية القديمة، يتضح للباحثين عمق التداخل الجذري بين العرب والعبرانيين، وهو ما تفصّله شجرة الأصول السامية الأولى المرفقة بهذا النصّ. (١٣٨)

---

(١٣٨) يختلف اليهود العبرانيون المعروفون اليوم بالسفرديم، عن اليهود الخَزَريّين المعروفين بالإشكيناز والذين يؤلفون السواد الأعظم من شعب دولة إسرائيل وحكامها. وكان الخَزَر يسكنون الأراضي الواقعة شمالي وشرقي بحر قزوين الذي يسمّيه المؤرخون العرب «بحر الخزر»، وهم من السلالة الآرية التي لا علاقة لها بالسامية، وقد اعتنقوا الديانة اليهودية في القرن الخامس الميلادي حسبما يقول المؤرخ «آرثر كوستلر» (Arthur Kœstler) اليهودي الذي كذبه وكفره الصهاينة، في كتابه «القبيلة الثالثة عشرة»، وهو يقصد أولئك الخزر الذين يختلفون أصلاً عن العبرانيين الأوائل من ولد عابر بن شالخ بن سام بن نوح أنسباء العرب، وقبائلهم إثنا عشر سبطاً في التوراة. (راجع «مفكّرة الأيام» - تأليف رفيق المعلوف ـ الجزء الثالث ـ صفحة ٢٩١.)

في أنساب العرب العاربة القحطانية

ونعود الى الشعبتين الأساسيتين في أنساب العرب، فنعدّد هنا أهم القبائل القحطانية المتحدرة من صلب **قحطان بن هود بن عابر** الذي كان **أول من اعتمر التاج من ملوك اليمن** وأول من سلّم الناس عليه بعبارة «**أَبَيْتَ اللَعْن**». وقد ولد لقحطان عشرة أبناء على ما يقول البيهقي أهمُّهم أربعة: يَعْرُبُ بن قحطان الذي خلف أباه على اليمن وهو من أعظم الملوك الذين حكموها، وعادُ بن قحطان الذي ملك الحُجر، وحضرمَوْت بن قحطان صاحب حضرمَوْت، وعُمان بن قحطان الذي كان نصيبه بلاد عُمان.

ثم إن يَعْرُب ولد يَشْجُب الذي ولد عبد شمس، وهو والد سبأ باني مدينة سبأ وسدّ مأرب. ومن أبناء سبأ حِمْيَر وكهلان جدّا القبيلتين العظيمتين، وزيدان ونجران صاحب مدينة نجران. ويتحدر من سبأ الصَعب بن الرائش وهو يلقّب «ذو القرنين»، ويخلط بعض المؤرخين بينه وبين الإسكندر المقدوني، وأَبْرَهَة بن الصَعب الذي لقّب «أبو المنار» لأنه أول من وضع اللّافتات وأقامَ المعالم على الطرق في مملكته لإرشاد المسافرين، ثم عمر «ذو الإذعار» الذي سمّي بذلك لأنه كان شديد البأس يذعر الناس عند مروره فيفرّون مذعورين، **وهو والد تُبَّع العظيم الذي أسس ملك التبابعة**، فامتدت فتوحهم من الهند وفارس الى أقاصي المغرب، وبعضهم سلك بعيداً في «بحر الظلمات»

في قبائل حِمْيَر

نبدأ بشجرة الأنساب القحطانية وأهمها حِمْيَر التي أنجبت قَضاعة بن مالك بن حمير بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان وهؤلاء توجّهوا أساساً الى الشام، ومنهم تنوخ وكِنانة الكبرى وبنو عُذرة.

ومن عذرة تفرعت كاهل رهط **عُروة صاحب عفراء**، وكِنانة عذرة، وأرضهم نجد، ومن قضاعة أيضاً بنو وَبْرَة وبنو كعب وبنو كلب وهَمَدان والخَزْرَج وبنو ثور وتغلب، ومن عذرة كذلك بنو عامر وبنو عَوْف وبَكْر وأبو عُبَيْد، **ومنهم ليلى أمّ عبد الملك بن مروان.**

ولكنانة عذرة بطون وأفخاذ لا تحصى، أهمها تنوخية، وبنو حرب وجُهينة وعُتيبة ومنهم المُعَيْدي الذي كان دميمَ الخِلْقَة، وقد أتى النعمان بن المنذر فقال هذا عندما رآه: «**تسمَعُ بالمُعَيْديّ خير من أن تراه**» فذهبت مثلاً، وأجاب المعيدي: أَبَيْتَ اللّعن أيها الملك. **المرء بأصغريه قلبه ولسانه** وليس بمظهره.

قبائل حَضرمَوْت

تضمّ بني أسلَم بن زيد بن مالك بن زيد بن حضرمَوْت، الذين اشتركوا مع **عمرو بن العاص في فتح مصر**، ومعظم قبائل حضرموت دخلت في كندة وخدمت ملوكها، ومنها من وصلت غزواتها الى الصين، وأشهر قادتهم عمر بن الأشنب وابنه الأزجّ، ومِرْفَد ومروان وذو قَيْعان وذو عيل الذي أدخل الحرير والديباج

الى اليمن. ومن حضرمَوْت وائل بن حُجْر الذي ينسب اليه **العلّامة ابن خلدون**.

بنو جُرْهُم

يعرب بن قحطان الذي حكم اليمن بعد أبيه ولّى أخاه جُرْهُم على الحجاز، فأقام فيه نسله، وسكنوا مكة، ومن ملوكهم بعد جرهم عبد ياليل، ثم المدان وابنه بديلة، ثم عبد المسيح وابنه مُضان، ثم عمر وأخوه ليث بن الحارث، وقد تواصل حكمهم لمكّة **حتى دخلها إسماعيل بن إبراهيم** وتزوّج منهم. وبعد سيل العَرِم ونزوح معظم القحطانية اليمنية عن اليمن بسبب انهيار سدّ مأرب، أخرجت خَزاعة جُرْهُم من مكّة واستولت على الحرم.

قبائل كهلان

نشأت بين حِمْيَر وكهلان ابنيّ سبأ علائق منسقة ممتازة. ففيما كانت صنعاء عاصمة حِمْيَر وقاعدة ملكها، كان بنو كهلان يؤلفون الجند والغزاة فيحرسون التخوم ويوسعون ممتلكات حِمْيَر. أمّا قبائلهم، فأهمها طيّ ومَذْحِجْ من أُدُد بن كهلان وبنو عمر بن زيد بن كهلان رهط النبي شعَيْب، ومن كهلان أيضاً بُجَيْلة وخَثْعَم.

وكان **عمرو بن عامر الأزدي** أعظم ساداتها وقد سمي «**صاحب السدّ**» في كتب المؤرّخين، وقيل إنه عمّر أكثر من أربعمائة سنة. وهو أول من أوصى بنيه بالقول: «**لا تأتي نعمة إلّا بذهاب أخرى**» فذهبت مثلاً. وكان عمرو بن عامر يعرف أنّ سدّ مأرب متفسّخ في بعض أساسه ممّا يخفى على عامة الناس، فباع



أملاكه المحيطة به بنصف أثمانها، وغادر اليمن مع بنيه الذين انتشرت أخلافهم في العراق (بنو جُزَيْمَة بن الوضّاح)، وفي الشام (بنو جَفْنَة الغسّاني)، وفي المدينة (بنو الأَوْسِ والخَزْرَجِ) وفي مكّة (بنو خَزاعة)، وفي السراة (بنو بُجَيْلَة). وأشهر هؤلاءَ أبناء جفنةَ الغساسنة النصارى (جدّتهم مارية زوجة ثعلبة بن عمر وبنت شمّر يهرعش ملك حِمْيَر.) ومن ملوكهم عمر بن الحارث الأكبر وعمر بن هند المُحْرِق، وقد سمي كذلك لإحراقه مئتين من تميم يعرفون بالبراجم. ويقال إن **السمؤال بن عادياء** كان من الغساسنة ولكن على دين اليهود. وعرف ملوك الغساسنة بالبطش والإدارة الحازمة، وكانوا حلفاء البيزنطيين، وقد مدحهم في الجاهلية حسّان بن ثابت شاعر الرسول. ولآخر ملوكهم **جَبْلَة بن الأَيْهَم** قصة مشهورة مع **الخليفة عمر بن الخطاب**، حيث جاء مكة يعتمر وهو راغب في دخول الإسلام، فداس بدوي على طيلسانه خلال طوافه بالحرم، فجدع أنفه بالسيف! وشكا البدوي أمره الى الفاروق الذي دعا جبلة وقال له: لقد سوّى الإسلام بينك وبين هذا الرجل، وعليك أن ترضيه وإلّا حقّ له أن يفعل بك ما فعلت به! قال جبلة: أنا ملك غسّان وصاحب مئة ألف سيف، وتريد أن يجدع هذا البدوي أنفي؟ قال عمر: كنت ملكاً في الجاهلية. أمّا وقد دخلت الإسلام فأنت لا تفضل أحداً إلّا بالعدل والتقوى! عندها عرض جبلة على البدوي مالاً فأبى إلّا أن يجدع أنفه. وكان عمر من الحكمة والدهاء السياسي بحيث أفتى بأن يكتفي البدوي بتوجيه صفعة الى الملك لكي لا يرتد جبلة عن الإسلام وهو بحاجة في تلك المرحلة الى الغساسنة وسيوفهم. لكن جبلة

رفض، وغادر المدينة مع حاشيته الى الشام تحت جنح الظلام، ويبدو أنّ الفاروق غضّ النظر عن ذلك الفرار للأسباب السياسية نفسها. ويقول المؤرخون أن ابنَ الأَيْهَم نفر بعد تلك الحادثة، ولجأ الى القسطنطينية حيث أقام حتى وفاته في أسوأ حال من الحسرة والندم والحنين الى قومه وبلاده، وفي ذلك يقول:

تَنصَّرَتِ الأشرافُ من عارِ لَطمةٍ   وما كانَ فيها لو صبرْتُ لها ضَرَرْ
تَكنَّفَني فيها لَجاجٌ ونخوَةٌ   وبعتُ بها العينَ الصَحيحَة بالعَوَرْ
فيا ليتَ أمّي لم تلدني وليتني   رجعتُ الى القولِ الذي قاله عُمَرْ
ويا ليتني أرعى المِخاضَ بقفرة   وكنتُ أسيراً في ربيعةَ أو مُضَرْ
ويا ليت لي بالشام أدنى مَعيشةٍ   أُجالس قومي فاقدَ السمعِ والبَصَرْ

وعلى صعيد آخر تُنسب الأَوْس والخَزْرَج وخَزَاعة الى الأَزْد، وهو الأَزْد بن الغوث بن مالك بن زيد بن كهلان. ومن بطون الأزد أيضاً بنو الحارث رهط **الشنفرى الصعلوك** الشاعر، وبنو مازن، وبنو عَمران رهط **يزيد بن المهلّب**، وقبائل غامد وزهران وزهوان. وتنتسب الدواسر الى وداعة بن عمرو بن عامر الأَزْدي «صاحب السدّ» الآنف الذكر، ومن أنمار أخي الأزد تنحدر بُجَيْلَة وفيها **الشاعر جرير والشاعر خَثْعَم بن الدُمَيْنَة**.

في نسب طيّ

هو طيّ بن أُدُد بن زيد بن يشجب بن عَريب بن أُدُد بن زيد بن كهلان. وطيّ أخو مَذْحِج وأَشعَر ومُرَّة، من القبائل القحطانية الأولى. وقد انتشرت طيّ في نجد بين جبلَيْ أَجأُ وسُلمى.

وتنقسم طيّ الى قبيلتين: جَديلة والغَوْث، ومنها بنو جُذَيمة وبنو نبهان وبنو نائل قوم **زيد الخيل الطائي** الفارس الأسطوري. ومنها كذلك بنو ثَعْل قوم **حاتم بن عَدِيّ** سيّد أجواد العرب، وآل شُمَّر وآل الشعلان. وينتمي الشاعران **البحتري وأبو تمّام** الى طيّ، ومنها بنو وائل وأشهرهم عَدِيّ بن وائل الذي مدحه امرؤ القيس، وبنو ذُهْل بن دَرْمان والثعالبة.

ولآم أحد بطون طيّ، ومنهم **أَوْسُ بن خالد** بن حارثة بن لآم الذي كان يضاهي حاتم في الجود. وينتسب الى طيّ الشاعر **صفي الدين الحلّي** صاحب القصيدة الشهيرة التي يفتخر فيها بقومه يوم انتصروا على التتر في إحدى معارك العراق، وهي القصيدة التي مطلعها

سَلِ الرماحَ العوالي عن معالينا واستَشْهِدِ البيضَ هل خابَ الرجا فينا

وفيها يقول:

إنَّ الزَرازيرَ لمّا قام قائِمُها توهّمَتْ أنها صارت شواهينا

بيضٌ صنائِعُنا خضرٌ مرابعُنا سودٌ وقائِعُنا حمرٌ مواضينا

ومن بطون طيّ عشائر المُغيرة وغَزِيَّة وربيعة طي، ومنازلهم في الشام ونجد.

قبائل لَخْم

هو لَخْم بن مالك بن عَدِيّ بن الحارث بن مرّة بن أُدُد بن زيد بن كهلان. ومنهم جُذَيمة الأبرش الذي قتلته الزبّاء أو زنّوبيا صاحبة تدمر، ومن جُذام أخي لَخْم تحدّر زيد بن جذام، وبنو

عُتَيْبة، وشَيْبان، وبنو نائل، ومطِر، وصَخر، والأَساوِرَة واليعاقبة والنجايِبَة، وبنو لُؤَيّ وداود وعبيدة، وفيهم المناذرة ملوك الحيرة وآخرهم **النعمان بن المنذر**.

وقد عرف اللّخميون بولائهم للفرس الساسانيين، على أنّهم كانوا من النصارى، وكان بينهم وبين أبناء عمومتهم الغساسنة عداوة ناشئة عن انتماء هؤلاء الى البيزنطيين أعداء الفرس. وجرت بينهم وبين الغساسنة حروب، أهمها وقعة «جَديلة» التي انتصر فيها **الحارث بن جَبْلة الغساني** في منتصف القرن السادس الميلادي، وكان يوستنيانوس قيصر قد عين الحارث والياً على بلاد الشام المتاخمة لجزيرة العرب سنة **٥٢٩** ميلادية.

ملوك كِنْدَة

هو ثور بن الرفيع بن نَبْت بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ، المعروف بكندة، وابنه معاوية جدّ الملوك الكنديين المتوّجين، وفيهم الحُجْر بن الحارث الملقّب «بآكل المرار» ابن عمر، والمقصور جدّ حُجر والد **إمرئ القيس الشاعر**، وزوج فاطمة بنت ربيعة **أخت كُلَيْب وائل ومهلهل** ربيعة التغلبيَّيْن.

وكان الكنديون الذين حكموا في القرن الرابع والخامس الميلادي ذوي بأس وشدّة وثقافة عالية، ويعتبرهم بعض المؤرّخين من النصارى ويقول آخرون إنهم من اليهود. وينسب عدد من كبار الفلاسفة والفقهاء والشعراء في الإسلام الى كندة، ومنهم الفيلسوف الشهير أبو يوسف **يعقوب الكندي** الذي برع في القرن

التاسع الميلادي (الثاني للهجرة) في الرياضيات والمنطق والطبيعيات والفلك والموسيقى وله مؤلفات عديدة في هذه المواضيع كافة، ومنهم المتنبي الشاعر وغيره من أعلام الحضارة الإسلامية.

قبائل هَمَدان

هو هَمَدان بن وائلة بن مالك بن وائلة بن ربيعة بن زيد بن كهلان بن سبأ. ومن فروعه بنو بشام، وسبيع، وبنو سُوَيْلم، وجبر، وشمس، وبَكيل، والوهيبَة، والدروع، وغيرهم في نجد والعراق والحجاز.

في أنساب العرب العدنانيّة المستعربة

تعود العرب العدنانيّة جمعاء الى **إسماعيل بن إبراهيم** الذي يرقى بنسبه الى سام بن نوح. ويتحدر عدنان مباشرة من إسماعيل، وتتحدر العدنانية جمعاء من نزار بن مِعَدّ بن عدنان، وهي أربعة فروع: مُضَر، وربيعة، وإِياد، وأَنمار.

ومن مضر تحدرت معظم القبائل العدنانية **وأهمها قريش**. وأوّلها إلياس بن مُضَر، وقيس عَيْلان بن مُضَر، وبنو مَدْرَكة بن الياس وبنو أسد.

ومن هؤلاء النَضر بن كِنانة، ومالك بن النَضر، وفِهْر بن

مالك بن النَضر بن كِنانة، ومنه قريش وفروعها.

وقد انتشر العدنانيون في بوادي نجد بأجمعها لا يشاركهم فيها من القحطانية إلّا قبائل طيّ العائدة الى كهلان بن سبأ، وعرفوا بالبداوة ما عدا قريش التي استوطنت مكة ومحيطها، واستطاعت بحكم موقعها على طريق القوافل بين العوالم القديمة أن تنمو وتزدهر حتى أصبحت دولة اقتصادية عظمى في القرون التي سبقت الإسلام مباشرة.

وفي الأنساب أن من قريش بطوناً تفوق العشرين، أهمها فروع هاشم، والمطّلِب، ونَوْفَل، وعبد شمس، وبنو عبد مناف بن قُصَيّ بن كلاب، وبنو عبد الدار، وبنو أسد بن عبد العُزّى، ومن عبد مناف بنو زَهرة بن كِلاب أخي قُصَيّ، وبنو تَيّم ومخزوم بن يَقْظَة أخوي كلاب بن مُرَّة بن كعب، وبنو عَدِيّ، وبنو سَهْم، وبنو جُمَح إخوة مُرَّة بن كعب بن لُؤَيّ، وبنو عامر أخي كعب، وهم أبناء لُؤَيّ بن غالب بن فِهْر، وبنو الحارث، وبنو محارب أخي غالب بن فِهْر بن مالك بن النَضر، وبنو تَيّم بن غالب.

- **أمّا نسب الرسول فهو محمّد بن عبد الله بن عبد المطّلب بن هاشم بن عبد مَنَاف بن قُصَيّ بن كِلاب بن مُرَّة بن كعب بن لُؤَيّ بن غالب بن فِهْر بن مالك بن النَضر بن كنانة بن جُزَيْمَة بن مَدْرَكة بن إلياس بن مُضَر بن نزار بن مَعَدّ بن عدنان**
- **وأهمّ القرشيّين في تاريخ الدعوة الإسلامية يندرجون كما يلي:**

١ - **علي بن أبي طالب** أخي عبد الله بن عبد المطّلب بن هاشم والد الرسول. وأمّه فاطمة من بني هاشم. وهو أبو الحسن والحسين وزوج فاطمة الزهراء بنت الرسول. ومن نسل علي وفاطمة زيد بن علي زين العابدين بن الحسين، وينتسب اليه الزيديون في اليمن، ومحمد الباقر وجعفر الصادق الذي يتحدر منه موسى الكاظم وسائر الائمة الجعفريين حتى المهدي من جهة، وإسماعيل الذي يتحدر منه الإسماعيليون والقرامطة والدروز والنصيرية العلوية من جهة ثانية. ومن نسل علي الأدارسة الملوك الذين بنوا مدينة فاس في المغرب، والفاطميون الخلفاء في مصر وغيرهم في الحجاز واليمن والعراق والشام.

٢- **العبّاس بن عبد المطّلب بن هاشم**، ويتحدر منه الخلفاء العبّاسييون، وهم سبعة وثلاثون خليفة حكموا البلاد الإسلامية من **أبي العبّاس الملقّب بالسفّاح** سنة ٧٥٠م. (١٣٢هـ.) الى **المستعصم بالله** الذي حكم بين عامي ١٢٤٢ و ١٢٥٨م. (٦٤٠ - ٦٥٦هـ.)

٣- **أميّة بن عبد شمس بن عبد مناف بن قُصَيّ**، ومنهم يتحدر الخليفة الراشدي عثمان بن عفّان وسائر الخلفاء الأمويين الذين حكموا العالم القديم من سور الصين الى بلاد الأندلس وعمق أوروبا، بدءًا **بمعاوية بن أبي سفيان** وانتهاءً **بإبراهيم بن يزيد الثالث**، أي من ٦٦١م.

الى ٧٤٤م. (٤١ - ١٢٦هـ.) في الشام، وبدءًا **بعبد الرحمن الداخل** الملقّب بصقر قريش، وانتهاء **بعبد الرحمن الخامس المستظهر بالله**، أي من ٧٥٦م. الى ١٠٢٤م. (١٣٨ - ٤١٤هـ.) في الأندلس.

٤- كانت سدانة الكعبة في يد **بني عبد الدار** من قريش وكانت **خديجة زوج النبي وخاله ورقة بن نوفل والزبير بن العوام** من بني أسد بن عبد العُزّى بن قُصَيّ، ومن بني عبد الله بن الزبير بنو بدر وبنو عروة، وأخيراً بنو أميّة.

٥- وينتسب الفاروق **عمر بن الخطّاب** الخليفة الراشدي وأخلافه الى بني عدي بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر، كما ينتسب البكريون من أخلاف الخليفة الراشدي **أبو بكر الصدّيق** الى بني تيّم وبني طلحة من قريش.

٦- ومن قريش **عمرو بن العاص** ونسله في أذرعات بالشام، ومصر، ومن بني محارب بن فهر بن مالك الضحّاك بن قيس الفهري وحبيب بن سلمة، **وضرّار بن الخطّاب** الفارس المغوار وشاعر قريش المجيد. ومن بني الحارث بن فِهْر **أبو عبيدة بن الجرّاح** قائد جيوش الفتح في الشام.

٧- ومن بني مخزوم القرشيين أيضاً **الفاتح خالد بن الوليد**

بن **المغيرة** بن عبدالله بن عمرو بن مخزوم بطل معركة اليرموك، ومنهم **أبو جهل** عدو الرسول، **وسعيد بن مسيّب** التابعي **وآمنة بنت وهب أمّ الرسول**، **وسعد بن أبي وقاص** الصحابي المقدام، **وعبد الرحمن بن عوف** الصحابي وهو من أوائل الذين اعتنقوا الإسلام. وهناك العديد من أخلاف بني مخزوم الى اليوم في الشام خصوصاً وبعضهم في العراق وفلسطين ولبنان.

٨- ومن كنانة قريش، تميم في نجد، ومنهم حَنْظَلَة بن مالك أبو القبائل العديدة والبطون التي يصعب إحصاؤها، وبنو دارم، ويربوع، وثعلبة بن العنبر، وبنو عبيد بن مُقاعس، وسلامة بن جَنْدَل، ومنهم الصعلوك الفارس الشهير **السَليك بن السُلكة**. ومن قيس عيلان بن مضر بن نزار بن معدّ بن عدنان بنو عبس الأشاوس وفارسهم **عنترة بن شدّاد**.

(راجع شجرة أنساب العرب منذ الجاهلية الأولى وحتى ظهور الإسلام، المرفقة بهذا الفصل.)

علم ينفع وجهالة تضرّ!..

إلحاقاً بهذه الرحلة السريعة المتشعّبة في غابة الأنساب العربية، نعود الى التركيز على حقيقة ثابتة كانت السبب الرئيسي لاهتمام العرب بالنسب، وهي معرفة أصول الطارق ليلاً والطارئ


مكتبة العولقي
— شبوة اليمن —

في أي مكان أو زمان على حيّ من الأحياء العربية المتناثرة في الصحراء اللّامتناهية، اتّقاء لعبث العابثين وأهداف الطامعين، إلّا إذا كان الوافد الغريب نفسه لا يعرف الذين وفد عليهم من مثل ما ذكره الشيخ عبد الله العلايلي نقلاً عن الأصفهاني وابن قتيبة، حيث روى أن رجلاً صادف جماعة في بعض الأنحاء خلال توتّر سياسي بين العدنانية والقحطانية، فسألوه عن نسبه، أهو قحطاني أم عدناني، فخاف إن هو قال إنه عدناني وكانوا من قحطان أن يقتلوه، أو قال خلاف ذلك وكانت النتيجة واحدة... فاحتال بالقول تخلصاً من الحرج أنه وُلد سِفاحاً ولا يعرف الى من ينتسب!!(١٣٩)

وعلى أن النسب الى الأب هو الذي يشكل العمود الفقري لهوية الإنسان العربي، إلّا أنّ نسب الأمّ كان يؤخذ بعين الاعتبار الى حدّ بعيد إذا كانت من قبيلة مرهوبة. ولكن العرب اعتمدوا الأبوّة في أنسابهم **واعتبروا عربياً من كان أبوه عربياً وليس أمّه**، وذلك خلافاً لليهود الذين ما برحوا الى اليوم يتجادلون في هوية اليهودي، هل هو ابن اليهودي أم ابن اليهودية، بالرغم من أن الحاخامين الكبار في دولة إسرائيل **قد أفتوا منذ العام ١٩٦٩ بأن اليهودي هو ابن اليهودية**، فالواقع أنّ الظروف التي نشأت عن حياة اليهود في الشتات دفعت بهم في مراحل شتّى الى تزويج بناتهم بغير اليهود طلباً للسيطرة السياسية والمادية أو حماية لأنفسهم من

(١٣٩) الشيخ عبد الله العلايلي: «مقدّمات لفهم التاريخ العربي» ص ـ ١٥ ـ دار الجديد ـ بيروت ـ ١٩٩٤.

الاضطهاد والتنكيل من جهة، واقتناعاً من جهة ثانية بأن للأمّ دوراً مركزياً أساسياً في تكوين شخصية مولودها على أسس من التربية الثقافية والخلقية تعزّز انتماءه بالروح أكثر من انتمائه بالدم.

ولا شكّ في أنّ النسب الذكوري العربي، **كان سليماً صحيحاً في الأزمنة الغابرة**، يوم كانت النساء عرضة للسبي في البوادي، وكثيراً ما يلدن سفاحاً غِبَّ تسليمهن بالاغتصاب والارتكاب طلباً للسلامة. ولكن المسألة اختلفت كلياً بعد الفتح الإسلامي وانتشار العرب في الأقطار والأمصار الشرقية والغربية وازدهار تجارة النخّاسين الذين اتخموا أسواق الجواري بالسبايا من كلّ جنس ولون، فامتلأت بيوت الأسياد بهن يُعرضن على العرب أحياناً بأبخس الأثمان، وهو ما ذكرناه في موضع سابق من بحثنا. وممّا ساعد تدفق هذا الرقيق الأنثوي على العرب، **السماح بتعدّد الزوجات**، وما نتج عنه من بدع وطرائق ليست من الإسلام في شيء، تسمح بشراء اللذة لآجال معيّنة مقابل مبلغ من المال، وما الى ذلك من وسائل اجتلاب الشهوات بالحيلة التي ألبسها بعض المجتهدين المخرّبين صفة شرعية باطلة. وقد تفاقم هذا الوضع الشاذ الى درجة تفوق أي تصوّر **مع ظهور الطفرة المالية العربية** منذ منتصف القرن العشرين، فبات النسب الذكوري العربي بأسره مهدّداً، اللّهم إلّا في بيوت الشرفاء الكاظمين أو الفقراء المؤمنين المعدمين، وبات الكثيرون من أبناء العائلات العربية الثرية مواليد **أمّهات يهوديات** يدخلن البيوت بأسماء فرنجية أو ألمانية أو روسية أو أميركية الخ... فيعتبر أولادهن يهوداً في نظر إسرائيل، وهم

يحملون أسماء عربية إسلامية نسبة الى آباء عطّلت فيهم نزوات الشبق المهلكة حيوية الإنجاب!!

ولكننا نحمد الله في أي حال على أن الكثرة الساحقة من هذه الأمّة لا تزال منيعة، **بفضل قلة مواردها وليس قوة إرادتها**، وهي تقف صامدة في هذا المنعطف الخطير من طريق العولمة التي تخلط دماء البشر، فضلاً عن سحقها لوجودهم القومي وتجهيلها ثقافاتهم المتنوعة، وتوحيدها أذواقهم، ثمّ حشرها أرواحهم في جسد اصطناعي محنّط... **فهنالك وعي متزايد لأهمية العائلة في** المجتمع العربي الجديد، وعودة اضطرارية الى الأصول، وتشبّث غريزي بأوتادها الراسخة في الدهرية، رغم العواصف الهوج وتشابك المسوخ الشوه في رواق ما يسمّى بالحضارة في عصر المهازل والمآسي.

وحتى في هذه المرحلة المتقدمة من اعتماد المواصفات الشخصية الذاتية للإنسان قاعدة أساسية في التعامل معه... يخطئ من يعتقد أن معرفة النسب المتعلق بالإنسان العربي الفرد، ولو بمقدار محدود، «**معرفة لا تنفع وجهالة لا تضرّ**»، كما يتبادر الى بعض الأذهان انطلاقاً من هذه المقولة التي **عملت «الشعوبية»** منذ العصور الإسلامية الأولى كما سلف وذكرنا في موضع آخر، على ترسيخها في المجتمع العربي بحيث يسهم دون أن يدري في تجهيل أصوله وتحويل شخصيته الى رقم عقيم في كتاب العولمة الهادفة الى تدمير تراثه ومحو آثاره وتطبيع ذاته تطبيعاً آخر طيّعاً استسلامياً فارغاً.

وعلى أن هذا الاحتساب التقليدي للنسب في المجتمعات العربية المعاصرة يخسر يوماً بعد يوم من حماسة الأجيال الجديدة واهتمامها، إلّا أنّه يتمثل بقصد أو بغير قصد، في تعهّد «**سلوك معيّن» لا محيد عنه** في نوازع النفس العربية. فالبرغم من المحاولات التي استندت الى ادوات النفوذ المادية والمعنوية المعادية الهائلة، التي استهدفت تحويل التنافر بين الزعماء العرب والشعوب العربية، الى حروب فعلية انطلاقاً من تضارب المصالح وتباين الأنظمة وحتى محاولات الاغتيال والإلغاء والتكفير والتنكيل والافتراء المتبادلة على صعيد الحكام ورعاياهم. . .

بالرغم من كلّ تلك المحاولات، **لا يزال الملك عبد الله بن عبد العزيز**، على سبيل المثال، قابلاً للصفح عاجلاً أم آجلاً عن **العقيد معمّر القذافي** الذي حاول قتله، مثلما كان قادراً في قمة بيروت سنة **٢٠٠٢** على **معانقة عزّة إبراهيم الدوري** نائب الرئيس صدّام حسين الذي اعتدى بجيشه على المملكة العربية السعودية بعد اجتياحه الكويت. وقس على ذلك في استحالة إضرام «حرب أهلية» بين الفلسطينيين أو حتى بين العراقيين الذين قضى منهم مئات الألوف بالتناحر الفوضوي المفتعل، أو قيام حرب على الصحراء الغربية بين المغرب والجزائر، أو حرب على الهوية الوطنية ومفاهيم الحرية والاستقلال بين سوريا ولبنان، الى آخر ما هنالك من خلافات لم تتعدّ أسلوب المفاخرات القبلية بين هذا النظام العربي وذاك، الى منزلق الفتن والحروب الأهلية الحقيقية.

لذلك يمكن القول إن الصهيونية التي استطاعت في أقل من

خمسين عاماً كما يؤمن العديد من المؤرخين الجدّيين، أن تبتلي أوروبا بحربين عالميتين لتيسير قبول اليهود في المجتمع الإنساني، وتأمين سيطرتهم المطلقة على المنقلب الغربي من العالم المعاصر بما فيه الولايات المتحدة الأميركية... هذه الصهيونية لم تتمكن رغم كلّ ما سخّر لها حلفاؤها الأوروبيون والأميركيون من سلاح متطوّر وتقنيات متفوقة ودعم اقتصادي ومالي سخيّ متواصل، أن تلقي مراسيها بعد أكثر من قرن في مرفأ عربي سالم آمن، أو تخرج من الرمال العربية المتحركة، أو تمحو على الأقلّ من أعماق النفس العربية المتصالحة مع التسليم الغبي للمجهول المتغابي، صفة «الكيان الغاصب» و«الدولة المزعومة».(١٤٠)

في الأدب الذي يغني عن النسب

أمّا على صعيد «الأدب»، وهو ما نسمّيه جوازاً «علم التعبير»، تمييزاً له عن «علم الكلام» الذي يتعلق بتفسير كلام الله دينياً وفلسفياً، ويوازي علم اللّاهوت المسيحي في الدفاع عن المعاني الروحية للنصوص والشرائع الإلهية على صعيد نظري

(١٤٠) بدأ تنفيذ المخطّط الصهيوني لاحتلال فلسطين وإقامة دولة إسرائيل، في مؤتمر بازل الذي عقده حكماء صهيون سنة ١٨٩٧ في سويسرا بمبادرة من تيودور هرتزل مؤسس الحركة الصهيونية وبعد صدور كتابه «الدولة اليهودية» بسنة واحدة عام ١٨٩٦. وهكذا يكون قد مرّ على بدء العمل الصهيوني المباشر لانتزاع فلسطين، وبالتالي بدء الهجرة اليهودية المنظمة اليها ١٠٩ أعوام حتى الفراغ من تدوين هذا الكتاب. ومع ذلك فإن إسرائيل لم تتقدم خطوة واحدة في التطبيع مع العالم العربي، فيما لم يستغرق إخضاع اوروبا لسيطرتها نصف هذه المدّة في رأي بعض المؤرّخين، وأوقع ضحايا بشرية بالملايين.

منطقي ومنهجي. . . فقد كان - أي الأدب - **ركيزة أساسية للحياة** في المجتمع العربي القديم، وأهمه الشعر. ويختلف هذا **«الأدب التعبيري»** الذي نحن بصدده عن **«الأدب المسلكي»** المتعلق بحسن التصرّف ومكارم الأخلاق، ممّا سنأتي على ذكره لاحقاً.

والحق يقال أنّ أدب التعبير هذا، كان علماً قائماً بذاته في مجتمع قبلي غير مستقر، يعيش تحت ظروف بالغة الخطر والاضطراب لا تدع مجالاً لتدوين الوقائع والحوادث والمناسبات أو تأريخ المآثر والمآسي، وضبط التقويم الزمني الدقيق. . . الأمر الذي جعل الشاعر والخطيب والمتحدّث النابه الحكيم شخصاً مميّزاً يرتب الكلام الموزون المنمّق والمقفّى لتسهيل انطباعه في حافظة القوم وترداده في لقاءاتهم وحواراتهم واجتماعاتهم. وهو ما عناه القول المأثور: **«الشعر ديوان العرب»**، أي إنه المرجع في معرفة أخبار العرب وأيامها، والحديث النبوّي: **«إنّ من البيان سحراً وإنّ من الشعر حُكْماً»**(١٤١) **أي إن صاحب البيان المقنِع يصيب من يستمع اليه بما يشبه السحر حتى ولو كان على غير حق، أمّا الحُكْم بضم الحاء وتسكين الكاف فيقصد به الحكمة كما في الآية: ﴿. . .وآتيناه الحُكْمَ صبياً﴾**(١٤٢) ويعني بالحكم أيضاً العدل والسلطان والقضاء.

ونبدأ **بالخطابة** وهي فاتحة الأدب، فنشير الى أن أولياءها القدماء في عصور الجاهلية لم يتركوا لنا أثراً جديراً بالدراسة

---

(١٤١) أخرجه أبو داود عن ابن عبّاس.

(١٤٢) سورة مريم ــ ١٢ .

والاهتمام، لفقدان التأليف والتدوين التاريخي في تلك الأزمنة. لكن بعض خطبهم وعباراتهم وشعاراتهم رسخت في أذهان الرواة وأصبحت فيما بعد أسلوباً يحتذى في الإنشاء والبلاغة، كعبارة «أمّا بعد» التي كان قس بن ساعدة الايادي أول من نطق بها عند مباشرة الكلام أو الوقفات والفواصل المعنوية في متون النصّ، وهو أحد الخطباء المفوّهين الذين وصلت الينا مقاطع صغيرة من مواعظهم. وله خطبة شهيرة رواها أول الخلفاء الراشدين أبو بكر الصديق الذي لقيه في سوق عكاظ، ويقول فيها: «أيها الناس. اسمعوا وعُوا. وإذا وعيتم فانتفعوا. من عاش مات. وما مضى فات. وكلّ ما هو آتٍ آت. مطر ونبات. وأرزاق وأقوات. وآباء وأمهات. وأحياء وأموات. وجمع وشتات. وآيات بعد آيات. ليل موضوع. وسقف مرفوع. ونجوم تغور. وأراضٍ تمور. وبحور تموج. وتجارة تروج. وضوء وظلام. وبِرٌّ وآثام. إلّا أَن أبلغ العظات. السير في الفلوات. والنظر الى محلّ الأموات. إنّ في السماء لَخبراً. وإنّ في الأرض لَعِبراً. ليل داج. وسماء ذات أبراج. وبحار ذات أمواج. ما لي أرى الناس يذهبون فلا يرجعون؟ أرَضوا بالمقام فأقاموا؟ أم تركوا هناك فناموا!؟»

«يا معشر إياد. أين الأباء والأجداد؟ ألم يكونوا أكثر منكم أموالا؟ وأطول منكم آجالا؟ تلك عظامهم بالية. وبيوتهم خاوية. عمرتها الذئاب العاوية.» الخ... (١٤٣)

---

(١٤٣) الأب لويس شيخو اليسوعي: «شعراء النصرانية قبل الإسلام» - ص ٢١١ ـ دار المشرق ـ بيروت ـ طبعة ١٩٨٦.

ولقس بن ساعدة خطب أخرى وصلت الينا فقرات منها، وهي مليئة بالحكم، يقول في بعضها:

«الحلم شرف. والصبر ظفر. والجود سرور. والمعرفة كنز. والجهل سَفَه. والعجز ذلّة. والحرب خُدعَة. والظفر دُول. والأيام عبر. والمرء منسوب الى فعله مأخوذ بعمله.»

«الماضي عظة للباقي. الأمسُ شاهدٌ فاحذروه. واليومُ مُؤدِّبٌ فاعرفوه. وغدٌ رسول فاكرموه. وكونوا على حذر من هجوم القدر. فالصراط ميدان يكثر فيه العثار. فالسالم ناجٍ. والعاثر في النار.»(١٤٤)

وقد انطبعت خطب الأولين أمثال قس بن ساعدة وغيره من الواعظين النصارى الذين فاقوا سواهم في الجاهلية تعميماً لفكرة الله وثواب الآخرة وعقابها، انطباع الأسس الركنية في النفس العربية، فهيأت المجتمع القبلي الشتيت الذي جنح بمعظمه الى عبادة الأصنام، **لتقبل الرسالة الإسلامية السمحاء**. وجاء القرآن بسموّ بيانه وشمول أغراضه الدينية والدنيوية وتنزيل آياته بالأسلوب الخارق على نمط موسيقي مقفّى، يعزز أدب الخطابة في العصور اللّاحقة، ويجد طريقه الى الأسماع والحافظة الفردية والجماعية بالسهولة المرغوبة والعظة المرموقة، خصوصاً بعد ما تمّ جمعه في **زمن عثمان بن عفّان** وانتقل من أثر محفوظ في ذاكرة الرواة الى

---

(١٤٤) الأب لويس شيخو: «النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية» - ص ـ ٣٢٨ ـ دار المشرق - بيروت ـ طبعة ١٩٨٦.

أثر مخطوط يلبّي وظيفة الخطباء والمقرئين. وهو لا يزال الى هذا اليوم في عصر انتشاره الطباعي بمنتهى الدقة والبساطة الاخراجية المشوّقة، فضلاً عن شروحه وتفاسيره التي تفوق الثلاثين منذ العهد العثماني... **الكتاب السماوي المعَرب والمعبّر عن الحقائق الخالدة في أعماق النفس العربية وآفاقها**، وهي خلائق تخلّق بها المسلمون الأعاجم أيضاً في انحاء العالم، من قارئين تعلموا العربية، أو حافظين لمعاني القرآن وآياته البيّنات بلغاتهم المختلفة.(١٤٥)

أمّا الأمثال الشعبية السائرة على ألسنة الناس فتحتلّ من جهة ثانية، منزلة رفيعة لدى الإنسان العربي. وهي تشكّل في مجموعها دستوراً للتصرّف والتعامل والاحتراس في الحياة الفردية اليومية. ويمكن اختيار أوقعها في النفس لتؤلف مع الأحاديث النبوية وكلام الإمام علي بن أبي طالب في «نهج البلاغة» وما توارد على ألسنة الصحابة والأيّمة الصالحين الحكماء، وأشهرهم أبو حنيفة والشافعي، وبعض المتصوّفة والفلاسفة المسلمين الأوائل، **كتاباً جامعاً للتنشئة القومية والإنسانية** من الواجب المفترض أن يتمّ تدريسه في المؤسسات التربوية ومراحل التعليم الابتدائية والمتوسطة والثانوية، بحيث يسهم إسهاماً حيوياً نافذاً **في تقويم نظرة الأجيال الجديدة الى الحياة والكون على خطّ موازٍ للتعليم**

(١٤٥) أنشأ الملك فهد بن عبد العزيز آل سعود مجمعاً لطباعة المصحف الشريف في المدينة المنوّرة سنة ١٩٨٥، يصدر ملايين النسخ القرآنية العربية كلّ عام وعشرات الملايين من كتب «معاني القرآن» بأكثر من ٥٠ لغة أجنبية، وتوزع هذه النسخ مجاناً في جنبات المعمور.

الديني المتسامح، وبأسلوب يحول دون الانحراف الى التحزّب والتعصّب وكره الآخر، الذي يقدم اليوم صورة مشوّهة للإسلام ودعوته الإنسانية المنفتحة.(١٤٦)

وأمّا فيما يتعلق بالشعر فنبادر الى القول إنه كان من بدء التاريخ العربي المدوّن، وحتى اواسط القرن العشرين، هو الأثر الوحيد الناطق بمبادئ الحياة العربية **ونوازع الفكر العربي وطبائع النفس العربية**، بسبب ضئالة الآثار البدوية والحضرية الأخرى. فقلّما شيّد العرب الأوائل **المباني الحجرية الصامدة**، في ظروف حياتهم المضطربة، خصوصاً بعد ما اضطر معظمهم الى هجرة اليمن إثر انهيار سدّ مأرب قبل ظهور الإسلام بعشرات العقود. ذلك أن الحجر الصليب القادر على مغالبة الزمن وعناصر الطبيعة لم يكن متوفراً للعرب في الصحارى، كما إن معالجةذلك الحجر، فيما لو وجدوه في أرضهم أو تحمّلوا مشقة استيراده، كانت تحتاج الى عقود لكي يصلح استخدامه في بناء القصور والمعابد والصروح الركينة الثابتة، وهو أمر يفترض فوق ذلك **استقرار اليد العاملة في أرضها**. وقد تبيّن أنّ ذلك شبه مستحيل، نظراً لتنقل القبائل ونزوحها من مكان الى آخر في انتواء متواصل طلباً للماء والنجعة في واحات فقيرة متباعدة. **لذلك استسهلوا البناء بالحجر**

---

(١٤٦) إن أفضل مرجع في موضوع الأمثال العربية التي لا يزال معظمها شائعاً الى يومنا هذا، كتاب «مجمع الأمثال» لأبي الفضل أحمد بن محمد بن أحمد بن إبراهيم النيسابوري الميداني المتوفي سنة ٥١٨ هـ. وعلى الأخص طبعته الأخيرة التي صدرت عن «المكتبة العصرية» في صيدا ـ لبنان ـ سنة ١٩٩٨م. وقد حققها وعلق عليها محمد محيي الدين عبد الحميد، ونشرت في جزئين.

الرملي والطوب والآجّر، فاندثرت معظم آثارهم العمرانية الشاهدة على تاريخهم والتي لم تصمد أمام العواصف والأعاصير والزلازل والسيول، كما أن تدميرها لم يكن مستصعباً على العدو الغاصب والمستوطن الطامع الغالب.(١٤٧)

إزاء هذا الواقع وما رافقه من انعدام التدوين في زمن قلّ من عرف الكتابة بين أهله الأميّين، كان لا بدّ من تأريخ الحوادث الكبرى والتذكرة بالوقائع الماضية وأخبار السلف، فضلاً عن تقديم النصح وإبرام الوصايا وإصدار الحِكَم والأحكام واستخلاص العبر في الحياة الخاصة والعامة، **بالقصص المروي والحديث المنقول**. وسرعان ما تبيّن أن ذلك الأسلوب الخبري **كان سهل الإختراق والتحريف بالزيادة والاجتزاء**، فضلاً عن صعوبة حفظه وتلقينه ونشره في محيط القبائل. . . الأمر الذي أدّى، والحاجة تفتق الحيلة، **الى نظم القصص والروايات والأحداث التاريخية شعراً.**

ولا تقتصر هذه الظاهرة على قدماء العرب وحدهم، بل إنها كانت عميمة منتشرة **لدى الشعوب القديمة**، سواء في مراحل بداوتها أو حضارتها. وخير الأمثلة على ذلك أن ملاحم الإغريق

---

(١٤٧) ينطبق هذا النوع من البناء على مرحلة الحياة العربية المنقطعة في البوادي والقفار، ولا يلحظ مثله إطلاقاً في مراحل الاستقرار العربي سواء في ممالك اليمن القديمة أو في ممالك الإسلام التي نشأت بعد الفتح في الشام والعراق وفارس ومصر والهند والمغرب والأندلس الخ. . . حيث أنشأ العرب والمسلمون المباني العظيمة الركنية التي لا تزال الى اليوم تشهد بخصائص مميّزة رائعة للعمارة الإسلاميةممّا سنأتي على ذكره في مواضع لاحقة.

واللّاتين والفرس والسومريين وغيرهم، **كانت في الأساس رواياتٍ وقصصاً** خارقة تتواصل أحداثها تواصلاً شبه **تاريخي بأسلوب الشعر** الذي ينشده الرواة وتتوارثه الأمم جيلاً بعد جيل، قبل ان تنتقل من محفوظات الذاكرة بالغناء والإنشاد الى محفوظات مدوّنة، ثمّ الى مطبوعات نشرية في العصور النهضوية الأخيرة وبعدها الى مُرقَمات الكترونية حديثة.

وقد تعيّن أن يكون للشعر في الأصل **نغمٌ موسيقيّ** يساعد الراوي على جذب المستمع اليه، كما يساعده على أدائه بالفصاحة الجمالية المطلوبة، وترسيخ انطباعه في النفوس، وتأمين ترداده الموصول وبالتالي حفظه المطلوب.

وعلى أن هذا التوقيع الموسيقي للشعر كان في البدء داعماً لسرعة حفظه واستظهاره من مطاوي الذاكرة، إلّا أن تلك الأجواء الموسيقية التي ترافق إنشاده ما لبثت أن خرجت به عن طبيعته الروائية الإعلامية والتأريخية الأصليّة الى **صفة الإبداع الفنيّ والجمالي المبتكر، بحيث تربّع نهائياً على أريكة الاجتهاد الخلّاق** وتفوّق بمادته الأولية **وهي العبارة**، على الموسيقى المجرّدة ومادتها **الصوت والوتر**، والرسم **ومادته الألوان والأشكال والخطوط**، أو النحت ومادته متصلة **بتجسيد الرسم وأشكاله التجريدية**، أو غير ذلك ممّا يسمّى **بالفنون الجميلة**.

ولا بدّ قبل ان نتوغل في مؤثرات الشعر على النفس العربية، من إبداء ملاحظة أساسية هي أن الشعر العربي ينقسم الى فئتين: الأولى هي فئة «**الآثار الشعرية الروائية الإخبارية**»، والثانية فئة

«الآثار الشعرية الفنّية الجمالية». وإذا كان القاسم المشترك بين هاتين الفئتين يتمثل في الموسيقى الواحدة، والتعبير العاطفي، والانعطاف الخيالي، وتوابل الحكمة والمواعظ والعبر. . . فإنّ لكل من الفئتين الشعريتين المذكورتين **خصائصه المميّزة في مناسبات زمانه وموحيات مكانه.**

أمّا **«الآثار الشعرية الروائية الإخبارية»**، فكانت لازمة بالاضطرار في الجاهلية العربية الأولى، ولم يسلم منها إلّا القليل القليل، ويعتبر أصحابها **نظّامين أكثر منهم شعراء** بالمفهوم الفنّي المجرّد لهذه الكلمة. وأكثر ما تتضمنه قصائد تلك المرحلة التي يقتصر معظمها على وصايا الملوك لأبنائهم، كوصيّة عمرو بن عامر الخزاعي الأزدي «صاحب السدّ» لأولاده، ووصية أبي الأوس والخزرج ثعلبة بن عمرو بن عامر، ووصية عمرو بن الحارث الأكبر الغسّاني لابنه عمر، والحارث الأعرج الغسّاني لابنه أبي المنذر عمر بن هند المحرِق، وكذلك وصيّة طيّ بن أُدُد لبنيه، وغيرهم **من العواهل الأوائل والأعيان من حمير وكهلان**. . . أكثر ما تتضمّنه تلك الوصايا الشعرية التي لم يصل الينا منها غير شذرات ضئيلة لا تنقع غلّة الباحث الحصيف، **فصول متقاطعة من الحِكَم والمواعظ المتعلقة بإدارة الدولة وقيادة الجماعة ومعرفة العَدو والتعامل مع الصديق وإجازة المحسن ومحاسبة المسيء**، الى آخر ما هنالك من تفضيل الحِلم على التهور والأناة على التسرع، ومجانبة الأهواء، والعفو عند المقدرة، والإرعاء على الأقربين وأرزاقهم وعيالهم.

وتحتوي قصائدهذه الفئة النادرة أيضاً ذكر المعارك وأخبارها، وتفاصيل استدلاليّة للمواقع وأسمائها في الصحراء ممّا يصعب تحديده بحسب المراجع الجغرافية الحديثة، وكذلك المفاخر وذكر المآثر والأعمال الحميدة الخارقة للقادة والملوك والسادات المحاربين الأبطال، وحرائر النساء الحصينات المتفوّقات... وقد بقي هذا الأسلوب من الشعر الروائي الإخباري والمكابر المفاخر مطروقاً الى جانب الفئة الأخرى الفنّية الجمالية ردحاً بعد أزمنة الجاهلية الظلامية الأولى، وحتى صدر الإسلام، حيث تجلّى بأقبح مظاهر التعصّب والتحزّب والتلاحي في عصر بني أميّة عبر قصائد تعرف بالنقائض، من شعر الأخطل والفرزدق وجرير. وربما كان آخر من نطق بالشعر القصصي التبجّحي القائم على صورة الشعر دون جوهره شاعر سبقت الإشارة اليه يدعى نشوان بن سعيد الحِميري عاش في القرن الخامس للهجرة، في قصيدة شهيرة تعرف «بالقصيدة الحميرية» جاءَت متأخرة في المرحلة الثانية من زمن العبّاسيين. وهي تبدو جزيرة معزولة في خضمّ الشعر العباسي الذي يندرج معظمه في عداد «الآثار الشعرية الفنية الجمالية» التي خرجت عن طبقة الآثار الشعرية في الجاهلية الأولى، هذا، مع العلم أنّ الشعر العباسي كان ينتهز المناسبات بوجه عام لتظهير موضوعه، لكنه يعبر في الوقت نفسه عن أعمق الحالات النفسية العاطفية والتصاوير الفنّية المبتكرة واللمحات الجمالية الخارقة. وتتألف «القصيدة الحميرية» من ١٣٥ بيتاً يذكر فيها نشوان، وهي واحدة إبداعه، أجداده التبابعة بأسمائهم العائدة الى القرون الواغلة في القِدم، ومنها على

سبيل المثال:

أينَ المَثامِنَةُ الملوكُ ومُلكُهُمْ ذَلُّوا لِصَرْفِ الدهرِ بعدَ جِماحِ
وعياهلٌ من حضرَمَوْتٍ من بني أَجمادَ ذي الأشْبا وآل صُباحِ
أم أينَ عبدُ كُلالٍ الماضي على دينِ المسيحِ الطاهرِ المَسّاحِ

وأمّا الفئة الثانية من الآثار الشعرية فتستحق بالفعل صفة الشعر على الصعيدين الفني والجمالي. وعلى أنها جاءَت متأخرة عن الأولى زمنياً، إلّا أنها تزخر بالصور الحسية والمعاني الوجودية والرؤى الخيالية واللمحات الماورائية والبواكير الفكرية العبقرية، وتعبّر، انطلاقاً من كونها متفوّقة بامتياز وحائزة المواصفات الأساسية لأدب الحياة، تعبيراً جامعاً بالشفافية والرمز والإيحاء البياني الرهيف عن خلائق النفس العربية التائقة الى المثل الأعلى.

ولعل أول من أطلق هذا الشعر الخالد الأصيل من عقال الترصيف الكلامي الباهت والتنظيم النغمي الرتيب والدندنة الغُلَوائية الفارغة، هو امرؤ القيس بن حجر الوصّاف العظيم والواجد الوائل الضلّيل. فوقف واستوقف للذكرى، واحتشد خلفه شعراء العربية من مختلف المنابت والأمصار. وإذا بالنتاج الفني ينطلق من برزخ الرتابة المزعجة والتكلّف المصطنع الى بحار الآفاق الإنسانية البعيدة، ويقدم للحضارة صورة نموذجية عن الإنسان العربي في شخصيّة كلّ من الشعراء المبدعين. وانطلاقاً من هذه الشجرة المختلفة للنسب المتصل بالفكر والروح، دون الرحم والقربى، وهي التي ينتمي اليها الحسن بن هاني (أبو نوّاس)

في قوله: «أغاني أدبي عن نسبي»... نكتشف النفس العربية الأرستوقراطية النبيلة في شعر نابغة بني ذبيان، والنفس العربية المؤمنة في شعر الشريف الرضي وأبي العتاهية، والنفس العربية الواجدة في شعر العذريين المتيّمين، والنفس العربية المتعفّفة المنزهة عن الأهواء المبتذلة في شعر العبّاس بن الأحنف، والنفس المعقدة في شعر الفرزدق وبشار بن برد، والمكابرة في شعر عمرو بن كلثوم والأخطل، والنفس العربية العصيّة المجاهدة عند أبي فراس الحمداني، والأصيلة المستقرة عند البحتري، والمتمرّدة الحاقدة المخلّعة عند أبي نوّاس، والناقدة المحتسبة عند ابن الرومي، والمفتونة بالهوى عند عمر بن أبي ربيعة، والنظامية الماردة في شعر أبي تمّام، والنفس العربية العملاقة الجبارة في شعر المتنبي، وما يلي هؤلاء وغيرهم حتى العصور المتأخرة، حيث يتجلّى الشرف الوطني في شعر محمود سامي البارودي، والمثالية الإنسانية عند حافظ إبراهيم، والرومنطقية الوجدانية الملحمية عند أحمد شوقي، والقومية الصوفية الفوقية في شعر بدوي الجبل، والرمزية المتألقة وجودياً عند سعيد عقل، والردّة العربية التراثية عند شفيق المعلوف وأمين نخلة... الى آخر من نطق بالشعر في مشارق الأرض ومغاربها.

في سبيل مكارم الأخلاق

ونتقل أخيراً من دائرتي النسب والأدب في التعبير عن دخيلة النفس العربية وعالمها المعقد المجهول، الى فلك آخر ودائرة متمّمة أخرى لهاتين الدائرتين، **وهي دائرة السلوك الخلقي**، فنلاحظ بادئ بدء أنها تندرج تحت عنوانين رئيسيين: **الأول عصامي**، **والثاني وقائي**، ولا ثالث لهما كالسلوك الهجومي الافترائي مثلاً لمجرّد التحدي، على ما نلحظه في أخلاقيات بعض الأمم الأخرى.

فالعربي «**إنسان**» قبل أي صفة أخرى يتميز بها. وهو في كونه إنساناً بالمعنى العميق لهذه الكلمة، لا يهتك عرضاً منزّهاً، ولا يقتل أعزل، ولا يغدر بأخ أو صديق، ولا يقهر يتيماً، أو ينهر سائلاً، أو يذلّ جاراً، أو يأمر بمنكر ويخلف وعداً ويقصر عن معروف.

ويتمثل السلوك الذي يفرضه السلف على الخلف وتقوم عليه التربية السليمة، **في الإيمان بالله** أولاً والتوكّل عليه، **واجتناب الهوى** الذي يفسد الدين ويضعف اليقين ويذهب بالمروءَة، **والاعتصام بالصمت** الذي يضمن السلامة، **والصبر** الذي يورث الفرج والظفر، **وطلب العلم** الذي يفتح أبواب النجاح، لأن «**من خدم المحابر خدمته المنابر**» على حدّ قولهم، والمبادرة الى **النجدة والمبرّة** لحفظ الكرامة والسيادة، **والشكر على الفضل** للحصول على المزيد، **والعرفان** للصنيع الحسن بالوفاء، **والبعد عن التبجّح**

والتشوّف والعنجهية والكبرياء، **وحفظ الأصل والعمل بمقتضاه،** لأن «**من طاب أصله زكا فرعه**»، **والعفو عند المقدرة، ونصرة الحق وإغاثة الملهوف** والمظلوم، وإقالة العاثر في الضائقة على أن يسبق النوال السؤال لأنّ «**أولى الناس بالنوال أزهدهم في السؤال**» كما يقول مطرف بن عبدالله بن الشخير النصري المتوفي سنة ٩٥هـ. :

لا تحسبنَّ الموتَ موتَ البلى وإنّما الموتُ سؤالُ الرجالِ

أو كما يقول إبراهيم الخوّاص المتصوّف:

إذا ما مددتُ الكفَّ ألتمسُ الغنى الى غيرِ من قال اسألوني، فَشُلَّتِ

وفي نهج البلاغة للإمام علي قوله: «**إذا قدرتَ على عدوّكَ فاجعل العفو عنه شكراً للقدرة عليه.**» وبعد ذلك بقرون يقول المعرّي: «**. . . وبئسَ الفتى مَنْ جارَ عند اقتداره.**»

ثم إن خير الأمور أوساطها، وهو منقول عن أرسطو ويتجلّى في قول الإمام عليّ: «**اليمين والشمال مَضَلَّة، والطريق الوسطى هي الجادّة.**» وخير من النطق الذي تندم عليه الصمت الذي تسلم به. وخير الكلام ما قلّ ودل. والخير ابتداء واقتداء. وخير وقاية من النوائب إنعام النظر في العواقب. وخير البرّ عاجله. وخير من كثير مجهول قليل مأمول. وخير من كثير منقطع قليل دائم. وخير من ذلّ الخضوع شقاء الجوع. وخير من القرب في الجفاء البعد في الصفاء.

ولا بدّ من الإشارة في هذا المجال الى أنّ **الأحاديث النبوية**، فضلاً عن **الآيات القرآنية**، وما ورد على لسان الإمام عليّ

بن أبي طالب من خطب وأقوال طافحة بالحكم والعبر والمواعظ جمعها الشريف الرضي في كتاب «**نهج البلاغة**»، إنما كانت معيناً لا ينضب للآباء والمعلمين في تثقيف النشء وتقويم أخلاقه وتحديد سلوكه.

وفي المقولات الواعظة أيضاً أنّ من زادت شهوته قلّت مروءته. ومن أخّر أكله لذّ طعامه. ومن أخر نومه طاب منامه. ومن زرع المزاح ورث الضغائن. ومن سعى بالنميمة حَذِرَه القريب واجتنبه الغريب. ومن ضاق خلقه ملّه أهله. ومن لم يحلُم ندِم. ومن اعتبر أبصر ومن أبصر فهم ومن فهم علِم. ومن أسرع في الجواب فاته الصواب. ومن سار على عجل أدركه الزلل. ومن لا يحسن السياسة لا ينال الرئاسة. ومن قلت فضائله خابت وسائله. ومن فعل ما شاء لقي ما ساء. ومن أفشى سرّه أفسد أمره. ومن... ومن... ومن... على ما يقول زهير بن أبي سلمى:

ومَنْ لا يُصانِعْ في أمورٍ كثيرةٍ ... يُضَرَّسْ بأنيابٍ ويوطَأْ بمِنْسَمِ
ومَنْ يَجعلِ المعروفَ مِن دونِ عِرضِهِ ... يَفِرْهُ، ومَنْ لا يَتَّقِ الشَتْمَ يُشْتَمِ
ومَنْ يَكُ ذا فضلٍ ويبخُلْ بفضلِهِ ... على قومِهِ، يُستَغْنَ عنهُ ويُذمَمِ
ومَنْ هابَ أَسبابَ المنايا يَنَلْنَهُ ... وإنْ يَرْقَ أبوابَ السماءِ بسُلَّمِ
ومَنْ يَجعَلِ الإحسانَ في غيرِ أَهلِهِ ... يَكُنْ حمدُهُ ذَماً عليهِ، ويَنْدَمِ
ومَنْ لَمْ يَذُدْ عن حوضِهِ بسلاحِهِ ... يُهَدَّمْ ومَنْ لا يَرْحَمِ الناسَ يَظْلَمِ
ومَنْ يَغْتَرِبْ يحسَبْ عدواً صديقَهُ ... ومَنْ لا يُكَرِّمِ نفسَهُ لا يُكَرَّمِ
ومهما تكنْ عند امرىءٍ من خليقةٍ ... وإنْ خالها تَخفى على الناسِ تُعلَمِ

الى آخر ما هنالك من نصائح وعظات تقوّم سلوك المرء وتعصمه عن المآثم والأخطاء، كما في قولهم:

أيام الدهر ثلاثة: **«يوم مضى لا يعود اليك، ويوم ترى لا يدوم عليك، ويوم آتٍ لا تعرف بما يأتيك.»** وقولهم أيضاً: **«لو دام العزّ لغيرك لما وصل اليك.»**

ومن عيون أقوالهم أن خير الناس من أخرج الحسد من قلبه وعصى هواه في طاعة ربّه. وإن ذهب الحياء حلّ البلاء وتمام المروءَة أن تتناسى ما لك وتذكر ما عليك. ومن لزم الرقاد عَدِم المراد، ومن دام كسله خاب أمله. والرفق مفتاح الرزق. وإتَّقِ شرّ من أحسنت اليه. وربّ أخٍ لك لم تلده أمك. وزوج من عود خير من قعود. وعند الامتحانِ يكرم المرء أو يهان.

وتراهم ينهون دائماً عن الكفر والزندقة ومهادنة العدوّ الطامع، والتلبّس بالذنوب والآثام، والخيانة والغدر والاغضاء على الظلم والمهانة. ومن أقوالهم المأثورة: مصارع الرجال تحت بروق المطامع. ولكل زمان دولة ورجال. والمؤمن لا يلدغ من جحر مرّتين. ومقتل الرجل بين فكّيه (أي عليه أن يقتصد في الأكل والكلام.)

وكثيراً ما عمدوا الى الشعر في أبداء النصائح العصامية والوقائية لسهولة حفظها. ومن مثل ذلك قول أحدهم في ندرة الأحرار المخلصين:

أتمنّى على الزمانِ مُحالاً أن ترى مقلتاي طلعةَ حُرِّ

وقول آخر في ازورار الأيام وانقلاب الدهر:

ربّ يـومٍ بـكـيـتُ مـنـه فـلـمّـا صُـرتُ فـي غـيـرِهِ بـكـيـتُ عـلـيـهِ

وآخر في عدم ائتمان العدو والركون الى مراوغته:

إنّ الـعـدوَّ وإنْ أَبـدى مُـسـالـمـةً إذا رأى مـنـكَ يـومـاً غِـرَّةً وَثَـبـا

وفي الصبر على المكاره والرزايا التي تحمل في تعاقبها جرثومة زوالها:

خَـفِّـضِ الـجـأْشَ واصـبـرَنَّ رويـداً فـالـرزايـا إذا تَـوالـتْ تَـوَلَّـتِ

وفي مقاومة الطمع والجشع والعادة التي تصلحها الإرادة:

والـنـفـسُ راغـبـةٌ إذا رغَّـبْـتَـهـا وإذا تـردُّ الـى قـلـيـلٍ تـقـنـعُ

وفي استحالة الهرب من قدر الموت الذي يطال كلّ حيّ:

وإذا الـمـنـيّـة أنـشـبـت أظـفـارهـا ألـفـيـت كـلَّ تـمـيـمـةٍ لا تـنـفـعُ

وفي ذمّ الغيبة والنميمة:

عليك نفسَكَ فَتِّشْ عن معايِبِها وخلِّ من عثراتِ الناسِ للناسِ

وفي قصور الوقائع عن مجاراة التمنّي:

ما كلّ ما يتمنّى المرءُ يُدركُهُ تجري الرياحُ بما لا تشتهي السُفن.

وفي عدم الاكتراث للحاقد والشاتم الناقص:

وإذا أتـتـكَ مـذمـتـي مـن نـاقـصٍ فـهـي الـشـهـادةُ لـي بـأنـيَ كـامـلُ

وفي المحافظة على الصحة وعدم التفريط بآلاء الشباب:

آلـةُ الـعـمـرِ صـحّـةٌ وشـبـابٌ فـإذا وَلّـيـا عـنِ الـمـرءِ ولّـى

وقد اختاروا لحسن التربية والتنشئة الوطنية الصالحة قصائد درجوا على حفظها وتعليمها أولادهم، وهي ديوان رائع في مكارم الأخلاق، منها بعض **المعلّقات** الشهيرة كمعلّقة امرئ القيس، ومعلقة زهير بن أبي سلمى، ومعلقة عمرو بن كلثوم التغلبي، وبعض **المجَمهَرات** (أي القصائد المحكمة السبك)، كمجمهرة عبيد بن الأبرص، ومجمهرة عدي بن زيد، **والمَشوبات** (أي المشكوك في نسبتها) كمشوبة قيس بن عبدالله نابغة بني جعده، ومشوبة كعب بن زهير في مدح الرسول، ومشوبة الحطيئة في مدح عمر بن الخطّاب، ثمّ **الملحمات** من شعر الفرزدق والأخطل وجرير، وكذلك بعض **المراثي** الرائعة، كقصيدة متمّم بن نويرة اليربوعي في رثاء أخيه، وقصيدة مالك بن الريب التميمي يرثي نفسه، وقصيدة أبي ذُؤَيْب الهُذَليّ يرثي أولاده الخمسة الذين ماتوا بالطاعون في مصر. ويقال أنّ الخليفة العبّاسي أبا جعفر المنصور طلب يوم فقد ابنه مَنْ يروي له قصيدة الهُذَليّ هذه التي مطلعها: «**أَمِنَ المَنونِ ورَيْبِها تَتَوجَّعُ**»، وهي من روائع الشعر القديم، فلم يعثروا له في بغداد بأسرها على رجل يحفظها، فقال بمرارة: «**كنت أبكي على ولدي. فدعوني اليوم أبكي على أمّتي**»!..[(١٤٨)]

---

(١٤٨) أنظر «جمهرة أشعار العرب» لأبي زيد القرشي، و«طبقات فحول الشعراء» لابن سَلّام الجُمَحي.

- ٨ -

ملامحُ ورموزٌ في العِمارة والزخارف والخطوط

ينفر العربي نفوراً بالطبع راسخاً في أعماق نفسه من الأشكال الهندسية المربّعة والمستطيلة والمثلثة التي لم يتعرف الى مثلها في حياته الصحراوية القديمة، ويميل بالسليقة والجاذبية المباشرة الى الشكل الكروي المستدير. لكنه تعلّق منذ البدء بالتكعيب وأحاط شواهد العمران المكعّبة بهالة من القدسية عائدة الى فرادة الكعبة المكّية التي ينسبها الى الملأ الأعلى، حسبما جاء في الآية: ﴿جعلَ اللهُ الكعبَةَ البيتَ الحرامَ قياماً للناس...﴾[١٤٩] وقد اعتمد اليهود والنصارى في اليمن والعراق والشام والحجاز هذا النمط التكعيبي في بناء هياكل عبادتهم قبل الإسلام بقرون تشبهاً بالكعبة العظمى في مكة. لكنه لم يبقَ من آثار الكُنُسِ اليهودية شيء يذكر خصوصاً بعد ظهور الإسلام الذي جاء في كتابه المبين: ﴿لَتَجِدَنَّ أشدَّ الناسِ عداوةً للّذينَ آمنوا اليهودَ والذينَ أشركوا ولَتَجِدَنَّ أقْرَبَهُمْ مودَّةً للذينَ آمنوا الذينَ قالوا إنَّا نصارى ذلكَ بأنَّ

(١٤٩) سورة المائدة - ٩٧

منهُمْ قِسّيسينَ ورُهباناً وأنَّهمْ لا يستكبرون﴾[150] فأقدم المسلمون في مرحلة الفتح على تدمير معظم المعابد اليهودية التي كانت قد سلمت قبلهم من حملات البيزنطيين في الشام والأحباش في اليمن والفرس واعوانهم المناذرة النصارى في العراق.

غير ان الإسلام كان **أرحم بالنسبة للكنائس المسيحية وخصوصاً الأديار** التي لا يزال بعضها قائماً الى اليوم، وذلك خلافاً للحديث المنسوب الى الرسول في قوله: «**لأُخرجنّ اليهود والنصارى عن جزيرة العرب حتى لا أدع فيها إلّا مسلماً**».

وتنبئنا الوقائع الثابتة في كتب المؤرّخين العرب أن هؤلاء **لم يقدموا على هدم كنيسة مسيحية بعد الإسلام إلّا فيما ندر**، وكثيراً ما كان يتمّ ذلك إرضاء لبعض اليهود النافذين، كما حدث لأبي جعفر المنصور الخليفة العبّاسي الثاني الذي أمر بناء على تحريض يهودي من سلالة الوهب بن المنبّه على هدم «**القُلَيْس**» **في صنعاء**، وهي كنيسة مكعّبة عظيمة بناها أبرهة الأشرم الحبشي الذي فتح اليمن بمساعدة قيصر الروم بعد إحراق ذي نؤاس نصارى نجران في الأخدود على ما ورد ذكره آنفاً.

ويعقد الأزرقي في «أخبار مكة»، وياقوت في «معجم البلدان» والطبري في «تاريخ الأمم والملوك»، فصولاً مطوّلة في وصف **القُلَيْس** ورفيع بنيانها وغنى زخارفها ونقوشها بالذهب والحجارة الكريمة والفضة وخشب الساج والعاج واللَبْخ

(150) سورة المائدة - 82

(الأبنوس)، الى أدراجها ونُصبها الرخامية وفسيفسائها النادرة، وغير ذلك من ظواهر العظمة ومعالم الزينة الفاخرة. ويبدو أنّ أبرهة الحبشي كان **يرمي الى هدم الكعبة المكيّة وجعل القُلَيْس بديلاً عنها**، وهو أحد الأسباب التي حفزته على مهاجمة قريش ومكة واستخدامه الفيلة في إزالة الكعبة المكيّة. وقد ردّ أبرهة على أعقابه خلال تلك المعركة التي وقعت في «عام الفيل» سنة ٥٧٠م. وهو تاريخ مولد الرسول محمد بن عبد الله.

وسُمّيتْ مكّة «أم القرى». وفي «لسان العرب» أنّ الله شرّفها بذلك لأنها توسطت الأرض فيما زعموا، وقيل لأنها أعظم القرى شأناً. وجاء في التنزيل الحكيم: ﴿**وما كانَ ربُّكَ مُهلِكَ القُرى حتى يَبْعَثَ في أُمِّها رسولاً...**﴾ (سورة القصص: ٥٩)

وتتراكم الأساطير في كتب التاريخ حول تأسيس مكة وبناء الكعبة، فيذهب بعض المؤرخين القدماء **الى أن الله خلقها مع السموات والأرض والشمس والقمر!**.. ويقول آخرون إن الملائكة بنوها قبل خلق آدم بألوف السنين **على صورة البيت القائم تحت العرش**، وحجمه ومثاله، وأن الله أمر بأن يطوف أهل الأرض بالبيت الحرام في مكة كما يطوف أهل السماء بالبيت العلوي المعمور! وبهذا يفسّرون الآية: ﴿**إنّ أولَ بيتٍ وُضعَ للناس لَلَّذي بِبَكَّةَ مباركاً وهُدىً للعالمين**﴾(١٥١). ويزعم بعضهم أن البيت الحرام **عام فوق الطوفان** الذي لم يمسّه بسوء.

---

(١٥١) آل عمران ـ ٩٦، وقوله «ببكّة» يقصد «بمكّة»، لأنها «تَبُكُّ» أي تَدُقُّ أعناق المتجبّرين.

إن هي إلّا مزاعم وتكهنات تعدو الحقائق فتنطلي على السذّج وتخالف واقع الأمر، وهو أن بناء الكعبة تمّ في زمن إبراهيم الخليل أو بعده على يد ابنه إسماعيل حول الحجر الأسود الذي يؤلف «الركن»، وحول حجر آخر يؤلف «المقام» وهو مكان إبراهيم، وكانت تحوي عدداً من الأصنام والأوثان والأنصاب في عدادها ٣٦٠ تمثالاً شرع الرسول في هدمها وتحطيمها بعد عودته من المدينة. ولا غرو أن تكون الكعبة موئلاً للعبادات الوثنية في الجاهلية، وأن يكون «الركن» و«المقام» من النيازك وقد سارع الجاهليون الى عبادتهما، كما حفظ الإسلام لهما تلك المكانة الوائلة الآمنة بعد أن حرّم سائر العبادات الوثنية، على ما جاء في التنزيل الحكيم: ﴿وإذْ جعلنا البيتَ مَثابةً للناس وأمناً واتَّخِذوا من مقامِ إبراهيمَ مصلًّى وعَهِدْنا الى إبراهيمَ وإسماعيلَ أَنْ طهِّرا بيتي للطَّائفينَ والعاكفينَ الرُكَّعِ السُجودِ﴾(١٥٢)

وشهد اليمن العديد من المباني العظيمة، أمثال القُلَيْس أهمها كعبة نجران التي سبقت الإشارة اليها، وقد بناها بنو عبد المدان من التبابعة، ويقول صاحب «الأغاني»: «إنها بيعة عظّموها مضاهاة للكعبة وكان إذا نزل بها مستجير أُجير أو خائف أُمِّن، أو طالب حاجة قُضيَت أو مسترفد أعطي ما يريد.» ويذكرها الشاعر الأعشى بقوله مخاطباً ناقته:

وكعبةُ نَجرانَ حَتْمٌ عليكِ حتّى تُناخي بأبوابها
نزورُ يزيداً وعبدَ المسيحِ وقيساً هُمُ خيرُ أربابها

---

(١٥٢) البقرة - ١٢٥

وكانت للعرب في أي حال **كعبات متعدّدة أخرى** تحجّ اليها في مواسم مختلفة وتقدّم لها النذور والذبائح والهدايا. ومن هذه الكعبات وبيوت العبادة بيت **لمناة** في المدينة وآخر **للّات** في الطائف **والعُزّى** التي سبقت الإشارة اليها في مكّة.

ويذكر الهمذاني في «الإكليل» بالإضافة الى بيت اللّات والعُزّى ومناة، **كعبة ذي الخَلَصَة**، في ناحية تبالة التي أطلقوا عليها اسم **الكعبة اليمانية** تمييزاً لها عن الكعبة الشآمية أي البيت الحرام في مكة، **وبيت رئام في ديار هَمدان، وبيت ثقيف** في الحجاز حيث كانت ثقيف تفاخر به قريشاً ومكة. ثم **القصر ذو الشرفات وبارق والخورنق والسدير** جنوب العراق، وكانت مساكن الملوك المناذرة ولها منزلة مقدسة بالإضافة الى ذلك، ويروى أن الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز مرّ بقصر لآل جفنة الغساسنة في الشام، فتمثل بقصيدة الأسود النهشلي التي يقول فيها:

ماذا أُؤَمِّل بعد آل محرِّق — تركوا منازلَهم، وبعد إيادِ
أهلِ الخورنقِ والسديرِ وبارقٍ — والقصرِ ذي الشرفاتِ من سِنْدادِ(١٥٣)

وكان يطلق على القصر ذي الشرفات أيضاً اسم «**ذي الكعبات**».

---

(١٥٣) يقصد بآل محرّق الغساسنة نسبة الى عمر بن هند الذي لقّب بالمحرّق لإحراقه قوماً عرفوا بالبراجم، وإياد اسم القبيلة العدنانية الشهيرة، وسنداد ناحية بشمالي الجزيرة كان القصر فيها قِبلة لبعض العرب..

ولا مجال الى إطالة الكلام حول ظاهرة التكعيب هذه في بناء المعابد العربية قبل الإسلام باعتبار أنه استطراد يخرج عن جوهر موضوعنا. وقد أوردناه في سياق بحثنا استثنائياً لأن القاعدة الهندسية الركنيّة في النفس العربية هي **الاستدارة دون التكعيب**. فالعربي تعايش مع الدوائر منذ فجر التاريخ، وألف نظره الدوائر في محيطه الطبيعي، **من الشمس المستديرة الدائمة في صحرائه أمام عينيه الى القمر البدر**، والدوائر التي يحدثها أي جسم يلامس الماء الساكن، الى شبه الاستدارة في البيضة والعين، والزوابع الصحراوية والأعاصير اللّولبية وهي تسفي الرمال... كما ألف **نصف الدائرة وأجزاءَها المحدودبة الكروية كالقبة الزرقاء أو قوس الغمام** الذي يسمونه قوس القزح، وحدبات كثبان الرمل الأجرد الذي يتناوب فيه الخبت الباطن والناتئ الظاهر بين ليلة وضحاها بحَسب انقلاب الريح، **وسنام الجمل وأرداف الخيل**، والمدارات الطافحة باللّذة في **جسد المرأة** وبالأخص نهداها وخدّاها وركبتاها وفخذاها وكفلها الخ... وبطون الحبالى، وتقوس الحاجبين في وجوه الحسان، وظهور الشيوخ المسنّين، وكذلك الخصيتان عند الذكر، **ونصف الدائرة وربعها في الهلال** وهو يتحوّل تدريجياً الى بدر، وغير ذلك ممّا يعجزنا حصره في هذا المجال.

وقد تأتّى عن ذلك الانطباع المتواصل بالدوائر **نفور سليقي من الزوايا والنتوءات الحادة والشناخيب** التي قلما عرفها العربي في الصحراء، هو الذي تعوّد أن يشرب الماء **بتكوير يديه**، فابتكر

إناء مكوّراً يشبه حركة اليدين في احتواء الماء عند الشرب، وسمّاه القصعة ذات التجويف الخفيف التي تختلف عن الكوب والكأس، وكذلك ألزق للخمر والظرف أو الضرف للزيت والخمر، وكلّها من الجلد المكوّر. ولا يعود كره البدوي الصحراوي للزوايا فقط الى نفوره من المستطيلات والمربعات والمكعبات، بل يعود في الوقت نفسه الى انعدام وجود الحجارة الصخرية وصعوبة استخدامها للبناء في البادية، كما سبق وذكرنا، ولذلك فضل الاستدارة الأقرب الى نفسيته دون التربيع أو التثليث لأحواض مائه. كما آثر المناسف المستديرة لطعامه وذبائحه دون الأطباق المربعة والمستطيلة.

وإذا كان الصحن والطست قد دخلا على الإنسان العربي القديم من حواضر الهند والصين وفارس والروم، فإنّ تفضيله «البهكنة» أي المرأة المكتنزة العبلة، اللفّاء الفخذين والكتفين والذراعين على النحيفة النحيلة ذات الكعوب والعظام النافرة، هو من وحي كلّ مستدير أحبّه وتعوّده في حياته[١٥٤]. وإذا كان قوس الرماية الذي يطلق السهام المراشة في المعارك والحروب، والذي ألفته الأمم القديمة الأخرى قد دخل في مجموعة السلاح العربي القديم من مصادر أجنبية شتّى، وهو جزء من دائرة، فإن للسيف العربي المعروف بالأحدب منذ القدم امتيازاً لم يعرف له مثيل،

(١٥٤) يقول طرفة بن العبد في معلّقته:

وتقصيرُ يومِ الدَجْنِ والدجنُ معجبٌ ببَهْكنَةٍ تَحتَ الخباءِ المُعَمَّدِ

أي إنه يقصّر اليوم الغَائم الدّاكن في أحضان امرأة ممتلئة الجسم تحت خبائها الرفيع الأعمدة.

وقد نشأ في اليمن السالفة ونشره التبابعة في غزواتهم الأسيوية في الهند التي علّمها اليمنيون صكّ السيوف، فاشتهرت بعد اليمن بذلك وسمّيت أمضى السيوف العربية **باليمانية ثم الهندية**.

وممّا تناهى الينا عن طريق **أحد كبار العسكريين العرب المعاصرين الذين تعاملوا طويلاً في ميدان السلاح مع الاتحاد السوڤياتي السابق، أن علماء النفس الروس أشاروا على مخترع بندقية كلاتـشنيكوف** بأن يجعل خزّان قذائفها **محدودباً** وليس **مستقيماً** كخزانات سائر البندقيات الحربية الغربية، لكي تقع الموقع المفضل من نفس المقاتل العربي الذي تعوّد رؤية سيفه الأحدب، وذلك إرضاء للرئيس جمال عبد الناصر الذي كان يعدّ الجيش المصري لمواجهة حاسمة ضدّ إسرائيل. وقد التزم المخترع هذه النصيحة فما لبث بندقية كلاتـشنيكوف **بفضل خزّانها الأحدب** الذي يوحي بحدبة السيف العربي، أن أصبحت **السلاح الخفيف المفضل** عند العرب جميعاً وشعوب الشرق الأوسط خصوصاً والدول الأسيوية والأفريقية بوجه عام.

وسرعان ما يكتشف الباحث في أي حال، **ظاهرة الاستدارة في العمارة العربية القديمة**، سواء أكانت دينية أم مدنية، وتتمثل هذه الظاهرة في القباب والقناطر، والأحواض والبرك الداخلية للدور والقصور. وإذا كانت القبة العربية الإسلامية ذات أصل رومي بيزنطي، إلّا أن ذلك يأخذ في عالمنا بعداً آخر إذ لا يكاد أي بناء عربي كبير الحجم والقياس يخلو من **قبّة تتوج هامته تيمناً وتأثراً بقبة السماء الزرقاء**. أمّا القنطرة العربية فتختلف عن الرومية

بأن رأسها ملتقى سيفين يشكّل كلّ منهما جزءًا من قوس، فيما القنطرة الرومية هي بالتحديد نصف دائرة لا رأس يميّز أعلاها عن يمناها ويسراها وقد استعمل شكلها في المساجد والقصور العربية الأولى، ثم تحوّلت بعد نمو الحضارة الإسلامية الى ما يشبه ملتقى السيفين على ما ذكرنا. يضاف الى ذلك أن العمارة العربية قلما جاوز ارتفاعها قياس قواعدها طولاً وعرضاً، باستثناء المآذن والمنارات البحرية التي بدأت مستديرة برميلية الشكل الهندسي، ثم أخذت تتحوّل الى مربعة بعد زمن الأمويين. وهي تختلف كلياً عن العمارة القوطية الأوروبية الظاهرة في الكاتدرائيات التي تطاول السماء بشناخيبها، وقد تخيّر بناتها تلك الأبراج المسنّنة رؤوسها لحمايتها من تراكم الثلوج ومن اهتراء الأخشاب في السقوف أن لم يكن للماء منصرف سهل ملائم لشكلها المخروطيّ والهرمي البارز ما دامت السماء تمطر في سهوب القارة الأوروبية الباردة على مدار السنة.

وقد تأثر العرب في المراحل الأولى من وجودهم خارج الجزيرة بعد الفتح بالعمارة اليونانية والرومانية التي كانت شائعة في بلاد الشام والعراق. ولا تزال آثار القناطر الرومية بادية في المباني الأموية والعبّاسية في الشرق والغرب. ويمكن القول أن الفرس الساسانيين تأثروا هم أيضاً بهندسة تلك العمائر، وهو ما يشهد به «طاق كسرى» الأثر الوحيد الباقي من إيوانه الشهير في موقع سلمان باك الأثري للمدائن جنوبي بغداد، وغيره من المعالم الأثرية الفارسية في إيران. ويستدلّ من عشرات القصور التي

أنشأها الأمويون في الشام وفلسطين والأردن ولبنان على تأثرهم بالهندسة الرومية، فاعتمدوا الحظائر المربعة والمستطيلة داخل مبانيهم وخارجها، لكنهم لم يلتزموا ذلك تماماً فيما عرف عندهم «بالحيران» التي تعتبر مزارع واسعة مؤلفة من عشرات الكيلومترات المربعة التي كان الخلفاء والأمراء والأعيان يتخذونها محميّات زراعية وحرجية ريفية يبنون فيها القصور للراحة والاستجمام والصيد، ويحشرون فيها الحيوانات الأليفة والوحوش المفترسة للقنص والطراد. ولا مشاحة في أن هنالك علاقة مباشرة بين «الحائر» أو «الحير» الذي يجمع على «حيران» ومدينة «الحيرة» التي أنشأها اللخميّون النساطرة بين النجف والكوفة في جنوبي العراق، والتي تعني لغةً «المستديرة» وذلك خلافاً لما ذهب اليه بعض المستشرقين من عدم وجود أي صلة للحائر بالحيرة، مع العلم أن معظم «الحيران» التي أنشأها الأمويون كانت مستديرة الأرض في مناطق بعيدة عن العمران، وهو يطابق ما تنزع اليه النفس العربية من تفضيل الدوائر على غيرها من الأشكال الهندسية ومشتقاتها.(١٥٥)

ولعل خير دليل على افتتان العرب بالشكل المستدير ما حمّلوه جذر «دَوَرَ» الثلاثي ومشتقاته من المعاني.

---

(١٥٥) الحائر أو الحير باللفظة العامية (hère) هو ما يشبه اليوم «العزبة» في مصر، أو المزرعة في البلدان ذات الأراضي الواسعة كالولايات المتحدة وكندا والبرازيل وأوستراليا. (راجع الأعمال الكاملة «المؤتمر تاريخ بلاد الشام» الذي عقد في ابريل ١٩٧٤ ـ ص٦٩ ـ ١٣٨ الدار المتحدة للنشر ـ بيروت ـ ١٩٧٤.)

فالفعل دار يدور دَوراً ودَوَراناً ودُؤُوراً، أي قام بحركة ثم عاد الى مكانه الأول، **واستدارَ الشيء وأَدرْتُه ودَوَّرْتُه وأَدارَه غيري ودُرتُ به** ودَوَّر به، **ودَاوَرَه مُداوَرَةً** ودِواراً أي دار معه، ودارَ **دورة واحدةً**، وكان له **دَوْرٌ** أي جزءٌ من الدَوْرَة، **ودوّرَ العمامة** أي كوَّرَها، **والدّوْرُ للخيل** وكلّ ما عداها أي جمعها ووظيفتها، وأصابه **الدُوار أو الدَوار والدَوَران** في الرأس بمعنى داخ، **وأدير به** وعليه وديرَ أي أخذه الدُوار، ودوّر الشيء جعله مدوّراً، على ما جاء في معاجم اللغة جمعاء(١٥٦)

والدهر دوّار بالإنسان، وهو يدور أي يحول وينقلب. **والدار** هو الحول أو الزمن الذي يدور، **ودَوْرَة الموسيقى** عودتها الى بداياتها، **والدَور في الشعر** بيتان منه أو مقطع صغير، **ودَوّار الشمس** نبات مستدير الزهر تستخرج منه الزيوت، **ودوائر الدهر** نوائبه فيقال: «**دارت عليهم الدوائر**». **والدَوَران في الهندسة** حول نقطة أو محور. **والدّورية** هي مناوبة الحرس والعسس أو فرقاء منهم. **والدار** هي المنزل الذي يقيم فيه المرء، **والدارة** جمعها الدارات، كلّ مكان يدار فيه نشاط ما أو طريقة حياة. **والديرة** معناها المحلة والجيرة أو ما استدار من الرمل. **ودارة القمر** هالته وكذلك الشمس، **والمدار** في علم الفلك مسار الكواكب حول محور الكون. **والدائرة** هي الحلقة وما أحاط بالشيء إحاطة كلّية، وهي الشعر المستدير على قرن الفرس وفي عموم أجسام الخيل، وهي على الورق، **طوق مغلق نقاطه متساوية الأبعاد** عن مركزه

---

(١٥٦) لسان العرب ــ باب «دَوَرَ».

الأوسط، وله أشعة تزداد افتراقاً فيما بينها كلّما زادت عنه ابتعاداً. **والشعاع** في الدائرة نصف **قطرها**. والدائرتان المتقاطعتان عمودياً وأفقياً تؤلفان **هيكل الكرة**.

ثمّ إنّ إدارة الشيء تعاطيه بالإلزام، **ومداورته** الإحاطة به لحسن علاجه، **والمدير** هو من يتصرّف بالأمر، **والدارئ** هو الملّاح المسؤول عن السفينة. **ودار الحرب** أرض العدو، **ودار القرار** الآخرة، **والدار عموماً** تعني القبيلة بالإضافة الى المسكن، وجمعها دور وديار وديارات وديران، **والداران** هما الدنيا والآخرة. أمّا **الدَيْر** فهو مسكن الرهبان النصارى، وجمعه أديرة وديورة وأديار. **والدوريّ** عصفور كثير اللّف والدوران، **ودارين** ميناء في البحرين كان مشهوراً بتجارة المسك. **والتكوير جزء من التدوير**، ويقال للعمامة وأي شيء آخر قابل للمعالجة حتى **يُدَوَّرْ**. أمّا **تدوير الرقم** فهو تخريج الكسور منه.

وقد لعب الميل الى تدوير الأشياء في النفس العربية دوراً مهماً الى حدّ أنّ هنالك جذوراً ثلاثية متعدّدة في اللغة تشير اليه كما تنبئ بتناوب الدوران. ونقول على سبيل المثال أنّ **فعل «درأ»** بمعنى «منع» هو في أساسه الدفع القوي للسيول أو الزوابع والأعاصير، وما يسمّى في قاموسنا العصري «بتسونامي» للتعبير عن الأمواج الهائلة، وهي كلّها تحدث **بصورة «مستديرة» تخريبية**، فيقال: «**الرجل درأ فجأة**» أي طرأ على حين غرّة كأنه الموجة الصاخبة أو السيل الدائر الدوّار، وإذا «**تَدارَأ**» القوم اختلط بعضهم ببعض في تحرك دائري فوضوي بسبب الخصومة والتحدّي.

والقول إنّ الحريق **اندَرَأ** معناه انتشر، والسيل اندفع أو «**جاء درءًا**» كما يخبرون، أي سريعاً دائرياً على الأرجح. و«**الدريئة**» كانت عندهم حلقة مستديرة يتعلمون عليها الطعن! ويقال **تدرَّأ** الصائد بمعنى تستّر لخداع الطرائد، وهي مطاوعة لفعل **تدرّع** بمعنى تحصّن لمواجهة العدوّ. والتدوير واضح في **الدرء والتدرُّء والدِرع والتدرّع**.

وثمة مثال آخر في جذر **دَرَّ** أو «**دَرَرَ**» الثلاثي، على معنى الاستدارة، وهو الحليب الكثير الذي «تدّر» به النوق والأبقار وغيرها من السوائم عندما تمتلئ ضروعها، **فتستدير**!. والدرّ يوحي بالخير، فيقال «**لله دَرّه**» أي ما أكثر خيره، أو «**لا درّ دَرّه**» أي لا زاده الله خيراً. **والحرب الدَرور** هي التي تدور وتدرّ بالدماء. **والنبات إذا درّ** طلع والتفّ بمعنى استدار، **والوجه إذا درّ** صحّ وبانت كورته، **والدُرَّة** واحدة الدُرّ **لؤلؤة مستديرة**، **والكوكب الدّري** الظاهر الاستدارة والسطوع كالدرّة، **ودَرَّ الجواد** إذا عدا سريعاً ليصبح «قيد الأوابد» كما يقول امرؤ القيس، **والمغزل الدَوّار** إذا أداره الغازل فتله بشدّة، **ودَرَرُ الريح** هبوبها اللَولبي، **والدَرير** الشديد الدوران كخذروف الوليد الذي أشرنا اليه في موضع سابق، **والدَرَّارة** المغزل التي تسرع في دورانها.

ويبدو أن هذا الكلف الطبيعي العربي بالاستدارة وما اليها يكمن في أساس الكشوف العربية الرائدة **لكروية الأرض ونظام الكون ودوران الكواكب** التي سبقت نظريات غاليليو وكوبرنيك مئات السنين. وقد يكون أول من أدرك استدارة الأرض وكرويتها

هو الجغرافي الفارسي الأصل **عبيد الله بن خُرداذْبَه** صاحب كتاب «**المسالك والممالك**» الذي عاش في القرن العاشر الميلادي، وكان يقول: «**إنّ الأرض أشبه ما تكون بمحِّ البيضة (أي أصفرها) في وسط الكون**»، وأن وراء بحر الظلمات (أي المحيط الأطلسي كما يسمّونه) جزءًا متمّماً لليابسة ومتصلاً بالهند والصين!.. كما إنّ المؤرخين العرب يذكرون بإعجاب واهتمام كبيرين علّامة زمانه **الشريف أبا عبد الله الإدريسي** صاحب الكتاب الشهير «**نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**» الذي عاش في القرن الثاني عشر للميلاد وكان يجزم بكروية الأرض والفلك الدوّار، وقد صنع لملك صقلية «روجر» (تسمّيه العرب «رُجار») الذي ضمّه الى بلاطه، **خريطة الأرض** بأقاليمها المعمورة، **وصوّرها على كرة ضخمة من الفضّة** ظلت الى حين قبلة العلماء والباحثين في «باليرمو» حيث كانت تعتبر من عجائب الدنيا. ويذهب **أبو الحسن علي المسعودي** صاحب «**مروج الذهب**» الذي عاش في القرن العاشر الميلادي قبل كولومبوس بما يقارب ٥٠٠ سنة، الى أنّ بعض الملّاحين المغاربة والأندلسيين كانوا يوغلون في بحر الظلمات ويأتون بالجواهر والحجارة الكريمة وبعض أصناف النبات غير المعروفة من أرض غامضة وراءَه.

ولا بدّ من الإشارة في أي حال الى أنّ الأفكار المتعلّقة بكروية الأرض ودوران الكواكب في النظام الشمسي **لم تكن وقفاً على بعض العلماء وحدهم، بل كانت شائعة لدى عامة المثقفين**، ويستدلّ على ذلك من بيت للمتنبّي الذي عاش في زمن ابن خرداذْبَه والمسعودي،

يشير فيه خلال مدحه سيف الدولة بن حمدان الى أن نور الشمس هو الذي يضيء القمر، ويستفاد من ذلك علم الشاعر بأن القمر يدخل في مدار الشمس كي يتلقّى نوره منها، حيث يقول:

تَكسَّبُ الشمسُ منكَ النورَ طالعةً كما تَكَسَّبَ منها نورَهُ القمرُ

الخطّ العربي مجموعة أهلّة ودوائر

وعلى صعيد آخر يمكن القول إن الإنسان العربي لا يفضل على **الخطوط العربية التراثية** خطاً مستحدثاً أياً كانت مواصفاته الجمالية. فالخطوط الأصلية أقرب الى نفسه بما تختزن في سياقها المنسجم ومشقها المتناسق من **أقواس وأهلّة ودوائر وحدبات**. وإذا كان العرب قد استعملوا **الحروف المسمارية** في الماضي السحيق، ومنها المسنَد الحميري السَبَئي، والسينائي، والأشوري، والسومري، وغيرها، استعمالاً اضطرارياً مرغماً للتدوين البدائي والحساب، وتناهى الينا من تلك الرسوم النافرة ما عرف **بالخط الكوفي القديم غير المُعْجَم**، وهو الذي كتبت به النسخ القرآنية الأولى على جلود الإبل وعددها ست أمر الخليفة الراشد عثمان بن عفّان بإرسالها الى الأمصار شرقاً وغرباً. . . فإنّ الخطوط العربية ما لبثت أن بدأت تلبس **أشكالها الفنية البهية** منذ العصر الأموي، حتى أصبحت في الأزمنة العبّاسية المتأخرة **معالم جمالية عالمية** تفرض روعتها وبراعة خطاطيها الحرفاء ومهارة النقاشين والرقّاشين من صنّاع لوحاتها المعدنية والرخامية الفاخرة

على المجتمع الحضاري الإسلامي والأجنبي في العالم بأسره.

وقد استطاع المستشرق الفرنسي العلّامة **ريجيس بلاشير** أن يحصي من الخطوط العربية التراثية في المكتبات العالمية الكبرى شرقاً وغرباً، **ثلاثة عشر نمطاً من الخط** هي: الثلث، والنسخي الفنيّ، والنسخي الدفتري، والرقعي، والفارسي، والديواني الجلي، والديواني الشاهاني الهميوني، والريحاني، والكوفي المشرقي، والكوفي الأندلسي، والقيرواني، والمغربي الكتبي، والمغربي المسماري.

ويقول في حديث أدلى به الى المؤلف سنة ١٩٥٥، ونشر في مجلة «العربي» على سبيل التذكرة والاعتبار سنة ٢٠٠٥: «**لقد عجزت في الواقع عن إحصاء الخطوط العربية كلّها**، ممّا عاينته في مكتبة الاسكوريال، والمكتبة الوطنية في باريس، ومكتبات استنبول ولندن وإسلام آباد، وحيدر آباد، والقاهرة، وبغداد، ودمشق، وباليرمو، وغيرها... عجزت عن إحصائها بالدقة المطلوبة، وخلصت الى القول اليقين إنها روافد تصبّ جميعاً في **سبع قواعد أساسية للخط أعظمها الثُلُث، وأقوَمها النَسْخي، وأسهلها الرُقَعي، وأجملها الفارسي، وأفخمها الديواني، وأثبتها القيرواني، وأقدمها الكوفي**»(١٥٧)

---

(١٥٧) مجلة «العربي» الكويتية: العدد ٥٦٤ ـ نوفمبر ٢٠٠٥ - «في حديث لم ينشر عائد الى سنة ١٩٥٥، المستشرق بلاشير يقول: خليفة كولومبس أطلق اسمه العربي على أمريكا!»
راجع جريدة «النهار» البيروتية في ٢١/٣/١٩٩٨، ومجموعة «مفكّرة الأيام» لرفيق المعلوف- الجزء الثالث ـ ٢٠٠٢ ـ بيروت - «امة بلا خطّ في الزمن المنحطّ».

ولا شك في أن الاتجاه السائد اليوم في معظم الأوساط الفكرية والثقافية والجامعية والإعلامية، حول تجديد الأساليب القديمة في التعبير والزينة وفنون الإخراج الصحفي والكتبي، **قد تحول بتدخل خفي شرير لقوى غامضة معادية** تستهدف القضاء على التراث العربي برمته من خلال تشويه صورته الأصلية المتواصلة، وتزهيد الأجيال الجديدة في بعثه، وتعهد آلائه، وحماية رسوخه العميق في النفوس. . . **تحول الى نوع من الهستيريا الرافضة للمنطق السليم والجمال الأصولي والسلوك الحضاري المستقيم.** فبدأت بعض الأصوات المريبة تتحدث في هذه العاصمة العربية أوتلك عن أفضلية اعتماد **الحرف اللّاتيني** في كتابة العربية(. . .) ولما سقط هذا الاقتراح المشبوه وتصدى له المجتمع العربي والإسلامي على امتداد المناطق والدول، توجه أصحابه الى دعوة أخرى هي القول بافضلية **كتابة العربية بحروف منفصلة** مستقلّ بعضها عن بعض(. . .) ولما كان هذا الفصل يستعصي على خصائص الاستدارة التي تتميز بها معظم الخطوط التراثية وتؤدي حكماً الى تشويه صورة الخط واتساق مكوّناته العضوية الأساسية، لجأ **بعض محترفي «الديكور»** الذين يجهلون فرادة الخط العربي الأصيل وعبقرية رسمه، ولم يسبق لهم أن مارسوه إطلاقاً، **الى تبنّي هذه التقليعة الانفصالية**، إن جاز التعبير، ووجدوا أن أهون السبل الى تحقيقها يكمن في كتابة العربية **بحروف منفصلة تربيعية وتكعيبية** أشبه ما تكون برصف الحجارة على نمط فوضوي يكاد الناظر اليه يصاب بالقرف والعته فيعشى من طول ما يحدق دون جدوى. وكثيراً ما يستعصي غموض الكتابة العربية على واجهات

بعض المؤسسات التجارية في الأسواق الحديثة المتأنقة، الى حدّ يجعل رواد تلك المتاجر **يستعينون أسماءَها المكتوبة بالحرف اللّاتيني** العادي لمساعدتهم على فك رموز كتابتها العربية المشوّهة!

ولو صرفنا النظر في أي حال عن **الكارثة الثقافية** التي يفترض أن تحدث فيما لو اعتمدنا الكتابة بالحرف اللّاتيني، مع وجود أكثر من **سبعة ملايين مخطوط** باللغة العربية موزعة في المكتبات العالمية الكبرى فضلاً عن المكتبات الفردية، لم يحظ بالنشر والتحقيق منها غير جزء ضئيل **لا تتجاوز نسبته ثلاثة في المئة**... ولو تغافلنا كذلك عن فقدان «أحرف المدّ» في الكتابة اللّاتينية، وهي أدوات الفصاحة في اللسان العربي **الألف والواو والياء**، ثم فقدان الحروف ذات الهويّة العربية الخاصة التي لا وجود لها في محدودية الحرف اللّاتيني، **كالثاء والحاء والخاء والذال والشين والصاد والضاد والطاء والظاء والعين والغين والقاف**... ولو أعرضنا أخيراً عن **استحالة تلاوة القرآن بقراءَاته السبع** الفريدة، بسبب تلك النواقص الواضحة في الحرف اللّاتيني... لو سلمنا جدلاً بكلّ هذا التخريب لكيان اللغة في معرض التشويه الأحمق لهندامها... فإنّه يصعب على العقل السليم أن يعثر على **مكسب واحد أو هدف إيجابي واحد** لمثل هذا القناع الذي يخفي ملامح الجمال الخارق الذي زيّن به الخالق وجه المليحة العاربة العرباء...

ومن المؤسف ان نرى بعض المتحمسين لهذه الثورة الخرقاء

يدّعون أن الكتابة بالحرف اللّاتيني **تسهّل على الأجانب تعلّم اللغة العربية** بإلباسها حرفاً تعوّدوه. والى هؤلاء نقول إن الكثيرين من الأجانب يبدون اهتماماً يبلغ درجة الاستحسان والتفضيل، بجمالية حرفنا العربي من جهة، لكنهم **لا يجدون المراجع الكتبية المتخصّصة بتعليمه وتلقينه** للآخرين على أسس علمية مدروسة. ونضيف من جهة ثانية ان هذا الحرف مرتبط أساساً **بالخصائص الاشتقاقية** التي تنفرد بها اللغة العربية دون سائر اللغات، وهي خصائص تسهل على الأجنبي **حفظ أشكال الحروف** المتصلة بها. فلو أخذنا مثلاً فعل «ضَرَبَ» لتبيّن لنا بإنعام النظر أن حفظ أحرف ثلاثة هي الضاد والراء والباء ترد وتتردّد في «ضارَبَ» و «أَضْرَبَ» و«تَضارَبَ» الخ... يساعد المتعلَم على التآلف مع تراكيب العبارات والكلمات المشتقة عن ذلك الفعل **لامتيازها بالاختزال التدويني** أكثر ممّا لو كتبت بالحروف اللّاتينية، خصوصاً عندما تضاف اليها الضمائر المتصلة. فالمهم أن يتعلّم الطالب او المريد **تفعيلات الإشتقاق** وبعدها يسهل عليه الأمر. ومهما يكن فإنّ المطلوب من تعلّم إحدى اللغات في أي حال هو الولوج الى **عبقرية اللغة** وتلمّس **خصائصها الإبداعية الفريدة**، وليس المطلوب أن نحصل على **متعلّمين ببّغائيين** يقرأون وينطقون بلغتنا **كالأدلاء السياحيين** الذين يتقنون لغات عديدة لإرشاد السيّاح في المتاحف دون أن يفقهوا شيئاً من أبعادها وأسرار عبقريتها المستغلقة على عقولهم التي تتحكم بها الذاكرة الحافظة دون البصيرة العاقلة والقادرة على التحليل والانسجام أو الاعتراض.

ولا بدّ من الإشارة هنا الى أنّ كتابة اللغة التركية بالحرف اللّاتيني حققت **بعض النجاح في** إظهار تركيا الكمالية بمظهر الدولة الأوروبية البعيدة عن التخلّف الذي كان العالم الإسلامي يعاني بأقصى عيوبه في مطلع القرن العشرين. ولكن **ذلك النجاح لم يتجاوز الإطار الدعائي والإعلامي المحدود**، وهو لم يحفز إلّا قلة ضئيلة من ذوي المصالح الاقتصادية والسياسية على تعلّم اللغة التركية الذين كانوا يقبلون باعداد كبيرة، باحثين ومفكرين ودبلوماسيين، على تعلّم تلك اللغة أيام الدولة العثمانية تقرباً من الباب العالي، **لأهداف سياسية** متصلة بما عرف **«بالقضية الشرقية»** في القرن التاسع عشر وصراع الدول العظمى في تلك المرحلة على ممتلكات الأمبراطورية المهدّدة بالانهيار.

ذلك أنه **لا وجود لأي تراث فكري أو ثقافي تركي** خارج الانتماء الى الحضارة العربية الإسلامية، باعتبار أن الأتراك لم يعرفوا منذ نشأتهم في جبال آلتاي من آسيا الوسطى خلال القرن السادس الميلادي، وحتى مطالع القرن العشرين، **إلّا ثقافة الحرب**، وجميع الآثار ومعالم التمدن والعمران التاريخية التي تفاخر بها تركيا المعاصرة في استنبول وغيرها من مدن الأناضول، تعود الى **أصول إغريقية أو بيزنطية أو إيرانية فارسية أو عربية**. وانطلاقاً من هذه الحقيقة لم يجد الباحثون في تراث الأتراك ما يستحق العناء في تعلّم لغتهم **سواء اكتبت بالحرف العربي أم بالحرف اللّاتيني**. ولعل الظاهرة الوحيدة التي استدرجت إعجاب العالم بأسره، بالإضافة الى عظمة القصور

والمساجد التركية ذات الهندسة الإسلامية النموذجية بزخارفها ونقوشها، هي المجموعة الفريدة المميّزة من **الخطوط العربية** في المعالم الأثرية التركية، وما تمثله من عبارات تبرز الرسوم المستترة فيها لصنوف الطير والحيوان، وكأنما يملأ بواسطتها الخطاطون المهرة ذلك الفراغ الذي نجم عن تحريم تصوير الكائنات الحيّة في الإسلام.

غير أن المسألة **تختلف كلياً في إيران** التي حافظت على الحرف العربي نظراً للتراث الفكري والعلمي والشعري العائد الى الحضارة الفارسية القديمة والمدوّن **بالخطّ العربي منذ القدم**، لا سيّما وإنّ الحضارة الإسلامية العربية **تكاد تكون حضارة فارسية** في رأي العديد من المستشرقين والعلماء والمؤرّخين الثقات الذي أخذوا في الاعتبار كون فريق لا يستهان به من أعلام الحضارة المسلمين في التاريخ والفقه والأدب والفلسفة والعلوم، **إنّما يعود الى أصول فارسية**، وتحتسب مؤلفات هؤلاء بالملايين المدوّنة جميعاً **باللغة العربية والحرف العربي**. وما ينطبق على الإيرانيين في هذا الباب ينطبق في الوقت نفسه على الأفغان والهنود وغيرهم من الشعوب الأسيوية، كما ينطبق على أعلام الروم وأخلاطهم من الروس والكرج والصقالبة، وحتى الإفرنج والقوط والجرمان الذين كتبوا بالعربية في الزمن الوسيط أيام ازدهار الحضارة الإسلامية.

الزهريات والمنمنمات والمطعمات

أمّا **الزخارف** الماثلة في هوامش المخطوطات العربية القديمة او التابعة لمضمونها، والنقوش الواضحة في المعالم الأثرية والمساجد والتكايا والمدارس والدور والقصور، وفي عدادها **رسوم التزيين المرادفة للخطوط** على اللوحات الرخامية والجدران والقناطر، بالذهب والفضة والنحاس، فتعود في معظمها الى مصدرين رئيسيين، **فارسي وورومي بيزنطي**، وهي تندرج تحت ثلاثة عناوين: **الزهريات، والمنمنمات، والمطعّمات** أو ما يعرف بالـ (Arabesques) في اللغات الأوروبية.

فقد أعرض العرب والمسلمون إعراضاً كلياً عن فنون الرسم والتصوير للكائنات الحيّة وخصوصاً البشر، **ممّا نجده في الكاتدرائيات والكنائس** والقصور الأوروبية، كما أقلعوا بعد الإسلام عن صنع الدمى والتماثيل التي تـشكّل المظاهر الفنية الأولى والأساسية عند اليونان والرومان، وأهل حضارات المتوسط من الشعوب القديمة، بما فيهم شعوب الشرق الأوسط وشمالي أفريقيا وآسيا الشرقية الوسطى، والممالك الساميّة البائدة في العَرَبَة ووادي النيل والفراتين. **واستعاض العرب عن هذا النقص الفنّي الفادح في مسألة الرسم، بما عرف بالزهريّات**، وهي لوحات الخطّ أو الزينة التي يحتلّ الزهر فيها مواقع واضحة ومميّزة برع الخطاطون وحرفاء النقش في إبرازها وتنميقها حتى غدت فناً اختصاصياً قائماً بذاته يتبدّى بأبهى حلّة وأجمل سياق على جدران المساجد والقصور، وفوق المنابر والقناطر، وفي مدار القباب

وفلك المنائر والمآذن، وحتى على شواهد القبور. وقد واكبت هذه المدرسة الزهرية في الزينة مدرسة في الشعر، فكانت لبعض الشعراء قصائد عرفت بالزهريات، منها زهرية لبديع الزمان الهمذاني صاحب المقامات مطلعها:

بَرَزَ الربيعُ لنا برونقِ مائِهِ　　فانظرْ لروعةِ أرضِهِ وسمائِه
والوردُ ليس بممسِكٍ ريّاهُ إذْ　　يُهدي لنا نَفَحاتُهُ من مائه

وزهرية ابن الراجح الحِلّي التي يقول فيها:

يَفترُّ ثغرُ الأقحوانة باسماً　　إذْ للشقيقةِ مقلةٌ رمداءُ
فكأنَّ أعطاف الغصونِ منابرٌ　　والوُرْقُ في أوراقها خطباءُ[١٥٨]

وزهرية صفيّ الدين الحلي الذي أجاد في قوله:

والوردُ في أعلى الغصون كأنّهُ　　مِلِكٌ تحُفُّ به سراةُ جنودِهِ
فانظرْ لنرجسه الجَنِيّ كأنّهُ　　طرفٌ تنبَّهَ بعد طول هُجودِهِ
وانظرْ الى المنظوم من منثوره　　متنوّعاً بفصولِهِ وعقودِهِ

وأخيراً لا آخراً، الزهرية الرائعة لبدر الدين الذهبي التي تعتبر من روائع الشعر ويقول فيها:

تَرنَّحَ عَطفُ البانِ في الحُللِ الخُضْرِ　　وغنّى بألحانٍ على عودِهِ القُمْري
وأشرقَ خدُّ الوردِ يُبدي نُضارَهُ　　وأشرقَ جيدُ الغُصنِ في لؤلؤِ القَطْرِ
وباتَ سقيطُ الطَلِّ في كُلِّ رَوضَةٍ　　يُنبِّه في أرجائِها ناعسَ الزهرِ
وأَمسى أصيلُ اليومِ ملقىً من الضَنى　　على ميعة الأزهارِ في آخر العصرِ

---

(١٥٨) يقصد بالوُرْق الحمائم الناطقة بهديلها.

بكتْهُ حماماتُ الأراكِ وشقّقَتْ عليه الصَبا أثوابَ روضاتِها النُضْرِ
فكم من نحيبٍ للحمائمِ بالضُحى عليهِ ولْلأنوارِ من دمعةٍ تجري

ولم تقتصر الزهريات في الأدب على الشعر وحده بل كان للنثر جولات موفقة في مغانيها، كالمناظرة بين الأزهار أو ما يعرف «بالمقامة الوردية» لابن حبيب الحلبي. وهي فصول طافحة بالأريج ومباراة طريفة بين الورد والنرجس والياسمين والبان والنسرين والبنفسج واللّيْنوفَر والآس والريحان، احتكمت الأزهار في نهايتها الى رجل من أهل الفضل والعلم لمعرفة مَنْ تكون الزهرة التي يتعيّن أن تبايع بالإمارة لفاغم طيبها وحسن منظرها، فأفتى بأن الفاغية (أي زهرة الحِنّاء) هي صاحبة السيادة تصديقاً لحديث منسوب الى الرسول يقول فيه «إنّ سيّد الرياحين في الدنيا والآخرة الفاغية.»

وفي كتاب «كشف الأسرار عن حكم الطيور والأزهار» لابن غانم المقدسي، ما يشبه ذلك من مفاخرة الزهور بألوانها وطيوبها ومحاسنها، في مناظرة أخرى بين الورد والمَرسين والنرجس والبان والبنفسج والخزام وشقائق النعمان والأقحوان وغيرها من الأنوار الربيعية الفوّاحة.(١٥٩)

ويلفت الباحث في الزهريات الأدبية على أنواعها شعراً ونثراً اهتمام كبير بالورد لصباحة طلعته وطيب رائحته وشفاء مائه،

---

(١٥٩) أنظر «مجاني الأدب في حدائق العرب» للأب شيخو اليسوعي ـ الجزء ٥، ص٩٣. والجزء ٤، ص ١١٧ ـ دار المشرق ـ ١٩٨٦ ـ بيروت.

ويروي الأصمعي في «الأصمعيات» وهي مجموعة من أشعار العرب وأخبارها، أن حائكاً في بغداد كان يعمل بجدّ غير منقطع طيلة أيام السنة فلا يعطل أيام الجمعة وأيام الأعياد ولا في أي مناسبة أخرى، لكنه حالما يظهر الورد في أول الربيع، يغلق دكّان الحياكة وينصرف الى حياة ماجنة يشرب فيها الخمر على خوان مليء بالورد، ويجمع ندمانه وأصحابه من القيان والشعراء والمطربين، ويقضي أيامه ولياليه في أنغام وموسيقى وشعر وغناء، حتى ينتهي موسم الورد فيعود إلى عمله. ويقول الأصمعي إنّ خبر ذلك الحائك وصل الى المأمون، فطلبه وسأله عن حاله، فأخبره أنه يهيم بالورد ويحبّه حباً لا مزيد عليه، وأنّ له في الورد أشعاراً يردّدها أصحابه في لياليه الوردية، فطلب المأمون أن يذكر بعضها، فأنشد:

طابَ الزمانُ وجاءَ الوردُ فاصْطَبِحوا ... ما دام للوردِ أزهارٌ ونَوّارُ
فاشربْ على الوردِ من حمراءَ صافيةٍ ... شهراً وعشراً وخمساً بعدها النارُ

ثم أردف يقول:

لَئِنْ يُبْقِني ربّي الى الوردِ أَصْطَبِحْ ... وإنْ مُتُّ والَهْفي على الوردِ والخمرِ
سألتُ إلَهَ العرشِ جلَّ جلالُهُ ... يواصلُ عودَ الوردِ رَبّاً الى الحشرِ

فاستحسن المأمون منه ذلك، وقال: لقد نظر هذا الرجل الى الورد بعين جليلة. وأمر بجائزة مالية تدفع له كلّ عام في موسم الورد.

ويذهب الباحثون وعلماء النفس الى أن اهتمام العرب الكبير

بالزهر وما اليه من الحدائق والمروج الخضر، يعود بالدرجة الأولى الى حرمانهم منابت الأطياب والرياحين تلك في صحرائهم القاحلة وديارهم الرملية المجدبة التي لا تنبت إلّا الشوك والعوسج، وهو يواكب اهتمامهم الفائق بالماء في محيط وجودهم الحضاري بعدما حرموا منه طويلاً في زمن البداوة، على ما سوف نتطرق اليه في الفصل الآتي من هذا الكتاب.

فقد كان مجلس الشراب لا يكتمل أناقةً وانسجاماً بين حاسة الشمّ وحاسة الذوق إلّا على وسائد وأرائك يتخلّلها الورد وتفوح منها روائحه المنعشة، وفي ذلك يقول الحسن بن هاني:

لا تبكِ ليلى ولا تطربْ الى هندِ   واشربْ على الوردِ من حمراءَ كالوردِ

وفي عداد ما يذكر من تبدّل روح العربي ومشاعر نفسه خلال اتصاله بالحضارة، حكاية ذلك البدوي الذي أتوا به الى معاوية يشكو ظلامة، فمدحه بقوله:

أنتَ كالكلبِ في الحفاظِ على الودِّ   وكالتيْسِ في نطاحِ الخُطوبِ

فقام حراس الخليفة يبغون ضرب عنقه بالسيف. لكن معاوية الذكيّ الداهية سرعان ما أدرك صدق الرجل الذي لا يعرف إلّا أمثال ما ذكره من صفاتِ الحيوان في الصحراء. فردَّ حراسه فوزاً، وأمر بأن يطوفوا بالرجل في حدائق الشام الزاهرة وبساتينها الخضراء ثم يعودوا به اليه بعد أيام. فلمّا رجع ذلك البدوي بعد أسبوعين قضاهما في جنّة الفيحاء، ومثل بين يدي الخليفة سأله معاوية إن كان لديه بعض الغزل ممّا عاينه في ربوع الشام، فأنشد قائلاً:

يا مَنْ حوى زهرَ الرياضِ بخدِّهِ وحكى قضيبَ الخيزرانِ بقدِّهِ
دَعْ عنكَ ذا السيفَ الذي جرَّدتَهُ عيناكَ أمضى من مضاربِ حدِّهِ
كلُّ السيوفِ قواطعٌ إنْ جُرِّدَتْ وحسامُ لحظِكَ قاطعٌ في غِمدِهِ
إنْ رُمتَ تقتلني فأنتَ مخيَّرٌ مَنْ ذا يعارضُ سيِّداً في عبدِهِ

ويخلص بعض أولئك الباحثين والعلماء الى أن الصلة بين تعلق العرب بالخطوط الأصيلة الفنّية وميلهم الى بعض أنواع الزهر كالورد والأقحوان والشقائق وما شاكلها بما في ذلك أوراق النبات، إنما ترجع الى ما يجمع هذه وتلك من صفات الكروية والاستدارة والاستهلال والأشكال المقوّسة والمحدوبة، ممّا ذكرناه أعلاه، وهو مألوف راسخ في الذاكرة الوراثية من عصور البداوة الأولى.

أمّا التصاوير المعروفة بالمنمنمات (Miniatures) التي تحتويها طائفة من المصنّفات العربية والفارسية القديمة، والتي يستعمل بعضها لتظهير الأفكار وتمثيل الأشخاص أو لمجرّد التزيين والتجميل، فقد نسبها معظم نقّاد الفن ومؤرخيه الى الفرس نظراً لقلة وجودها في الآثار العربية الكتبية وانتشارها الواسع في طائفة لا يستهان بها من الآثار الفارسية. ولكننا نميل الى الاعتقاد أنها ذات اصل عربي لأنها لم تظهر عند الفرس قبل الإسلام. وممّا يعزّز اعتقادنا هذا أنها ذات صناعة فنّية بدائية حاول بعض الخطّاطين والرسامين العرب في بغداد خلال القرن الثاني للهجرة أن يتجاوز بها «تجاوزاً خجولاً» ما نسب الى الرسول من حديث بأنّ المصوّرين يعذّبون يوم القيامة... فجاءَت المنمنمات بمثابة

إشعار مريب في **الاحتيال على منع التصوير**، يشبه تلمّظ الصائم في الاحتيال على منع الفطور، وغمزة العاشق في الاحتيال على منع الزنى، مع العلم أن إشعار المنمنِم والمتلمِّظ والغامز باحتياله قد يفترض المباشرة بالتصوير والفطور والزنى، **بقدر ما يَفترض عودة هؤلاء الثلاثة الى الامتناع.**

ويطابق رأينا هذا ما ذهب اليه **البحّاثة الأديب بشر فارس** المصري اللبناني الأصل صاحب كتاب «سرّ الزخرفة الإسلامية»، في محاضرة ألقاها سنة ١٩٥٥ في بعض جامعات أوروبا، حول كشفه النقاب عن مخطوط من القرن الرابع الهجري للعالم الإسلامي الكبير **أبي علي الفارسي** عنوانه «**الحجّة في علل القراءات**» يقول فيه:

«من صاغ عجلاً أو نحره أو عمله بضرب من الأعمال، لم يستحق الغضب من الله والوعيد من المسلمين. فإن قال قائل إنّ الله يعذّب المصوّرين يوم القيامة استناداً الى حديث رسول الله، فإنّ ذلك التعذيب يكون على من صوّر الله تصوير الأجسام، أمّا الزيادة فمن أخبار الآحاد (أي الأفراد) التي لا توجب العلم. فلا يُقدح لذلك في الإجماع.»

ويستدل من هذا الكشف أن المنع يشمل خصوصاً تصوير الله عزّ وجلّ الذي لا تدركه أبصار العالمين دون غيره من الكائنات الحية. ويركّز بشر فارس على أنّ أبا علي الفارسي استند الى «الاجماع» عند أهل زمانه في هذا التعليل. ويضيف أن المنمنمة

التي نشأت عربية هي التي انتقلت الى فارس **بعد انحطاط الدولة العبّاسية في بغداد**.[160]

وإذا كان هناك من عبرة تستخلص من حضور المنمنمات في الآثار الكتبية المخطوطة أمثال «كليلة ودمنة» وكتاب «الأغاني» و«مقامات الحريري» وغيرها من المصنّفات الطبية والبيطرية والفلكية والتنجيمية والنباتية، ويقصد بذلك **الآثار الكتبية العربية دون الفارسية**، فهي أن الاجتهاد في مسألة التصوير الذي لم يحرمه القرآن في نصوص واضحة، إنما تناول الحديث النبوي فقط، وأدّى على يد المعتزلة في زمن المأمون وبعده في القرنين التاسع والعاشر الميلادي الى الفصل بين «تصوير محرّم» كتشخيص الله والرسول وسائر الأنبياء والمرسلين لغرض العبادة، على نحو ما حدث في المسيحية، «وتصوير غير محرّم» للكائنات الحيّة وغيرها بهدف الانتفاع العلمي والتظاهرة الفنّية، وذلك بأسلوب النمنمة الخجولة التي لا تحدث أثراً إرتدادياً في صفوف العامة.

ولا بدّ من الإشارة في هذا المجال الى أن الزهريات قد ظهرت على نطاق واسع في المنمنمات العربية والفارسية، فاستعملت المساحات الفارغة في التصاوير المنمنمة للأزهار والأغصان النباتية بهدف تجميل الصور وإبراز جمالاتها.

وأمّا المطعمات فقد نالت هي أيضاً نصيبها من الزخارف

---

(١٦٠) أنظر «مفكّرة الأيام» لرفيق المعلوف ـ الجزء الثامن ـ ص ١٣٩ ـ وعدد جريدة «الجريدة» اللبنانية بتاريخ ١٨ / ١١ / ١٩٥٦.

والنقوش الزهرية التي بعثت جذوة الحياة في تراكيبها الجامدة. فالمطعمات التي اشتهرت بها بلاد الشام تعود الى أصول هلّينستية رومانية وبيزنطية تمثلت عند تلك الأمم القديمة بالفسيفساء التي اكتشف منها الكثير في أنطاكية وتدمر والأناضول ومدن سواحل الشام كطرطوس واللاّذقية وبيروت وطرابلس وصيدا وصور وحيفا الخ...

وقد أخذ العرب في بلاد الشام من الفسيفساء الرومية جزئياتها التكوينية أو ما يعرف بالـ (Puzels) المربعة والمستطيلة المتنوعة الألوان والأحجام لتأليف مطعّماتهم، دون الجزئيات التي تؤلف الرسوم والتصاوير، وأضافوا اليها الجزئيات الزهرية، كما شبكوا بين أطرافها بما يعبّر أكمل تعبير عن مفهوم «العروة الوثقى» في الإسلام، وأدخلوا الى الجزئيات الأصداف البحرية البيضاء والزرقاء وجعلوا القاعدة التي يجري التطعيم عليها من خشب الورد النادر كما أشركوا في صنع تلك الجزئيات خشب الزيتون والزنزلخت والأبانوس الأسود وغيرها بحيث تأتي الألوان في تناغمها أقرب ما يكون الى الأصول الطبيعية.

واختصّت هذه المطعّمات التي استعملت في كسوة جدران المساجد والقصور والمباني الفخمة وأطواق القبب والأقواس، بأشكالٍ هندسية متنوعة ونجوميّة خماسيّة أو سداسيّة أو ثمانيّة مستديرة أو مربّعة أو مستطيلة أو نصف دائرية أو مقوّسة بحسب شكل البناء الذي كانت تثبت في واجهته الظاهرة، كما استعملت معادن الذهب والفضّة والنحاس في تصميمها، واستعيض عن

التصاوير في العديد منها بآيات من القرآن أو أبيات من الشعر. كذلك ظهر فنّ التطعيم بمظاهر شتى في أبواب الدور والنوافذ والفسقيات على أنواعها شرقاً وغرباً، وفي السبل المائية والأحواض والمشرّبيات والأكشاك والحمامات والأروقة وما اليها.

واشتهر الدمشقيّون بالمطعّمات الفاخرة النادرة، كما اشتهر الصنّاع من أبناء الجبل اللبناني والشويريون خصوصاً، بصناعة الحجر وتطويعه لاستيعاب المطعّمات. وسرعان ما انتقل فنّ المطعّمات الدمشقية الى مصر التي برع فنّانوها في ضروبها الرائعة، كما انتقل ذلك الفنّ الى تونس والجزائر والمغرب الأقصى الذي يحتوي اليوم، خلا مصر والشام، أروع مجموعة من المطعّمات في ديار الإسلام قاطبة، باستثناء بعض الآثار الفنّية التي سلمت في إيران وتركيا وآسيا الوسطى من تقلبات الفتوح وغزوات المغول والتتر وعناصر التدمير والتخريب التي تكتظ بها ذاكرة الأيام.

ومن غريب ما شاهدته شخصياً وأشهد به أمام القاصي والداني، مع حفظي له بمنتهى الحرص والعناية، طاولة صغيرة مثمّنة الزوايا، تطوى قوائمها بسهولة، وصنعت من خشب الزنزلخت الخفيف، لتيسير نقلها على السائح، حملها إليّ صديق من المعرض الدولي الذي أقيم في اشبيلية بالأندلس عام ١٩٩٢، وهي تحفة مطعّمة أندلسية الصنع مطلية بمادة «البوليستر» لتأمين صيانتها. فما زلت أنظر بدقة واهتمام ونوع من الشاعرية إن جاز

التعبير، الى هذه الدرّة العجائبية العائدة إليّ بعد ألف سنة من بلاد بعيدة، وكأنها خرجت للتوّ من محترف صانع فنان في دمشق الأموية!! فقد ورثت عن السلف الكريم في داري المتواضعة مطعّمات شامية يعود بعضها الى خمسين سنة وبعضها الى مئة وخمسين وبعضها الى مئتين، وعبثاً حاولت المقارنة بين تلك الهديّة الأندلسية العادية وما عندي من المطعمات الدمشقية التي يفصل بينها وبين هديتي التي تلقيتها ٨٠٠ سنة على الأقل، فلم أعثر إلّا على فوارق ضئيلة جداً، فكأن الذي صنعها هو حريف شامي هاجر من دمشق سنة ١١٠٠ وهو لا يزال يعيش في اشبيلية سنة ١٩٩٢ (!!)

ولعل أكثر ما يدهش في هذا النموذج من المطعّمات التي تعلّمها أهل اشبيلية من جدود قدموا الى الأندلس في القرون الغابرة من الشرق، هو حلقات الزهر وصفوفه البادية في الصفائح المطعّمة وكأنها شهود الأصالة العربية وطباعها الغالبة تتسلّل من خلال الدوائر والأهلة، لتنعش المربّعات الجامدة العجماء، وتحدّث الناظر الحائر بكلمات سحرية تتخطى الأزمنة لتستقر في رحبات القلوب وتغنيها بهناءَة الوجود المستعاد عن سراب الخلود المؤَمَّل في استحقاقٍ مؤَجل!..

- ٩ -

مهرجان الأَلوان والأَرقام وأبراج السماء

لو سئل العربي عن سرّ الحياة وعلّة الوجود في أي زمان أو مكان، لجاز العصور بنظرة حالمة يتخلّلها الظمأ الدهري قائلاً:
﴿وجَعلْنا من الماءِ كلَّ شيءٍ حيٍّ﴾(١٦١)

فحكاية العرب من بدايتها الى النهاية حكاية ماء، وسحاب ماء، وسراب ماء. وفي حديث أبي هريرة: «**أُمُّكُمْ هاجَرُ يا بني ماءِ السماء**»، يقصد «العرب»، لأنهم يحلّون في الأماكن التي يتساقط فيها المطر. وكان الماء هو **المرغوب المحجوب** في صحارى العرب منذ آلاف السنين، يقطع البدوي منهم مئات الأميال في طلبه حتى إذا وجد سيلاً شحيحاً في وادٍ قفر أو ركيّة(١٦٢) ذات أمواه ضئيلة آسنة منسيَّة في وجرة موحشة ضرب خيمته في جوارها وأقام على حمايتها والذود عنها بسلاحه **قاتلاً** أو مقتولاً. ويظلّ

---

(١٦١) سورة الأنبياء: ٣٠

(١٦٢) الركيّة هي البئر التي يترسّب في عمقها بعض الماء.

ذلك البدوي الهائم على وجهه في انتواء متواصل يتنقل من واحة الى أخرى طلباً للرِوى، **لا سيما عند انحباس المطر** وفي مواسم الجفاف، يقرب الذبائح للآلهة ويستجدي الغيوم العابرة ديمة مسعفة رحيمة، تنقع غُلّته وتسقي أهله وعياله ومطاياه وأنعامه. وهو لو أقام في أرض ندية ثريّة لابتنى عندها حوضاً وزرع البقل **واستغنى بموردها القليل الثابت** عن متاع الدنيا.

وكثيراً ما تكنّى العرب في صحرائهم بالماء الذي يقيمون في جواره أو ينزلون عليه، فيصبح ماء هذه القبيلة أو تلك إسماً لموطنها ومحلّ إقامتها، فيقال: «صادفته عند ماء طلحة»، أو «كنا على مسيرة يومين من ماء غطفان»، أو «أسلّمك الإبل في محرّم عند ماء عنيزة» الخ. . . وبلغ من حرصهم على الماء أن جعلوه في منزلة العرض صوناً وكرامة، فسموا أجمل الإناث من مواليدهم «ميّ» و«ميّة» و«ماويّة»، فأصبحن من عرائس بعض شعرائهم، كما في قول نابغة بني ذبيان:

يا دَارَ مَيَّةَ بالعَلياءِ، فالسَّنَدِ أَقْوَتْ وطال عليها سالفُ الأبَدِ(١٦٣)

أو قول عمر بن الفارض شاعر الصوفيّة بعد النابغة بقرون:

لم يَعُدْ لي منزل بعد النقا لا. ولا مستملَحٌ من بعدِ مَيّ(١٦٤)

أو كما دأب حاتم الطائي على ذكر ماويّة في شعره، وهو ما ألمحنا اليه في موضع سابق، وكانت ماويّة زوجته.

---

(١٦٣) العلياء والسَّنَد: إسمان لموضعين. أقْوَتْ: خلت من سكانها. سالف الأبد: الماضي من الدهر.

(١٦٤) النقا: كثيب الرمل.

وقد أحاط القدماء بعض الأنهار والينابيع الثرّة النادرة بهالة من القدسيّة وأكرموها إكراماً يكاد يشبه العبادة. وفي طليعة هذه الأنهار دجلة والفرات وشط العرب والنيل، ثم الأردن الذي اعتمد فيه المسيح، وكانت لهذه الموارد المائية في جوار الصحراء مكانة متقدمة عند سكان العَرَبَة قبل الإسلام، سواء في معتقداتهم الدينية الواغلة في القدم أو في طموحاتهم المادية. وقد رحل بعضهم الى ضفاف تلك الأنهار وتوطنوا في جوارها. لكن الينبوع الذي حظي بأعلى درجة من التقديس والأهمية قبل الإسلام وبعده، هو «زمزم».

ففي أخبار السلف أن إبراهيم وصل الى الحرم المكيّ مع هاجر وإسماعيل فلم يرَ في جواره أحداً فقال حسبما جاء في القرآن: ﴿رَبَّنا إنّي أَسْكَنْتُ من ذرِّيَّتي بِوادٍ غَيْرِ ذي زَرْعٍ عند بيتكَ المحرَّمِ رَبَّنا لِيُقيموا الصَلاةَ فاجْعَلْ أَفئِدةً مِنَ الناسِ تَهوي إِليهِمْ وأرزُقْهُم مِنَ الثَمراتِ لَعَلَّهُم يَشْكُرون﴾(١٦٥)

ويقول بعض المفسّرين أن إبراهيم ترك زوجته وابنه هناك وذهب. فاشتدّ الحرّ على المرأة وطفلها، وكان في موضع بئر زمزم شجرة تـفيّئاها، وسرعان ما نفد الماء الذي كان مع هاجر فراحت تعدو بين الصفا والمروة باحثة عمّا تشفي به غليلها وغليل الولد من الماء، لكنها لم تحصل على شيء منه. وفي «قصص الأنبياء» للكسائي أن جبريل ظهر لها وبشرها بالنجاة، فنظرت الى إسماعيل

---

(١٦٥) سورة إبراهيم - ٣٧

وهو ينبش الرمل بأصبعه، وإذا بالماء ينبع بين يديه، فخرّت ساجدةً لله، ثمّ طوّقت الماء المتدفق ببعض الحجارة كي لا ينتشر ويسيخ في الأرض، وقالت: «**زَمْزَمَ والحمد لله**». ومعنى زَمْزَمَ «تَجَمَّعَ» أي الماء، فسمّي هكذا من ذلك اليوم. وفي المرجع التاريخي نفسه أن **جُرْهُمَ** لم تكن قد جاءَت الحرم ونزلت مكة في زمن تلك الحادثة، فشاءَت الصدف أن تمرّ قافلة منهم بالمكان الذي اجتمعت على مائه الطير، وكان ركبانها مقبلين **من اليمن يقصدون الشام**، فسألوا المرأة من تكون، فقالت **أنا هاجر جارية إبراهيم خليل الله، وهذا ولدي منه، وقد أخرج الله لنا هذا الماء**. قالوا: هل تمنعينا عن الماء إن حضرنا بأهلنا وسكنا هنا لنؤنس وحشتكم؟ فقالت: **الماء لله يشربه خلقه جميعاً**. فاستقدموا أهاليهم ومواشيهم ونزلوا الحرم، وتزوّج إسماعيل منهم عندما شبّ(!!) وبنى إسماعيل البيت مع والده بعد ذلك **وعلّمهما جبريل المناسك واستقبال القبلة**، ولم يكن في مكة يومها بيتٌ مَشيد(...)

ولا غرو بعد هذه القدسيّة التي أحاطت بزمزم منذ اعماق الجاهلية الأولى أن يواكب الماء بعض المظاهر المتصلة بفريضة الصلاة في الإسلام، حيث بات الوضوء **شرطاً أساسياً للمصلّي** بصفته رمزاً **للطهارة** كما في الآية: ﴿... **ويُنزلُ عليكم من السماءِ ماءً ليُطهِّرَكم به**...﴾(١٦٦) وقد أجاز القرآن التوضُّؤَ بالتراب إن فقد الماء، قبل أداء الصلاة وسمّاه «**التيمُّم**» وهو يقضي بمسح الأطراف والوجه بالتراب النظيف غير الآسن ﴿... **فلم تجدوا ماءً**

(١٦٦) سورة الأنفال: ١١

فتَيمَّموا صعيداً طيّباً فامسَحوا بوجوهكم وأَيديكم...﴾[١٦٧]

كذلك يحتل الماء مواقع ذات أهمية بالغة في الكتاب المبين.

• **فهو ماء الطوفان** حيناً عندما غِيضَ واستقرت سفينة نوح على الجوديّ، كما في الآية: **﴿وقيل يا أرضُ ابلَعي ماءَكِ ويا سماءُ أَقْلِعي وغِيضَ الماءُ وقُضِيَ الأمرُ واستَوَتْ على الجوديِّ...﴾**، وحيناً آخر عندما غرق أحد أبناء نوح وقد رفض أن يستقل السفينة معه **﴿قال سَآوي الى جبل يعصِمُني من الماء قال لا عاصمَ اليومَ من أمرِ اللهِ إلّا مَنْ رَحِمَ وحال بينَهما الموجُ فكانَ مِنَ المُغْرَقين﴾**[١٦٨]

• **وهو ماء جهنّم** أحياناً كما في قوله تارة حول مصير الجبّار العنيد: **﴿مِنْ ورائِه جهنّمُ ويُسقى مِنْ ماءٍ صَديدٍ﴾**[١٦٩]، او قوله تارة أخرى: **﴿...كَمَنْ هو خالدٌ في النارِ وسُقُوا ماءً حَميماً فقطّعَ أمعاءَهُم﴾**[١٧٠]...

• **وهو من لدن الله ونعمته في كلّ حين «ماءٌ طهورٌ»**، كما في معظم آيات الكتاب، تصبح معه «الأرض مخضرّة»، ويخرج به «أزواجاً من نبات شتّى»، **﴿والله أَنزلَ من السماءِ ماءً فأَحيا به**

---

(١٦٧) سورة النساء: ٤٣. وسورة المائدة: ٦

(١٦٨) سورة هود: ٤٤ و ٤٣ .والجوديّ جبل قرب الموصل.

(١٦٩) سورة إبراهيم: ١٦ .والماء الصديد المختلط بالقيح والدم.

(١٧٠) سورة محمّد: ١٥ .والماء الحميم الشديد الحرارة.

الأرضَ بعد موتها...﴾[171] ﴿قُلْ أَرَأَيتُم إِنْ أَصبحَ ماؤُكُم غَوراً فَمَنْ يأْتيكُم بماءٍ مَعينٍ﴾[172]

والواقع أن قلّة الماء وندرته في الصحارى المقفرة والسباسب الموحشة، جعلته بمثابة الكنوز المرصودة في نظر أهل الوبر الذين اعتبروه في مختلف الظروف والأحوال قبلتهم الأولى، يقلبون الأرض بجبالها وأوديتها بحثاً عن قطرة منه فلا يعثرون عليها بعد جهد جهيد وصبر طويل إلّا وقد انتابها التلوث وغدت آسنة قذرة لا تصلح لشرب الماشية أو حتى لغسلها. وتظهر هذه النكبة البيئية الحياتية بأجلى مظاهرها، في شعر الجاهلية وصدر الإسلام الذي يكاد يخلو من أي ذكر مستحب أو مستملح للماء أو أي وصف له مطابق لما يمتدحه به القرآن حيث يقول إنه مصدر الحياة، لكنه يعرض في أي حال عن تصويره بالصورة الكمالية والجمالية المثالية في الدنيا، ويترك هذه الصورة مأمولة لمن أثابه الله في الآخرة فأدخله جنّات تجري من تحتها الأنهار. أمّا في يوميات الحياة الدنيا، فقد كان ذلك الماء كما وصفه الشاعر الجاهلي قيس بن عمرو النجاشي الذي أدرك الإسلام وعرف بالزندقة، في قوله:

وماءٍ كلَوْنِ الغِسْلِ قد عاد آجناً   قليلٌ به الأصواتُ في بلدٍ مَحْلِ[173]
وجدتُ عليه الذئبَ يعوي كأنّهُ   خليعٌ خلا من كلِّ مالٍ ومن أَهْلِ

---

(171) سورة النحل: ٦٥

(172) سورة المُلك: ٣٠

(173) آجناً: آسناً قذراً. والقول إنه «قليل الأصوات» يعني أنه معزول لا يوجد حوله من يرسل صوتاً من البشر أو الحيوان.

ولم يحظ الماء بالقدر الذي يستحق من تكريم الأدباء والشعراء بالتالي **إلّا بعدما خرج العرب من صحرائهم** وانتشروا في بلاد الحضارة الزراعية والعمران من جبال السند الى جبال الأطلس وتوغلوا عبر الأندلس في قلب أوروبا فتعرّفوا الى روائع الماء والخضراء.

من الشجر الأخضر الى النجيع الأحمر

فالخضراء التي يلدها الماء وتخرج من رحمه، كانت ولا تزال، وستبقى **ذلك الفردوس المفقود** في عمق الوجدان العربي وصحراء النفس العربية، حتى لو جاد الزمان على الإنسان العربي في أي مرحلة سابقة أو حاضرة أو لاحقة بالظل الوارف والجنّات والواحات التي تجري من تحتها الأنهار في هذه الحياة الدنيا بصرف النظر عن الآخرة. فقد أطلق العرب صفة الإخضرار على كلّ بلد يتناهى اليه حنين قلوبهم أو تتلاقى في أجوائه ذكرياتهم وآفاق طموحهم، **كاليمن السعيد، ولبنان الأخضر، ودمشق الفيحاء وتونس الخضراء الخ**... وأصبح اللون الأخضر لون الجنة ملك الألوان المحبّبة الى نفوسهم، وأخصه بالذكر عندهم ذلك **السندسي** الذي يلبسه الخالدون في جنّاتِ عَدْنٍ **﴿أولئِكَ لهم جنّاتُ عَدْنٍ تجري من تَحتِهِمُ الأنهارُ يُحَلَّوْنَ فيها من أساورَ من ذهب ويَلبَسونَ ثياباً خضراً من سُنْدُسٍ وإِستَبْرَقٍ متّكئينَ فيها على الأرائِكِ نِعْمَ**

الثوابُ...﴾[174] فيقول أبو تمّام الطائي في رثاء محمد بن حميد الطوسي:

تَرَدّى ثيابَ الموتِ حمراً فما دجى   لها الليلُ إلّا وهيَ منْ سُنْدُسٍ خُضْرُ

ويقول واصفاً أخلاق أحد أصدقائه بالربى الخضراء:

لا تبعُدَنْ أبداً وإنْ تبعُدْ فما   أخلاقُك الخضرُ الرُبى بأباعدِ

ثم يصف المطرة القادمة بعد انحباس بقوله:

أتتْ بعد هجرٍ من حبيبٍ فحرّكتْ   صبابةَ ما أبقى الصدودُ من الوصلِ

وقد عرفوا الطلح والغضا والأراك والخابور والرند والغار والنخيل، وغيرها من الشجر الأخضر والنبات الفواح، لكنّ السِدْرَ كان هو الأكرم عندهم لأن منه «سدرة المنتهى» التي جاء في «لسان العرب» أنها شجرة عظيمة وارفة الظلّ قائمة عن يمين عرش الله يتفيّأها الخالدون. وفي التنزيل الحكيم ﴿**ولقد رآه نزلةً أخرى، عندَ سِدْرَةِ المنتهى، عندها جَنَّةُ المأوى، إذ يَغْشى السِدْرَةَ ما يَغْشى**﴾[175] وحيث يكون المؤمنون الخالدون ﴿**في سِدْرٍ مَخْضودٍ، وطَلْحٍ مَنْضودٍ، وظِلٍّ ممدودٍ**﴾[176]

---

(١٧٤) سورة الكهف: ٣١

(١٧٥) سورة النجم: ١٣، ١٤، ١٥، ١٦ ـ يقصد رؤية النبي لجبريل في الآية ١٣، والنزلة تعني المرّة.

(١٧٦) سورة الواقعة: ٢٨، ٢٩، ٣٠ ـ وقوله في سدر مخضود أي لا شوك فيه، وطلح منضود أي كبير الحمل من ثمره.

ويذكرنا الحديث على السِدْر قول مجنون ليلى قيس العامري:

فَوَاللهِ ما أنساكِ ما هَبَّتِ الصَبا   وما ناحتِ الأطيارُ في وَضَحِ الفجرِ
وما لاحَ نجمٌ في السماء وما بكَتْ   مُطَوَّقَةٌ شَجْواً على فَنَنِ السِدْرِ

وكانوا يلفّون الميت بغصونِ السدرِ مع الأكفان تيمّناً بدخوله الجنّة حيث ينضمّ الى الخالدين تحت سدرة المنتهى. فيقول مالك بن الريب التميمي مخاطباً رفيقيه في اليائية الشهيرة التي يرثي بها نفسه وقد سبق ذكره في موضع آخر:

وقوما إذا ما اسْتُلَّ روحي، فهَيِّئا   ليَ السِدْرَ والأكفانَ ثمَّ ابْكِيَا لِيا

وبمقدار ما يأنس العربي باللون الأخضر نراه ينفر من الأحمر القاني الذي يذكّره بلون الدم وهو يسيل من الجراح الرغيبة في المعارك والحروب وينشر في أعماق نفسه كئابة الموت. لكنه يرتاح الى حدّ ما في مقاربة التداعيات الورديّة للأحمر التي يستشعر معها بألوان الصحراء ورمالها وكثبانها، وألوان الوَبْر في إهاب الجمل ومنها خيوط عباءَته ونسيج خيمته، كما يرى في بعض تلك التداعيات ألوان الخمرة والنبيذ وبعض الشقائق من أزهار الطبيعة، والثمار اليانعة والرطب الشهيّة والهالة المحيطة بحلمة الثدي ومطاوي الفرج الأنثوي وحشفة رأس القضيب. ويوحش الأحمر من جانب آخر نفس العربي حيث يبتعث فيها صور الغزوات والقتلى وصور العصر والأصيل بألوانه الذهبية الداكنة عند غروب الشمس فيما يشبه ذوبان أشعتها على رمال الصحراء فتبدو وكأنها سابحة في بحر من نجيع، فالقرآن يقول: ﴿والعَصْرِ إِنَّ الإنسانَ لَفي

خُسْرٍ. إلّا الذينَ آمنوا وعملوا الصالحاتِ...﴾[١٧٧] لذلك يوحي غروب الشمس بفناء الحياة وقهقرية الوجود، وهو يحمل مع سكون الأصيل روح الشلل والتخاذل والانقراض.

ثم إن العربي **قلّما أبدى ارتياحه للّون الأصفر** الذي يمثل استشراء العلّة وتداعي الصحة وذبول النضارة، وهو في أي حال لون الخريف، وشتاء الحياة **الذي يسبق النهاية والموت والرميم**. ويشير القرآن الى ذلك في آيتين يضرب المثل بهما على النبات الذي يخرج من الأرض زاهياً أخضر ﴿**ثمّ يَهيجُ فتراه مُصْفَراً ثم يَجعلُهُ حُطاماً...**﴾[١٧٨] أو ﴿**...يكونُ حُطاماً...**﴾[١٧٩]، كما يعرّض بالكافرينِ الذين يبرَمون باصفرار النبات عند هبوب الريح المضرّة باخضراره، وذلك في قوله: ﴿**ولَئِنْ أَرسلنا ريحاً فرأَوهُ مصْفَراً لَظلّوا من بعده يكفرون**﴾[١٨٠].

وقد تشاءَمت العرب دائماً «بالوجوه الصُفْر»، وهي وجوه الأجانب من الروم والروس والكرج والخزر والصقالبة وأخلاط القوط والفرنجة والجرمان الآريين الذين يباهون بانتمائهم الى العرق الأبيض ويبدو في ملامحهم شيء من الصفرة، وكذلك الترك والتتر والمغول أخلاط العرق الأصفر الذين عانى العرب منهم ومن الآريين أعظم ويلات الحروب الهمجية التي لا رسالة لها ولا

---

(١٧٧) سورة العصر: ١، ٢، ٣

(١٧٨) سورة الزُمر: ٢١، وقوله «يهيج» بمعنى يَيْبَس.

(١٧٩) سورة الحديد: ٢٠

(١٨٠) سورة الروم: ٥١

هدف إلّا السرقة والسطو وتخريب الحضارة. **وجاءَت الحملات الصليبية فيما بعد** تؤسس لصراع لم ينته الى اليوم، بفعل مطامع الاستعمار والصهيونية المتمثلة بدولة إسرائيل. فالواقع أن هنالك رفضاً سليقياً من جانب الذات العربية وطبيعتها السمراء التي تميز الإنسان العربي، لهذه العناصر البشرية الآرية، منذ أن وجه الرسول العربي **رسالته الى قيصر بيزنطية** يدعوه فيها الى الإسلام. ومعروف أن ردّ القيصر كان أنه لن يتخلّى عن دينه ليدخل في دين بدوي أمّي يدّعي النبوءَة (!!.) ويمكن القول إن الردّ المهين والقصير النظر أسّس، مع الأسف، لحرب مصيرية بين المسيحية الغربية والإسلام، **رفضتها العرب المتنصرة منذ البداية**، وما تزال ترفضها الى اليوم. ويؤكد التاريخ هذا الرفض **عبر حادثتين أساسيتين: الأولى** في معركة اليرموك سنة ٦٣٦م. (١٥ للهجرة) التي انفصل خلالها السواد الأعظم من الغساسنة النصارى عن جيش هرقل البيزنطي وانضموا الى الفاتحين المسلمين العرب بقيادة خالد بن الوليد، ثم عمل فرسانهم على منع سفرونيوس بطريرك القدس الرومي **من أي مقاومة لجيش العرب، فدخل عمر بن الخطاب المدينة سلمياً بعدما أعلنوها مدينة مفتوحة**، وبادر الى الصلاة في مكان قريب من كنيسة القيامة كي «لا ينازع المسلمون عليها النصارى ويحولوها الى مسجد» بحسب قوله، فأقام المسلمون قربها مسجد عمر. **أمّا الحادثة الثانية** فهي أن رجال الدين المسيحيين المقدسيين العرب غادروا كنائسهم وأديارهم يوم دخلها الفاتح الفرنجي «غودفروا دي بويون» **في الحملة الصليبية الأولى** سنة ١٠٩٩م. **ولجأوا الى دمشق**، ثم عاد خلفاؤهم الى

بيت المقدس مع صلاح الدين الأيوبي سنة **١١٨٧م**. بعد انتصاره على الفرنجة في حطين. وإن دلّت هاتان الحادثتان التاريخيتان على شيء، **فإنما تدلّان على انتصار الوجدان القومي على الوجدان الديني** في النفس العربية ورسوخ الانتماء الى الجذور العربية في أعماق تلك النفس.

ولا غرو أن يتكرر هذا الواقع النفسي الايجابي بعد أكثر من عشرة قرون... ومن جانب المسلمين هذه المرّة، **بعد أن فشل صاحب نظرية «صراع الحضارات»** هنتنغتون في تحويلها الى «صراع للديانات» كما كان يتمنّى، أو على الأصح الى «صراع بين المسيحية والإسلام» تخصيصاً. فبالرغم من الإساءَة المعيبة للنبي العربي التي أقدمت عليها بعض الصحف الأوروبية في محاولة إجرامية خبيثة للقضاء على نصارى الشرق بسيف الإسلام، **لم يسجّل** في دول يتجاوز عدد سكانها المليار ونصف المليار من المسلمين، **أي اعتداء** على أي كنيسة أو دير أو فرد أو جماعة مسيحية من نصارى الشرق على الإطلاق. ولا عبرة في التفجيرات التي حصلت في محيط بعض الكنائس في العراق، لأن الذين يقدمون على مثل هذه العمليات الإرهابية في ذلك البلد الجريح الصابر تعرف جمهرة المخلصين للحقيقة المؤمنين بالحقّ في الشرق والغرب جميعاً، «مَنْ هُم، ولمنْ هُمُ، ولمنْ تُمثَّلُ هذه الأدوارُ» على حدّ تعبير الشاعر العراقي محمد مهدي الجواهري...

ونعود هنا الى **«الوجوه الصفر» واللون الأصفر**، بعد هذا

الاستطراد الذي فرضته المناسبة في بحثنا هذا، لنضيف أن بعض ما يؤكد نفور النفس العربية من الصفرة، هو إقدام **«تيوفيلوس» قيصر الروم، في معركة عمّورية** سنة ٨٣٨م. على جمع أكبر عدد من الخزر والتتر والروم والروس وأخلاط قبائل بحر قزوين الآرية لردّ هجوم المعتصم بالله العباسي الذي هاله أن تنادي إمرأة مهتوكة مسبيّة في بلدة زِبَطْرة بالأناضول: «وامعتصماه!» فجرّد جيشاً رهيباً للإقتصاص من جلّاديها. وقد انتصر المعتصم **في تلك المعركة القطبية** على البيزنطيين، فمدحه أبو تمّام الطائي بقصيدة مخلّدة في الشعر العربي مطلعها: «**السَيْفُ أَصدقُ إِنباءً من الكُتُبِ / في حدّهِ الحدُّ بين الجدِّ واللَعِبِ**» وكان ختامها قوله:

أَبْقَتْ بني الأصفرَ المصفرّ كاسْمِهِمُ صفرَ الوجوه وجَلَّتْ أوجُهُ العربِ

ويبقى الجواب عن السؤال الذي طرحه عليّ صديق اطلعته على هذا الفصل من الكتاب، وهو: «ما دام الأمر كذلك فكيف يبرّر حزب الله اختيار العلم الأصفر شعاراً له؟!» قلت: في الحقيقة لا أدري. وقد يكون لدى مؤسسي هذه الحركة الجهادية التي استوحت اسمها من الآية ﴿...**فإنَّ حزبَ اللهِ هُمُ الغالبونَ**﴾(181) وغيرها من الآيات القرآنية، تبرير خاص أجهله لرفعها العلم الأصفر. لكنّني أظنّ أن المسألة عائدة إلى كون اللون **الأصفر يعبّر عن الأمل في النظرة العالمية الشائعة** إلى دلالة الألوان. ولا أقطع في هذا الرأي بأي حال ما دام المتعارف عليه في تحصيل اليقين أن تؤخذ الأمور من مصادرها.

---

(١٨١) سورة المائدة: ٥٦

أمّا **الأسود والأبيض وما بينهما**، من الأبيض الشاحب أو المكسور كما يسمّى بالفرنسية (Le blanc cassé)، الى الرمادي الأغبر فالداكن، الى الرصاصي الأربد والأسود الحالك، **فإنّ موقع هذه الألوان في النفس العربية مرتبط بمقتضى الحال**. وقديماً كان الحجر الأسود في الكعبة المكيّة كما سبق وذكرنا **سبيلاً رئيسياً يقرب العرب الى الله ويتوسلونه في العبادة**، باعتباره يحمل في سواده الأمل الأبيض بلقاء وجه الله في الجنة.

ثمّ أن اللّياح الأبيض الناصع مرغوب في المعجم النفسي العربي مثله في معاجم الأمم جمعاء، **عندما يعبّر عن الفرح** برأد الضحى، وتألق الحياة في وضح النهار، وتجاوز الإعصار الهادر المزعج والمرعب المخرّب بانتشار الثلج وائتزاز الأرض الكئيبة بسقيط السماء الأبيض الباهر، أو **عندما تظهر العروس بذلك اللّون في يوم زفافها، أو غير ذلك من حالات الصفاء** ومناسبات الحبّ النقي والصداقة الوفية والبراءَة الكاملة والسعادة الغامرة والنجاح المستحقّ... لكن هذا اللياح الأبيض **مكروه وممجوج** عندما يذكّر العربي عموماً والمسلم خصوصاً **بلون الكفن**، أو كلّما توجّس هذا الإنسان العربي **بالأخطار المحدقة** التي تسوِّد صفحة كرامته البيضاء وسلوكه الناصع أو تنتهك عرضه المصون، أو تفقده **قرشه أو فلسه الأبيض الذي احتفظ به ليومه الأسود**. ويدعو اللون الأبيض في أي حال ذلك العربي الى بعض الانقباض، خصوصاً عندما يقارنه **بالمصير الأسود الذي يتهدّد مساعيه أحياناً بالفشل**، هو الذي يفضل الموت على الفشل! ولذلك **يكره العَلَم**

الأبيض الذي يرى فيه عنوان الهزيمة والانكسار فيما يعتبره الآخرون عنوان السلام، لأن العربي لا يفهم السلام بمعنى الاتفاق المشبوه بين الحق العاجز والظلم المتنازل، بل يريده صفحاً من مركز عدالة عن جريمة يكون مرتكبها في مركز ندم وتوبة، ولا قيمة عنده للضعف أو القوة في مفهوم السلام.

ثم إن الطباع العربية ذات الهويّة الكلّية التي تهزأ بالجزئيات، تصدّ صدوداً أساسياً عن الألوان الرمادية وتعتبرها خنثوية، لا ذكرية ولا أنثوية - إن جاز التعبير - وهو كلّما لاحت له يرصد ما وراءَها دون أن يكلّف نفسه عناء التحديق في خصوصيتها أو طبيعتها الذاتية. فكأنها الريح التي تسفي الرمال في صحراء نفسه أو السديم الضاغط الذي يبتعث الكئابة لغيرما سبب واضح. وهو، حتى انقشاع الرؤية، يظلّ في حال من الترقب والانتظار الذي قد يطول الى نهاية العمر، لكنه يعصم الإنسان من تكذيب نفسه عمّا يرى، ويحول دون العثار المهلك والخطأ الذي لا يغتفر.

إلّا أنّه من غريب الطباع العربية حرصها الدائم على استخلاص البياض من قلب السواد تماماً كما تتوقع النذير الأسود أحياناً في وجه البشير الأبيض، وهو ما تعبّر عنه الآية ﴿...وعسى أن تكرَهوا شيئاً وهو خيرٌ لكم وعسى أن تُحبّوا شيئاً وهو شرٌ لكم...﴾ (١٨٢) فالرياح في نظر الإنسان العربي لا تجري دائماً كما تشتهي السفن، وهو يرى في سواد الموت حقاً

(١٨٢) سورة البقرة: ٢١٦

أبيض يتمثل بدخول الجنة لأن الله غفّار الذنوب مهما تكن تلك الذنوب عصيّة الغفران، ولذلك **يقتحم سواد الهلاك ببياض الكفن، ولا يلبس أثواب الحداد** لأنه يرى فيها اعتراضاً على مشيئة الرحمن التي يتعيّن **التسليم بها** أياً كانت ظروفها وأسبابها ما دام العلم بأسرارها **عند الله وحده**. وفي هذا الإطار يدرك الباحث أن العربي **لا يشنّ حرباً عدوانية** في سبيل **المطامع الدنيوية**، حتى إن هو خرج للفتح، بل إن حربه تكون في جميع الحالات **حرب اضطرار لا حرب اختيار**. وقد أجمع المؤرخون على أن العرب يوم فتحوا الشام والعراق **لم يكونوا البادئين**، بل إنّ الرسالتين اللّتين بعث بهما الرسول الى قيصر وكسرى تحملان في الواقع تحت غطاء الدعوة الصريحة الى الإسلام **دعوة مستترة الى رفع التدخل الاستعماري** الذي جاوز حدّه من جانبهما في جزيرة العرب طمعاً بخيراتها المكنونة وثرواتها المعدنية والتجارية المزدهرة وأهمية موقعها الاستراتيجي بين بحر الروم والمحيط الهندي، وطبيعتها البرزخية بين الأقاليم الأفريقية والآسيوية كافة. ولم يوجه النبي العربي تينك الرسالتين الى الجبّارين الساساني والبيزنطي **إلّا بعدما بايعه معظم أبناء الجزيرة ورفعوا أعلام الرسالة الإسلامية** التي كانت منذ انطلاق الدعوة والى هذا اليوم رسالة إنسانية **جامعة للفضائل قائمة على العدالة**، بصرف النظر عن كونها رسالة إلهية **جامعة للأديان قائمة على التوحيد**.

لذلك يمكن القول إن العربي الذي يرفض الحرب العدوانية **لا يبرم بها إن فرضت عليه، فيخوضها دفاعية** في سبيل الله الذي

هو في يقينه **العدل المطلق والحق المطلق، ولا يرى في سوادها إلّا بياضاً!** وانطلاقاً من هذا المفهوم المثالي للحرب تنظر النفس العربية الى الانتصار والانكسار **على أنهما وجهان متشابهان وزائلان لحقيقة واحدة** ثابتة في الحياة الدنيا **هي الجهاد في سبيل الحق والعدل** ما دام الشرّ يعمل في كلّ زمان ومكان على فرض نقيضيهما **الزور والظلم** بوسائل شتى. ولذلك اعتمد المسلمون الأوائل العَلَمَ الأسود أو ما عرف «**براية العقاب**» في وقائع **العبّاسيين لإحقاق حقّ آل البيت في الخلافة التي اغتصبها الأمويون زوراً من الإمام عليّ وسائر الأئمة الهاشميين**. كان ذلك أول الأمر، لكن الشعوبية ما لبثت أن أوقعت بين العبّاسيين الذين ينتسبون الى العبّاس بن عبد المطلب عمّ النبي والعلويين المنتسبين الى ابن عمّه علي بن أبي طالب بن عبد المطّلب، وأدى انقسام المسلمين العرب على ذلك النحو من الأثرة البدوية الجاهلية، الى انصرافهم عن الجهاد الأكبر **نحو مسلسل الحروب الأهلية** التي أذهبت ريحهم وأخضعتهم لمطامع المتربصين بهم من الأمم شرقاً وغرباً.

ونعرّج أخيراً في سياق الحديث عن تأثر العربي بالألوان **على اللون الأزرق بجمالاته الفتانة**. فهو من أحب الألوان الى النفس العربية التي ألفته منذ القدم في ألوان السماء وقبتها الزرقاء الصافية وأمواه البحار. وإذا كانوا **يتشاءَمون بالعيون الزرق** وينسبون اليها السحر والرجم بالويل والثبور انطلاقاً من أسطورة «**زرقاء اليمامة**» التي سلف ذكرها ومنهم من افتتن بها ومنهم من لعنهابالمراجم

الموصوفة، ثم مروراً بالنصال والرماح والنبال الزرق وكلّ حديد سكّ للحرب وسفك الدماء، بالإضافة الى أنياب الذئاب الزرق، ومخالب الجوارح والضواري والأفاعي الزرق... **فإن الوشاح الأزرق والحمامة الزرقاء** والجياد النادرة الزرقاء، وأدوات الزينة والحجارة الكريمة من الفيروز الى الخرز الأزرق، **تتألق في المواجد والأعماق النفسية العربية** بأبهى وأجمل صورة، حتى أن أحد فروع الأزرق من **اللون الحبري والفيروزي** الأنيق يحتل مكانة متقدمة في المساجد والقصور والدور، وقد انتقل في القرون الوسطى **الى كاتدرائيات أوروبا وزجاج قصورها** (Les vitraux) وأصبح جزءًا لا يتجزأ من خصائصها الهندسية التزيينية أو ما يعرف عندهم «بالديكور».

.. ومن الواحد حتى اللّانهاية!

أمّا وقع الأرقام في النفس العربية فلا يقلّ أهمية عن وقع الألوان، على أنه **يفوقها انتظاماً ويجاوزها حدوداً**. فالعدد يتصل اتصالاً أساسياً بالحياة المادية الاجتماعية والاقتصادية كلياً أو جزئياً، وهو يتصدى للإنسان **في وجوده اليومي** ويواكب مرور الزمن والانتقال المتحتم في الدنيا **من الميلاد الى الممات**. وذلك خلافاً لمؤثرات اللون الذي يتعلق **بالانفعال الذاتي** ويتحول أحياناً **الى موضوع**، فيما يكون العدد في ذاته **موضوعاً يتحول دائماً الى انفعال!** والمثل على ذلك أنك لو رأيت حديقة خضراء لانفعلت

بتلك الرؤية فوراً، وفكرت لو أمكنك أن تبني لك بيتاً فيها، **وهذا التفكير هو موضوع**. لكنك لو صدمت بواقع موضوعي هو أنك لا تملك من المال إلّا خمسة آلاف دولار أميركي فقط على سبيل المثال، وأنك لن تستطيع أن تبني لك بيتاً بهذا المبلغ، لأسفت وحزنت ونعيت العدالة أو عزمت على بذل مزيد من الجهد للحصول على مال أوفر، **وكلّ هذه المشاعر السلبية أو الإيجابية تحسب في باب الانفعال...**

ومهما يكن من أمر، **فالعدد يخضع** في النفس العربية منذ بدء الحضارة، لتراتبية خاصة تتعلق بالوجود ولأن هذا العدد يدل على واقع موضوعي يستتبع شكلاً من أشكال الانفعال، فإنه يتصل من خلال صفته الانفعالية هذه **بالغيب وأبعاده وأغلاق سرّه**.

• وانطلاقاً من هذه الخصائص المتعلقة بالأرقام يتضح للباحث أن العدد (١) هو الأعلى المفضل **لأنه يمثل الإله الواحد الصمد** الذي ليس له كفءًا أحد، وهو الخالق الأعظم **قبل الإسلام وبعده**، وهو في نظر الإسلام لم يلد ولم يولد. وتتفق معظم المذاهب المسيحية القديمة في الشرق على هذا الرأي بدءًا بأتباع **أسقف الإسكندرية آريوس** الذي أنكر الطبيعة الإلهية للمسيح فحرمه مجمع نيقيا سنة **٣٢٥م. ومروراً بالنساطرة وداعيتهم نسطوريوس** الذي أصبح بطريركاً للقسطنطينية سنة **٤٢٨م**. ورفض القول هو أيضاً بالطبيعة الإلهية للمسيح وتسمية العذراء مريم «أم الله»، فحرمه مجمع أفسس سنة **٤٣١م** ولكن اليعاقبة أتباع يعقوب البرادعي الذين قالوا من جهتهم خلافاً لمقولة النساطرة والمسلمين

معاً، بأن المسيح **ذو طبيعة واحدة إلهية** وذلك في عهد الأمبراطور **هركليوس (هرقل)** عدو الرسول، وبطريرك الإسكندرية **سرجيوس**، فقد وقع عليهم الحرم أيضاً في مجمع قسطنطينية الثالث سنة ٦٨١م. الذي قال بالطبيعتين الإلهية والبشرية معاً للمسيح، وكانوا بذلك أكثر مخالفة للإسلام.

وقد عرفت الوحدانية في الجزيرة العربية قبل الإسلام لدى الشعوب السامية التي انطلقت جميعاً من العَرَبَة كما ذكرنا في الجزء الأول من هذا الكتاب، وحتى عند الوثنيين كانت تخضع الآلهة جمعاء **لإلَه واحد هو إلَه الآلهة**، الأمر الذي انتقل من الإطار السامي الى الميثولوجيا الإغريقية والرومانية والفارسية وغيرها. فزُفُسْ (Zeus) اليوناني وجوبتير الروماني هو البعل الفينيقي، وهبل القرشي المكيّ وآمون المصري الخ... ومن هنا تبدو فكرة الله الواحد الأحد في المسيحية الشرقية، ثم في الإسلام، **ظاهرة تجريدية كاملة الإخراج في بوتقة الإيمان للوحدانيات التجسيدية السّامية الأخرى**. ولذلك يحتل العدد الواحد الأوحد والأول منزلة **خالق الإنسان والكون**، ويتمثل في نزوع العرب الى الفردية والأنا الأوحدية، والبداءَة المباشرة في كلّ حساب أو عمل أو خطاب، والاستفتاح في كلّ صباح، والدعاء الأخير عند كلّ مَقيل أو مبيت.

• وبمقدار ما يرتاح العربي الى العدد **(١)** ويعتبره مصدر خير وتفاؤل بمقدار ما يتأفّف من العدد **(٢)** لأنه يشكّل نقطة التحوّل الأساسية من الوحدانية الساميّة التي كان الله ويهوه

يشكلان فيها الواحد الأحد الى ثنائية متضاربة متناقضة، فكان الشقاق الأساسي بين اليهودية والمسيح الذي لم «يُكْمِلْ» كما يدّعون بقدْرِ ما «نَقَضَ» شريعة موسى والأنبياء. هذا من جهة، ومن جهة ثانية، فإن العدد (٢) يعبر عن سقوط الإنسان والطبيعة في النفس العربية عن وحدانية الله الخالق، الى ثنائية جعلت من الإنسان الواحد ذكراً وأنثى، ومن الطبيعة الواحدة ليلاً ونهاراً، أو شتاءً وصيفاً، أو ربيعاً وخريفاً، ومن كلّ صفات الوجود المخالف للخلود، حياةً وموتاً، شباباً وشيخوخة، فقراً وغنى، أملاً ويأساً، حرباً وهدانة، الخ...

ورسخت في عمق الإنسان العربي كراهة عند المسيحيين منذ الجاهلية الأولى، ثم عند المسلمين، بعد ظهور الدعوة المحمدية، للمثنوية أو المانوية التي أسسها ماني الفارسي عندما قال بوجود إلهين واحد للخير والنور، وآخر للشرّ والظلام. وقد أعدم الملك الساساني بهرام الأول ماني سنة ٢٧٧م. لكن أفكاره تواصلت وانتقلت بمؤامرات الشعوبية الى اليزيديين في الإسلام. وقد حارب الخليفة هارون الرشيد ذلك المذهب وكفّر القائلين به. وممّا جاء في أخبار الرشيد أن الحسن بن هاني (أبا نواس) الذي كان متحزّباً له ضدّ البرامكة اتّهم شاعرهم ابان بن عبد الحميد اللّاحقي بالمانويّة لأنه كان يمنع جعفر البرمكي من إجازة أبي نواس بمبالغ مالية لائقة بمنزلته الشعرية عندما يمدحه صدفة، فقرر هذا الأخير إزالة أبان من الوجود، وذلك بأسلوب خبيث أدى الى قتله بعد الأبيات النواسية الآتية:

قال أبو نواس:

رأيـــتُ يـــومـــاً أبـــانـــاً لا درَّ درُّ أبـــــــان
ونـحــنُ حـضـرٌ رِواقَ الأمـيـرِ بـالـنَّـهْـرَوانِ[183]
فـقـامَ مـنـذرُ ربّـي بـالـبـرِّ والإحـسـانِ[184]
فـكـلّـمـا قـالَ قُـلـنـا الـى انـتـهـاءِ الأذانِ[185]
فـقـال: كـيـف شـهِـدْتُـمْ بِـذا بـغـيـرِ عِـيـانِ[186]
لا أشـهـدُ الـدهـرَ حـتـى تُـعـايـنَ الـعَـيْـنـانِ
فـقـلـتُ: عـيـسـى رسـولٌ فـقـال: مـن شـيـطـانِ
فـقـلـتُ: مـوسـى نَـجـيَّ الـمـهـيـمـنِ الـديّـانِ
فـقـالَ: رَبُّـكَ ذو مُـقـلـةٍ إذَنْ ولِـسـانِ
فـقـلـتُ: سـبـحـانَ ربّـي فـقـالَ: سـبـحـانَ مـانـي!!

ويرى بعض المؤرخين أن هذه الأبيات وصلت الى هارون الرشيد، فأمر باستحضار أبان، وأيقن بعد التحقيق معه أنه يؤمن فعلاً بالمانوية التي يؤمن بها سيد البرامكة جعفر، وأنهم جميعاً مارقون من الإسلام فامر بقتل أبان وشرع في نكبة البرامكة لأسباب تاريخية عديدة معروفة بينها اتّباعهم للمانوية.

ولئن دلّ هذا المثل التاريخي على شيء، فإنما يدلّ على نفور النفس العربية من الإزدواجية أو ما يعرف بالشخصية المزدوجة

(١٨٣) يقصد «بالأمير» جعفر البرمكي؛ النهروان: موقع في العراق بين بغداد وواسط.

(١٨٤) منذر ربي: يقصد المؤذن.

(١٨٥) أي أنهم كانوا يردّدون كلامه وأذانه.

(١٨٦) يقصد بالذي قال أبان بن عبد الحميد اللّاحقي.

التي تتحوّل مرضياً الى «الشيزوفرينيا». فالعربي لا يستطيع (حتى ولو أراد) أن يكون مزدوج الولاء، مزدوج الانتماء، مزدوج العقيدة، أو مزدوج اليقين، **بل إنه متوحّد في اتخاذ الموقف وتقرير المصير**. وهو أمر رصده أعداء العرب باهتمام بالغ، فباتوا يفرضون عليهم حكاماً مارقين، مع نظريات وعقائد ومفاهيم مغايرة لاقتناعهم، **في عملية تعذيب جماعية إبادية ترغمهم** إمّا أن يتعايشوا مع الثنائية المنحرفة أو ينتحروا ببطء! ويثور العرب في أعماقهم الوجدانية على هذه الأوضاع، فيقدموا على سلسلة انفجارات **يتعجّب أعداؤهم من أسبابها**، وهي عائدة في الواقع الى رفض الإزدواجية.

هذا، مع العلم أن جنوح العربي الى التناقض بفعل عدم الاستقرار الذي أحاط بوجوده منذ القدم، إنما جعله يحمد الله على منحه العينين الإثنتين واليدين والقدمين والكليتين والخصيتين والنهدين الخ... **وإن كان يضع القلب الواحد والدماغ الواحد والكبد الواحدة في منزلة فيزيولوجية عضوية أعلى**. ولا ننسَ أخيراً أنه اختصّ التثنية **بقدر أساسي من الأهمية في لغته العربية** التي تـنفرد بالمثنّى عن سائر لغات الأرض.

• أمّا الرقم (٣) فيمكن القول إنه **مكروه ومنبوذ** في نظر الساميين عموماً الى الأرقام، وهو لا يمثل الجمع إطلاقاً في حدّ ذاته، بل يعتبره العرب **زيادة واحد على اثنين. وثالث كلّ اثنين عندهم شرير!** فبين الإنس والجنّ يقع العجيب من المخلوقات **التي يصعب تحديد نوعها** أو وظيفتها، وبين **الذكر والأنثى تقع الخنثى**،

كما يبدو المثلث نافراً بين الدائرة والمربع، والاحتيال موقف مريب منحرف بين الصدق والكذب، كذلك موقع**إبليس** **بين الملائكة والبشر**. ومن هنا قول المسيح في الإنجيل: «**ليكن كلامكم نعم. نعم. أو لا. لا. أمّا ما عدا ذلك فهو من الشيطان.**»(١٨٧)

والثالث عندهم في أي حال هو غير الوسط النصيف أو الوسيط العادل أو المتوسط المعتدل، حيث يقال «إن خير الأمور أوساطها»، بل **إنه ثالث الثلاثة أي الابن في الثالوث المسيحي** بين الآب الذي هو الله والروح القُدُس المنبثق عنه اللّذَيْن يؤمن بهما الإسلام، ويعزو علماء المسلمين تثليث الله **الى الفذلكات الإغريقية اللّاتينية** التي ليست من المسيحية في شيء. وقد عبر القرآن عن موقف الإسلام من الثالوث في سُوَرٍ وآيات عدّة، منها قوله: ﴿**لقد كَفَرَ الذينَ قالوا إنَّ اللهَ ثالثُ ثلاثة وما من إلهٍ إلّا إلهٌ واحد...**﴾(١٨٨)

غير أن ثالث الإثنين قد يكون **هو الإنسان الفرد بشخصه** مضافاً الى صحبه **الذين قلّما تجاوزوا الإثنين**، فيخاطب الشعراء من يرافقهم دائماً بصيغة المثنّى، كأن يقول احدهم: «**أيا صاحبي رحلي...**»، ويقول آخر: «**يا خليليّ...**»، ويردف ثالث: «**رفيقيَّ إنّي...**» الخ... **ذلك باستثناء صحابة محمد وحواريي عيسى**، والجمهرة من فئات الناس والجماعة. كما أن لثالث

---

(١٨٧) إنجيل متى: الإصحاح الخامس ـ الآية ٣٧ من خطبة الجبل.

(١٨٨) سورة المائدة: ٧٣

الأثافي أي حجارة الموقد، شأنه المحمود في دعم الحجرين الأساسيين **لتستقيم القِدْر على النار**. وتبقى المستحيلات ثلاثة: **الغول والعنقاء والخلّ الوفي**، كما يقول المثل القديم، ثم يبقى أصدقاؤك ثلاثة: **صديقك وصديق صديقك وعدو عدوك**، كما أعداؤك ثلاثة: **عدوك وصديق عدوك، وعدو صديقك**، كما يقول الإمام عليّ.

• وأمّا الرقم **(٤)** فيرمز الى **الفصول الأربعة**، الربيع والصيف والخريف والشتاء، **وجهات الكون الأربع**، الشرق والغرب والشمال والجنوب، **والرياح الأربع**، الصّبا والدَبور والجنوب والشمال، وكذلك **مكوّنات الحياة والجماد والطبيعة الأربعة** في نظر الشعوب القديمة جمعاء، وهي الماء والتراب والهواء والنار. والعدد (٤) هو في قاموس الانطباع العربي **مثنّى الإثنين**، **والواحد الزائد على ثلاثة** لتصبح أربعة، وعلى **تسعة وثلاثين** لتصبح أربعين. **والرُبْع** جزء من أجزاء الشيء الأربعة، **والرِبْعُ** نوع من الحمى ينتاب الرجل كلّ أربعة أيام، وهو كذلك منع الإبل من الماء ثلاثة أيام **وورودها في اليوم الرابع**. ويقع **الأربعاء** في الرابع من الأسبوع وهو دليل الوسط بين أيامه، **والربيع** هو الفصل الأطيب أثراً في نفوس العرب لكونه يحمل الخير والطيب والجمال، وقد خرجت منه عبارات في اللغة ومشتقات لا تعدّ ولا تحصى، **كالرَبْع والرِباع والرُبوع والأَرْبُع** التي تعني الديار، ويقال **أَرْبَعَ القوم** إذا دخلوا في الربيع، **ورُبِعَ القوم** إذا أصابهم مطر الربيع، **وارتبَعَت الماشية** أكلت عشب الربيع

فسمنت، وجاؤوا **المَرْبَع والمرتَبع**، أي نزلوا في الدار الربيعية الخ...

هذا، **والتربيع** يعني ضرب العدد بأربعة. **وجدران البيت** أربعة في المَدَرِ والعمران، **وتَرَبّع الرجل** إذا جلس وقد طوى قدميه تحت فخذيه، ويكون **رَبْعَ القامة** أي معتدلاً بين القِصَر والطول، **فهو مربوع**. وفي أي حال يبدو أن العدد (٤) **لا يترك أثراً سيئاً في النفس**، بل إنه بوجه عام مصدر فرح وسعادة، والأسماء المشتقة من رَبَعَ **أسماء محبّبة** سواء أكانت أنثوية أم ذكرية، من مثل **رابعة، وربيعة، ورَباع، ورَباعة وربيع**.

● وإذا كان **الرقمان (٥) و (٦)** لا يعبّران عن شيء يحسب له حساب عند القدماء، اللهمّ إلّا بداية جمع لا حدود له ولا ضابط يجري بحسب الظروف والأقدار في خط متصاعد أو متنازل على قياس المعطيات والمستلزمات **دون أن يترك أثراً في النفس يحمد أو يعاب**، فالمسالة تختلف كلّياً عندما يتعلّق الأمر **بالعدد رقم (٧) الذي يتفاءَل به الإنسان العربي** تفاؤلاً تقليدياً يكاد يفوق منزلة العقائد الروحية والثقافية والوجودية مجتمعة.

ولا غرو أن يحتلّ هذا الرقم منزلة متقدمة على سائر الأرقام في النفس لصفاته الحسابية **التي تطابق حالات رئيسية في الوجود**. فهو إذا ضرب بإثنين نتج عنه **الرقم (١٤)** أي سنّ انتقال الفتى من **الطفولة الى الشباب**، وإن ضرب بثلاثة نتج عنه **الرقم (٢١)** الذي **تبدأ به الفصول** في التقويم الشمسي والقمري، وإذا ضرب بأربعة نتج عنه **الرقم (٢٨)** الذي يمثل عدد **أيام الشهر القمري**، والموعد

الشهري المنتظم **لدورة الحيض** عند المرأة، وإن ضرب بخمسة نتج عنه **الرقم (٣٥)** وهو يرمز الى **اكتمال الرجولة**، وإذا ضرب بستة نتج عنه الرقم **(٤٢) وهو بدء الكهولة** والكمال الفكري والنفسي، وإذا ضرب بسبعة نتج عنه **الرقم (٤٩)، بدء التعقّل الذي يصحب الشيخوخة** الى نهاية العمر وهو لم يكن قبل عصر التقدّم العلمي الذي نحن فيه يتجاوز الستين عموماً إلّا في الحالات النادرة.

يضاف الى ذلك أن الأسبوع يتألف من **سبعة أيام خلق الله العالم فيها** واستراح في اليوم السابع على ما جاء في سفر التكوين التوراتي وفي القرآن، وهي الأيام السبعة التي **تألم فيها المسيح** وانتهت بصلبه حسب تعاليم النصرانية. وفي معتقدات الأقدمين ان **كواكب الجوزاء سبعة** وكذلك **رؤوس العنقاء**، وكانت **عجائب الدنيا أيضاً سبعاً** في جاهلية الأمم القديمة جمعاء، هي أهرام الجيزة في مصر، ومنارة الآسكندرية، وحدائق بابل المعلّقة، وهيكل آرطميس إلَهة الطبيعة والصيد في أفسس، وهياكل بعلبك، وعملاق جزيرة رودوس وهو تمثال من البرونز كان يعلو ٦٠ متراً فوق الميناء، وتمثال إلَه الآلهة عند اليونان «زُفُس» البالغ ارتفاعه ١٨ متراً في الأولمب وقد صنع من الذهب والعاج.

ثم إن **الذنوب التي لا تغتفر إلّا بصعوبة فائقة سبعة** في التوراة والإنجيل والقرآن، هي: الكذب، والقتل، والزنى، والسرقة وشهادة الزور، والنميمة، والكفر بالله، **والعيوب التي لا تليق بالإنسان سبعة** في الحياة الخاصة والعامة، هي الاستكبار، والحسد، والبخل، والتهتّك، والشراهة، والغضب، والكسل.

وقد أشار القرآن في العديد من آياته الى **السموات السبع الطباق**، **والبحار السبعة**، من مثل قوله: **﴿...ثمّ اسْتَوى الى السماء فسوّاهُنَّ سبع سموات...﴾**[189] أو قوله: **﴿أَلَمْ تَرَوْا كيفَ خلقَ اللهُ سبعَ سمواتٍ طِباقاً﴾**[190] وفي كلامه على البحار حيث يقول تعالى: **﴿ولو أنَّ ما في الأرضِ من شجرةٍ أقلامٌ والبحرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعدِهِ سبعةُ أَبحُرٍ ما نَفِدَتْ كلماتُ اللهِ...﴾**[191]. وهو **في سورة يوسف** يذكر «سبعَ بقراتٍ سِمانٍ يأكلهنَّ سبعٌ عجاف وسَبْعَ سنبلاتٍ خضْر.» وفي سور أخرى تتجلّى أهمية الرقم (٧) كما في سورة الكهف وسورة الحِجْر وغيرهما.

ومن غريب المصادفات أن الأبجدية العربية تتألف من **ثمانية وعشرين حرفاً**، تمّ ترتيبها أساساً على الشكل الآتي: (**أ ب ج د - هـ و ز - ح ط ي - ك ل م ن - س ع ف ص - ق ر ش ت - ث خ ذ - ض ظ غ**). والرقم**٢٨** هو كما سبق وذكرنا (**٧**) مضروب بـ (**٤**). وهي - أي الأبجدية العربية - في أساس الأبجدية الفينيقية نفسها التي اقتصرت على **٢٢** حرفاً وأسقط منها الفينيقيون الذين بدأوا يهاجرون من سفوح نجد الشرقية في جزيرة العرب والخليج منذ القرن الخامس والعشرين قبل الميلاد الى شواطئ بلاد الشام على البحر المتوسط... أسقطوا ستة أحرف مستثقلة على شعوب هذا البحر ذات اللّدانة والليونة البعيدة عن

---

(١٨٩) سورة البقرة: ٢٩

(١٩٠) سورة نوح: ١٥

(١٩١) سورة لقمان: ٢٧

الطباع القارية الصحراوية. والأحرف التي أسقطت هي **الثاء والخاء والذال والضاد والظاء والغين**. وكان الفينيقيون يعتمدون في أي حال الكتابة **من اليمين الى اليسار** على الطريقة العربية التي لا تزال معتمدة الى اليوم، وهو أمر يؤكد ما يذهب اليه علماء الآثار من أن أبجديتهم في أساسها عربية(١٩٢).

وقد استعملت **الحروف الأبجدية للحساب** عند قدماء العرب قبل أن تستعمل لكتابة الكلام المحكي، ورتّبت من واحد الى ألف كما يلي:

آ (١) - ب (٢) - ج (٣) - د (٤) - هـ (٥) - و (٦) - ز (٧) - ح (٨) - ط (٩) - ي (١٠) - ك (٢٠) - ل (٣٠) - م (٤٠) - ن (٥٠) - س (٦٠) - ع (٧٠) - ف (٨٠) - ص (٩٠) - ق (١٠٠) - ر (٢٠٠) - ش (٣٠٠) - ت (٤٠٠) - ث (٥٠٠) - خ (٦٠٠) - ذ (٧٠٠) - ض (٨٠٠) - ظ (٩٠٠) - غ (١٠٠٠)

فلو فرضنا على سبيل المثال أن زيداً أراد أن يدوّن في نص مكتوب على صفيحة خشبية أو حجرية أو على ورقة من أوراق البَرْديّ لورثـته أنه يملك ٧٥٣٠ قطعة من الفضّة، لكتب (غ غ غ غ غ غ غ ث ل). ولو فرضنا أن زيداً أمدّ صديقه عُبيداً بـ ٢٦١٤ رأساً من الغنم والماعز لبيعها وتزويده بمردودها كمية من الأقمشة، لدوّن على مفكّرته الخشبيّة (غ غ خ ي د) الخ...

---

(١٩٢) مجلة «العربي» الكويتية ـ العدد ٥٣٣ ـ نيسان (أبريل) ٢٠٠٣ ـ أنظر دراسة رفيق المعلوف «صحيح أن العربية أمّ اللغات».

وقد بعث عبد الكريم النحلاوي في القرن الثاني عشر للهجرة هذا الترقيم الحسابي القديم للأبجدية، وطبّقه على أسلوب التأريخ بالشعر.(193)

ولا نزال نؤمن بالسحر والتنجيم

والحق يقال أن هذه **الخصائص غير العادية** لعدد حروف الأبجدية العربية البالغ ٢٨ حرفاً، وهو رقم يطابق وقائع طبيعية فلكية وحالات فيزيولوجية إنسانية، إنما استتبعت خصوصاً بعد

(١٩٣) كان المؤرّخ قبل اعتماد هذا الأسلوب يكتفي بكتابة أرقامه فيدوّن مثلاً على لوحة في باب هذا القصر أو المنزل أو المسجد الخ... عبارة «بناه فلان سنة ٨٩٠ للهجرة»، فيتزايل بمرور الزمن بعض هذا الرقم (٨٩٠) وتصبح قراءته مستصعبة. وقد جاء التأريخ بالشعر يؤكد السنة التي تم فيها البناء، بأن ينظم الشاعر بيتين او أكثر من الشعر متيمّناً بما بناه فلان المشار اليه وممتدحاً فضله في ذلك، ويكون البيت الأخير مرقوم الحروف ابتداء من كلمة «أرّخ» أو «تاريخ» أو «أرّختُ» من فعل «أَرَّخَ» في ذلك البيت، وتجمع أرقام الحروف بعد كلمة التاريخ المذكورة لتعيّن بمجموعها السنة التي تمّ فيها البناء. ونستشهد فيما يلي بتاريخ وضعه الشيخ ابراهيم اليازجي على ضريح أبيه الشيخ ناصيف سنة ١٨٧١ ميلادية، قال:

هذا مقامُ اليازجيّ فقف به   وقُلِ السلامُ عليكَ يا علمَ الهدى
لو أَنصفتْكَ النائباتُ لغيَّرتْ   عاداتِها ووقتك غائلة الردى
وجميلُ حظّكَ في الأعالي رحمةٌ   أرّخ، وذكرٌ في الصحائفِ خُلّدا

ويحتسب جمع الحروف بعد كلمة «أرّخ» على أساس أرقامها المبيّنة في الجدول أعلاه:

وذكرٌ (و:٦ ـ ذ:٧٠٠ ـ ك:٢٠ ـ ر:٢٠٠) = ٩٢٦

في (ف:٨٠ ـ ي:١٠) = ٩٠

الصحائف (أ:١ ـ ل:٣٠ ـ ص:٩٠ ـ ح:٨ ـ آ:١ - ئ:١٠ ـ ف:٨٠) =٢٢٠

خُلّدا (خ:٦٠٠ ـ ل:٣٠ ـ د:٤ ـ آ:١) = ٦٣٥

فيكون مجموعها: ٩٢٦+٩٠+٢٢٠+٦٣٥ = ١٨٧١، وهو تاريخ وفاة صاحب الضريح.

اكتشاف التعبير الحسابي لهذه الأبجدية بالأرقام التصاعدية من واحد الى ألف، نزوعاً من جانب النفس العربية **الى التكهّن المقبول** في العصور السابقة لمنطق العلم، **بأن اللغة العربية هي لغة الله**. الأمر الذي يسّر في الوقت نفسه الاعتقاد الوجداني الصميمي لدى المسلمين بأن الآيات القرآنية هي كلام الله تنزل بواسطة الملاك جبريل على النبي العربي محمد بن عبد الله **الذي كان أمّياً لا** يعرف القراءَة والكتابة.

وفي الوقت الذي انصرف خلاله المؤمنون المسلمون الأوائل، **الى تدوين القرآن الكريم** وترتيب أجزائه وسوره واستخلاص آياته البينات من روايات الصحابة والتابعين في عهد الخليفة عثمان بن عفّان، دأب فريق من المتعولمين المتأثرين بأساليب **الكهّان والعرافين والسحرة** من حرفاء كشف الغيوب ورصد الطوالع في الجاهلية، على استنباط **علائق افتراضية** بين حروف «لغة الله» وبعض آيات قرآنه، لابتزاز المجتمع الساذج وادّعاء السيطرة على العالم غير المنظور، بما فيه من أرواح الخير والشرّ والملائكة والشياطين والجنّ والعفاريت، **بحيث يثبتوا لنا قدرتهم** على شدّ المرأة الممانعة الى فراش عاشقها، وتسليط الخائنة على إرادة زوجها وإغراء الفاسق بقتل زوجته الوفية الصالحة، وتحكيم إبليس بأخلاق الحكيم، وفك الأرصاد الشريرة، وكتابة الحجب والتعاويذ القادرة على شفاء النفوس المعذبة، الى آخر ما هنالك ممّا يعرف **بعلوم السحر** ومذاهب **التنجيم** التي يدعي أصحابها وجود تأثير مباشر للكواكب والأبراج

ومسار القمر والشمس والزهرة والمشتري وغيرها، في سلوك الإنسان وتقرير مصيره.

ويقولون إن لجوء المرء الى بعض التعاويذ ينجيه من انقلاب الدهر وخطر المرض، وأن بعضها الآخر يشفي من اليرقان، أو أنّ ذكر الله سبعين مرّة كلّ ساعة في سبع ليالٍ متواصلة ينقذ من الموت المبكر، **الى آخر ما هنالك من استغلال منفعي محرّم لكلام الله** والرسالة العلوية التي حملها النبي وتمثّلت بكامل مدلولاتها في القرآن. كلّ ذلك إنما هو من قبيل التخرّص **والتحكّم بالضعف البشري** لدى أناس لا يستطيعون أن يؤمنوا بالله إيماناً راسخاً وأن ذنوبهم لا تغتفر إلّا بالتوبة والعودة الى الصراط المستقيم، وأنّ **المنجمين يكذبون ولو صدقوا** في بعض التكهنات الصادرة عن مهارة عقولهم في التزوير لا عن صفاء قلوبهم في الهداية والتنوير. وهو ما ينهى عنه الإمام علي في حملته على الخوارج: «**إيّاكم وتعلّم النجوم إلّا ما يهتدى به في برّ أو بحر، فإنها تدعو الى الكهانة، والمنجم كالكاهن، والكاهن كالساحر، والساحر كالكافر**»(١٩٤)

ولكنه، بالرغم من تحريم الإسلام للكهانة والزجر واستنطاق الأصنام وتحايل سدنتها في تـفسير طنينها الذي يصورون للناس أنه تعبير خاص يخرج من بطونها، وهم يتلون ألواناً خاصة من السجع

---

(١٩٤) نهج البلاغة شرح الإمام محمد عبده ـ ص ٧٩ ـ بيروت ـ طبعة ١٣٠٧هـ. ـ وقد قال علي ذلك لأحد أصحابه الذي طلب اليه ألّا يسير لمواجهة الخوارج في الموعد الذي قرّره لأنه مخالف لرأي علماء النجوم.

غير المفهوم **ممّا يحدثون به الشياطين** المتمثلة في أشكال تلك الأنصاب وزينتها الغريبة المريبة، كما يقرنون شعائرهم الوثنية بحرق البخور وضرب المندل وما الى ذلك من الرقية وكشف الطوالع برمي الصَدَف واستحضار الأرواح... **بالرغم من تحريم الإسلام لهذه الممارسات السحرية الشاذة،** فإنّ العامة، ولا سيما الجهلة من الأعراب والسوقة، ظلوا انطلاقاً من طبيعة الضعف والخوف والقلق والتمني وميل بعضهم الى الظنّ والإساءَة والتجنّي، يصيخون الى العرّافين والمنجّمين بأسماعهم ويقيمون لهم في نفوسهم قدراً متفاوت الأهمية من الاعتبار **إمّا احتراساً واتقاء لشرورهم وإمّا تعجباً ودهشة** مما يجترحونه من ضروب الشعوذة والسحر، فيقول الجاحظ في البيان والتبيين «**ما أشكّ في أنه كان للسدنة في الجاهلية حيل وألْطاف لمكان التكسب حتى بعد ظهور النبوءَة.**»

أمّا ابن خلدون، فيذهب في مقدمة كتاب العبر، الى أن الكهانة من خصائص النفس البشرية التي تميل الى الاتجاه الروحاني. ويستغل الكاهن هذا الأمر **فيلجأ الى الظنون والتخمينات** ويتمتم بالسجع الخاص بالكهانة حرصاً على تأكيد رأيه وتمويهاً على سائليه. ولذلك لم تبطل الكهانة بظهور النبوءة في رأيه.

واستناداً الى هذه المعطيات جميعاً يمكن القول إن الإنسان العربي لا يزال الى يومنا هذا ينظر الى الغيبيات نظرة **ملؤها الدهشة التي تحفز على التصديق**، مع إيمانه العميق بأنها باطلة الى أبعد

مدى، ومثله في ذلك مثل المصاب بحالة من **الانهيار العصبي** تقوده الى **التطيّر والتشاؤم** في كلّ ما يراه من ظواهر العيش أو يطرأ عليه من أحداث الوجود. فهو إن تهامس في حضرته اثنان من جلسائه سرعان ما يتصوّر **أنهما يتحدثان سراً بما يسيء اليه**، وإذا قال له أحد أصدقائه أن هذا الدواء نافع لحالته، دخل في اعتقاده فوراً أنه قد يكون **في ذلك الدواء سمّ زعاف**، ويقال إن الشاعر ابن الرومي كان من المتطيّرين الى حدّ أنه لو خرج من داره ورأى عودَين متعاكسين عندما يخطو أولى خطواته ورأى قربهما نواة تمرة توجّس شراً **وقرأ فيما يراه عبارة «لا تمرّ»** فعاد الى المنزل ولم يخرج طيلة ذلك اليوم. وأذكر ما قاله لي طبيب نفساني من أصدقائي أن مريضاً مصاباً بالانهيار العصبي كان يكثر من شرب الخمر كي ينسى آلامه النفسية وانقباضه وعصابه، فاستشار ذلك الطبيب في أمره، فقال له إنّ **التمادي في تناول الكحول قد يؤدّي الى تشمع كبده**، وإن من الأفضل أن يستعمل بعض الأقراص المسكّنة، وأشار عليه بتناول حبّة من تلك الحبوب قبل النوم وأن يخفّف من شرب الكحول. وقد توجّس المريض المشار اليه من الأقراص المهدّئة، واستمر في شرب زجاجة من ذلك المسكر في كلّ مساء، الأمر الذي كان يخدّره مؤقتاً فينام، لكنه أحدث بعد أيام ردّة **فعل عكسية** أصبح بحاجة معها الى دخول المستشفى لتنظيف دمه من الكحول. فعاد الى الطبيب وسأله هذا عن حاله وهل استعمل الحبوب المسكّنة، فقال له إنه خشي من تأثيرها السلبي على صحته وأهملها مواصلاً تعاطي المسكرات. وسرعان ما بادره الطبيب بقوله، حسبما رواه لي: **إنك تبتلع كلّ يوم زجاجة**

وسكي وتتوجّس من القرص المسكّن؟! أنت يا صاحبي، كمن يدعس على ذنب الأفعى القادرة على قتله بلسعة واحدة، وهو خائف من «أبو برَيْص»!![195] فقم معي فوراً الى المشفى...

ولا يعني ما تقدم، بأي حال، أن الإنسان العربي الذي يميل بجناته الموروثة الى تصديق الغيبيات **مصاب بالتطيّر المرضي والانهيار العّصبي المزمن**، ولكنه فقط يختزن في أعماق نفسه كميّة من القلق والاضطراب الكياني، إن جاز التعبير، عائدة الى معاناته الطويلة في بأساء الحياة الصحراوية القاسية التي راضت جهازه النفسي والعصبي على **اتخاذ موقف دفاعي فوري وعفوي** إزاء كلّ جديد من معطيات الحضارة العصرية التي تحتوي نمطاً متسارعاً من الفجاءَات، خصوصاً في زمن الانقلاب التكنولوجي المعاصر. وهو بالإضافة الى اتخاذه ذلك الموقف الدفاعي الموروث منذ عصور الصحراء الخوالي، يجد نفسه في **حالة استلحاق دائم لما يستجد على الجديد من تطورات أكثر حداثة وجدّة** لا بدّ من التمرس بها في مواكبة الحضارة المادية المعاصرة. هذا، مع الأخذ في الاعتبار أن **مكتسبات العلم لا تزال تختزل يوماً بعد يوم مقولات الأديان**، لا سيّما في ميدان العلوم التطبيقية، حيث أصبح بالإمكان معرفة الإنسان ما في الأرحام، وما في الفضاء الخارجي، وما في باطن الأرض، وهي في المعتقدات الدينية جمعاء من علم الله ربّ العالمين، كما يعرف أن البشرية لم تبدأ بآدم، وأن الكون لم يخلق في سبعة أيام، وأن الإنسان متحدر من

---

(١٩٥) أبو بُرَيْص: دويبة صغيرة غير سامة من فصيلة الجِرذَوْن، لا يفوق حجمها حجم الجرادة.

إحدى فصائل القرود، وأن لمعظم الأمراض جراثيم وأدوية مضادة لها، وأن العلم أصبح على قاب قوسين من فتح الأغلاق المتعلقة بنشوء الحياة، وأن هذه الحياة القائمة على كوكب الأرض قد تكون لها مثل مشابهة في كواكب أخرى(!!)

وبالعودة الى المعتقدات الجاهلية التي لا تزال ماثلة الى يومنا هذا، نعثر على رموز متركّنة بمعانيها في أعماق النفس العربية وإن سقطت شخصيات أصحابها، والأمثلة على ذلك عديدة نكتفي منها الآن بذكر اسطورة كاهنين من أهل اليمن القديمة **هما «شقّ» و«سطيح»**، ويقول الطبري أن «**شقّاً**» كان نصف إنسان بيد واحدة وعين واحدة ورجلٍ واحدة وأذنٍ واحدة، فكأنما فصل عن نصفه الآخر بسيف أو مقصلة. أمّا «**سطيح**» فكان مخلوقاً من لحم بلا عظم يدرج على الأرض كرِزمة من قماش، ولكنه صاحب جمجمة كبيرة ذات عظم طبيعي تحتوي دماغاً لا يخطئ في معرفة أو رؤيا.

وقد تبارى المؤرخون الأوائل في ذكر هذين العرّافين وما فسّراه لملوك اليمن والأكاسرة من الأحلام، وما قدّما لهم من نصائح واطلعاهم عليه من نبوءات. لكن لنا رأياً آخر في سرّ «شقّ» و«سطيح»، وهو أن عاهتيهما اللّتين **يصعب على العقل السليم تصديق ما وصفتا به من تشوّه خرافي، إنما تنطويان على رموز خفيّة** ذات علاقة مباشرة بتعامل الكاهن العرّاف الذي كان يحتكر العلم والمعرفة في تلك المجتمعات البدائية، مع السلطان الجائر الجاهل.

«فالشقّ» في نظرنا يرمز الى إخفاء الكاهن العالم **نصف آرائه**

وأفكاره عن الحاكم، عندما يسأله ويستفتيه في أمر من الأمور المعقدة، كتفسير حلم من الأحلام، أو تقرير موعد صالح بحسب استنطاق النجوم، لشنّ حرب أو مباشرة بناء أو توصيف مؤامرة. . . حتى **إذا كذّبت الوقائع الرأي** الذي أفتى به الكاهن العالم، **أظهر النصف الآخر من الآراء والأفكار المضمرة** التي تفسّر خطأه أو تصحح ذلك الخطأ، فيتقي بذلك غضب الحاكم الجاهل وانتقامه. وهو ما يشبه الى حدّ بعيد ما يعرف عند القادة العسكريين **بالاستراتيجية الدفاعية**، أي الاحتفاظ «**بخط الرجعة**» الذي يؤمن لهم طريق الانكفاء والعودة الى مواقع دفاعية حصينة إذا فشل الهجوم الذي يقدمون عليه في سياق المعركة.

أمّا «السطيح» فيرمز في تقويمنا الى **تظاهر الكاهن العرّاف بالعجز والقصور عن امتلاك المعرفة الأخيرة**، لتضليل بطانة السلطان فيستهزئون بعلمه وتكهناته وتوقعاته ونصائحه. . . حتى إذا **اطمأنّ الى هدانتهم** وأيقن أن الحاكم المتردّد المرتبك يزداد بالاستماع الى آرائهم تردداً وارتباكاً، **استعمل مكنون جمجمته الهائلة ودماغه الفعّال** في إقناعه بما يراه صحيحاً، وانتزع منه الرضا والإيثار والمحبة والجزاء الحسن.

ولكل حادثة في أساطير الجاهلية **رمزٌ واقعي** تنطوي عليه صيغتها المعلنة. من مثل ذلك أنهم كانوا يؤمنون بخروج «**الهامة**» من رأس القتيل، وهو طائر يسمّيه بعضهم «**الصدى**»، يظل ينعب كالبومة على ضريح الميت حتى يؤخذ بثأره، وقد أشرنا الى ذلك في موضع سابق. ويرمز هذا الاعتقاد **الى حيرة نفسية رهيبة أمام**

الموت مع رغبة في الانتقام لا حدود لها تتجسدان في هذه الظاهرة الحسّية التي سارع النبي الى رفضها في أحاديثه تفادياً لحمّى الثارات المتراكمة والغزوات المثارة بسببها بين القبائل. وقد **أنكر الإسلام الطيرة والسحر والتنجيم والرؤيا وأضغاث المنام،** لكنه رضي بالفَال رفعاً للمعنويات، وبالقيافة كشفاً للسعايات الخفية، وبالفراسة احتراساً من العميل المعادي والجاسوس المتسلّل.

ولا بدّ لنا في نهاية هذه الجولة في أفق الغيبيّات، من إثبات حقيقة راهنة، وهي **أن الأديان السماوية جمعاء، قالت بوجود الملائكة والشياطين وحذرت من شرور إبليس،** أي أنها أقرت بعالم للأرواح الخيّرة والسيّئة غير منظور له علاقة مباشرة بحياة البشر أفراداً وجماعات. **فالتوراة** مليئة بالطلاسم والروايات الغريبة، خصوصاً ما ورد في سفر الخروج، والتدخلات الماورائية في علائق موسى وهارون بفرعون، وكذلك سفر الملوك وغيره من الأخبار التي تشبه الأساطير. وكم أخرج المسيح عيسى بن مريم **في الإنجيل** من الشياطين ليشفي الذين تسكنهم أرواح الشرّ، فأكد بذلك وجود إبليس وتأثيره المباشر على تصرّفات البشر وأعمالهم، حتى **أتى القرآن** بمجموعة وافرة من الآيات التي تتحدث عن الجن والأبالس والملائكة، والعالم المستتر ومؤثراته الإيجابية والسلبية في حياة الناس.

كلّ ذلك أسهم، منذ القدم، والى هذا اليوم الذي تحرّر فيه الإنسان بوجه عام، من الاستنجاد بالغيب، **دون أن يتحرّر من الاعتقاد العميق بمؤثرات الغيب وكواكبه ومخلوقاته اللّامرئية؛**

وإذا كان هذا الواقع الإنساني المعاصر في ديار العرب والمسلمين لا يزال يحكّم الغيبيات في تفسير الحوادث الفردية والجماعية، وتقرير مصائر الأفراد بالأقدار والأعمار المقرّرة وراء الحياة والموت في الملأ العلي الغامض المجهول. . . **فإن النفس العربية** في عمق اتجاهاتها المتطيّرة والمتردّدة بين الفأل والشؤم، لا تزال، مهما قيل في تخلف جماعاتها الساذجة، **أقل انجذاباً الى معميات السحر والتنجيم والطيرة والكهانة** من النفس الألمانية والفرنجية والساكسونية والسويدية والفنلندية والروسية وغيرها، التي تتعايش مع الأساطير والأشباح وتلتمس في مجتمعاتها **من المنجمات والساحرات كشف الطوالع** بأوراق اللّعب ورمي الأصداف وجمرات الحظّ، وفك الطلاسم وطرد الأبالس بتدخّل بعض الأولياء من الرهبان المؤمنين، عسى أن تشفع صلواتهم في تطهير الأنفس من شوهتها **الكامنة في العيب دون الغيب**، ومعروف أن الصلاة لا تطرد الشياطين إلّا إذا عزم الإنسان على طردها **بإرادته المؤمنة وسيرته المستقيمة**.

- ١٠ -

حدّ الله في الحقوق العربية للإنسان

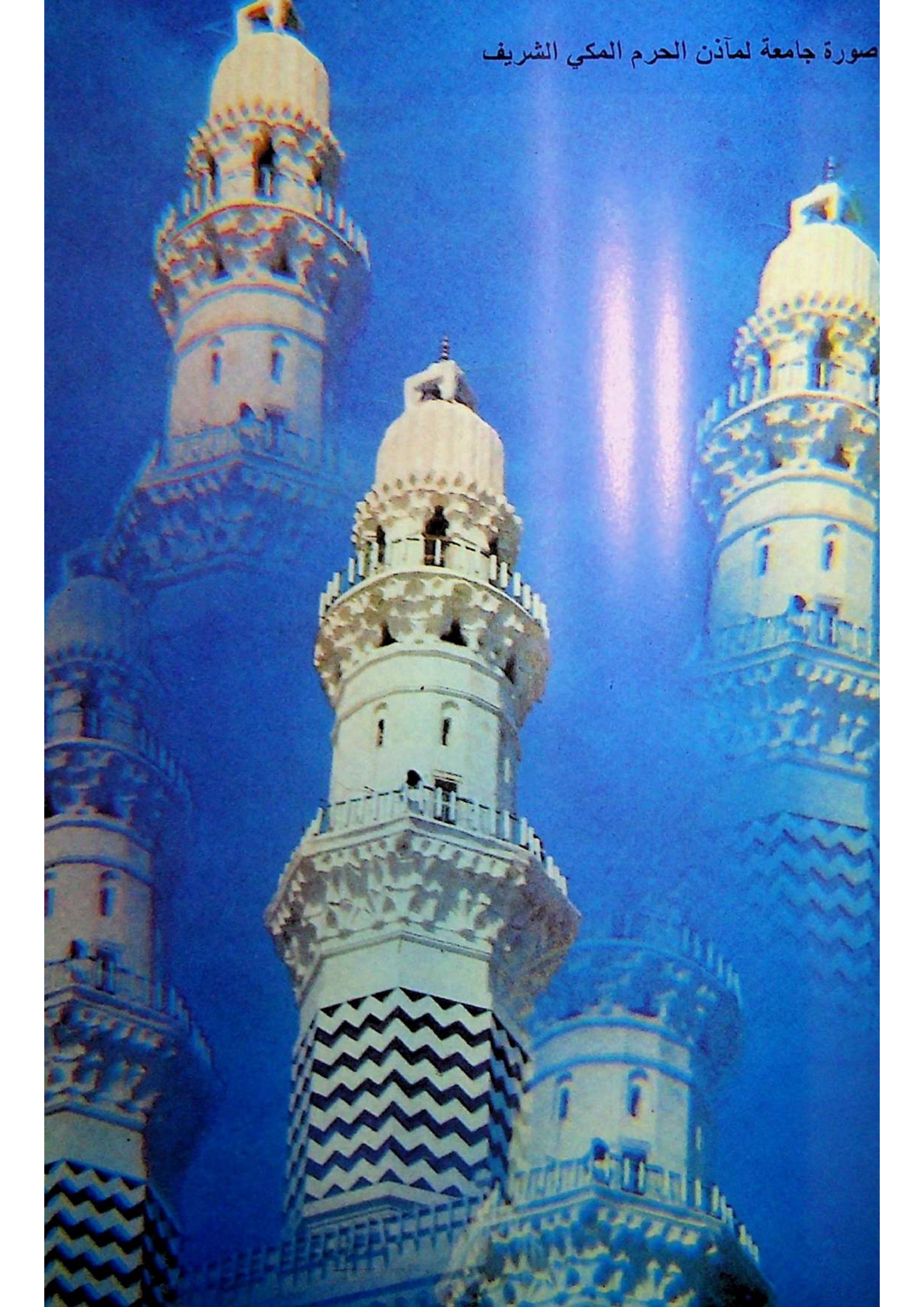
تكمن الرحمة في أعماق النفس العربية منذ تكوينها في مجاهل الماضي السحيق، كما يحكم هذه النفس **نفور من الظلم وتوق دائم الى العدالة**. ومن منطلق انعدام الرحمة للضعفاء وفقدان العدالة التي تردع الأقوياء، تعيّنت نظرة العرب الخاصة الى الإنسان، ذلك المخلوق الاجتماعي الذي تدفعه شهواته ومطامعه الى تقويض سلامة مجتمعه بتحويله الى ميدان مستباح للظلم والقتل والعدوان **باسم الحرّية الفردية** التي يُنظر الى الحق في إطارها بمنظار القوة والجبروت.

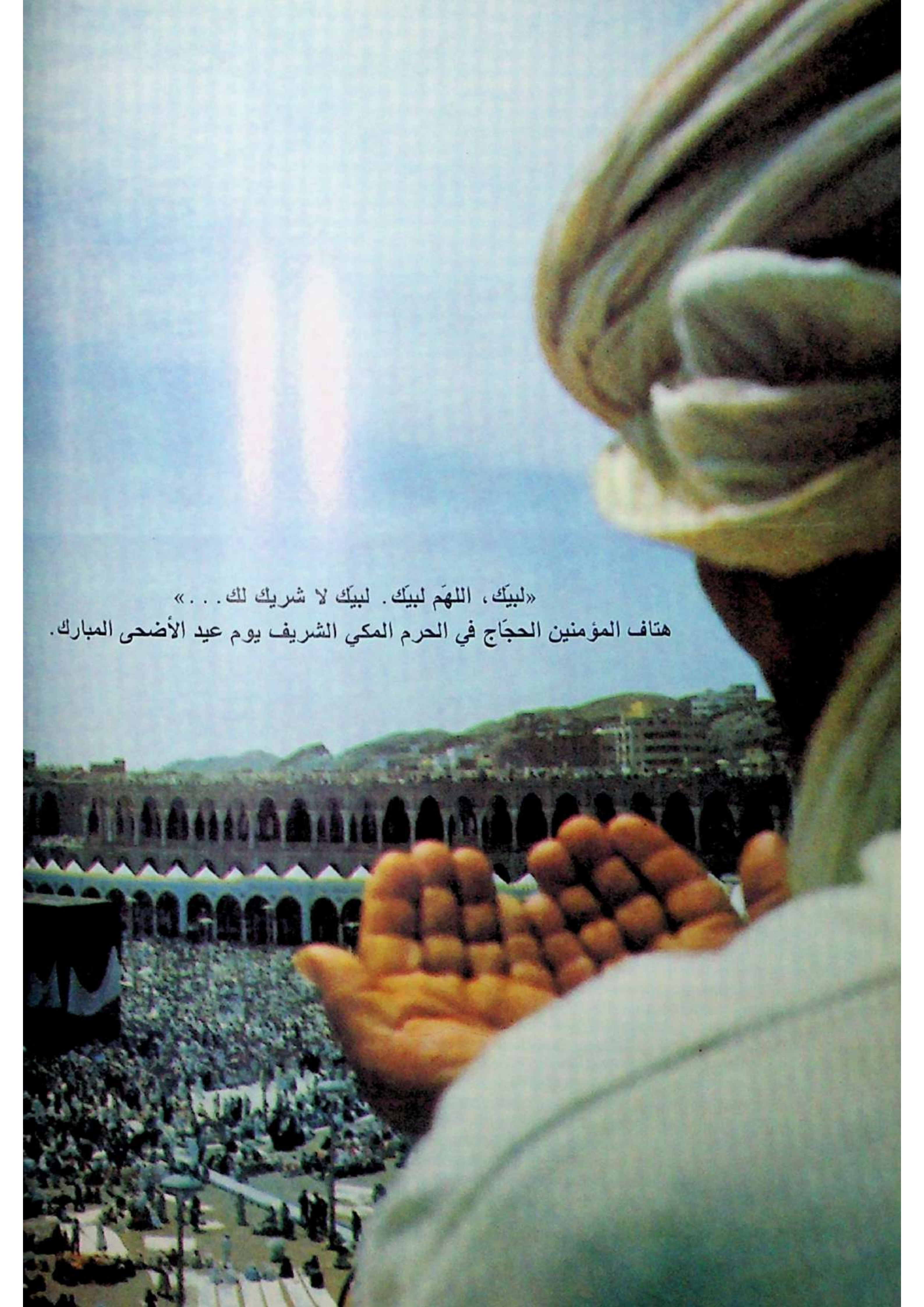
لذلك يمكن القول إن العرب **لم ولا ولن يعترفوا يوماً** بما يسمّى «حقوق الإنسان»، بل إنهم يؤمنون «**بحقوق الله على الإنسان**»... الله باعتباره خالق هذا الإنسان، والمرجع السلطوي الأعلى لوجود الأفراد والجماعات، والقاضي الأول والأخير الذي يفصل بين الحق والباطل، والخير والشرّ، والفضيلة والجريمة، والرحمة والطغيان، والعدالة والظلم.

إنها الحقيقة الماثلة في الضمير البشري أينما وجد الإنسان، ولا سيّما في الوجدان العربي المستقل عن أي زمان أو مكان، **قبل ظهور الأديان الإبراهيمية وبعدها**.

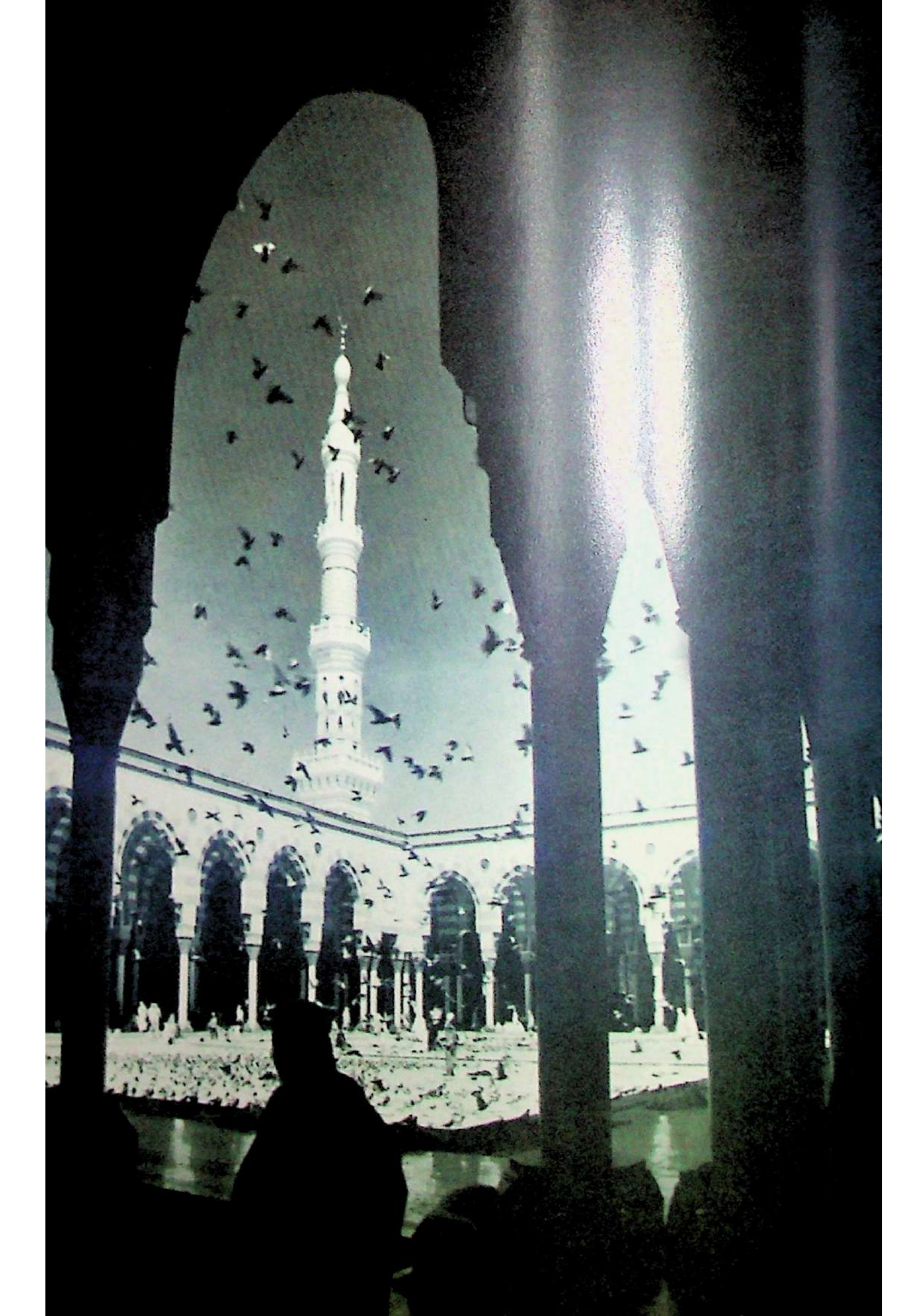
ويخطئ من يعتقد أن المجتمع العربي يخضع للحاكم أياً كان من خلال إيمانه بأن ذلك الحاكم يستمد سلطانه من الله، فلا يخلعه أو يثور عليه، حتى ولو نكّل بالجماعة واستعبدها واستغلّها وغامر بمصيرها ومصير أفرادها! فالمسألة أعمق بكثير من هذا التصور السطحي الافتراضي لنظام العلائق بين الحاكم العربي ورعيته. ذلك أن المجتمع العربي يعتبر نفسه **صاحب «تكليف شرعي»** من الخالق الذي هو خير وحقّ وفضيلة ورحمة وعدالة، يلزم المحكوم بطاعة الحاكم ومطاوعته في إدارة حكمه، **لأن** الطاعة والمطاوعة تؤلفان **القاعدة الأساسية للسلامة العامة والانتظام العام**... فإن أقام ذلك الحاكم على احترام صفات الله الخالق - أو سمِّه القوة العليّة العظمى - في إبانة الحق، وتعميم الخير، وحماية الفضيلة، والأمر بالرحمة، وتطبيق العدالة، **دانت له الرعية بالولاء** الدائم والتضحية حتى الفداء. أمّا إذا نقض إرادة الخالق المتمثلة بصفاته تلك، **فسرعان ما تخلعه الرعية**، وتمثّل به وتسحقه بلا هوادة!

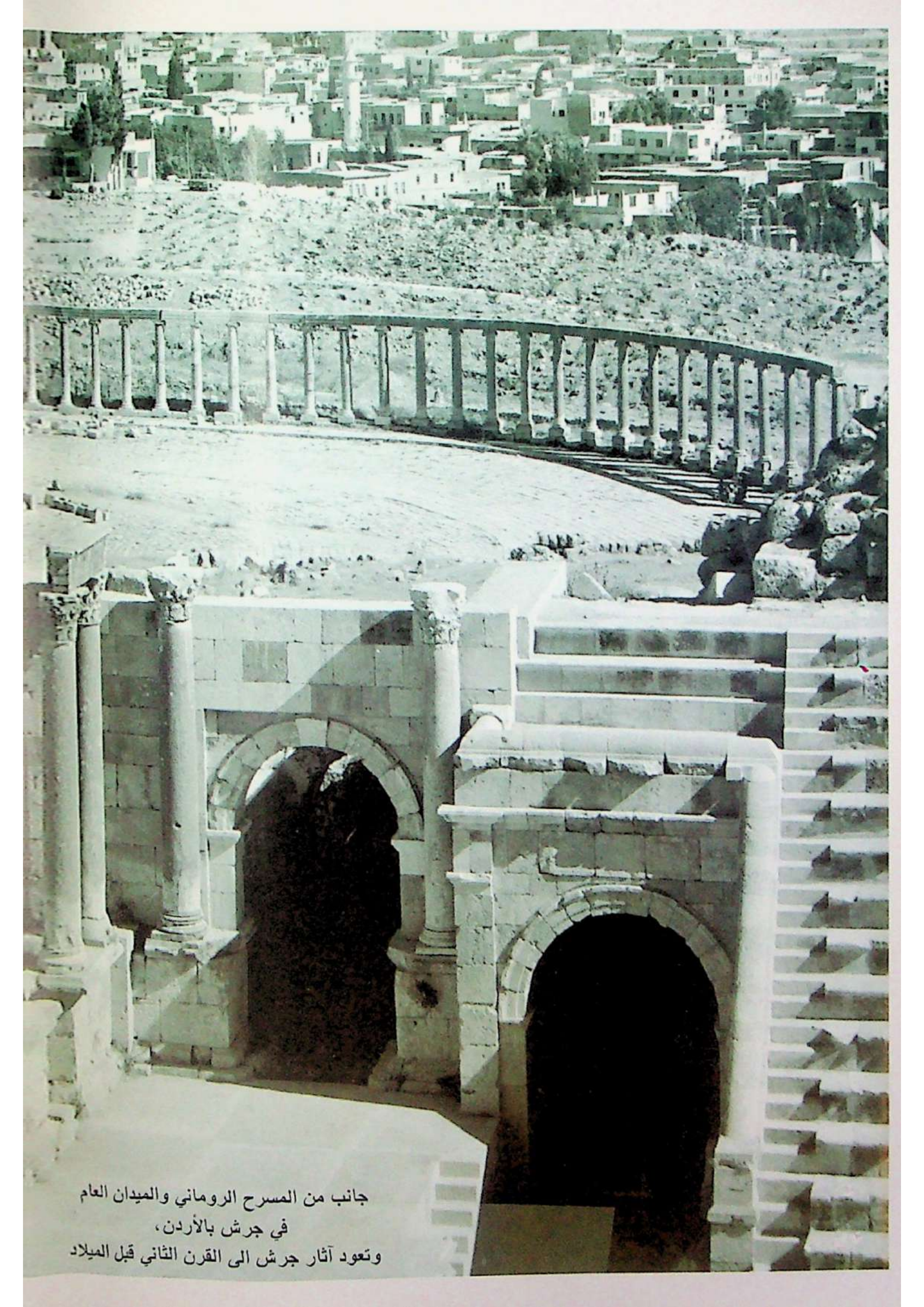
وقد اشتطّ الباحثون والمستشرقون الأجانب قبل غيرهم، في تعليل انقلاب الدول وزوال الممالك عبر التاريخ العربي، **في مراحل زمنية قصيرة** لا تتجاوز بضعة أعوام، وأحياناً بضعة أشهر أو حتى بضعة أيام... فسارعوا الى القول إن تلك الظاهرة تعود


صورة جامعة لمآذن الحرم المكي الشريف



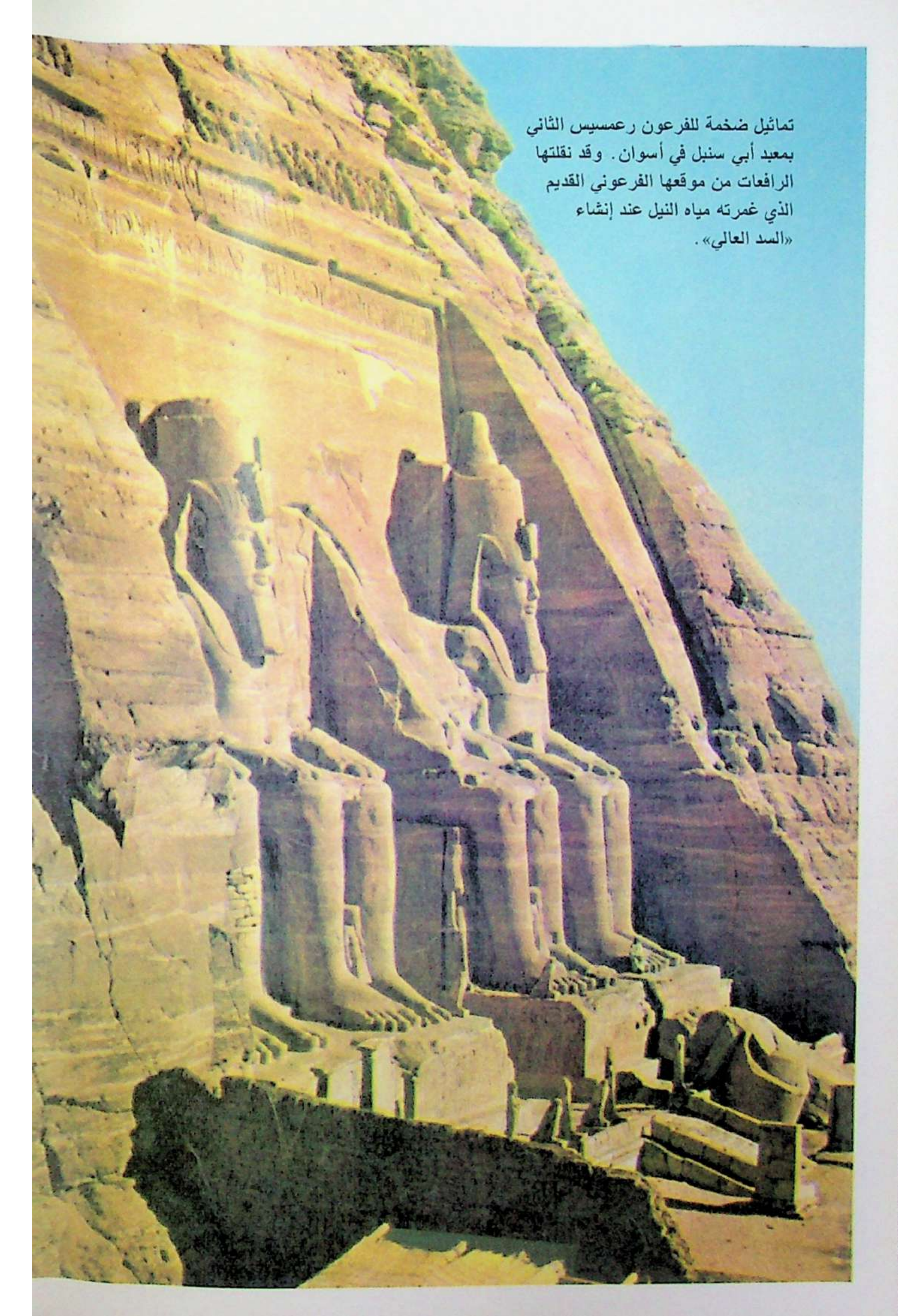
«لبيّك، اللهمّ لبيّك. لبيّك لا شريك لك. . .»
هتاف المؤمنين الحجّاج في الحرم المكي الشريف يوم عيد الأضحى المبارك.



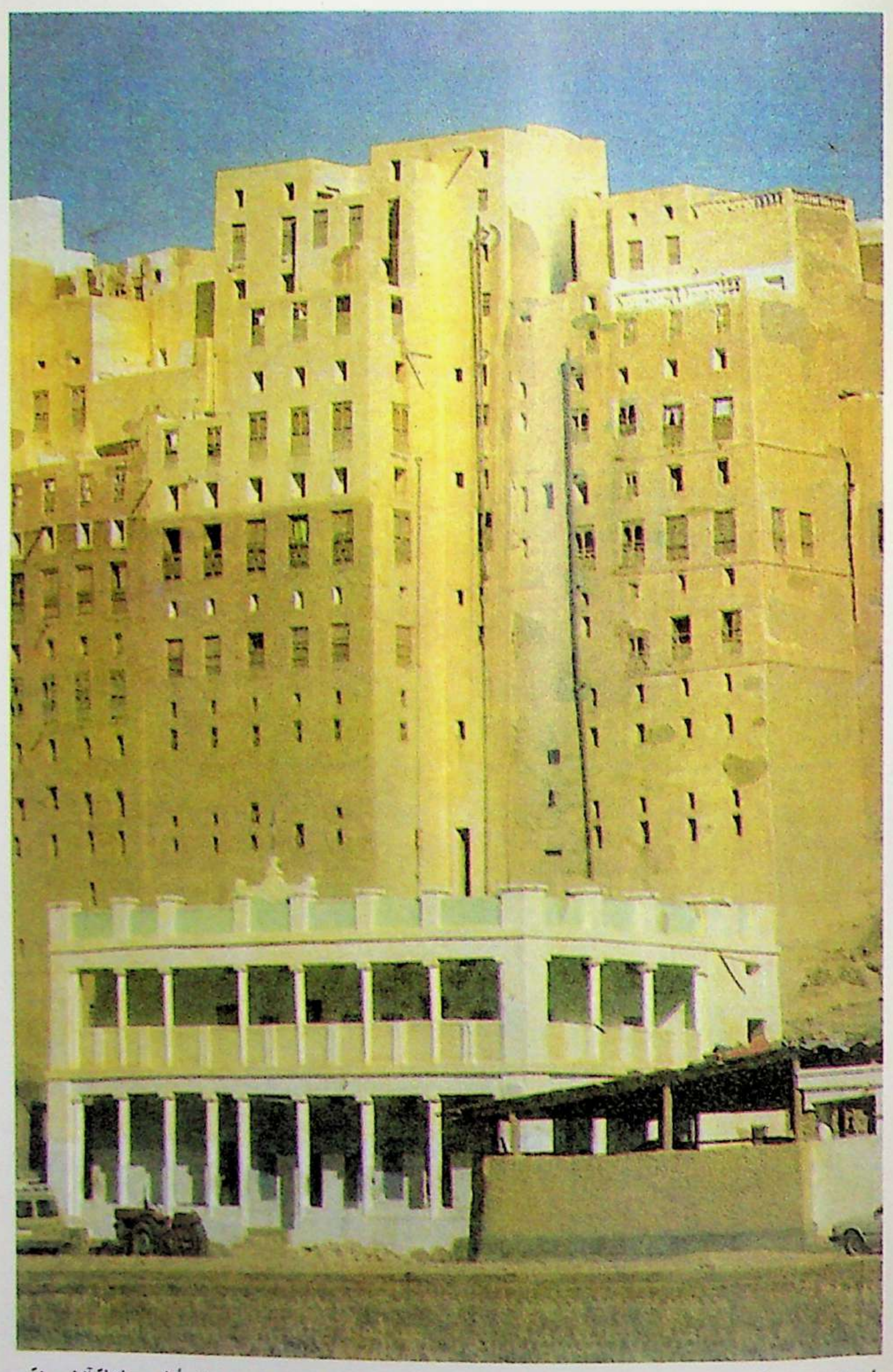

جانب من المسرح الروماني والميدان العام
في جرش بالأردن،
وتعود آثار جرش الى القرن الثاني قبل الميلاد



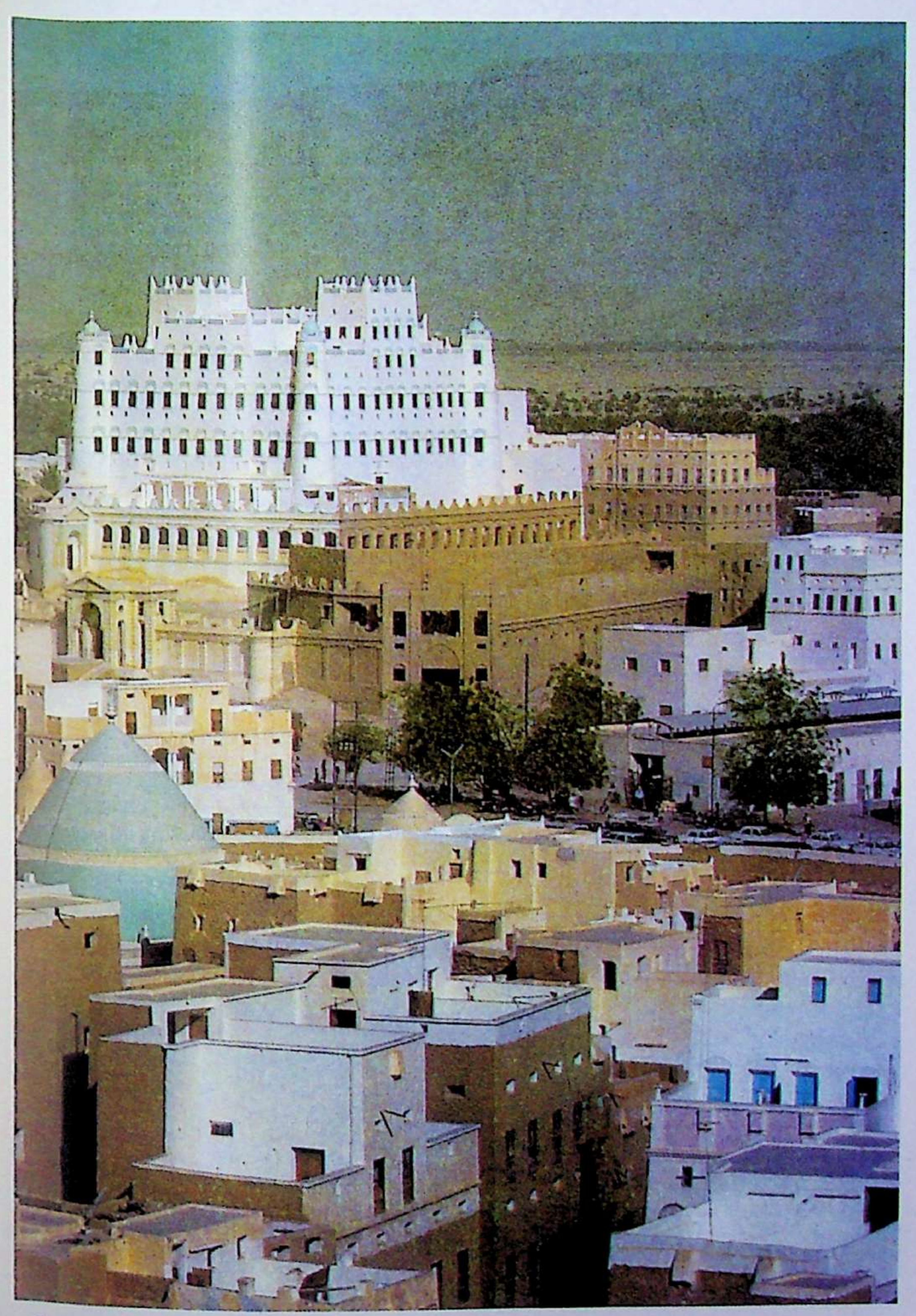
جانب من آثار عاصمة الأنباط «سلع»، أو (بترا باليونانية) في وادي الاردن بين البحر الميت والعقبة



تماثيل ضخمة للفرعون رعمسيس الثاني بمعبد أبي سنبل في أسوان. وقد نقلتها الرافعات من موقعها الفرعوني القديم الذي غمرته مياه النيل عند إنشاء «السد العالي».



أحد المشاهد المألوفة للمباني الشاهقة المرصوفة بالآجر والطين في مدينة «شيبام» التي تعود الى أكثر من ثلاثة آلاف سنة. وقد سميَت شيبام «مانهاتن الصحراء» واعتبرتها منظمة الأونسكو مع مدينتي «سيئون» و «تَريم» القديمتين من معالم التراث العالمي. وهي تشهد على نمو الحضارات القديمة في اليمن. (من كتاب حضرموت - منشورات «مؤسسة محمد بن لادن للدراسات العربية والإسلامية» - بيروت ١٩٨٩ - تصوير سامي كركبي.)



«تريم» و «سيئون» مدينتان في اليمن الجنوبي بناهما الملك تريم بن حضرموت بن سبأ الأصغر، ويبدو في الصورة قصر السلطان في مدينة «تريم» يعتلي بمهابته الدهرية المدينة التي تعرّضت في أواخر التسعينات لفيضانات مدمّرة أتت على بعض أجزائها. (من كتاب حضرموت - منشورات «مؤسسة محمد بن لادن للدراسات العربية والإسلامية» - بيروت، ١٩٨٩.)

الى **اضطراب النفس العربية** التي تتحكم بها بداوة الجاهلية، أو الى خلل جذري في أخلاق العرب وميلهم الى العنف والطمع بالسلطة، والتمتع بسفك الدماء!.. واستنتجوا، بلا خجل واضح وبأعذار متفلسفة أقبح من الذنوب، **أن العرب أعداء النظام والانتظام** يعيشون خارج الحضارة، أو أنهم مصابون «**بالمازوشية الجماعية**» التي تقضي بأن يتمتع الناس بتعذيب أنفسهم وإهلاكها، الى آخر ما هنالك من اتّهامهم بالشذوذ والانحراف (...)

والواقع أن الأمر يختلف كلياً عمّا يذهب اليه الحاقدون على العنصر العربي والراغبون في إبادته، فهو يعود بالدرجة الأولى الى إنكار المظالم والخيبة المريرة الناشئة **عن نظرة العرب المثالية** الى أولياء الأمر من أصحاب السلطان والطريقة الاستبدادية الافتراسية التي يمارس هؤلاء الحكم بها ويخرقون مبادئ «التكليف الشرعي» وقد **حصره الله بالرعية المستضعفة وائتمنها عليه**. وهو ما يفسّر اقتناعهم العميق بأنّ «**يد الله مع الجماعة**»، وأنها مدعوّة بالتالي الى محاسبة الحاكم الذي يمثل الإنسان المنحرف والمتجاوز «**حدّ الله**»، وانتزاع «حقّ الله» منه.

وتناقض هذه النظرة العربية الى تكليف الله الجماعة **حماية حقه من السلطان الجائر** الذي يتجاوز حدّه، نظرية الكنائس المسيحية وبالأخص كنيسة روما، بأن حقّ السلطان «**حق إلهي**» أعطاه الخالق للحاكم الذي يفعل ما يشاء ويتصرف بالرعية كما يريد عدلاً أو ظلماً، ولا يجوز للجماعة أياً كان شذوذ الحاكم وانحرافه، أن تنقلب عليه أو تثور لخلعه تحت طائلة «**الحرم**

الكنسي» الذي تسلّط على الممالك والأمبراطوريات والإمارات الأوروبية طيلة القرون الوسطى. فلمّا انفجر ذلك الوضع الشاذ انطلاقاً من الثورة الفرنسية سنة **١٧٨٩**، وانتهاء بالثورة الروسية سنة **١٩١٧**، تحوّلت أنظمة الحكم في أوروبا الى **جمهوريات علمانية ملحدة** أسقطت «الحق الإلهي» الذي يعتبره المستبدّون ملكاً لهم، وعوض أن تتبدّل سواه حقاً إلهياً يؤمّن العدالة على يد الجماعة، التزمت «**حقوقاً إنسانيةً**» **تؤمن بالحرّية وحدها** أولاً وأخيراً... فكانت هذه الحرّية أشبه بالثوب الذي يفصّله كلّ على قياسه، ويخرجه بأشكال ديموقراطية، أو دكتاتورية، قومية عنصرية أو شيوعية أممية، إشتراكية أو راسمالية، لا حدود لفروعها المتناقضة والمتصارعة، تصل بينها **خرافة تدعى** «**حقوق الإنسان**» وتتمثل فيها «**الوثنية الجديدة الهمجية المتوحشة**» القائمة على عبادة القوة والجريمة والإرهاب والمال والجنس والحرب، ممّا لم يعرف له التاريخ مثيلاً في أقبح عصور الظلام (!!)

ولا يظنَّنَّ أحد **أنَّ الحربين العالميتين الرهيبتين** اللّتين حدثتا في أقل من **٥٠** سنة خلال القرن العشرين، إنما وقعتا هكذا بعامل صدفة، أو بفعل تآمر قوى غامضة على الجنس البشري، أو حتى بسبب الصراع المستميت على المصالح، أو لأن التطور التقني في صناعة الأسلحة أوجب تجربة الحديث منها، أو أن تضخم أجهزة المخابرات والمواصلات والاتصالات بلغ حدوداً صغّرت حجم العالم فوسّعت حجم عداواته... الى آخر ما هنالك من أسباب مباشرة أو غير مباشرة يفسّر بها العلماء

والمؤرخون هاتين الظاهرتين الإجراميتين اللّتين أزهقتا أرواح ما يزيد على ٦٠ مليون إنسان في جنبات الدنيا، وأحدثتا من الخراب والتدمير ما لا تزال الدول المتورطة فيهما عاجزة عن ترميم بعض ظواهره الى اليوم... بل **إن العامل الأساسي الأهم** في اندلاع الحربين المشار اليهما هو في تقويمنا **عجز الايديولوجيات المادية** عن ملء الفراغ الذي طرأ بفعل إزالة مظلّة «**الحق الإلهي**» عن أنظمة الحكم الأرستوقراطية الأوتوقراطية منذ قيام الثورة الفرنسية وما أعقبها من حروب نابوليون، وذلك مع **انعدام أي اتفاق على أي حق آخر إلهي أو إنساني** لحماية النظام العالمي باستنان شرعة أخلاقية ملزمة (une éthique impérative) تحول دون تفاقم الصراعات بين الدول وانتقالها عبر الحدود الثنائية والإقليمية الى المسرح العالمي.

فقد صدر عن الثورة الفرنسية عام **١٧٨٩** «**أعلان حقوق الإنسان والمواطن**» الذي كرّس مبادئ الحرية للأفراد والجماعات ودعا الى **الإخاء والمساواة** بين البشر، لكنه ظلّ حبراً على ورق ولم يحقق أياً من الأهداف المثالية التي نص عليها، بل مزّقته الحروب مع الأسف وكان الضحية الأولى في بحر الدماء التي أراقها، زعيم التطرف الإرهابي «روبسبيير»، وقام أحد أقطاب الثورة «ميرابو» برثاء ذلك الإعلان في الجمعية الوطنية هاتفاً: «**كم من الجرائم ارتكبت باسمك أيتها الحرّية!!**»

وجاءت الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤، نتيجة طبيعية لمسلسل النزاعات الدامية والثورات طيلة القرن التاسع عشر بين

الأوروبيين، فتورطت فيها الولايات المتحدة الأميركية، وكان انتصار الحلفاء سنة **١٩١٨** خير مناسبة لبعث «إعلان حقوق الإنسان والمواطن» بعد معاهدة ڤرساي وإنشاء «**عصبة الأمم**» سنة **١٩٢٠** التي أضيفت الى شرعتها **النقاط الأربع عشرة المتعلقة «بحق تقرير المصير»** لشعوب العالم كافة، وهي نقاط أساسية أراد بها الرئيس الأميركي توماس وودرو ولسون القضاء على آفة الحرب التي كتبت تاريخ البشرية بالدماء وأفضت الى الحرب العالمية غير المسبوقة يومذاك.

وبعيداً عن أي اجتهاد كيفي غير موثق يربط بين **خطاب الرئيس ولسون في ٢ نيسان (أبريل) ١٩١٧** الذي قال فيه: «سنحارب من أجل الديموقراطية، وسنكفل لمن أذلهم الاستبداد حقّهم في توجيه حكوماتهم. سنحارب من أجل حقوق الأمم الصغيرة وحرّياتها.» **ثم دخوله الحرب ضدّ ألمانيا بعد أربعة أيام في ٦ نيسان...** بعيداً عن أي ربط اجتهادي غير محقّق أو موثّق بين ذلك الخطاب، والإعلان الذي صدر في أواخر السنة نفسها (تشرين الثاني- نوفمبر ١٩١٧) عن وزير خارجية بريطانيا السير جيمس بلفور **بالموافقة على إنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين...** يمكن القول إن مطالبة ولسون بحق الشعوب في تقرير مصيرها، التي أدرجت بعد الحرب في مؤتمرات ڤرساي وباريس وسيڤر ولوزان، وفي شرعة «عصبة الأمم»، **لم تطبّق إلّا على الشعب اليهودي** الذي تكشفت هجرته الى فلسطين منذ أوائل العشرينات من القرن الماضي، فيما لم تحترم على الإطلاق **حقوق**

الأرمن والأكراد والعرب الذين أيدوا الحلفاء في الثورة على الأمبراطورية العثمانية، وغيرهم من الشعوب المقهورة، في تقرير المصير الذي اختاروه لمستقبلهم.

وما لبثت «حقوق الإنسان» أن سقطت للمرّة الثانية بعد انهيار عصبة الأمم أمام التجبّر الهتلري العدواني في الثلاثينات من القرن العشرين، **وكانت الحرب العالمية الثانية** أعمّ وأكبر وأخطر بكثير من الأولى، وذهب ضحيتها عدد يفوق الأربعين مليوناً.

ثم كانت المحاولة الثالثة لإرساء العدالة الدولية وتثبيت حقوق الإنسان، **بعد إنشاء «منظمة الأمم المتحدة» بديلاً عن «عصبة الأمم»** بشرعة عالمية متكاملة سنة ١٩٤٥، هدفها القضاء النهائي على فكرة الحرب في أعقاب المغامرة الإجرامية التي أقدمت عليها النازية وأدّت هزيمتها النكراء الى هزيمة أوروبا جمعاء وانكفائها الى المقعد الخلفي بعد الولايات المتحدة وروسيا السوفياتية.

واتفقت القوى العظمى المنتصرة في الحرب على إصدار شرعة خاصة بحقوق الإنسان **متمّمة لشرعة الأمم المتحدة**، وذلك بهاجس سدّ الثغرات وقطع الطرق، بأشمل وأدق نظام دفاعي قانوني ممكن، على كلّ من تسوّل له نفسه التسلط على الآخرين، واستباحة أوطانهم، وتعريض شعوبهم للقتل والمهانة والتنكيل، والافتراء على حرّية الإنسان الفرد وكرامته وحقه في الحياة بأي وسيلة ترغيبية أو ترهيبية خفيّة أو ظاهرة.

وبعد أبحاث دامت بضعة أشهر بين فريق من الفلاسفة والمفكرين في طليعتهم مندوب لبنان **الفيلسوف شارل مالك** ومندوب فرنسا **الخبير القانوني رينيه كاسان**، وذلك بمشاركة قرينة الرئيس الأميركي **السيدة اليونور روزفلت** صدر من قصر شايو بالعاصمة الفرنسية «**الإعلان العالمي لحقوق الإنسان**» **في ١٠** كانون الأول (ديسمبر) **١٩٤٨.** وانطلقت عقب ذلك سلسلة من المساعي الحثيثة لإدخال هذا الإعلان في الأنظمة الأساسية **للمجالس المتخصصة** في منظمة الأمم المتحدة، **كما تمّ إدراجه في الملاحق الدستورية** لمعظم الدول الأعضاء في المنظمة المذكورة. ولا تزال وسائل الإعلام العالمية تفرد الى اليوم مجالات واسعة للأبحاث والمقالات والدراسات المتعلقة بحقوق الإنسان، والحاجة الماسة الى تطبيقها.

ولكنها مع الأسف **قضية حق أريد بها باطل. . .** فسرعان ما تكشّف مخض العقائد عن زبد المصالح، وانكفأت أحلام الضعفاء وتمنياتهم أمام زحف الأقوياء وجحافل أطماعهم، وشهد العالم من **١٩٤٨** الى هذا العقد الأول من القرن الحادي والعشرين طائفة **من العداوات والحروب والمجازر والمجاعات والفتن والاغتيالات السياسية والاجتياحات البربرية وعمليات الإبادة** ما يكاد عدد ضحاياه يتجاوز عدد الضحايا في الحربين العالميتين الأولى والثانية. يضاف الى ذلك كلّه غمامة القلق والرعب التي تخيّم على البشرية، منذ **إلقاء قنبلتي هيروشيما وناجازاكي** على اليابان، مروراً **بانتقال أسرار التفجير النووي** الى الدول الخمس

الدائمة العضوية في مجلس الأمن، ثم حصول دول متورطة في نزاعات إقليمية بالغة الخطورة والخطر كإسرائيل والهند وباكستان وكوريا الشمالية، **على الأسرار النووية**، والخوف العميم المقيم **من انتشارها عالمياً**، لاسيما وإنّ معظم التكتلات الدولية تتحوّل يوماً بعد يوم الى ما يشبه **العصابات المدمّرة** في ظلّ عملاق متوحّش أطلقوه من قمقم الخزانات التاريخية والسياسية الدفينة المتراكمة وسمّوه «**إرهاباً**». هذا لكي نتجنّب الخوض في انتشار أسلحة الدمار الشامل الأخرى من بيولوجية وكيمائية التي بات يملكها العديد من الحكومات والتنظيمات الإرهابية في الشرق والغرب، ويمكن لأي مغامر عسكري أن يستعملها في نطاق إقليمي محدود.

ويبدو من الطبيعي، أن يقودنا البحث الى أقصى حدود التشاؤم بعد هذا العرض التاريخي للعثرات المتعمّدة التي يتخبّط فيها السلم العالمي **من جراء التطبيق الاستنسابي المغرض لمبادئ «حقوق الإنسان» طيلة القرنين الماضيين**، فنأسف كبير الأسف لما يتهدّد العالم اليوم بعدما أنكر «**حقوق الله على الإنسان**» وآمن بالبدعة الأكثر شذوذاً في التاريخ وهي **أن تكون «للإنسان حقوق على الإنسان»** دونما رادع قانوني بشري على الأقل يغني عن الرادع الرحماني الإلهي!! وقد يتساءَل بعضهم: **أليست شرائع الأمم المتحدة رادعاً؟!** فيجيب المنطق السليم: إنها لم تكن الى اليوم أكثر من «**نصائح بشرية**» لا تتمتع بالهيبة التي تتمتع بها الشرعة الإلهية والتي فرضت ثواباً في الآخرة للمحسن أو عقاباً للمسيء.

فكيف نصنع إذن؟؟!

إننا لا نستطيع العودة الى الوراء في أي حال. . . ولا حول ولا قوة للمستضعفين في مقاومة المستكبرين الذين يخرقون في كلّ مكان وزمان الشرعة الدولية المتعلقة بحقوق الإنسان. . . هذا، مع الملاحظة المحبطة **لسباق الأمم على التسلح**، وتأمين كلّ أسباب التفوّق على هذا الصعيد. والسلاح كما هو معروف ليس أن يقتنى وحسب، بل أن يستعمل في أوان غير مسمى، لاسيما وإن المبالغ الهائلة التي تنفق عليه - مع العلم أن صلاحيته المحدودة تفرض تجديده طبقاً للتسارع المذهل في تطويره - تلك المبالغ يمكنها أن تلغي في سنة واحدة كلّ مظاهر الفاقة والبؤس في عالمنا المنكوب الذي فارقته السعادة وطلّقه الأمان.

وما دام المجتمع الدولي لا يستطيع معالجة هذا الوضع، وقد أصاب الفشل الذريع مبادئ حقوق الإنسان التي عجزت عن تحرير العالم من كوابيس الإبادة والهلاك، **فالسبيل الوحيد لبلوغ الحدّ الأدنى من الاستقرار النفسي والطمأنينة الكينونية الكونية**، هو تحرير منظمة الأمم المتحدة من سلطان الأقوياء بتأليف **مجلس أمن جديد** من قضاة دوليين منزّهين ينتمون الى أصغر الدول المتمدنة في العالم، على أن يمنح هذا **المجلس صلاحيات واسعة في ردع التجاوزات** المتعاظمة لحقوق الإنسان، مع إلزام الدول الكبرى فرض ذلك الردع بالقوة، حتى ولو طال بعض المتورطين بالتجاوز من تلك الدول الكبرى نفسها.

ولكي يتحقق مثل هذا الاقتراح أو غيره من اقتراحات الإنقاذ الممكنة، يتعيّن بالدرجة الأولى إدخال **بعض النصوص الاحتياطية الأخلاقية الملزمة** (des précautions d'ordre éthique) **على** «الإعلان العالمي لحقوق الإنسان» التي يُحظّر خرقها ويُفرض احترامها الدقيق في تطبيق مبادئه. ويبدو من الضروري بل من المتحتم أن تُستَنَّ **شرعة دولية** «**لأخلاقية الأهداف**» التي ينشدها العلم على صعيد تعميم بعض كشوفه، خصوصاً في ميادين الهندسة الوراثية، والتفاعل النووي، والتدخل الكيميائي المتحكّم بالاتجاهات العصبية والنفسية للأفراد... لاسيما وأن **بعض الإنجازات العلمية** الحديثة أثبتت قدرة العلم على تطوير الجنات الوراثية أو تبديلها في المختبر، وتحويل الطاقة التفجيرية النووية الى طاقة قادرة على قتل الأحياء مع المحافظة على الأشياء في وضع سليم، وتشويه الإرادة الطبيعية في أي إنسان بواسطة «الأقراص والمساحيق المؤثرة في حركة خلايا الدماغ» بحيث يتحول في لحظات من كائن بشري عادي **الى وحش منحرف العقل والإرادة**، قادر على سفك الدماء والتمتع بارتكاب المجازر **أو حتى الحصول على قمة اللّذة بالانتحار!!**. وقد ثبت مع الأسف أن بعض المستكبرين المستهزئين بالإنسان، وحقوق الإنسان، **أصبحوا هم الإرهابيين الحقيقيين** الذين يستعملون هذه الانجازات العلمية لنشر «الإرهاب» فيما ينسبونه زوراً الى من يعارضون مشاريعهم الافتراسية الجهنمية!..

ومن خلال هذا الإفلاس التدريجي المعاصر في احترام حقوق الإنسان، تتضح أكثر فأكثر واقعية الموقف العربي من قضية الإنسان، سواء في الجاهلية الأولى أو الأخيرة التي سبقت الإسلام مباشرة والعهود التي أعقبته. ويتجلّى هذا الموقف في اتجاهين متنافرين الى حدّ بعيد. **الأول يتعلّق بإنسان القربى، والآخر بإنسان العقبى.**

أمّا «**إنسان القربى**» فنقصد به الأهل والإخوان والأقربين والأصدقاء في المجتمع، كالجدّ والجدّة، والأب والأمّ، والأخ والأخت، والزوج والزوجة، والأولاد والحفداء والأسباط، ذكوراً وإناثاً، والأعمام والأخوال والخلّان والأعوان، الخ... وهم يحتلون منزلة فائقة من **المحبة والرعاية والإكرام** في عمق النفس العربية وتلابيب شعورها. وفي جذور اللغة ما يعبّر خير تعبير عن علاقة الفرد الكيانية العضوية بهذه المجموعة من الأقرباء الذين تحدر منهم أو تحدروا منه أو تعايش معهم وأصبحوا جزءاً لا يتجزأ من وجوده. إنهم في لغته **الأهل، والرهط، والقوم، والعِترة، والعِزوة، والحَرَم، والحَشَم، والعَيْلة، والجَمرة، والصَفوة**، الخ... وهو إذا غضب قال لغريمه «**لا أمّ لك**»، أو «**لا أبا لك**»... وإذا أحبّ الآخر قال له: «**بأبي أنت وأمي**»... وإذا تألم صاح «**آخ**»، وإذا اطمأن واستراح قال: «**خَيّ**»... وإذا حلّت به النكبة هتف: «**يا أمّاه**» وإن خاطب الشيخ قال «**يا عمي**»، وإن نادى الفتى قال «**يا بُنَيّ**»... ويرى وجه أمّته في وجه أمّه،

ويسمّي أحب بناته اليه «**أميمة**» و«**أميّة**» و«**أمامة**»...

ولا غرو مع تماسك البيت العربي منذ القدم وتوحّد أركانه وتآزر عناصره البشرية في الحياة المشتركة **ان تتألق العاطفة ويتدفق الشعور بأروع الخواطر الوجدانية في النتاج الأدبي**، خصوصاً عندما يسقط أحد الأعمدة الأساسية في ذلك البيت، وتتزايل صورته تحت أطباق الثرى. فبمقدار ما يحدث الموت من تفجّع ومرارة عند الوهلة الأولى، نراه يتحوّل الى ابتهال أو حكمة أو عبرة كلّما حدق العقل في صورته المؤلمة وتحقق من عجزه وقصوره عن معالجة القدر ومغالبة المجهول.

ومهما تكن فجاءَات الحياة قاسية، أو تكن تبعات القربى ومسؤولياتها ضاغطة صارمة لا ترحم، فلا بدّ من السلوك الملتزم **في معاملة الأقربين بالحسنى واختصاصهم بالمعروف** دون سواهم كما يقول زهير بن أبي سلمى:

وَمَنْ يكُ ذا فضلٍ فيَبخَلْ بفضلِهِ ... على قومِهِ، يُسْتَغْنَ عنه ويُذمَمِ
وَمَنْ يجعلِ المعروفَ في غيرِ أهلِهِ ... يَكُنْ حمدُه ذماً عليه، ويندَمِ

أو كما يقول الأحوص:

وما خيرُ مَنْ لا ينفعُ الأهلَ عيشُهُ ... ويشقى به حتى المماتِ أقاربُهُ؟!

★ ★ ★

وللإخوة والأخوات مكان متقدم على غيرهم في العائلة العربية، وهو يتجلّى في قول مأثور:

أخـاك. أخـاك. إنَّ مَنْ لا أخـا لـه   كـسـاعٍ الـى الـهـيـجـا بـغـيـر سـلاحِ

أو حتى في قول مؤيد الدين الطّغرائي الفارسي الأصل والذي تأثر بالخلق العربي، وقد سبقت الإشارة الى «لاميّة العجم» التي اعتمد فيها المزايدة على المناقب العربية، فمن أبياته الشهيرة:

أخـاك. أخـاك. فـهـو أجلُّ ذخـرٍ   إذا نـابـتـكَ نـائـبـةُ الـزمـانِ

ولعلّ أكثر ما يعبّر عن مقام الأخ في أعماق النفس العربية هو مجمل أقوال الشعراء **في باب المراثي**. فقد فاقت **الخنساء تماضر بنت عمرو** بن الحارث بن الشديد الراقية في نسبها الى قيس عيلان بن مضر، جميع شعراء العالم في التعبير عن العاطفة الأخوية الجياشة. ذلك أنها تزوجّت أربع مرّات، وقتل أزواجها في الحروب، كما أنجبت بضعة عشر ولداً أبلى منهم أربعة البلاء الحسن في معركة القادسية سنة ٦٣٧م. واستشهدوا فيها. وقد اشتهر أبناء الخنساء جميعهم بالفروسية وقول الشعر، وماتوا كلهم في حياتها، فلم يبق لها في شيخوختها إلّا ابنتها عمرة التي زفت الى رجلٍ كريم في خلافة معاوية بن أبي سفيان.

ولكن أحداً من أزواج الخنساء وأولادها لم يبتعث في قلبها اليأس والمرارة بعد موته، **كما ابتعث تلك العاطفة والحزن العميق مصرع أخويها صخر ومعاوية**، وكانا من الفرسان الأشداء في الجاهلية. فقد تركا في أعماق نفسها جراحاً لا تندمل حتى نهاية عمرها الذي بلغت فيه التسعين، **ولم يعرف بين حرائر العرب امرأة أصابها ما أصاب الخنساء من ثكل وفجيعة**. ومعظم شعرها يقتصر على الرثاء والتفجّع لفقدان ذينك الأخوين، وعلى الأخص أخوها

صخر الذي غمرها بعطفه وسخائه وحمايته، وتقول فيه:

تبكي خُناسٌ على صخرٍ وحقَّ لها ... إذ رابَها الدهرُ إنَّ الدهرَ ضَرّارُ
وإنّ صخراً لتأتمُّ الهُداةُ به ... كأنّه علمٌ في رأسِهِ نارُ
جَلْدٌ جميلُ المُحيا كاملٌ وَرِعٌ ... وللنزالِ غداةَ الرَوْعِ مِسْعارُ
حَمّالُ ألْويَةٍ هَبّاطُ أوديةٍ ... شَهّادُ أنديةٍ للجَيْشِ جَرّارُ
لم تَحتجبْ جارةٌ يمشي بساحتها ... لريبةٍ حينَ يُخْلي بيتَهُ الجارُ
قد كانَ خالِصَتي من كلِّ ذي نسبٍ ... فقد أُصيبَ فما للعيشِ أوطارُ[196]
مثلُ الرُدينيِّ لم تَنفدْ شبيبَتُهُ ... كأنَّهُ تحتَ طيِّ البُرْدِ أُسوارُ[197]
طلقُ المُحيّا تضيءُ الليلَ صورتُهُ ... آباؤُهُ من طِوالِ السَمْكِ أحرارُ[198]

ومن أروع ما تذكرُ به أخاها صخراً قولها:

يُذكِّرُني طلوعُ الشمسِ صخراً ... وأذكُرُه لكلِّ غروبِ شمسِ
ولولا كثرةُ الباكينَ حولي ... على إخوانِهم لقتلتُ نفسي

وتتلوّع لفقده في هذه الأبيات أيضاً:

تقول نساءٌ: شِبْتِ من غير كَبْرَةٍ ... وأَيْسَرُ ممّا قد لَقيتُ يُشيبُ
ذكرتكَ فاستعبرتُ والصدرُ كاظمٌ ... على غُصَّةٍ منها الفؤادُ يذوبُ
لقد قُصِمتْ منّي قناةٌ صليبةٌ ... ويُقْصَمُ عودُ النبعِ وهو صليبُ[199]

كلّ ما في الحياة يبعث الحزن والمرارة في نفسها لنكبتها

(196) الأوطار: الحاجات والمبتغى.

(197) أي أنه نحيف الجسم أشبه بالرمح قامة وبالسوار رقّة ورهافة.

(198) السمك: القامة

(199) النبع: شجر قوي العود كانوا يتخذون منه السهام والقسيّ.

بصخر، وتبكيه كلّما سمعت حمامة ساجعة نائحة:

إنيّ تذكّرني صخراً إذا سَجَعَتْ   على الغصونِ هَتوفٌ ذاتُ أطواقِ
وكلُّ عَبْرىَ تَبيتُ الليلَ مُعْوِلَةً   تبكي لكلِّ جريحِ القلبِ مشتاقِ(٢٠٠)
لا تَبْعُدَنَّ فإنَّ الموتَ مُخترِمٌ   كُلَّ البريَّةِ غيرَ الواحدِ الباقي

ولا تقلّ فجيعة الخنساء بأخيها معاوية عن فجيعتها بصخر، فترثيه قائلة:

ألا ما لعيني؟! ألا ما لَها؟!   وقد أَخْضَلَ الدمعُ سِرْبالَها(٢٠١)
فنفسي الفداءُ لهُ مِنْ شهيدٍ   أَبَتْ أنْ تُزايلَ إعوالَها
وقافيةٍ مثلِ حدِّ المهنَّدِ تبقى، ويذهبُ مَنْ قالَها
نطقتَ ابْنَ عَمرٍو فسهَّلْتَها   ولم ينطقِ الناسُ أمثالَها
تَخرُّ الشوامخُ من قتلِهِ   وزُلْزِلَتِ الأرضُ زلزالَها

أو تبكيه قائلةً:

يا عينُ جودي بالدموعِ المستهلّات السَّواجِمْ(٢٠٢)
فيضاً كما انْخرقَ الجمانُ وجالَ في سِلْكِ النواظِمْ(٢٠٣)
وابكي معاويةَ الفتى   وابْنَ العَمالقةِ الخَضارِمْ(٢٠٤)
تسقي السماءُ ضريحَهُ   مِنْ صوبِ دائمةِ الرهائِمْ(٢٠٥)

---

(٢٠٠) العبرى: هي المرأة الثكلى التي تذرف العبرات.

(٢٠١) أخضل الدمع سربالها: بلّل الدمع قميصها أو كسوتها، والضمير المتصل «ها» يعود الى الأرض.

(٢٠٢) السواجم: المنصبّة.

(٢٠٣) المعنى أن الدموع تنهمر كأنها حبّات اللؤلؤ تنتظم في سلك وهي تتدحرج.

(٢٠٤) الخضارم: السادة النجباء الكرام.

(٢٠٥) صوب الرهائم: سكب الدِيَم أو الأمطار الخفيفة النديّة.

وثمة عربية أخرى في الجاهلية بكت أخاها بدمع غزير، ورثت أباها وعمّها بقصائد من عيون الشعر، **هي هند بنت عُتْبَة بن ربيعة** الذي قتل مع ابنه الوليد بن عتبة وأخيه شيبة بن ربيعة في وقعة بدر، وكانوا يقاتلون في صفوف المشركين القرشيّين ضد أصحاب الرسول. **لكنها لم تبلغ مبلغ الخنساء من لوعة وتفجّع**. ولها بيت من الشعر يفوق في أي حال عند نقّاد الأدب كلّ ما قالته العرب في باب المراثي، تصف به حالها بعد مصرع أخيها الوليد:

سَهَرُ العيونِ لغيرِ وجهِكَ ضائعٌ وبكاؤهُنَّ لغيرِ فقدِكَ باطِلُ

وفي عداد نخبة من سادات العرب وفرسانها مِمَّن رثوا إخواناً لهم سقطوا في المعارك بروائع الشعر الخالد، محمد بن كعب الغَنَوي الذي قتل أخوه المكنّى أبو المغوار في وقعة «ذي قار» الشهيرة بين العرب والفرس في الجاهلية سنة ٦١٠م. فرثاه بقصيدة عاطفية بليغة منها:

أخي كان يَكفيني وكان يُعينُني على نائِباتِ الدهرِ حينَ تنوبُ
كعاليةِ الرمحِ الرُدَيْنيِّ لم يكنْ إذا ابْتَدَرَ الخيلَ الرجالُ يَخيبُ
فلو كانتِ الدنيا تُباعُ اشتريتُهُ بما لم تكنْ عنه النفوسُ تَطيبُ
بِعينيَّ أو يُمنى يَدَيّ، وقيلَ لي: هو الغانمُ الجذلانُ يومَ يَؤُوبُ

وكذلك أعشَى باهلة الذي رثى أخاه المكنّى بالمنتشر، يوم قتله بنو الحارث بن كعب، بقوله:

جاءَت مُرَجِّمَةٌ قد كنتُ أحذرُها لو كان ينفعني الإشفاقُ والحَذَرُ
فبتُّ مكتئباً حيرانَ أندُبُهُ ولستُ أدفعُ ما يأتي به القدرُ

مَـنْ لـيـسَ فـي خـيـرِهِ مَـنٌّ يُـكَـدِّرُهُ	على الصديقِ، ولا في صَفوِهِ كَدَرُ[206]
يَمشي بـبـيداءَ لا يمشي بها أَحَدٌ	بـالـبـأْسِ، يَـلْـمـعُ من أَقـدامِهِ الـشَّرَرُ
مُهَفْهَفٌ، أَهْضَمُ الكشْحَيْنِ، مُنْخَرِقٌ	عنهُ القميصُ، لسيرِ الليلِ مُحتَقِرُ[207]
عـشـنـا بـه بُـرْهَـةً دهـراً، فـودّعَـنـا	كذلكَ الرمحُ ذو النَصْلَيْنِ ينـكسرُ

وأبو نهشل متمِّم بن نويرة اليربوعي الشاعر الإسلامي الذي قتل أخاه مالكاً ضرّار بن الأَزوَر، فرثاه قائلاً:

أَغـرَّ كـنـصـلِ الـسـيـفِ يـهـتزُّ لـلـنـدى	إذ لـم يـجـدْ عـنـد امـرئِ الـسـوءِ مَـطْـمـعاً
وما كـانَ وقّـافاً إذا الخيلُ أحجمَتْ	ولا طـائـشـاً عـنـد الـلّـقـاءِ مُـرَوَّعـاً
وإنّي متى أدعـوكَ باسمكَ لم تُجِبْ	وكـنـتَ حـريـاً أنْ تُـجـيـبَ وتـسـمَـعـاً
سقى اللهُ أرضاً حلَّها قبرُ مالكٍ	سخاءُ الغوادي المُمْرِعاتِ فأَمْرَعاً[208]
فـإنْ تـكُـنِ الأيّـامُ فـرّقْـنَ بـيـنـنـا	لـقـد كـانَ مـحـمـوداً أخي يـومَ وَدَّعـاً

وممّا قاله البَرَاءُ بن الربيع الفَقْعَسي في رثاء إخوته الثمانية:

أَبَـعْـدَ بـنـي أمـيّ الـذيـنَ تـتـابـعـوا	أُرجّـي حـيـاةً أمْ مِـنَ الـمـوتِ أَجـزَعُ
ثـمـانـيـةٌ كـانـوا ذؤابـةَ قـومِـهِـمْ	بـهـمْ كـنـتُ أُعـطـي مـا أَشـاءُ وأَمـنـعُ

وقال الأُبَيْرِدُ اليربوعي يرثي أخاه بُرَيْداً:

ولـمّـا نـعـى الـنـاعـي بُـرَيْـداً تَـغَـوَّلَـتْ	بي الأرضُ فرطَ الحزنِ وانقطعَ الظهرُ
فليتكَ كنتَ الحيَّ في الناسِ باقياً	وكنتُ أنا الميتَ الذي غَـيَّـبَ القبرُ

ولا ريب في أن المهلهل أبا ليلى عَدِيّ بن ربيعة التغلبي كان

---

(٢٠٦) المنّ: العطاء الذي يصحبه التبجّح فيكدّر ويكسر نفس المعطى له.

(٢٠٧) مُهفهف: عظيم النظافة؛ أهضم الكشحين: دقيق الخصر منكفئ البطن والأرداف.

(٢٠٨) الغوادي الممرعات: الأمطار التي تحمل الخصب.

الفارس الشاعر الذي يضاهي الخنساء، بل يفوقها أسلوباً، كما يفوق جميع الذين رثوا إخوتهم من العرب في الجاهلية والإسلام. ولا غرو أن يحلّق ويجيد، خصوصاً في رثائه لأخيه كليب وائلَ الذي كان يحتلّ أرفع منزلة بين السادات والأشراف. ومن أروع شعره في أخيه قوله:

نُبِّئْتُ أنّ النارَ عندكَ أوقِدَتْ ... واسْتَبَّ بعدكَ يا كُليبُ المجلسُ
وتشاوروا في أمرِ كلِّ عظيمةٍ ... لو كنتَ حاضرَ أمرِهِمْ لم يَنْبِسوا

وقوله عندما عرف بمصرعه:

أهاجَ قَذاءَ عيْني الإذِّكارُ ... هدوءًا فالدموعُ لها انحدارُ
وصارَ الليلُ مشتملاً علينا ... كأنَّ الليلَ ليسَ له نهارُ
كأني إذ نعى الناعي كُلَيْباً ... تطايرَ بين جَنبيَّ الشرارُ
أجبني يا كليبُ خلاكَ ذمٌّ ... لقد فُجِعَتْ بفارسها نِزارُ
خُذِ العهدَ الأكيدَ عليَّ عُمري ... بتركي كلَّ ما حَوَتِ الديارُ
وهجري الغانياتِ وشربَ كأسٍ ... ولبسي جُبَّةً لا تُستعارُ
ولستُ بخالع درعي وسيفي ... الى أن يخلع الليلَ النهارُ

ويقال أن المهلهل الذي لقِّب «بالزير» لكثرة ما كان يزور النساء، ترك حياة اللهو من ذلك اليوم، وما انفك يقاتل فرسان قبيلة بكر قاتلة أخيه أربعين سنة، حتى إذا حاولوا نزع درعه عن صدره يوم وفاته خرج لحمه وجلده معها. ومن روائع قوله:

نعى النُعاةُ كليباً لي فقلتُ لهم: ... مالتْ بنا الأرضُ أم زالت رواسيها
أبطالُ تغلبَ لا تلقي أَسنَّتَها ... إلّا وقد خضّبتها من أعاديها

نَرْمي الرماحَ بأيدينا فنوردها بيضاً، ونُصدرُها حمراً أعاليها
لا أصلحَ اللهُ منّا من يصالحُكم ما دارتِ الشمسُ في أعلى مجاريها

★ ★ ★

ويحتلّ رثاء البنين والبنات والآباء والأمهات والجدود والجدّات وسائر الأهل في ديوان العرب مجالاً واسعاً يصعب إحصاء قصائده الرائعة وأبياته التي ذهبت مذهب الأمثال، وإن دلّ ذلك على شيء، فهو إنّما يدلّ على متانة العلائق في العائلة العربية طيلة الأزمنة، على اختلاف الظروف والدول والمستوى الحضاري، **كما يعبر عن رقي النظرة الروحية والمادية الى «إنسان القربى»** والشراكة الإنسانية المنزّهة بين عناصر البيت العربي.

ونذكر على سبيل المثال، بالإضافة الى قصيدة أبي ذؤيب الهُذَلي في رثاء أولاده الذين ماتوا بالطاعون، وقد أشرنا اليها في موضع سابق من هذا الكتاب، طائفة من قصائد اللوعة والأسى لفقد الأبناء، وفي طيّاتها أبيات رائعة في تعبيرها ومعانيها العميقة، كما في قول ابن عبد ربّه الأندلسي في رثاء ولده:

باليأسِ أسلو عنكَ لا بتجلُّدي هيهاتَ أينَ من الحزين تجلُّدُ

وقوله في قصيدة أخرى:

كان الوصيَّ إذا أردتَ وصيَّةً والمُستَفادَ إذا طلبتَ مُفيدا
ما كان مثلي في الرزيَّةِ والدٌ ظَفِرَتْ يداه بمثلِهِ مَوْلودا

إنَّ الـذي بـادَ الـسُـرورُ بـمـوتِـه ... مـا كـانَ حـزنـي بـعـدَهُ لـيَـبـيـدا
تـأبى الـقـلـوبُ الـمـسـتـكِـنَّة لـلأسى ... مـن أن تـكـونَ حـجـارةً وحـديـدا

ويقول أبو العتاهية في رثاء ابنه عليّ:

بـكـيـتـكَ يـا عـلـيُّ بـدمـعِ عـيـنـي ... فـمـا أغـنـى الـبـكـاءُ عـلـيـكَ شَـيّـا
وكـانـت فـي حـيـاتـكَ لـي عِـظـاتٌ ... وأنـتَ الـيـومَ أوعـظُ مـنـكَ حَـيّـا

ولا تزال قصيدة المتنبّي في رثاء جدّته ماثلة في الذاكرة العربية الى هذا اليوم لما تحتويه من صدق ومحبة وحكمة بصرف النظر عن المفاخر. وكانت تلك الجدّة الطيّبة قد تلقت رسالة منه فرحت بها، ويقال إنّها حمّت بعد تلك الرسالة وماتت، وفي ذلك يقول ابو الطيّب:

أَحِنُّ الى الكأسِ التي شربَتْ بها ... وأهوى لمثواها الترابَ وما ضمَّا
أتـاها كتـابي بعد يأسٍ وتَرحةٍ ... فماتَتْ سروراً بي فمتُّ بها همَّا
هَبيني أَخذتُ الثأر فيكِ من العِدى ... فكيفَ بأخذ الثارِ فيكِ من الحمَّى
وما انسدَّتِ الدنيا عليَّ لضيقها ... ولـكـنَّ طـرفـاً لا أراكِ بـهِ اعـمـى

وكانت العرب تفاخر بالآباء والجدود وتحلّهم أرفع مراتب الإكرام والإحترام، والأمثلة على ذلك أكثر من أن تعدّ أو تحصى في أخبارها وأشعارها، كقول الفرزدق مفتخراً على جرير:

أولـئـك آبـائِـي فـجـئـنـي بـمـثـلـهـم ... إذا جـمـعـتـنـا يـا جـريـرُ الـمـجـامـعُ

أو قول المتنبي في ذكر جدوده:

وبِهم فخرُ كلِّ مَنْ نَطَقَ الضادَ وعَوْذُ الجاني وغَوْثُ الطريدِ

ومثل ذلك تكتظّ به كتب الأدب القديم والمتوسط والجديد

على حدّ سواء.

ثمّ إنّ للصديق منزلة عزيزة في تراث العرب، وهو يعتبر إنسان قربى، على صعيد النجدة والمحبة والوفاء، وأحياناً على صعيد الفداء. فقد ذكر المؤرخون القدامى أن صداقة متينة كانت تربط بين **عبد الحميد بن يحيى العامري كاتب بني أميّة وعبد الله بن المقفّع**. فلما انهار ملك الأمويين في الشام وتولّى الخلافة بنو العبّاس **استخفى عبد الحميد وأقام في بيت** صديقه ابن المقفّع، ولما وصل الباحثون عن بقايا الأمويين وأعوانهم لتصفيتهم الى ذلك المنزل طلبوا الرجل قائلين: **«أيّكما عبد الحميد»، فقال كلّ منهما: «أنا» خوفاً على صاحبه**. لكنهم في النهاية عرفوا عبد الحميد، فأخذوه وعذّبوه تعذيباً قاتلاً حتى قضى سنة **١٣٢** هـ.(٢٠٩)

وأجاد الكتّاب والشعراء العرب أيّما إجادة في وصف الصداقة والتغني بمحامدها، **فكتب أحد القدماء**: «الصديق الصدوق ثاني النفس وثالث العينين، وهو الشقيق الشفوق. ولقاء الخليل شفاء الغليل وليس للصديق إذا حضر عديل، ولا عنه إذا غاب بديل. ولقاء الصديق روح الحياة وفراقه سمّ الممات...»
ومما قاله أبو تمّام:

ذو الودِّ منّي وذو القربى بمنزلةٍ فإخوتي أُسوةٌ عندي وإخواني

---

(٢٠٩) كان ابن المقفّع فارسي الأصل، لكنه بالرغم من إيمانه بالمجوسية وتظاهره بالإسلام، وهو ما سبقت الإشارة اليه في بحثنا هذا، كان قد تخلّق الى حدّ بعيد بالأخلاق العربية وعرف بحرصه على أصدقائه وإخلاصه لهم.

وذكر صاحب «الأغاني» أن عَلَوِيَّة المجنون دخل على الخليفة المأمون وهو يتغنّى بهذا البيت: «**وإنّي لَمشتاقٌ الى ظلِّ صاحبٍ / يروقُ ويصفو إن غضبتُ عليهِ**» فاستحسن المأمون معنى البيت وطلب من عَلَوِيَّة ان يعيد غناءَه فغنّاه سبع مرات، فقال المأمون: يا عَلَوِيَّة. «**خذ الخلافة واعطِني هذا الصاحب**»!

ويقول بشّار بن بُرد:

إذا كنتَ في كلِّ الأُمورِ معاتباً صديقَكَ لم تَلْقَ الذي لا تُعاتِبُهْ
وإنْ أنت لم تشربْ مراراً على القذى ظمِئتَ وأَيُّ الناسِ تصفو مَشارِبُهْ

كما يقول لبيد بن ربيعة:

ما عاتبَ المرءَ اللبيبَ كنفسِهِ والمرءُ يصلحه الجليس الصالحُ

واستشارة الصديق النصيح كانت من أولويات حسن التصرف، وقد نسب الى الرسول قوله: «**ما خاب من استخار ولا ندم من استشار ولا افتقر من اقتصد. ومن أعجب برأيه ضلّ، ومن استغنى بعقله زلّ.**» ويروى أن هارون الرشيد ندم بعد ان قدّم الأمين على المأمون في ولاية عهده، فقال:

لقد بانَ وجهُ الرأيِ لي غير أَنّني عدلت عن الرأي الذي كانَ أَحزَما
فكيفَ يُرَدُّ الدَّرُّ في الضَرعِ بعدما توزّع حتى صار نهباً مقسَّمَا(٢١٠)
أخافُ التْواءَ الأمرِ بعد استوائِهِ وأن ينقُضَ الحبلُ الذي كان مُبْرَما

وفي أخبار السلف أن الحسن بن سهل سأل المأمون عن

(٢١٠) أي كيف أستطيع العودة عن ذلك الرأي بعدما شاع وتوزّع بين الناس، فإن الرجوع عنه أشبه بإعادة المستحلَب من الضَرع اليه.

ملذّات الحياة، فقال: «نظرتُ في اللّذاتِ فوجدتها كلّها مملولةً ما عدا سبعاً هي خبز الحنطة، ولحم الضأن، والماء البارد، والثوب الناعم، والرائحة الطيبة، والفراش الوطيء، والنظر الى الحَسَن من كلّ شيء.» قال الحسن: **فأين أنتَ يا أمير المؤمنين من استشارة الرجال؟!** قال المأمون: **صدقت إنها أولى من تلك الملذات جميعاً.**

والحق يقال ان التحفظ والاحتراس الذي يعتبر من أوصاف الطباع العربية وخصائصها البيِّنة في مختلف العصور، قد انعكس حتى على التعامل مع «إنسان القربى». **فكثيراً ما يبرم العربي بأقربائه وأهل بيته وأصدقائه وخلّانه.** وإذا كان الأقربون أولى بالمعروف، إلّا أنهم في الواقع يتجاوزون الحدّ أحياناً في الطمع **ويجيزون لأنفسهم ما لا يجيزونه لغيرهم**، فيصبحون عالة على من يلوذون به من سراة عائلتهم أو ينتمون إليه بالنسب والقربى. وفي ذلك يقول طرفة بن العبد:

وظُلمُ ذوي القربى أشدُّ مضاضةً   على المرءِ من وقعِ الحُسامِ المُهنَّدِ

ويقول آخر:

وإنّ الذي بيني وبينَ بني أَبي   وبينَ بني عمّي لمختلفٌ جِدًّا
فإنْ أكلوا لَحمي وفرتُ لحومَهُمْ   وإن هدموا مجدي بنيتُ لهم مجدا

ولعل أبلغ من ذلك كلّه قول المعري:

وزهّدني في الخلقِ معرفتي بهِمْ   وعلمي بأنّ العالمينَ هباءُ

. . والعقبى لمن وقف عند حدّ الله

نفهم بالعقبى لغةً نهاية الأشياء وختامها، والمعنى في قولنا تجاوزاً «**إنسان العقبى**» أنه الإنسان الآخر **في وجوده الغائي وكيانه النهائي**، أي الإنسان بوجه عام، ذلك الذي نؤثر تحديده بما ليس هو إياه **تخصيصاً**. إنه غير القريب النسيب أو الصديق المعروف أو الكائن البشري في زمان أو مكان معيّن. **بل الإنسان في المطلق**، بصرف النظر عن جنسه وعنصره ولونه ودينه ولغته وعقيدته. وتسميه العرب **ابن آدم** الذي خلقه الله من طين، وأسكنه الأرض، وحباه العقل، وسلّطه على الكائنات، وميّزه بحقوق، وعيّن له واجبات، وأمره بالمعروف ونهاه عن المنكر، فحلّل له أشياء وحرّم عليه أخرى.

وفي المنظور العربي القديم للإنسان يتجه الاهتمام نحو ما فرضه الله عليه من واجبات، **تسليماً بكونه حصل على حقوقه الأساسية سلفاً**، وأولها حقه في الوجود، وبعضها التمتع بخيرات الدنيا وانفراده بالتفوق على سائر الكائنات من الأحياء والأشياء. أمّا معاملة الإنسان للإنسان، فهي لا تتصل بحقوق الإنسان، **بل تتصل بواجباته**، ومن أساء تلك المعاملة يلقى العقاب في شرع الله وليس في شرع البشر. وإذا كان للحاكم أو القاضي ان يثيبا أو يعاقبا هذا الإنسان او ذاك على ما أبداه من حسن المعاملة أو سوئها لأخيه، فلا يكون ذلك بالاستناد الى شرع البشر بل الى شرع الله.

ويشمل ما أوجبه الله على الإنسان كلّ شؤون الحياة والدنيا. **وهو يتخطى بذلك ما شرّعه البشر لحقوق الإنسان على كلّ صعيد!** فإذا كانت شرعة حقوق الإنسان تنادي بحرّية الفرد، فإنّ هذه الحرّية في المنظور العربي للواجب الإنساني **مشروطة بعدم الإساءَة الى حرّية الآخر فرداً أو جماعة**. وإن كانت الشرعة البشرية للحقوق توصي باحترام المرأة والقاصر والطفل والشيخ فإن الشرعة الإلهية للواجبات توصي إضافة الى ذلك الاحترام، **بمعاقبة من يفتري على هؤلاء** أو يذلهم أو يشهّر بهم أو يستغل ضعفهم أشدّ العقاب، خصوصاً من كان منهم يتيماً أو معوّقاً أو ذا عاهة. وإذا كانت الشرعة البشرية للحقوق تعتبر الناس **متساوين فيما بينهم** بصرف النظر عن الجنس واللون والعنصر والدين الخ... فإن الشرعة الإلهية للواجبات تدعو الى تخطّي هذه المساواة **بإيثار الآخر** ممن يختلف جنساً ولوناً وعنصراً وحتى معتقداً **وتبدئته على الذات**، وإن كان لا بدّ من إصلاح أمره أو تبديل قناعته ومعتقده، فبالإقناع لا بالإكراه.

ولا تجوز المحاباة في هذا المجال بالقول إن التسامح والغيرية هما صفتان يتميّز بهما الإنسان العربي عن سائر البشر انطلاقاً من خصوصية جِناته التكوينية. فالحق يقال **إنهما نتيجة طبيعية لحياة غير مستقرة** في البوادي والفلوات الحافلة بالأخطار والحبلى بالمفاجئات القاسية المريرة على كلّ صعيد. وقد تعوّد العربي منذ عهود بداوته أن يسعف من يصيبهم قَدَر المعاناة القاهرة والحرج والضيق، **لا لأنه يملك الخلق المثالي** القائم على

التضحية والبذل دون مقابل، بل لكونه يشعر في قرارة نفسه **أنه معرّض لمثل تلك المعاناة وذلك الضيق** في أي لحظة من حياته المضطربة. وهو ما يفسّر كذلك امتيازه بالجود والزكاة والقِرى وحماية الجار وإغاثة الملهوف ورعاية اليتيم والأيِّم، الى ما هنالك من ظواهر المعروف.

وقد جاء الإسلام يضع القوانين العملية الأساسية لتلك الواجبات الإنسانية العربية ويربطها بالإرادة الإلهية الفوقية، كما يعمّمها على سائر البشر، انطلاقاً من كونها **مبادئ عربية خاصة ذات فائدة بشرية عامة**. ولكن بعض المفكّرين من أساتذة اللّاهوت أخطأوا في حكمهم على ذلك التعميم الذي قوّموه على أساس **اختلافه الظاهر عن بعض ما تؤمن به المسيحية**، خصوصاً فيما يتعلق بالمرأة والزواج، ذلك في حين أنّ بعض المفكرين العلمانيين أخطأوا أيضاً في الحكم على التعميم المشار اليه، على أساس **اختلافه الظاهر عن بعض الحصائل العلمية** التي وصفوها بالحقائق تساهلاً، وعلى الأخص فيما يتعلّق بالإرث والنسل وبعض الفرائض والمحرّمات.

وقبل إنعام النظر في ظاهر الإختلاف بين الإسلام وغيره من المعتقدات الدينية وحصائل العلم، لا بدّ من إلقاء نظرة عاجلة **على موقف الإسلام من الإنسان** فيما أوجبه عليه من حقوق الله، وما خيّره فيه من سلوك الحيوان العاقل. ويمكن تبويب الآيات القرآنية المتعلقة بالإنسان **على مستويات ثلاثة**: الآيات الناطقة بتعداد مساوئه، والآيات الذاكرة لتغرير الشيطان به، والآيات المذكّرة له

بواجباته. وفيما يلي نماذج من هذه الآيات:

- **في تعداد مساوئ الإنسان: ﴿وإذا أنعمنا على الإنسانِ أَعرَضَ ونأى بجانِبِهِ وإذا مسَّهُ الشَرُّ كانَ يَئُوساً﴾**[211] وهو الى ذلك في آيات عديدة ظَلومٌ كفّار، أو خصيمٌ مُبين يسأل **﴿مَنْ يُحيي العظامَ وهي رميم﴾**[212] ،أو كثير الجدل، كَفور، قَتور، جَهول، هَلوع، كَنود، طاغية، خاسر، الخ...

- **في تغرير الشيطان بالإنسان: ﴿..إِنَّ الشَيْطانَ يَنْزَغُ بينهم إِنَّ الشَيْطانَ كانَ للإنسانِ عدُواً مُبيناً﴾**[213] وهو في آيات أخرى يخذل الإنسان، أو يدفع به الى الكفر، أو يوسوس في نفسه وعقله، الخ...

- **في تذكير الإنسان بواجباته: ﴿ووصَّينا الإنسانِ بوالدَيه إحساناً حملتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً ووضَعَتْهُ كُرهاً... حتى إذا بَلَغَ أَشُدَّهُ وبلغ أربعينَ سنةً قالَ رَبِّ أَوْزِعْني أَنْ أَشْكُرَ نعمَتكَ التي انعمتَ عليَّ وعلى والدَيَّ وأَنْ أَعملَ صالحاً تَرضاهُ وأَصلِحْ لي في ذُرِّيَّتي إِنّي تُبْتُ إليكَ وإِنّي من المسلمينَ﴾**[214] ، وهو في آيات أخرى يذكّره بأنّ الله خلقه ولم يكن شيئاً، وأنّه خلقه من طين وصلصال كالفخّار، في أحسن تقويم، وعلّمه البيان، وأنه لن يتركه سُدى بل يحاسبه يوم القيامة، لكي

---

(٢١١) سورة الإسراء: ٨٣

(٢١٢) سورة يَس: ٧٨

(٢١٣) سورة الإسراء: ٥٣؛ ينزغ بينهم: يُفسِد

(٢١٤) سورة الأحقاف: ١٥

يتذكر في ذلك اليوم ما عمل في حياته، ولكن ﴿...**أنّى له الذكرى**﴾[٢١٥]

أمّا فيما يتعلق **بنظرة الإسلام الى الزواج والطلاق وغير ذلك ممّا يخالف رأي المسيحية**، فالمسألة لا تعدو كونها مناظرة بين الديانتين حول إكرام المرأة وطريقة صونها من التسلّط الذكوري الجاهلي، مع أخذ كلّ من الديانتين في الاعتبار المجتمع الذي يتوجّه اليه كلّ منهما بخطابه المباشر، فيصبح معنياً قبل غيره بالتزام المبادئ التي أوصي باعتمادها.

ذلك أن المسيحية انطلقت من موقع ثوري إصلاحي للمجتمع اليهودي الذي كان يقضي برجم الزانية، فنهى المسيح عن ذلك وقال: «**من كان منكم بلا خطيئة فليرمِها بحجر**» وحذّر من الطلاق الذي كان شائعاً في بني إسرائيل ووصفه بالزنى إن أقدم عليه الرجل كيفياً بلا سبب موجب وخطير، ذاهباً الى أنّ من **طلّق امرأته دفعها الى الزنى**. ثم إنه قال بوجوب **اكتفاء الرجل بامرأة واحدة والمرأة برجل واحد** مدى الحياة. وإذا كان الإسلام الذي انطلق هو أيضاً من موقع ثوري إصلاحي للمجتمع الجاهلي الفوضوي، قد رفض من جهته رجم الزانية الذي كان شائعاً في بعض أطراف الجزيرة خلال الجاهلية، **واكتفى بجلد الزاني والزانية**، إلّا أنّه سمح بتعدّد الزوجات في حدود معيّنة، **كتدبير عملي مشروط لمكافحة الزنى** بالإضافة الى العقوبة الجسدية

---

(٢١٥) سورة الفجر: ٢٣

المتمثلة بالجلد، وشرّع على صعيد آخر للطلاق الذي هو أبغض الحلال عند الله، في ظروف معيّنة، مع فرض تعويضات مادية تساعد المطلقة على عدم الزنى والمتاجرة بعرضها. والواقع أنّ **المسيحية والإسلام يلتقيان في تنزيه المرأة وحمايتها من الزلل** وإن ظهرت بينهما فروق في درجة التنزيه وأسلوب الحماية والردع، وهو ما يوضح للمفكّر الجدّي المحايد أن جوهر ما يتوخيانه واحد.

ومن المؤسف أن تكون بعض الكنائس المسيحية وفي طليعتها كنيسة روما، ذهبت في تفسير رفض المسيح المبدئي للطلاق على أنه تحريم قطعي يجرّم من يقدم عليه ولا يسمح له بأي مراجعة أو توبة لاحقة أو تعويض ما، سواء أكان مادياً أم معنوياً. هذا، مع العلم **أن الكنائس الشرقية سمحت دائماً بالطلاق** عملاً بمبدأ «**التدبير الرعائي**» المعروف بالمصطلح اليوناني «إيكونوميا» الذي تعتمده هذه الكنائس المتحدّرة من الجذور البيزنطية. وقد انطلقت هذه الكنائس في تحليل الطلاق من قول القدّيس يوحنا فم الذهب أن «سرّ الزواج هو سرّ الحبّ» **ومعناه أنّ بطلان الحبّ يبطل الزواج**، كما انطلقت - أي الكنائس الشرقية البيزنطية - من قول القديس أوغسطينوس «بين أيدينا القوانين وأمام أعيننا الإنسان» ومعناه **أن ما يسيء الى الإنسان يجب ألّا يعمل به ولو كان مطابقاً للقانون...** وكانت حتى كنيسة روما أقلّ تشدّداً في مسألة الطلاق خلال الألف الأول من تاريخ المسيحية، قبل أن تقفل الباب نهائياً خلال الألف الثاني أمام كلّ محاولة للتساهل في

الطلاق أياً كانت الأسباب والمبرّرات.[٢١٦]

وغنيّ عن الإشارة أن **هذا التصلّب** من جانب الكنيسة الكاثوليكية **أساء الى تماسك الحياة الزوجية** أضعاف ما أحسن اليها وأسهم في ثباتها، فكانت له انعكاسات خطيرة على المجتمع الأوروبي والأميركي اللّاتيني وغيرهما، حيث تفسخت العائلة وانتشر الزنى الفاضح الذي أصبح ممارسة **تكاد تكون مشروعة**، وشاع تبادل الزوجات وتنظيم حفلات الجنس المشتركة في بعض المدن الكبرى، وأصبح التمتع بالقاصرين وإفسادهم تجارة رائجة **وحلّت المساكنة الجنسية محل الزواج** الذي يتمّ في الدوائر المدنية إن هو تمّ، بعيداً عن الكنيسة **لأنه قابل للفسخ** في اللحظة التي يقرّرها أحد الفريقين دون أي رادع أو مانع يحفز على التبصّر والتؤدة وتحكيم الضمير، وإبراء النفس من طغيان الغضب العابر.

وكما استتبع **التشدّد الكنسي الكاثوليكي** رخاوة لا حدود لها في مسألة الجنس والزنى والطلاق، كذلك أدّى **التساهل النسبي المبدئي** في مسألة الطلاق والنكاح وتعدّد الزوجات في الإسلام الى تجاوز معظم الحكام والدول في العالم الإسلامي الضوابط الشرعية المنصوص عليها في الكتاب المبين وسنّة الرسول بالنسبة لهذه القضية الإنسانية المعقدة، وأفاد الكثيرون **من فقدان المرجعية الدينية الواحدة** لتفسير النصوص القرآنية بما يلائم الأهواء والمصالح الشخصية والسياسية والمذهبية، فأسبغوا الصفة الشرعية

---

(٢١٦) راجع كتاب «فسخ الزواج لصالح الإيمان والإنسان» تأليف الأرشمندريت الياس رحال ـ بيروت ٢٠٠١ .

على زواج المتعة، وزواج المدّة، وغضوا النظر عن مظالم فادحة لحقت بالمراة والبيت العائلي **من جراء فوضى الطلاق**، وحاربوا كلّ محاولة تنظيمية أو إصلاحية في شؤون التناسل والإرث، بحيث تحولت بعض الدول العربية والإسلامية في أزمنة الرخاء الى **أسواق تتواصل فيها التجارة بالرقيق**، وانتفى من مجتمعاتها الاهتمام بالنسب والانتماء العائلي، حتى عمّ **تعريف المرء باسم أبيه**، وكأن الفروع نشأت بغير أصول، فيقال لفلان «**أحمد يوسف**» باعتبار أن اسم الشخص أحمد واسم أبيه يوسف، ولا حاجة بعد ذلك مثلاً الى جدّه مصطفى، أو والد جدّه خالد، أو نسبته المتصلة بتميم وموطنه الأصلي بغداد أو طنطة أو القيروان، وكذلك كنيته أبو عامر. وكم كان أولى بهذا الرجل وأشرف له لو سمّي في حياته اليومية واتصالاته العادية باسمه المختزل «**أحمد يوسف**» أو بكنيته «**أبو عامر**»، وبقي التعريف الرسمي له باسمه الكامل «**أبو عامر أحمد يوسف مصطفى خالد التميمي البغدادي**» (. . .)

وقد تسلّل الغرباء الى العالم العربي والإسلامي بأعداد هائلة عبر الأزمنة والممالك والعصور من جراء هذه الفوضى، وفيهم جماعات غامضة خفيت على الرقباء، **من المخرّبين والجواسيس والأجانب اليهود والنصارى المتأسلمين والمستعربين**.

ومما ساعد على تفاقم فوضى الأسماء والأنساب هذه تسامح الإسلام الذي أفتى بأنه لا يفضل العربي أعجمياً إلّا بالتقوى، وهو إنما أراد بذلك **نبذ التعصب القبلي والعنصري والدعوة الى المساواة بين الإنسان وأخيه الإنسان**. . . تماماً كما ساعد الحديث

المنسوب الى الرسول بقوله: «**تناكحوا. تناسلوا. إني مفاخر بكم أمم الأرض في يوم القيامة**»، على إغفال الضرر الكبير اللّاحق بالعرب والمسلمين من جراء التضخم السكاني في بعض البلدان ذات الموارد الاقتصادية المحدودة التي أثبت الواقع أنها غير قادرة على استيعاب خمسة في المئة من سكانها المتزايدين باطراد يتخطى جميع التوقعات، وأن معظم هؤلاء **يعيشون تحت مستوى الفقر المعترف به دولياً**... هذا، مع العلم أن الرسول إنما قصد على الأرجح من وراء الحديث المذكور، فيما لو صحت نسبته اليه، تشجيع المسلمين على الانجاب **في مرحلة تاريخية معينة** كانوا بحاجة خلالها وهم يخوضون حروب الفتح شرقاً وغرباً، الى نوع من التكافؤ العددي، إن لم يكن من التفوّق، على الأمم التي تقاوم زحفهم.

وعلى صعيد آخر سبق وأشرنا الى أن المفكرين العلمانيين يأخذون على المسيحية والإسلام، تعارض بعض الفرائض والمحرّمات التي أوجباها مع الحصائل العلمية الحديثة وصعوبة تطبيقها في سياق الحياة المعاصرة واختلافها الكلّي عن ظروف اتساع الوقت وضئالة المستلزمات الحياتية في الماضي. ولا بدّ للباحث في نطاق هذه المسألة من تقرير واقع أساسي **هو أن الكنائس المسيحية استسهلت أكثر من المراجع الدينية الإسلامية تجاوز بعض المحرّمات التي درج عليها المسيحيون الأوائل، لأنها لم ترد بنصوص تحريميّة واضحة** في الإنجيل وذلك خلافاً لما حصل في الإسلام حيث حرّمها القرآن بنص صريح واضح.

من مثل ذلك مسألة الربا التي بحثت في موضع آخر من هذا الكتاب، وكانت الكنائس المسيحية **تحرّمه تماماً بجميع أشكاله** قبل الثورة الصناعية والمؤسسات المالية والمصرفية الكبرى، ثم سمحت به على صعيد ما يعرف بفوائد المال المحتسبة طبقاً لقواعد محدّدة، **فيما لا يزال المسلمون يحرّمون الربا** سواء في أنظمة الديون الفردية أو في الحسابات المصرفية... ثمّ مسألة أكل لحم الخنزير، وقد حرّمته الكنائس المسيحية زمناً طويلاً من منطلق أن المسيح أخرج الشياطين والأرواح النجسة من جسد مجنون أخرس يتخبّط على الأرض، وأذن للشيطان وأعوانه باللجوء الى قطيع يتألف من ألفي خنزير، فهامت هذه على وجهها واندفعت الى البحر حيث غرقت جميعاً،[٢١٧] وكذلك من منطلق قوله المأثور: **«لا تلقوا بدركم أمام الخنازير لئلّا تدوسها بقوائمها وترتد فتمزّقكم»**[٢١٨] **ولكن الكنائس المسيحية ما لبثت أن أعادت النظر في ذلك التحريم لكونه غير مرتبط بنص ملزم من جهة، وكون معظم الشعوب التابعة لها تقيم من جهة ثانية في مناطق شمالية باردة وتفيد من لحم الخنزير الذي يحتوي كمية وافرة من الوحدات الحرارية**. وهو ما لا نستطيع مقارنته بموقف الإسلام من هذه المسالة إطلاقاً، لا سيما وأن تحريم لحم الخنزير **وارد في نصّ قرآني صريح**، وليس في موقع معظم الشعوب الإسلامية ذات المناطق الدافئة من العالم ما يبرّر مجرد التفكير في نقضه.

---

(٢١٧) إنجيل مرقس ــ الاصحاح ٥: ١١، ١٢، ١٣، ١٦.

(٢١٨) إنجيل متى ــ الإصحاح ٧: ٦

ومهما يكن من أمر، فإنّ مجرى الحياة المعاصرة وعوامل الانتاج على الصعيد الاقتصادي ومدار الأنشطة الاجتماعية أسهمت الى حدّ بعيد في الحؤول دون تطبيق بعض الفرائض الإسلامية تطبيقاً صارماً. فبصرف النظر عن الثورة الخرقاء المستعجلة التي قام بها مصطفى كمال أتاتورك في تركيا فترجم القرآن الى اللغة التركية، وأقر الزواج المدني وألغى الخلافة ومعها صوم رمضان والصلوات الخمس، وأباح جميع المحرّمات، فكانت ثورته سطحية لم تخترق وجدان الأمة التركية، وما لبثت أن فرضت عودة الأحزاب الدينية الى الحكم بأساليب معتدلة تعمل الجماعات الإسلامية الأصولية على تحويلها عاجلاً أو آجلاً الى موقع سلفي متطرّف، رغم القبضة الحديدية التي تفرضها العسكريتاريا على خناق الشعب...
بصرف النظر عن تلك الثورة الكمالية العجولة التي لم تؤتِ أُكُلها إلّا بصعوبة فائقة خلال قرن من تغصّب الشعب للعلمانية، فإن المحاولات الأخرى التي قام بها بعض الزعماء من أمثال الحبيب بورقيبة في تونس، وعبده ضيوف في السنغال، وسيكوتوري في غينيا، قد فشلت جزئياً ولم يدم بعضها إلّا فترات وجيزة في مراحل تسلّم أولئك الزعماء للسلطة...
بصرف النظر عن هذه المبادرات الحكومية التي لم تتمكن بأي حال من تعديل الفرائض الإسلامية وتحليل المحرّمات، فإن تراخي المقامات الدينية بفقدان المرجعية الواحدة الجامعة في متابعة إهمال الفرائض وتعقّب من يحلّون المحرمات، ثم تغافل الدول عن هذه الأمور، جعل الإرادات الفردية تتراخى إزاء

المستصعبات والمغريات في هذا القطاع تدريجياً.

فالاحصاءات غير الرسمية تشير الى أنّ **٤٠ في المئة** من المسلمين اليوم لا يصومون رمضان، ومعظمهم من الطبقات الميسورة، في حين أن **٧٠ في المئة** فقط يؤدون الصلاة مرّة واحدة كلّ **٢٤** ساعة بدلاً من **٥** مرات، ومعظمهم من الفقراء والعاطلين عن العمل ومتوسطي الحال، فيما لا يؤدّيها على الإطلاق **١٠ في المئة** من الأغنياء!! كما إن حوالي **١٠ في المئة** لا يستنكفون عن أكل لحم الخنزير، وهم عموماً من الملحدين، **و٤٠ في المئة** يشربون الخمر، وهم من الطبقة الثرية وذوي الدخل المتوسط، **و٦٠ في المئة** لا يجدون حرجاً في الميسر أو المقامرة العادية ذات الخسارة المحدودة كالمراهنة في سباق الخيل أو شراء أوراق اليانصيب، أو ألعاب الورق وغيرها في البيوت والحانات، وذلك مقابل **١٠ في المئة** ممن يحترفون الميسر والمقامرة من الميسورين والمغامرين.

أمّا بالنسبة الى حجّ بيت الله الحرام، وهو لا يزال غاية وأملاً في قلب كلّ مسلم، فإن **٥٠ في المئة فقط** من المؤمنين يقدمون على هذه الفريضة، ولو مرّة واحدة في العمر، لأسباب تعود إمّا الى ضعف إمكاناتهم المادية، وإمّا الى التحديد الذي فرضته الدولة السعودية المؤتمنة على الديار المقدسة الإسلامية، لعدد الحجاج الممكنة استضافتهم في المملكة من كلّ بلد بحسب عدد سكانه، وهو عدد يتعاظم سنة بعد سنة، **بحيث بلغ أكثر من مليونين عام ٢٠٠٦**، ولا تزال الدولة غير قادرة على استيعاب

تزايده المتواصل بالرغم من الأموال الهائلة التي انفقت في الأعوام الأربعين الأخيرة على توسعة الحرمين الشريفين وتأمين الخدمات الصحية والسكنية والأمنية للحجاج الوافدين من مختلف أنحاء العالم. ولا حاجة في أي حال الى الحديث بشأن **الزكاة التي تطبق بأقدار متفاوتة** ويصعب تحديدها نظراً لإمكانات الأفراد والجماعات والدول على مختلف الصعد المالية والاقتصادية.

ولو أخذنا في الاعتبار مقدار ما يعانيه الإنسان المنتج في العالمين العربي والإسلامي من مشقة ومكابدة في تأدية العمل الذي يقوم به على الوجه السليم خصوصاً في القطاع اليدوي، مع الظروف الموضوعية الضاغطة للحياة البشرية المعاصرة، لتبيّن أن صومه من السحور الى الفطور يتحوّل في كثير من الأحيان، وبحسب قدرته على الصمود، **من عبادة طوعية واعظة الى نوع من التكلّف المتعب!**. كذلك لو فكرنا لحظة في **مدى الاستعداد النفسي عند المصلّي** للوقوف أمام وجه الله واستحضاره الحماسة والورع والتجرّد في مخاطبته بوعي كامل واستخذاء بشري روحي متوكلٍ مؤمن، ونظرنا في المقابل الى أن هذا الإنسان المصلي يضطر مراراً بين الفجر والعصر، **أن يتحضر نفسياً ويتوضأ جسدياً**، وينتقل هكذا دواليك في كلّ مرة، من حالة العمل الدنيوي الملزم الى حالة الانجذاب الروحي المطلق، **لكي لا تكون صلاته مجرد كلمات ينطق بها اللسان دون أن يشعر بها القلب!**.. ولو أخذنا في الاعتبار من جهة أخرى أن كثيراً من **المآكل والأطعمة الجاهزة أو المعلّبة** التي تدخل العالم العربي والإسلامي من دول أوروبية أو

أميركية وهي غير سليمة من التلوّث الخنزيري، وأن استهلاك هذه المعلبات أو اللحوم المبرّدة شائع في الأوساط الشعبية **لانخفاض أسعارها بالنسبة الى لحوم الضان والبقر الطازجة** مع العلم أنّها لا تخضع للرقابة الحكومية الصارمة في معظم البلدان العربية والإسلامية ذات الإدارات الفاسدة... ثم كون معظم المؤسسات السياحية والفنادق الكبرى التي يرتادها الأثرياء العرب والمسلمون في العالم، **قلما تفرق بين لحم الخنزير وغيره** في تحضير الأطباق الشهيّة المرغوبة... لو أخذنا في الاعتبار هذه العوامل السلبية جميعاً، لتبيّن لنا أن الكثير من الفرائض والمحرّمات الإسلامية **معرّض للإختراق واللامبالاة وحتى الانتهاك أحياناً**، بفعل الغفلة أو الملل والكسل والجهل أو غير ذلك من الأسباب التي تحتاج الى قدر من التعبئة المعنوية والتحذير الدائم والتوجيه والإرشاد الهادف الذي يكاد يكون منعدماً بانعدام وجود المؤسسات الرسميّة الرادعة!!

في معاني الجهاد ونبذ العنف والانتحار

الى هنا يتضح مدى ارتباط **«حقوق الإنسان» بحقوق الله على الإنسان**، فيما يتعلق بالعرب والمسلمين، وهي أمور تختلف كلياً بالنسبة للعالم المسيحي، باعتبار أن المسيح الذي قال: **«مملكتي ليست من هذا العالم»**، لم يشرّع بحسب الأناجيل، تشريعاً دنيوياً كاملاً ودقيقاً كالذي شرّعه القرآن في هذا المجال، فضلاً عن كون

الالتزام الديني عند المسيحيين قد تضاءَل الى حدّ بعيد قياساً على التزام المسلمين بدينهم، وذلك **بالنظر خصوصاً الى فتوّة الإسلام** الذي لم يمضِ على ظهوره أربعة عشر قرناً ونيف، في حين أن المسيحيةِ بلغت السنة **٢٠٠٦** من عمرها. ولا شك **أنّ للأديان أعمارها هي أيضاً بمعنى من معاني الوجود التاريخي كأعمار البشر** وسائر الكائنات والعقائد والمذاهب، ولذلك نرى أن اليهود **أقلّ تمسّكاً «بجوهر دينهم»** من المسيحيين والمسلمين، لأن اليهودية ضربت في الشيخوخة بعد أربعة آلاف سنة من عمرها. ولا يحسب تعلّقها بالمنابع التوراتية وإعادة بناء الهيكل وغير ذلك مما نشهده بعد عودتها **الى «أرض الميعاد»**، من قبيل «التديّن»، بل من قبيل التظاهر بالدين الذي يخفي وراءَه **دهرية أول أهدافها بعث ما يمكن بعثه من رميم التراث البائد** للتوكيد على شرعية الوجود المريب ومتابعة الصلة بالحياة وتحقيق مطامع التفوّق المالي والسلطوي المتمثل في مقولة «**شعب الله المختار**» وهي الوحيدة الراسخة في نفسية شعب إسرائيل بعد شتاته الطويل...

ولا بدّ لنا قبل ختام هذا الفصل، من بحث قضية شغلت وتشغل المحافل الدولية، حيث بدأت القوى المعادية للعرب والمسلمين ترسّخ في أذهان العالم السطحي الذي يتأثر بالإعلام المشبوه والدعاية الهدامة، **أنّ «الجهاد في سبيل الله»** وهو أحد الفرائض الخمس الأساسية في الإسلام، إنما يعبّر عن **مبدأ العنف والقوة والإرغام** الذي تختزنه النفس العربية في أعماقها، وبالتالي فإن الإنسان العربي، ثم المسلم هو **«الإرهابي المثالي»**، **وإنّ**

«**الإرهاب العالمي**» مصدره الشرق الأوسط العربي والإسلامي، وهو نقيض **أساسي لشرعة** «**حقوق الإنسان**».

والحقيقة أنّ أعداءَ العرب والمسلمين فسّروا الجهاد على أنه تطاول على الآخرين وعدوان على ديارهم وأموالهم وأعراضهم وحقوقهم واستباحة شرعية لدمائهم، **فيما يختلف الجهاد عن هذا المفهوم الأخرق الشائه كلياً**. ويتضح بالعودة الى النصّ القرآني أنّ **للجهاد وجهاً دفاعياً وليس هجومياً على الإطلاق**، كما جاء في الآية ﴿**لا يَنهاكُم اللهُ عن الذينَ لم يُقاتلوكُمْ في الدينِ ولم يُخرجوكُمْ من ديارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وتُقْسِطوا اليهِم إنّ اللهَ يُحِبُّ المُقْسِطين**﴾[٢١٩] **أي أن الله لا يمنعكم من معاملة الذين لم يقاتلوكم في دينكم أو يخرجوكم من دياركم بالعدل والحسنى. أو كما جاء في موضع آخر** ﴿**ولو شاءَ ربُّكَ لآمنَ مَنْ في الأرضِ كلُّهُمْ جميعاً أَفأَنتَ تُكْرِهُ الناسَ حتى يكونوا مؤمنين**﴾؟[٢٢٠]

ثم إن ذكر الجهاد إنما يرد في الكثير من السور المدنية، ويكاد يقتصر عليها بعدما هاجر الرسول الى المدينة، وهي تحفّز المهاجرين معه **على مجاهدة الكفار من القرشيّين الذين هدروا دمه**. وأهم هذه السور المدنية التي تدعو الى الجهاد هي البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنفال، والتوبة، والحجّ، ومحمد، والحجرات، والممتحنة، والصف، والتحريم، في حين أن الدعوة الى الجهاد ترد **فقط في ثلاث سور** مكيّة هي النحل،

---

(٢١٩) سورة الممتحِنَة : ٨

(٢٢٠) سورة يونس : ٩٩

والفرقان، والعنكبوت. ويرى بعض المفسّرين في ذلك سبباً للاعتقاد بأن الآيات الداعية الى الجهاد إنما تنزّلت خصيصاً لتعبئة قوى المسلمين الأوائل من الصحابة والمهاجرين في مؤازرة الرسول وتأمين ظهوره وانتصاره على الوثنيين من أهل مكة الذين يقاتلونه ويعملون للقضاء عليه. وإذا كانت تلك الآيات تبدو ذات صفة تعميمية في السور المكية الثلاث المشار اليها، فإنّ هذا التعميم ينبثق ويندفع من ذلك التخصيص بقوة الاستمرار (...)

ولا غرو إذن أن تتضمن بعض الآيات المدنية ذكراً للمهاجرين كما في قوله تعالى ﴿إِنَّ الذينَ آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيلِ اللهِ أولئِكَ يَرجونَ رحمةَ اللهِ واللهُ غفورٌ رحيمٌ﴾[٢٢١] أو قوله ﴿إِنَّ الذينَ آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالِهِمْ وأنفسِهِمْ في سبيل اللهِ والذينَ آوَوْا ونَصروا أولئِكَ بعضُهُمْ أولياءُ بعضٍ...﴾[٢٢٢] ويقصد بالذين نصروا فريق «الأنصار»، وكذلك قوله في موضع آخر ﴿الذينَ آمنوا وهاجَروا وجاهدوا في سبيل اللهِ بأموالِهِمْ وأنفسِهِمْ أعظمُ درجةً عندَ اللهِ وأولئِكَ هُمُ الفائِزون﴾[٢٢٣] ثم إن الجهاد لا يعني القتال إلّا في وجه محدّد من الوجوه، بل يقصد به إضافة الى ذلك العمل والاجتهاد في مختلف الميادين، كما يقصد به الصبر على المكاره في بعض معانيه، وهو ما يتجلّى في الآية ﴿أَمْ حَسِبتُمْ أَنْ

(٢٢١) سورة البقرة : ٢١٨

(٢٢٢) سورة الانفال : ٧٢

(٢٢٣) سورة التوبة : ٢٠

تدخُلوا الجنّةَ ولمّا يَعْلَمِ اللهُ الذينَ جاهدوا منكُمْ ويَعْلَمَ الصابِرينَ﴾(٢٢٤) .

وأمّا فيما يتعلّق بالعنف، فقد نسب أعداء العرب والمسلمين الى هؤلاء رغبة دائمة في سفك الدماء ومعاملة الآخرين بقسوة نابعة من أعماق نفوسهم. والحق يقال أن العنف لم ينشأ من طبيعة الإنسان العربي الذي كان في جميع مراحل تاريخه يحارب الظلم ويأباه، ويدافع عن الضعفاء ضدّ الأقوياء، وكان صدره يتسّع لكلّ الأديان والمذاهب والأجناس والألوان. ولعل أبلغ من عبّر عن تلك الشخصية العريقة في أخلاقياتها والراسخة في غيريّتها وحبّها وانفتاحها الإنساني على الآخرين، هو المفكر الفيلسوف شيخ الصوفية الأكبر محيي الدين بن عربي الأندلسي صاحب «الفتوحات المكّية»(٢٢٥) حيث يقول:

ألا يا حماماتِ الأراكةِ والبانِ ... تَرَفَّقْنَ لا تُضْعِفْنَ بالشَجوِ أشجاني
تَرَفَّقْنَ لا تُظْهِرْنَ بالنَوْحِ والبُكا ... خَفِيَّ صباباتي ومكنونَ أَحزاني
لقدْ صارَ قلبي قابلاً كلَّ صورةٍ ... فمرعىً لغزْلانٍ وديرٌ لرُهْبانِ
وبَيْتٌ لأوثانٍ وكَعْبَةُ طائِفٍ ... وألواحُ تَوراةٍ ومُصْحَفُ قُرآنِ
أَدينُ بدينِ الحبِّ أنّى تَوجَّهتْ ... رَكائِبُهُ فالحبُّ ديني وإيماني

ولكي أوجز في مسألة العنف كلّ التحامل الذي يتعرّض له

---

(٢٢٤) سورة آل عمران: ١٤٢

(٢٢٥) ولد الشيخ الأكبر محي الدين بن عربي في مرسية ونشأ في اشبيلية، ورحل منها الى الشرق فأقام في دمشق ومات فيها سنة ١٢٤٠م. (٦٣٨هـ.) وله عدّة كتب بينها ديوان شعر يتضمن قصائد صوفية رائدة.

العرب والمسلمون أعود الى مقالة بعنوان «**العنف والإسلام في الواقع السياسي**» نشرها العلّامة السيد محمد حسين فضل الله في جريدة «**السفير**» البيروتية[٢٢٦] ، ويقول فيها ما يلي:

«كان بدء العنف **من خلال** القضية **الفلسطينية** التي تتصل بالجانب القومي والجانب الإسلامي. والتطرف لم يولد من وجود حالة إسلامية تعتبر التطرف أساساً، وإنما نشأ **من حالة سياسية** سبقت ولادة الحالة الإسلامية وعاشت فيها شعوب المنطقة المشاكل المأسوية بشكل ضاغط.»

«لذلك أخشى إذا لم تنطلق الحلول من دراسة المشكلة بطريقة واقعية عملية تواجه عناصرها الميدانية، **فإنّ العالم سيدخل في حرب عالمية ثالثة، لا بين الجبّارين، بل حرباً عالمية ثالثة يقودها الإرهاب، لا ما يسمّى بالإرهاب الإسلامي، بل الإرهاب في كلّ شعوب العالم،** لأن الشعوب الضعيفة ستحاول أن تحارب وتدافع عن مصالحها، ولو بالسكاكين والحجارة، فتنتشر الفوضى في العالم»!!

ويخلص العلّامة فضل الله الى القول:

«إنني أدعو العقلانيين في الغرب الى درس الإسلام في **مصادره الأولى بطريقة علمية**، وسيجدون ان الفكرة التي يحملونها عن الإسلام غير حقيقية. فإذا كان في تاريخ الإسلام كثير من الأوضاع التي مثّلت الظلم أو مثّلت حالة فساد أو قهر، **فإنها لا**

---

(٢٢٦) جريدة «السفير» البيروتية ــ بتاريخ ٢٠ / ٣ / ١٩٨٦.

تمثّل الإسلام كخطّ، بل إنها تمثل حالة ذات وجه معيّن، والذين يمارسونها لا يمثلون الخط بل الحالة، وهو أمر ينطبق على كلّ زمان ومكان. فهل **نستطيع أن نفرض على المسيحية كفكر وخطّ واتجاه ما قام به المسيحيون من أعمال أو مثلوه من حالات في حروبهم التاريخية فيما بينهم أو في حروبهم الصليبية مثلاً.**»؟!

ولو علمنا أن هذه المقالة نشرت منذ عشرين سنة، أي في سنة **١٩٨٦** بالتحديد، ونظرنا الى ما يحدث اليوم من تحول بعض الدول الى **ما يشبه المنظمات بل العصابات الإرهابية**، واستشراء الخطر النووي المحدق بفعل الفشل الذريع في الاتفاق العالمي على شرعة أخلاقية رادعة تشرف على ما يمكن أن نسمّيه **سباقاً في «الهوس العلمي»** الذي قلّما يرمي الى تقدم الأبحاث في العلوم التطبيقية لخير الإنسان وانتصاره على المرض والقصور الاجتماعي والفاقة الاقتصادية، بمقدار ما يرمي الى تـفوّق هذه الأبحاث في **الاختراعات القادرة على الإرهاب والتدمير**، ثم تقلص الإيمان بالعدالة امام غزو الحرّية اللّامحدودة ومفاهيم التخلّي والتواكل والشذوذ في إطار من الليبرالية الاقتصادية التي انقلبت **رأسمالية انتهازية استعبادية متوحشة**... كلّ ذلك لو تأملناه بعمق واهتمام لأدركنا أن في كلام السيد محمد حسين فضل الله حول الحرب العالمية الثالثة من منطلق الإرهاب، ما يشبه النبوءَة التي جاءت توقعات صموئيل هانتيغتون حول صراع الحضارات تدعم تأكيدها بالأدلة اليومية المفجعة والمتراكمة في العقل البشري **الذي أصبح دارباً على نسيان الجريمة** واختلطت في كيانه الشهواني المريض

صور المجازر والدماء بمشاهد الفقر والعدمية والفناء، **كما تختلط في كيان المحتضر صور آثامه وذنوبه** وهو يجتاز عتبة الحياة نحو المجهول، بهتاف الأبد ورنته الداوية في الفراغ المحيط والطريق الضائع الذي لم يكن يعرف أصلاً أين بدأ، والى متى سيدوم، والى أين سوف يصل، وكيف سينتهي!!

إنّ اليأس فعلاً يولّد العنف، والعنف يتمثل اليوم بالإرهاب. **ولكن أين موقع «الانتحار»** من هذا الأتون المضطرم الهائل؟!

لقد تبيّن ان الانتحار هو **السلاح الوحيد** الذي يملكه الإنسان العربي والمسلم **في مواجهة القوّة الضاغطة الغاشمة!** وهو إن لم يُحدث ما يرغب فيه المنتحر الذي يعتبره العرب والمسلمون **شهيداً ويسمّون انتحاره استشهادياً**... إن لم يحدث تدميراً مادياً كاملاً في جهاز المعتدي مادياً وبشرياً، إنما يحدث **في عمق فكره ونفسه وإحساسه زلزالاً رهيباً**، لا سبيل الى مقاومته أو تفاديه؟!

ففي الواقع التاريخي أَنَّ العرب قبل الإسلام لم يؤمنوا بأي فائدة للانتحار، حتى ولو حصل تخلّصاً من مآزق الحياة وبأسائها. **فقد كان منذ البدء في المسيحية** - وهي الدين الذي انتشر انتشاراً واسعاً في الجزيرة العربية خلال الجاهلية الأولى والأخيرة - **مرادفاً للجبن والتخلي والانحطاط والكفر**، باعتبار أن النفس وديعة الله في الإنسان، ولا يحق لهذا الأخير أن يتصرف بها كما يشاء، وهو لا يملك حفظها أو إزهاقها، وعقاب الله على من قتل نفسه شديد. **ولم يبدّل الإسلام تبديلاً أساسياً في هذا المعنى**، لأنه ينظر الى النفس هو أيضاً على أنها وديعة الله في الجسد الإنساني.

وقد نهى الكتاب المبين عن قتل الإنسان نفسه بقوله ﴿**يا أَيُّها الذينَ آمنوا لا تأْكُلوا أموالَكم بينكم بالباطلِ إلّا أنْ تكونَ تجارةً عَنْ تَراضٍ منكم ولا تَقتُلوا أنفُسَكُم إنّ اللَهَ كانَ بكم رحيماً**﴾(٢٢٧) وذلك بمعنى ألّا تيأسوا من رحمة الله. ثم أوصى القرآن بأن يترك الكافرون لأمرهم فلا ينعمون بأموالهم وأولادهم ممّا لا يرضون عنه، فيتمنّون أن تزهق أرواحهم ولكن الله أراد تعذيبهم بالبقاء على قيد الحياة ﴿**فلا يُعجِبْكَ أموالُهمم ولا أولادُهُم إنّما يُريدُ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بها في الحياةِ الدنيا وتَزْهَقَ أنفُسُهُم وهم كافرون**﴾(٢٢٨)

ثمّ إن الرسول كان يمنع رجاله وصحابته من الانتحار في المعارك التي خاضها حتى **عندما تكون الجراح التي يصابون بها قاتلة**. وفي الصحاح من أحاديثه يوم أحد وفي وقعة بدر ووقعة الخندق ما يؤكد ذلك يقيناً كما في السيرة النبوية. أمّا الانتحار السياسي فلا نعرف له سوابق في التاريخ العربي والإسلامي اللهّم إلّا ما رواه بعض المؤرخين العرب **من سيرة الحسن الصبّاح زعيم الإسماعيليين الغلاة** الذين انشقوا عن الخليفة الفاطمي المستعلي في اواخر القرن الحادي عشر الميلادي في مصر وبايعوا أخاه نزاراً، **فعرفوا «بالنزاريين»**، ورحلوا بعد فشل ثورتهم على المستعلي من الإسكندرية الى إيران، حيث اعتصموا **في قلعة «آلموت» الشاهقة**. ثم تآمروا في إيران على نظام الملك السلجوقي وزير السلطان ملكشاه واغتالوه، فطاردهم ملكشاه الى سواحل

---

(٢٢٧) سورة النساء: ٢٩

(٢٢٨) سورة التوبة: ٥٥ و ٨٥

الشام سنة ١٠٩٢م. وبعد أن يئس من ملاحقتهم لجأوا الى المناطق الجبلية في لبنان الشمالي وسوريا واستولوا على قلعتي مصياف وقدموس في أوائل القرن الثاني عشر مع احتفاظهم بقلعة آلموت الإيرانية على مشارف بحر قزوين. ويروى أنّ أميرهم حسن الصبّاح كان يامر أيّ فدائي من رجاله بإلقاء نفسه من أعلى القلعة فلا يتردّد لحظةً في الانتحار على هذه الطريقة!! ولم يكن ابن الصباح يغسل أدمغة رجاله في ذلك العصر ويقودهم الى الانتحار لأسباب عقائدية تتعلق فقط بالقضية الإسماعيلية التي يعتنقها، بل كان في الوقت نفسه يفعل ذلك للتاثير على خصومه وإرهابهم فلا يقدمون على مواجهته وهو يملك قنابل بشرية من هذا النوع.(٢٢٩) وعلى أنه من المستصعب أن نردّ العمليات الانتحارية الاستشهادية التي شاعت اليوم في الحروب الدائرة ضدّ الغزاة الأجانب في الشرق الأوسط، الى جذور تلك الحركة الإسماعيلية النادرة في التاريخ، إلّا أنّنا لا نستطيع فصلها عن الظلم والقهر والإجرام الذي يصيب العرب خصوصاً والمسلمين عموماً من العدوان

---

(٢٢٩) قاتل الحسن الصبّاح الصليبيين قتالاً شديداً على سواحل بلاد الشام، فلم يتمكنوا من قلاعه المنيعة، الى أن مات في قلعة آلموت الإيرانية عن عمر يناهز المئة سنة، وتفرّقت جماعته بعد اجتياح المغول للشرق الأوسط وسقوط قلاعه تحت جحافلهم المرعبة. ويجمع المؤرخون المعاصرون على أنّ الحسن الصبّاح هو المؤسس الأول لما يسمّى بالمنظمات الإرهابية في هذه المنطقة من العالم. وقد أطلق الصليبيون على فدائييه لقب «الحشاشين» حيث يزعمون أنه كان يخدّر رجاله ويسطو على إراداتهم وعقولهم بواسطة حشائش ذات فعالية قوية في التأثير على العواطف والأفكار. وانتقل لقب الحشاشين الى لغة الفرنجة، فأطلقوا منذ الحروب الصليبية اسم (ASSASSIN) على القاتل، واسم (ASSASSINAT) على الجريمة، وهو من أصله العربي «الحشاشين» - راجع كتاب «الجمعيات السرّية» - تأليف علي أدهم ـ دار المعارف ـ القاهرة ـ ١٩٥٤.

الإسرائيلي المتمادي في لبنان وفلسطين والعدوان الأميركي الدموي في العراق، كما لا يمكن أن نعزل ردّة الفعل العربية هذه على إرهاب الدول العظمى وجرائمها المرتكبة - وقد تحول الصراع الى حرب لا هوادة فيها - ممّا حصل **خلال معارك الباسيفيك بين الولايات المتحدة واليابان،** في التاريخ الحديث، وذلك أثناء الحرب العالمية الثانية، حيث شعر اليابانيون بعدم قدرتهم على مواجهة القوة الأميركية العظمى فأقدموا على **عمليات انتحارية عرفت «بالكاميكاز»**، ولم تجد الدولة العظمى سبيلاً الى مقاومتهم إلّا بالقنابل النووية. فعسى ألّا نصحو لا سمح الله في يوم من الأيام على قنبلة نووية يلقيها دعاة الحرّية والديموقراطية على هذه العاصمة العربية أو تلك باسم «مكافحة الإرهاب» لتأمين الخاتمة الإبادية التي تسعدهم في مسرحية **الخلاص من «الهنود السمر»** بعد أن فتكوا بالهنود الحمر واستأصلوا شأفتهم وطمسوا معالمهم في العالم الجديد!..



- ١١ -

التخلّص من قدر البقاء في دار الفناء

عندما فرغت من تدوين هذا الأثر، بعد سبعة اعوام كاملة صرفتها في استقصاء منابعه وانتقاء مراجعه، شرعت في كتابة هذه المقدمة، عسى أن يتعرف القارئ الى الخطوط الرئيسية الجامعة لمحتواه، فتكون مرتفقاً يساعد على متابعة فصوله ومستنداً يرشد الى ما استغلق من الأفكار والمعاني الكامنة في صحائفه المانعة. لكنني بعد إنجاز المقدمة **وجدتها أقرب الى الخاتمة والخلاصة منها الى الفاتحة والبداية**، ورأيت أن الكتاب في مجمله يصلح لأن يكون مقدمة لموضوعه! فبادرت الى إثبات مقدّمتي التي وضعت له، فصلاً أخيراً في عداد فصوله، يختزل مضمونه، ويترك في الأذهان طائفة متناسقة من العناوين الكبرى المطابقة **لخصائص النفس العربية وطبائعها** التي عبرت مَلاوات الزمان، ولا تزال الى اليوم مصدر الخير والشرّ، والحقيقة والزور، أو السعد والنكس، في حياة العرب وآفاق مستقبلهم.

وأستطيع القول عبر هذه الخلاصة الموضوعية أن العرب

المعاصرين أشبه ما يكونون بأهل مدينة في صحراء يشرف عليها جبل عالٍ فوق هامته قصر منيف بني في العصور الخوالي، ولا يسكنه أحد. إلّا أنه يحتوي من الكنوز مجموعة نادرة المثيل هي ملك لهم. **لكنهم يعتقدون أنها مرصودة** لا يستطيع أي امرئ أن يصل اليها أو يتعرّف الى ما تختزنه من كتب وآثار وخطوط وأسرار وأموال وجواهر تعدل كلّ متاع الدنيا! وتحيط بذلك القصر حدائق غناء وثمار يانعة ومسالك بعيدة تصل الأرض بالسماء!

ثم إن أهل المدينة يقبعون في تلك المدينة **داخل أسوار شاهقة** تحيط بهم من كلّ صوب، وهم يراقبون من أعالي تلك الأسوار ومنافذها الضيّقة منظر العالم المحيط بهم، **فيواكبون بحسرة فائقة** مواكب الاجتياح البشري الدارج بغمره وغميره نحوهم بكل ما يملك من أدوات الرفع والدفع والرجم والهدم لاختراق أسوارهم، **والنفاذ منها الى الجبل الأعلى** الذي يدعي المجتاحون الطامعون أنهم يملكون الطلاسم القادرة على فكّ أرصاده. **ويعاين سكان المدينة بمرارة وخوف وارتباك** ما يعدّه لهم أعداؤهم من نيازك فضائية وقنابل عنقودية وصواريخ نووية لإبادتهم واحتلال مدينتهم وجبلها الأسطوري العظيم... **كذلك ينظر اهل المدينة بالم بالغ وحزن كبير** الى تدفق مهرجان الأمم حولهم **نحو الفضاء الأعلى** لاستعمار كواكبه واستغلال أقماره، **ونحو البحار البعيدة** للإفادة من ذخر أعماقها وخفي نباتها وأسماكها، **ونحو اليابسة الغبراء** لاستخراج ما في جوفها من نار وفي أحنائها من معادن!!.

ولو قام في مدينة الأشباح هذه نبيّ **يدعو الى الحق والخير** والنظر البعيد، والكفّ عن تأليه الجبل وعبادة قصره الدهري، ونبش كنوزه، للحظوة بما تحتويه... **اتفقوا على قتله وطرده الى خارج المدينة** حيث تنتاشه الوحوش الهائمة في الصحراء!!. ولو نشأ بينهم **مصلح مؤمن عاقل ومفكّر** يدعوهم الى نبذ الترّهات وتخطي المحظور التافه لاجتباء المعقول الركين... **دفنوه حياً في خرائب المدينة أو صلبوه على أسوارها!!.**

تلك هي الحالة المأساوية التي يتخبّط فيها العرب اليوم، مع أنهم يتمتعون بصفات وامتيازات طبيعية خارقة وتراث حضاري وثقافي عريق وإمكانات مادية ومعنوية هائلة تحسدهم عليها أمم الأرض جمعاء. وإذا كانت ثروتهم مهدورة وحماهم مستباحاً سائباً، وجنابهم خسيفاً وجناحهم مهيضاً، **فلأنهم ادمنوا الخَدَرَ من طول ما استمرأوه** وتعودوا الكسل من فرط ما ألفوه، **واستناموا في عبادة الماضي** العظيم كالمطمئن الى السلامة والغنى والسؤدد والعلاء، **وكلّها الى زوال** ما لم يعززها المرء بالتكثير والتنوير ويمدّها بالعزم الوطيد والدم الجديد، على ما يقول الشاعر الخرّيمي:

إذا أنتَ لم تَحْمِ القديمَ بحادثٍ   منَ المجدِ لمْ ينفعكَ ما كانَ منْ قَبْلُ

ولو عدنا الى أعماق التاريخ، لتبين لنا أن الحالة الرّاهنة المتعثرة الى درجة الإعاقة، والتي تتحكم بالمجتمع العربي في عصرنا، **ليست طارئة فريدة في الحياة العربية** لم يسبق لها مثيل، **بل انها متكرّرة** على مدى العصور، وتعود في أساس الشخصية

العربية الى موقف متردّد إزاء الحسم، مرتبك عند القرار، لا يملك من جِنات الحزم والجزم قدراً وافراً يقطع الشك باليقين، ويثبّت الإرادة الذاتية الماردة بالإقدام أو الإحجام، إلّا باعتزام يدعمه التوكّل. لأنّ العزم وحده لا يكفي، بل إنّك على حدّ قولهم «إذا عزمتَ فتوكّل»!

ولا يعني التردّد في أي حال فقدان الثقة بالنفس، ممّا يذهب اليه بعض المتحاملين على شخصية الإنسان العربي. ذلك أن فاقد الثقة بالنفس لا يستطيع أن يعزم، في حين ان من يثق بنفسه وحده قادر على العزم، لكنه يتردّد خوفاً من الخطأ الذي يستتبع الفشل، ولذلك يتوكّل تحوّطاً للعثرات وتحفظاً إزاء المجهول.

وقد آثر العرب منذ القدم أن يتوكّلوا على القوة العظمى التي بها يؤمنون، سواء أكانت تجريدية غير منظورة كالله، أو تجسيدية منظورة، كالولي الموحى اليه، أو النُصب المميّز، أو القائد الملهم، الخ... وهؤلاء جميعاً لا يملكون القوة من ذواتهم، بل إن قوتهم مستمدّة من القوة العظمى غير المنظورة التي يتقرب العرب «زلفى» اليها بواسطتهم.(٢٣٠)

وإذا كان التوكّل على القوة العظمى بواسطة الأنصاب والأزلام والكهان والسحرة قد شدّد العزائم العربية الفردية خلال

(٢٣٠) سبق وأشرنا في سياق الفصل الثاني الى ما ذكره الشهرستاني في «الملل والنحل» من أن عمرو بن لحي الذي جاء بالصنم المعروف باسم «هُبل» من الشام الى مكة، فسئل عن فعالية ذلك الصنم وغيره من الأنصاب في مسألة العبادة، فقال للقرشيين إنها ليست للعبادة، «بل لتقربنا الى الله زلفى»!..

الجاهلية **في نطاق محدود** كغزو إحدى القبائل أو احتلال واحة أو بئر في الصحراء أو الأخذ بثأر قتيل مغدور، فقد كان التوكّل على القوة العظمى بواسطة الأنبياء والقادة العظماء منذ الجاهلية الأولى، وخصوصاً بعد الإسلام، **عاملاً أساسياً في توحيد العرب وتشديد عزائمهم الفردية والجماعية للقيام بتأسيس الدول وإنجاز الفتوح** وتحقيق الانتصارات الباهرة في الحروب وتأمين التفوق العلمي والفكري والاقتصادي والثقافي على سائر الأمم والشعوب. وقد دلّت شواهد التاريخ أن الانحطاط العربي، أو بتعبير آخر، **ظواهر الاستكانة والقهقرية والتخلف**، هي مرحلة هدانة مع الوجود تسبق أو تلي مرحلة يظهر فيها نبي أو قائد أو مصلح عبقري يرفع العرب الى قمة الازدهار والتفوّق الحضاري والثقافي والاقتصادي والعسكري. وأكثر ما يشبه الاستكانة والهدانة المشار اليها، استعدادهم في شهر ذي القعدة لحج بيت الله في شهر ذي الحجة، واستراحتهم في رجب بعد قهر النفس ومكافحة الهوى في محرّم.

الى ذلك يتفق الباحثون أياً كان منطلق أبحاثهم ودراساتهم **على أن هنالك طائفة لا حدود لها من الصفات التي** تختص بها النفس العربية، يجسّدونها في شعارات أو عناوين جامعة، بالصيغة البيانية المحكمة. وهي تندرج في عداد الجنات الأصلية للطباع العربية بصرف النظر عن مثولها في الإسلام أو غيره من شرائع الدين والدنيا. وسنضع القارئ في سياق تعدادها أمام البيّنات الواضحة المتصلة بالتزامها سلباً أو إيجاباً.

تعريب أنظمة الحكم العربية!

فقد ثبت بالأدلة الواقعية والشواهد الماثلة أن أنظمة الحكم القائمة في العالم المعاصر فصّلت في البدء **على قياس الأمم والشعوب الحضارية** التي اختارتها واعتمدتها في مجتمعاتها. **فالملكية الوراثية المطلقة** التي حصرت امتيازات السلطان بالجهاز الملكي الأعلى، إنما نشأت في المجتمعات الاقطاعية القبلية الآرية المعروفة بالأصول «الهندية - الأوروبية» (Indo-Européennes) وطبقت حتى أواسط القرن التاسع عشر في معظم الدول الأوروبية وبعض الدول الأميركية المتحدرة منها، وعدد محدود من الدول الأسيوية الإسلامية وغيرها. **وقد تزايلت تدريجياً** بعد ذلك حتى أصبحت اليوم تقتصر على فئة ضئيلة من البلدان التي لا أهمية لها في المجتمع الدولي العريض.

أمّا **الملكية الدستورية** التي اجتزأت من امتيازات السلطان الى أبعد مدى، وحوّلتها الى مؤسسات برلمانية منتخبة من الشعب، فقد انطلقت أساساً من «الشرعة الكبرى» (Magna Carta) التي وضعها البارونات الانكليز عام ١٢١٥م. لمواجهة السلطة الملكية، فتطوّر في أعقابها النظام الملكي في بريطانيا نحو الملكية الدستورية التي جردت الملك من معظم سلطاته الفعلية لحساب البرلمان المؤلف من مجلس اللوردات ومجلس العموم. **وقد أخذ العديد من بلدان الكومنولث التي كانت خاضعة للاستعمار البريطاني** هذا النموذج عن المملكة المتحدة، وهو نظام يطبق بدرجة نسبية من النجاح في تلك البلدان التي

ينتمي بعضها الى العالمين العربي والإسلامي.

وأمّا **الأنظمة الجمهورية الليبرالية** من برلمانية أو دكتاتورية، فتعود في جذورها الى **قدماء اليونان والرومان**، وقد انطلقت بصيغها المتعدّدة الحديثة من الثورة الفرنسية بعد السنة **١٧٨٩**، واعتنقها عدد كبير من الدول في مختلف أنحاء العالم، وخصوصاً في البلدان التي كانت خاضعة للإستعمار الفرنسي أو المتأثرة بالثقافة الفرنسية.

وأمّا الأنظمة الاشتراكية المعتدلة والشيوعية المتطرفة ذات الطابع الدكتاتوري البيروقراطي والاقتصادي الطبقي التوتاليتيري، فقد بدأت تظهر وتنمو بسرعة منذ أواخر القرن التاسع عشر وأوائل العشرين، وكان منطلقها الأساسي عقب إعلان الوثيقة التأسيسية المعروفة باسم **«مانيفست الحزب الشيوعي»** سنة **١٨٤٨** على يدّ قطبَيْ النظرية الشيوعية كارل ماركس وفردريك إنجلز، وأخذت بها الثورة البولشيفية في روسيا بعد ثورة اكتوبر الشهيرة على حكم القياصرة سنة **١٩١٧**، ثم تبعتها الصين الشعبية وعدد من دول أوروبا الشرقية وآسيا الوسطى وأميركا اللّاتينية.

الواقع **أن معظم الدول العربية** التي كانت ترزح تحت الاستعمار، توزعت أنظمة الحكم هذه المستوردة من خارج العالمين العربي والإسلامي، بأشكال وصِيَغ متنوعة، بعد حصولها على الاستقلال، وانطلقت في بناء كيانها الدستوري من انقلابات عسكرية أو حركات ثورية فوضوية، **متأثرة الى حدّ بعيد بسياسة الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي السابق** اللذين ورثا

الأمبراطوريتين الاستعماريتين القديمتين بريطانيا وفرنسا. ويمكن القول أن هذه الأنظمة العربية المستحدثة **تحمل في ذاتها** الكيانية آفة «**عدم الانسجام الطبيعي**» مع نفسية شعوبها، حتى وإن كان بعضها يطبق الشريعة الإسلامية في شؤون القضاء والأحوال الشخصية وغيرها، وكان أولى بقياداتها منذ أواسط القرن الماضي **أن تتوافق على تأسيس نظام للحكم يستلهم الثقافة العربية والتراث العربي وخصوصيات المجتمع العربي ونفسية الإنسان العربي**، وبالتالي إقامة نظام للحكم مزدوج الهوية العقائدية يعتمد الإسلام من جهة والقبلية الاجتماعية من جهة ثانية، بحيث يتمكن من مواجهة التحديات الحياتية في الداخل، **وملاءَمة التوجهات والأخلاقيات العربية ذات الريادة والفرادة**، على أن يطبق هذا النظام النموذجي تطبيقاً واحداً في الدول العربية كافة.

لا إصلاح بالعودة الى الوراء...

ويذهب فريق من الأصوليين السلفيين الى أن هذا البديل العربي الأصيل عن أنظمة الحكم الشائهة الحاضرة **وجد منذ عهد الخلفاء الراشدين، وهو نظام الخلافة الإسلامية** الذي بقي معمولاً به حتى زوال الأمبراطورية العثمانية، وقد ألغاه اتاتورك في مطلع العشرينات من القرن الماضي. ويرى هذا الفريق الى أنه ما دامت الدول العربية تنصّ في معظم دساتيرها على أن «**دين الدولة هو الإسلام**»، فلا حرج، والحالة هذه، أن ترعى البلدان العربية

والإسلامية جمعاء، مظلة الخلافة الإسلامية الواحدة.

ولا شكّ في ان هذا الاقتراح يلائم التوجهات الوحدوية في المنطق المجرّد. **لكنه مستصعب الاعتماد والتطبيق في الأسس الواقعية للحياة المعاصرة**، لاسيما وإن الملزمات المتصلة بتعدّد القوميات، واختلاف الانتماءَات الثقافية والحضارية والأطر الطبيعية والمناخية، وتباين المسافات والمواقع الجغرافية، بالإضافة الى العادات والتقاليد الخاصة بمختلف الأقاليم في العالم العربي والإسلامي، وطموحات الشعوب ومطامع الحكّام في هذه الرقعة الواسعة من الأرض... **كلّ هذه العوامل مجتمعة فرضت تحوّل الخلافة الواحدة الى خلافات تجذّرت معها الخلافات، منذ نهاية الدولة الأموية** التي لم تدم أكثر من ٨٥ سنة في دمشق، فنشأت بعدها خلافة عبّاسية في بغداد، وخلافة أموية في الأندلس، وخلافة فاطمية في مصر، وتنازع الخلافة عقب القرن السابع الهجري أصحاب السلطات الغرباء عن العروبة من السلاجقة الى المماليك فالأتراك العثمانيين، وأصبحت في تلك المراحل جمعاء، حتى نهاية القرن التاسع عشر الميلادي، **أثراً بعد عين وإسماً لغير مسمّى.**

فكيف يمكن اعتماد نظام تبيّن فشله في الأرضية الواقعية طيلة ثلاثة عشر قرناً، في زمن يتعاظم فيه التفسّخ والتهافت والبابلية والفوضى على كلّ صعيد في الدول العربية والإسلامية التي تواجه العولمة الاقتصادية والثقافية والاجتماعية والفكرية، وحتى اللغوية، وأكاد اقول الروحية والإيمانية، **كما تواجه الهجمة**

الإبادية والإفنائية المتعصبة من قوى دولية عظمى كفرت بكل معطيات الحضارة الإنسانية، وهي في طريق التحول يوماً بعد يوم الى عصابات همجية ماحقة تفترس العالم بأسره، وتسعى به عبر المجازر والحروب والمطامع الجشعة والدعارة الوثنية المتوحشة، الى مصير أسود وفناء مقدر في أجل مسمّى؟!

السرّ الشائع والثرثرة القاتلة

ومن أسوأ ما ابتلي به العرب على صعيد الحكومات والقيادات، هو انحراف تلك المراكز الأساسية للسلطة عن مبدأ التحفظ والسرّية في الشؤون المتعلقة بالدولة والحكم. وذلك تحت تأثير المفاهيم العصرية غير الواضحة لما يسمّى «بالشفافية» أو «العلاقات العامة» أو «ثقافة الإعلان»، وغير ذلك من وسائل التصريح والتوضيح التي يفيد منها العدو ويكشف عورات خصومه مع فضح أسرارهم والعمل على تعطيل كلّ مشروع حيوي يهدفون اليه، سواء على صعيد الوحدة السياسية أو التطور الاقتصادي والاجتماعي والثقافي أو الخطط الدفاعية والتسلح، الخ... هذا مع العلم أن المبدأ الذي عمل به رجال هذه الأمة وقادتها العظماء الأوائل كان يختصر بالقول المأثور «واستعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان.» وفي الأسباب المباشرة لهذه «النكبة الخطابية» والسذاجة الإعلامية أن معظم العرب لم يفهموا المعاني الحقيقية للتصرفات والمواقف والممارسات التي درجوا

عليها تشبّهاً بالقادة والحكام والمعنيين بالشأن العام في بلدان الغرب التي **صدّرت اليهم أدوات حضارية متطوّرة دون أن ترشدهم الى طرق استعمالها والأساليب الصحيحة للإفادة منها**، وذلك في ميدان السياسة والإعلام، تماماً كما هو حاصل في ميدان الأسلحة التي يبتاعونها بالمليارات على انها متطورة، وهي في الحقيقة بدائية، أو على أنها هجومية، وهي في الحقيقة لا تصلح حتى للدفاع.

فالممارسة البرلمانية مثلاً لا تكون بالخطابات، **لأن البرلمان أو المجلس النيابي ليس سوق عكاظ**. بل هو موضع «**للبحث الرواقي**» الهادئ بالدرجة الأولى،[٢٣١] يجري التداول تحت قبته في الأمور العائدة الى القوانين والشؤون السياسية والأزمات الطارئة على كلّ صعيد بين ممثلي الشعب، **شرط ألّا يظهر «جوهر» المناقشات الى العلن** كي لا يستغل من جانب أي فريق داخلي او خارجي متضرّر أو طامع، فيبادر الى تدارك الأمور بافتعال مشكلات أمنية أو سياسية تهزّ أركان الحكم، أو برشوة النواب المخالفين، أو بالاقدام على تهديدهم في مصالحهم وأرواحهم الخ...

كذلك **تخرج الحريات الصحفية من جهتها عن حدودها المتعارف عليها** في القوانين المحلية والدولية، عندما تتحول الى مزايدات علنية على صفحات الجرائد وشاشات التلفزة وموجات

(٢٣١) نسبة الى المشّائين الرواقيّين في آثينا الذين كانوا يتداولون في أروقة خاصة أمور الفلسفة واللّاهوت بعيداً عن العامة والسوقة. (Les Stoïciens)

الإذاعة، عبر تصريحات خارجة عن أبسط قواعد التحفظ وملزمات الحيطة والحذر واحترام سرّية الشؤون المصيرية. وهو ما ينطبق على **القرارات الدقيقة التي تتخذ في المؤتمرات المهمة وتتوقف عليها مصائر الحرب والسلم** والخطط الأساسية المتعلقة بحياة الشعب ومعطيات وجوده وتعزيز مناعته. ثم إن بعض المتشوّفين بالثقافة وفنون التكهن والتحليل، يتناوبون على **كتابة المطوّلات في الجرائد والمجلات**، وهم في الحقيقة أميّون، يتباهون بظهور أسمائهم في «**صفحات الرأي**» التي يرصدها أعداء الأمة، ويبحث هؤلاء في قماماتها عن **غذاء مجاني لأجهزة مخابراتهم**... وما الى ذلك من تجاوزات في السباق الخبري والمباريات الإنشائية الخطرة والخطيرة التي تكشف العورات وتنشر الخصومات فتصوب المساعي الهادفة الى النيل من عمق المَفاصل والمَقاتل.

ولو شئنا التبسّط في رصد الشذوذ القائم على المستويات الإعلامية والإعلانية **باسم الحرّية**، لما اتسعت لكلامنا المجلدات... فأين هذه الخفة التي يتخبّط في أجوائها معظم المسؤولين والمفكرين والإعلاميين العرب اليوم من القاعدة الذهبية المتركنة أساساً في عمق الطباع العربية الأصيلة ومفادها أن «**ليس كلّ ما يعلم يقال**»، و«من كشف سرّه خاب أمره وسقط قدره»، و«سلامة الإنسان في حفظ اللّسان»... وما الى ذلك من تبدئة الكتمان والاتزان. يضاف الى مظاهر الثرثرة الوبائية هذه شعارات يطلقها بعض الحكام تهويلاً على خصم لا يكترث لها او على شعب سادر عنها تحت ضواغط فقره وانسحاقه، فيسمي هذا

القائد جيشه «**بأكبر قوة ضاربة في الشرق الأوسط**» فتصبح القوة الضاربة مضروبة وتنهار في بضع ساعات، أو يقول ذلك الحاكم **إنّه يخوض** «**أم المعارك**» ويلجأ قبل أن تبدأ المعارك الى جحر في دَرَك المسالك، تاركاً شعبه منحوراً دامياً **يتعوذّ بالله من «أمّ الهزائم»!** . . هل كان هذا ما فعله المعتصم بالله العبّاسي يوم دمّر قلعة عمورية، وسيف الدولة بن حمدان يوم سوّى قلعة الحدث بالأرض، وخالد بن الوليد يوم هزم القياصرة، أو مسلمة بن عبد الملك يوم اقتحم سور الصين، أو طارق بن زياد يوم فتح الأندلس، أوحتى السلطان الظاهر المملوكي بيبرس الأول الذي استأصل الصليبيين من فلسطين وردّ المغول على أعقابهم في معركة عين جالوت؟!! إنه من المؤسف حقاً والمؤلم المخزي، أن يكون **الإدعاء الفارغ قد وصل ببعض حكام العرب الى هذا المستوى،** فيما يعاني الخلق العربي والنفس العربية نكبة الحشرجة من آفة الثرثرة. . . والعرب يؤمنون منذ فجر التاريخ بأن «البلاغة الإيجاز» وأنه «إذا كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب». . . وأنّه «بكثرة الصمت تكون الهيبة» كما يقول الإمام علي. . .

رياضة وإباحة في خدمة السياسة

وبعد. مهما تكن النفس العربية كاظمة صابرة، فهي لا تقوى في هذا المنعطف الرهيب من تاريخ الانحطاط، على قبول ثالوث الهجمة الثقافية الغريبة القائمة على **تعظيم الرياضة، وتكريم السياحة، وتكريس الإباحة.**

أمّا الرياضة، فقد عُرفت منذ أقدم العصور في تقاليد الأمم **بصفتها ألعاباً مدنية ذات أهداف عسكرية**، تتعهّد في مبارياتها روح الصراع والمَلاءَة الجسدية لخوض الحروب واحتراف القتال. وكانت **فردية أو ثنائية** في البدء عند أهل الصين والهند والفرس واليونان والرومان، تقتصر على المبارزة بالسيف، والمصارعة، والملاكمة، ورمي الكرات المعدنية والأسطوانات والرماح، والقفز والعدو، وغير ذلك من المناظرات وإنجازات القوة الإنسانية الخارقة، أو منازلة الحيوانات المفترسة. **وتميزت تلك الألعاب دائماً بالمهارة والدقة في التحديد والتسديد**، خصوصاً في المصارعة والملاكمة والسيف والجودو والكاراتيه والبينغ بونغ التي انبثق عنها التنِس أو كرة المضرب... ثم تمثلت عند الشعوب البدوية ومنها العرب والأتراك والمغول والتتر والقبائل الآرية الجرمانية والساكسونية والفرنجية وغيرها، **بألعاب الفروسية ومباريات سباق الخيل** والمركبات الحربية، وكان الفُرس أول من أدخل عليها الكرة والمضرب في لعبة الجوكان التي استنسخ الانكليز عنها الكريكت ثم الغولف وغيرها. وما لبثت الرياضة أن تحوّلت في القرن التاسع عشر **من ألعاب القوة** التي اشتهرت بها أولمبيا في اليونان القديمة **الى ألعاب جماعية** من أمثال كرة القدم وكرة السلة والكرة الطائرة والروغبي وما شاكلها ممّا تحتشد له الجماهير بمئات الألوف **في الألعاب الأولمبية الصيفية والشتوية** وترقبه الملايين على شاشات التلفزة.

ولم يسلم التطوّر الرياضي في عصرنا **من لوثة الاستغلال السياسي**، خصوصاً بعد الحرب العالمية الثانية ونفور المجتمع

البشري من الحرب وأهوالها وضحاياها. فأصبحت أهم الرياضات هي تلك التي تستقطب أكبر عدد ممكن من المتحمّسين والمحبذين والمشاهدين، **ولم تعد بالتالي «انتقائية»** يعتمد في سلّم أولويّاتها أقربها الى الفنّ والابداع من رياضات البطولة الفردية، **بل غدت «انتهازية»** بمعنى أن معيار تفضيلها يقوم على **حجم الحلبة** التي تجري عليها وما تتسع له المدرّجات المحيطة بتلك الحلبة من جماهير، ثمّ **الحماسة** التي تبتعثها في صفوف المشاهدين... الأمر الذي تقلصت معه أهمية الملاكمة والمبارزة بالسيف والجودو والمصارعة الحرّة، وألعاب الرياضة الفردية البدنية وغيرها **ذات الحلبات الضيقة والجمهور القليل** المحدود، وتضخمت في المقابل معه الألعاب والمباريات الجماعية ذات الحلبات والمدارج الواسعة من مثل كرة القدم، وكرة السلّة والروغبي وسواها، فيما احتفظت رياضة التنِس الثنائية بالحدّ الأوسط من جمهورها الأرستوقراطي والحضاري المميّز.

وقد استخدمت الحكومات المنحرفة في العالم الثالث، **وبعض حكوماتنا العربية** مع الأسف، **عمداً أو سهواً**، تلك الرياضات الجماعية، **لأغراض السياسة** الهادفة الى إلهاء الجماهير وصرفها عن الحركات الثورية التصحيحية في الشؤون الداخلية، وأحياناً بفعل الضغوط والتدخلات الأجنبية، الى تحويل اهتمام الأجيال الجديدة عن **الممارسات الجدّية في الحياة**، بحيث تفقد قدرتها على تقويم الأوضاع المحيطة بمجتمعاتها، ومكافحة الأهداف الاستعمارية، والتسلح بأعلى

درجات الأهبة والالتزام الوطني والقومي لصدّ الأخطار المحدقة وسعايات العناصر والجماعات المتربّصة.

ولا شك في أن **للروح الرياضية فضائلها** في تخفيض الجأش، والأخذ بالمنافسة البريئة، وتعهد مكارم الأخلاق صفحاً وتسامحاً ودفعاً للغرائز المتوحشة وكبحاً للشبق والانحراف خصوصاً، إلّا أنها تساعد في الوقت نفسه على **المثلية الجنسية من طريق النرجسية وعبادة الجسد** والحرص على كماله بطريقة شبه صوفية خارجة عن المألوف. وكان أولى بالحكومات العربية التي تنفق مئات الملايين على رعاية الرياضة وأنديتها وملاعبها ومبارياتها، وتسهم في تمويل الاتحادات المحلية والإقليمية والدولية، أن تقتصد الى حدّ بعيد في «**التحزّب للكرة**» على حدّ تعبير أحد النقّاد البارعين، وتصرف اهتمامها الأكبر لتنشيط الحركات الرياضية والثقافية **الأكثر اتصالاً بالتراث العربي** واتجاهات النفس العربية وميولها. فمما يؤسف له حقاً أن تصبح الشعوب العربية بعيدة كلّ البعد **عن رياضات الفروسية**، وأن تقتصر سباقات الخيل في العالم العربي على مرامح المراهنات التي تهدر أموال الفقراء وتستنزف الأغنياء، وأن يكون اقتناء الخيول العربية وتأصيلها **وقفاً على قلّة ضئيلة** من أصحاب الملايين، ولا يكون للدول أي اهتمام بهذا اللون الرياضي العريق الشريف. وما يقال في هذا المجال بصدد الفروسية ينطبق على **رياضة القنص** واستخدام الصقور الداربة وغيرها من الجوارح والكلاب فيها، وهي رياضة عربية أصيلة تكاد تكون مهملة أو منسيّة من جانب

السلطات العامة، **وتقتصر على أهل الثراء من العرب** الذين أنشأوا الحظائر الخاصة لترويض الجوارح على القنص في بعض المناطق الأوروبية والأميركية، دون أي اهتمام للحكومات العربية بتلك الرياضة النموذجية والترويج لها في مجتمعاتنا كافة.

الى ذلك نلحظ بمرارة فائقة الإهمال الخطير غير المبرّر من جانب الدول والمؤسسات الثقافية والإعلامية لأجمل رياضات العقل والفنّ، عنيت **الشعر** الذي يؤلف ثروة العرب الجمالية الأساسية ولؤلؤة تراثهم، وقد نطق به السلف العربي في كلّ زمان ومكان، **وكان مفخرة من مفاخر العبقرية العربية** الى عهد ليس بالبعيد. ففيما نرى في ثقافة بعض الأمم الأجنبية المعاصرة اهتماماً خاصاً بالشعر والشعراء، وقد أوجدوا للشعر أندية مزدهرة، وخصّصوا له الجوائز وأنشأوا المجلات المعنية بترويجه وتثبيت نهضته... وفيما تفرد للشعر **بعض الصحف اليومية الكبرى** في اليابان والصين وبعض بلدان الشرق الأقصى وأميركا اللّاتينية وأوروبا، مجالاً ثابتاً متفاوت السعة والحجم **حتى في صفحاتها الأولى**... وفيما يشارك بعض رؤساء الدول والحكومات والمسؤولين السياسيين أمثال **أمبراطور اليابان آكيهيتو** ورئيس حكومة فرنسا **دومينيك دو ڤيلبان**، وغيرهما، في مبارياته الإبداعية، نجد العرب من المحيط الى الخليج يتخلّون عن هذا الفن الرفيع **بل يستهزئون به وبمحترفيه القلائل**، خصوصاً أولئك الذين حافظوا على أساليب الشعر الموزون المقفّى وعموده الأصيل القائم على **سمفونيا موسيقية فريدة** متفوّقة رتّبها **الخليل بن أحمد الفراهيدي** معلم سيبويه والأصمعي في القرن الثامن

الميلادي (الثاني للهجرة) على **١٥ ميلوديا متناسقة مدهشة وأضاف اليها الأخفش بعده البحر السادس عشر**، فنشهد مؤامرة حقيرة مشبوهة للقضاء على هذا الكنز العظيم، والتعوّض عنه بمقطّعات هَذَيانيّة شائهة ومنحرفة يسمّونها شعراً حديثاً يطرحها قرّاء العربية بازدراء في عداد النفايات! . .

وغني عن التأكيد في سياق هذا العرض الموجز، أن هنالك عدداً كبيراً من حقول المعرفة والرياضة الفكرية والثقافية **يمكن بل يتعيّن توجيه الشباب العربي اليها**، وحثه على ممارستها بتخصيص الجوائز وإقامة المباريات، وفي طليعة ذلك **تشجيع القراءَة بتنظيم قطاع النشر** الذي يتحكم به الى جانب الدور القليلة الوطنية والقومية المتعثرة مالياً، فريق لا يستهان به **من أكلة حقوق المؤلفين والكتّاب الشرفاء**، وأولئك الناشرين العاملين في خدمة المخابرات الأجنبية ممّن يختارون للقراء العرب **كتب التشويه والتمويه** السياسي والتاريخي والعلمي والأدبي التي تعودهم احتقار تراثهم القومي، وتزهدهم في القراءَة عوض تشويقهم لولوج آفاقها، **خصوصاً الكتب المتعلقة بالنشء اليافع والطفولة** التي تبعدهم عن لغتهم وتعاليم دينهم واستقامة أخلاقهم.

وإذا لم يكن متيسّراً أن نلمّ في سياق هذا البحث بمختلف الحقول والميادين المتوافرة أمام الحكومات لإحداث **عملية إنقاذ عريضة من السطحية الرياضية** وألعابها التافهة التي تحثّ على التصفيق وتمعن في التجهيل. . . فلا بدّ لنا من التنكّر البصير المستنير لما تغض بعض الحكومات عنه الطرف، لكي لا نقول

إنها تشجعه من طريق السياحة المنحرفة عن رسالتها الإنسانية والثقافية المنزهة، **وهو ما يعرف «بقطاع الترفيه المشهدي»** الذي يتألف من الخمّارات والبارات وعلب الليل ومقاصف اللهو المفسد والإباحية المنظمة، حيث ينتشر البغاء وتزدهر العربدة والسكر والعري ونحر الكرامات في جريمة جماعية كاملة متسترة بالظلام!

فأين هذا الشذوذ المستفحل من **خلائق النفس العربية المؤمنة الحافظة للعفة والكرامة والشرف؟!..** ويخطئ من يتصوّر أننا ندعو من خلال هذه الملاحظات الدقيقة **الى الدفاع عن الكبت والحرمان،** والترهب الزائف والعبادة المرغَمة الممجوجة، فنحن أبعد ما نكون عن هذه الآفات التي عطلت حيوياتنا وحولتنا الى نماذج بشرية **تستهلك وجوداً متعطلاً خارج التاريخ!..** ولكن الفرق شاسع بين الترفيه الطبيعي الجميل البريء الحييّ الرضيّ، والترفيه الذي تبلغ فيه الشراهة حدّ التخمة الحيوانية ويستتبع القيء والغثيان والشلل العدمي الذي هو أقبح من الموت!!

ظلام العلم الذي لا يشعّ ولا ينير!

ومن الطبيعي ان ننتقل بعد هذه الوقائع المحبطة والمخيّبة الى **واقع التربية والتعليم في العالم العربي** السادر المغيّب والمستكين. فالتعليم الذي يبدأ بدور الحضانة **يهرّب أطفال العرب تهريباً** من أحضان المربّيات الأجنبيات السود في بيوت الأغنياء، الى أيدي

الحاضنات الأجنبيات البيض الأرفع منزلة في مؤسسات الحضانة المحلية **التي تفاخر بكونها أميركية أو أوروبية** بكل تجهيزاتها الترفيهية والتدريبية والكتبية المصورة ومختبراتها الخاصة بالطفولة، كما تباهي بتلقينهم مبادئ الفرنسية والانكليزية على أكمل وجه، وربما العربية أيضاً (. . .) على قواعد **تنفّرهم من الأبجدية التقليدية والألف باء العادية**، وتتوسل طرائق أخرى لتقويم نطقهم فلسفها بعض الجهلة من أشباه العلماء واللغويين، بحيث لا يميّز الطفل بين الباء والتاء والثاء **إلّا بحركة شفتيه ولسانه** دون أن يحفر شكلها وأسلوب تلاوتها في ذهنه الى الأبد!!

والحق يقال إن معظم دور الحضانة في العالم العربي **بحاجة ملّحة الى التعريب!!** لأنها محكومة بالطرق والأساليب والوسائل والتجهيزات التي وضعت **لعالم آخر وأمم أخرى!** هذا مع العلم ان القلة من أولاد البيوت الثرية هي التي تصل الى تلك الدور، **فيما أصبح الشارع دار الحضانة الكبرى** التي تتسع لأكثر من ثمانين في المئة من أطفال العرب **«أكبادنا التي تمشي على الأرض»**!..

وما ينطبق في هذا المجال على دور الحضانة ينطبق أيضاً، بأشكال مختلفة مظهراً وحجماً، ومتفقة جوهراً وطبيعة، **على مراحل التعليم الابتدائية والمتوسطة والثانوية**، حيث يتم التوجيه من خلال المناهج والمطبوعات الكتبية واجتهاد المعلمين غير الأكفاء، **وشبه الأميّين أحياناً**، نحو الآداب والفنون والعلوم الإنسانية عموماً، كالتاريخ والفلسفة والدين والاجتماع، وربما الاقتصاد وعلم النفس... كما يتمّ تزهيد الطالب تزهيداً متواصلاً

بالعلوم الحديثة الإلكترونية المتطورة وبالعلوم التطبيقية والاختبارية التي نحن بأمسّ الحاجة اليها، باستثناء الهندسة والطب حصراً... حتى تكاد ألّا تجد في أي ثانوية عربية مقابل كلّ ١٠٠ طالب من المهتمين بالعلوم الإنسانية، أكثر من ١٠ مهتمين بالعلوم التطبيقية، وربما وجدت ١٠ آخرين مهتمين بالعلوم الإلكترونية الحديثة على مستوى بدائي متواضع في سبيل الحصول على وظيفة مصرفية او أي وظيفة أخرى تقوم على الحاسوب ومشتقات إنجازه!.. ثم إن قليلين هم الطلاب العرب الذين يتوجهون نحو الحرف والمهن، وتدلّ بعض الإحصاءات الرسمية أن هؤلاء لا يتجاوزون الـ ١٠ في المئة من مجمل الطلبة في معظم البلدان العربية حيث تبدو معاهد التعليم المهني قليلة جداً بالنسبة الى معاهد التعليم النظري سواء ما كان منها حكومياً أو أهلياً!

هذا، مع التأكيد بالاستناد الى الاحصاءات الصادرة عن الأمم المتحدة، أن ٧٠ في المئة من طلبة ألمانيا، و٤٠ في المئة من طلبة فرنسا، و٦٠ في المئة من طلبة بريطانيا، و ٧٠ في المئة من طلبة روسيا، و٥٠ في المئة من طلبة الولايات المتحدة، و٧٠ في المئة من طلبة اليابان، و٨٠ في المئة من طلبة الصين، و٦٠ في المئة من طلبة الهند، و٤٠ في المئة من طلبة البرازيل، يلتحقون بعد المرحلة التعليمية المتوسطة بمعاهد التعليم المهني التي ترعاها الحكومات!!

وأمّا على صعيد التعليم الجامعي، فيمكن القول أنه، باستثناء بعض الجامعات الدهرية المتخصّصة في علوم الدين كالأزهر

والزيتونة والنجف وغيرها، ليس في العالم العربي بأسره **مؤسسة جامعية واحدة تستحق أن تسمّى جامعة** بالمفهوم المتعارف عليه عالمياً. ذلك أن مؤسسات التعليم العالي لا تكتسب الصفة الجامعية إلّا **بتوافر شروط أساسية** أهمها ما يلي:

١ - أن تكون مشيّدة في **رقعة واحدة متسعة ومستقلة** من الأرض، لا يتداخل معها أي نشاط مدني آخر غير متصل بالفروع العلمية والثقافية التي تدرّس فيها.

٢ - أن يكون **أساتذتها من الأعلام المشاهير** كلّ في ميدان اختصاصه، ولهم مؤلفات مرجعية معروفة في ذلك الاختصاص على الصعيد العالمي.

٣ - أن تملك مكتبة واسعة غنيّة **بالمخطوطات القديمة النادرة**، ودائرة نموذجية فريدة **للمحفوظات الحديثة والسلفية** نادرة المثيل لا تقدر بثمن.

٤ - أن تكون **متفوّقة عالمياً في اختصاص معيّن** أكثر منها في سائر الاختصاصات كتفوق هايدلبرغ مثلاً في الفلسفة أو برنستون في الدراسات الشرقية، أو كامبردج في الفيزياء أو السوربون في الآداب والقانون أو هارفرد في الطبّ والتاريخ الخ...

٥ - أن يكون في عداد مفكريها وعلمائها السابقين والمعاصرين **عباقرة ومخترعون** في هذا الميدان أو ذاك **أسهموا في تطوير الحضارة الإنسانية**.

٦ - أن تكون مستقلة **استقلالاً مالياً كاملاً** عن أي حكومة وطنية أو أجنبية وتتكل بالدرجة الأولى في تأمين مواردها، على الاعتمادات المحتسبة لها من مؤسسات القطاع التجاري والصناعي الخاص، والأموال الموقوفة على اسمها من أناس لا علاقة لهم بالشأن العام من قريب أو بعيد.

٧ - أن تتميّز **بإدارة حازمة متجددة مع العصر**، وجهاز إداري بشري وآلي حديث فائق الدقة والأخلاقية والتنظيم، **وألّا تكون لها أي علاقة على الإطلاق بالسياسة** ولا بأي سلطة داخلية أو خارجية تبتليها بالانحياز الحزبي والمحسوبيات الوظائفية.

٨ - أن يتمّ **قبول الطلبة المنتمين اليها طبقاً لمعايير دقيقة** أخلاقية وتحصيلية ونفسية مميّزة بحيث يحملون هويتها لمدى الحياة، فيقال أن فلاناً هو من رجال هذه الجامعة العربية أوتلك، كما يقال اليوم أن فلاناً ينتمي الى هايدلبرغ أو أوكسفورد أو السوربون الخ...

وقد نشأت الجامعات الكبرى أساساً في العالم العربي والإسلامي في القرون الوسطى **قبل أوروبا**، وأقدمها على الإطلاق جامعة الأزهر التي انطلقت مع الجامع الأزهر بأمر المعزّ لدين الله الفاطمي سنة ٩٧٠م. (٣٥٩هـ.) وتخصّصت في علوم الدين واللغة والفقه والآداب، فكان تأسيسها قبل جامعة السوربون الفرنسية

التي أنشئت سنة ١٢٥٧م. وهي أقدم جامعات أوروبا، واشتهرت أيضاً بتعليم الآداب واللغة واللّاهوت المسيحي. وبالعودة الى تاريخ الجامعات العالمية نجد أنها قامت أصلاً **على تعليم الدين الإسلامي في الشرق والدين المسيحي في أوروبا**. لكن الجامعات الأوروبية وبعدها الأميركية، ما لبثت أن خلعت تدريجياً مسوح الرهبان وطوت كتب اللّاهوت، وانصرفت الى العلوم **في مختلف ميادين الاختصاص** في حين أن ذلك التطوّر لم يطرأ على الجامعات العربية القديمة في الشرق. وهكذا اضطر الطلبة العرب إثر انتقال العلوم من الأفق العربي الإسلامي في القرون الوسطى الى الأفق العالمي في عصر النهضة الأوروبية الذي تزامن مع اكتشاف القارة الأميركية اواخر القرن الخامس عشر... **اضطر هؤلاء الطلبة العرب**، خصوصاً في القرنين الأخيرين الى تحصيل الاختصاصات العلمية في الجامعات الأوروبية ثم الأميركية في مرحلة متأخرة.

لذلك بات من أحكام الضرورة القصوى ان تقوم في العالم العربي والإسلامي **جامعات أكاديمية عالمية الإشعاع** تهتم اهتماماً جدياً كاملاً بالاختصاص العلمي الركين الموثوق. ولا يسعنا أن نحيط في سياق هذا البحث **بالوسائل التي يتعيّن استحضارها** لقيام هذا النوع من الجامعات، **لأن المسالة لا تقتصر على التمويل**، وهو متيسّر بحمد الله، على الصعيدين الخاص والعام، لكنها تحتاج بالدرجة الأولى **الى سلسلةمن الإجراءات** المتعلقة بالتعليم العالي على مختلف الأصعدة وليس

على صعيد جامعة واحدة أو فرع جامعي واحد بالتخصيص.

فمن أهم القواعد التأسيسية للحياة الجامعية المستقبلية «**توحيد المصطلح العلمي**» في مختلف الاختصاصات، ومتابعة التطوّر العالمي لذلك المصطلح، وما يقتضيه من تطوير دوري منتظم في اللغة العربية، وذلك عبر أكاديميات أوْ مجامع علميّة رائدة تصدر المصطلحات المشتركة بين مراكز التعليم العالي في أطراف العالمين العربي والإسلامي، وتستحدث المعاجم الخاصة بالمصطلح العلمي الجديد والنشرات أو الملاحق المتمِّمَة له في مراحل زمنية منتظمة.

ومن أهم العوامل التأسيسية أيضاً إيجاد الوسائل الكفيلة بتعويض «**عنصر الأقدمية المفقود**» والذي تفتقر اليه المؤسسات الجامعية الجديدة، وهو أمر مستصعب الى أبعد مدى، بسبب الانقطاع الطويل الذي دام سبعة قرون بين أزمنة الازدهار الحضاري العربي في العصور الوسطى، والاضطرار البعثي العربي الى التعويض عنه في العصر المتأخر الذي نحن فيه. وأخيراً ليس آخراً **تطبيق مشروع وحدوي** عربي إسلامي مستقل عن السياسة والنظم الحكومية، يضم الجامعات المختلفة ويجسّد اعمالها في سياق أكاديمي علمي وتعليمي مشترك يكفل إيجاد موقع جدير بمنزلتها الجديدة في الإطار الدولي ويجدد النظرة العالمية اليها انطلاقاً من هاجس الانتفاع بأبحاثها وإنجازاتها.

إنها مسألة تحتاج الى **دراسات واسعة وجهود متواصلة تستغرق عقدين من الزمن على الأقل**، نعرض عن تفصيلها في هذه

العجالة لخروجها المؤجل عن موضوعنا. ولكن عند حدوثها، إن هي حدثت بمشيئة الله وعون المخلصين المؤمنين بالعلم وقدرته على اجتراح معجزة القوة والمنعة والازدهار، نستطيع القول اننا وفينا للنفس العربية حقها، وهي لا تنفك تحدث الإنسان العربي **بالعودة الى جذوره الإنسانية والأخلاقية الرائدة**، وتمنّيه من موقع تقدمي راشد بعيد عن الإدعاء الفارغ والاعتداد الساذج، **بالمشاركة الجديدة المشرّفة في صنع الحضارة** وتحصيل حقوقه المشروعة من كتابها المرصود.

الاستعجال بدون تحفّظ والتسليم «بالإرهاب»!

ونتابع **توصيف الغربة** التي يتخبّط فيها الإنسان العربي في يومنا هذا، وبعدها الحقيقي عن دخيلة نفسه وسليقة مزاجه وطبعه وطموحه، فنأخذ على أولياء أمرنا مجموعة من المثالب والعيوب وسوء التقدير في الشؤون العامة وإدارة الدولة ومسيرة الحكم. فقد أهمل المسؤولون عن الأمة ومصائرها في معظم البلدان العربية، **الاعتصام بالصبر، والنظر الطويل في تقرير الجواب** عن الأسئلة والمواقف الملائمة تجاه القضايا المطروحة، مهما يكن ظاهرها تافهاً، وهو ما أوصى به الخالدون من عظماء العرب وقادتهم. فلا يجوز إعلان الرأي الوشيك ولو كان حاضراً، إلّا بعد تقليب الأمور على مظانّها في عقول الآخرين. وحسبنا قول المأمون **«فكّرت في علوم الأرض، فلم أرَ علماً أعظم من النظر في عقول الناس!»**

ولكي أضرب المثل على القرارات المستعجلة البعيدة عن جوهر الحكمة والصبر والتؤدة، أذكر ان الكثيرين من الزعماء العرب والمفكرين السطحيين الدارجين خلفهم في ظلّ النفعية والانتهازية، أسرعوا الى تلبية الدعوة التي وجهها وزير الخارجية الأميركية الأسبق جيمس بايكر الى مؤتمر مدريد سنة ۱۹۹۰، لإقرار مبدأ «**السلام مقابل الأرض**»، ومنهم من حضر ومنهم من تخلّف عن الحضور، لكنهم توافقوا جميعاً على القبول بالمبدأ المشار اليه، آخذين في الاعتبار أن المؤتمر منعقد «**برعاية القوتين العظميين**» الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي، وأنّ وجود هذا الأخير سيخفّف الى أبعد مدى من تجاوزات الولايات المتحدة وإسرائيل بالنسبة لاجتماعات المؤتمر ونتائجه. والحق يقال أنّ أياً من أولئك الزعماء وأتباعهم لم يفكر لحظة واحدة بالسبب الذي جعل إسحق شامير رئيس وزراء إسرائيل في ذلك الحين، **يؤجل موافقته على الحضور الى اللحظة الأخيرة**. وظنّ أولئك الأميون المتسرّعون الذين لا يقرأون، ولم يطلع أحدهم في حياته المتلبسة بالصدف العابرة والتصرفات السطحية، على فصل من كتاب «**كليلة ودمنة**» يسأل فيه ابن المقفّع رحمه الله «**لماذا باعت هذه المرأة السمسم المقشور بسمسم غير مقشور**»؟!...[۲۳۲] **ظنوا جميعاً أن عذر شامير في تأخير جوابه يعود قياساً على أعذارهم في حالات مماثلة، الى ألم «اللومباغو» أو إلتهاب في «ضرس العقل» أو الى**

---

(۲۳۲) انظر كتاب «كليلة ودمنة» تعريب عبد الله بن المقفع- باب الغراب والمطوّقة والجرذ والسلحفاة والظبي_ «مثل المرأة البائعة السمسم المقشور بغير المقشور» - طبعة دار المشرق _ بيروت: ۱۹۸٦

«الزحار الأميبي» المعروف «بالديسنتيريا»!.. في حين أن الرجل كان يدرس مع دهاقين المخابرات والسياسة في دولته كيف يستطيع القبول بالسلام دون أن يستغني عن الأرض!!

وقد تبيّن للمشاركين العرب بعد أشهر، بل أعوام، من نهاية المؤتمر، أن الراعيين الأميركي والسوفياتي، **كانا في الحقيقة راعياً واحداً** رغم حضور ممثل روسي للمؤتمر، لأن غورباتشوف كان قد وفى بالتزامه للمخابرات الأميركية وأنجز تفكيك الاتحاد السوفياتي **قبل عام ونيّف من انعقاد مؤتمر مدريد** السعيد الذكر... كما تبيّن لهم أنّ تأخر شامير كان لاختراع مبدأ مختلف عن **«السلام مقابل الأرض»** اتفق مع أعوانه على مواجهة المؤتمرين به وإحباط آمالهم وآمال جيمس بايكر، هو **«السلام مقابل السلام»** الذي لا يزال الى اليوم - بالرغم من قرار القمة البيروتية سنة **٢٠٠٢** ومبادرة الملك عبدالله بن عبد العزيز الشهيرة **- الخنجر الذي وضعته إسرائيل في حلق العرب وحكامهم**، إن لفظوه جرحهم وإن بلعوه جرحهم... حتى يقضي الله أمراً كان مفعولا (!!!).

إنه مثل واحد من أمثلة لا عدّ لها ولا حصر، تشهد بآفة الاستعجال والتسرّع غير المضمون ولا المحتسب العواقب في مختلف الشؤون العامة، يضاف اليها نَفَس قصير في التعامل مع القضايا المصيرية **يشبه نَفَس الخيل العربية الكثير المنقطع** دون صبر الإبل وأنفاسها المديدة الدائمة في ولوج المفازات المستصعبة والآفاق البعيدة، حتى لكأن العرب **فقدوا الحيلة التي كانوا أبرع**

الأمم في احترافها، وقد عرفت عندهم **بحسن التخلّص**، وبراعة الانتقال من حال الى حال في المناسبات المختلفة، على ما يقول الحريري صاحب المقامات على لسان بطله الأسطوري الحارث بن همّام:

لَبِستُ لكلِّ زمانٍ لَبُوسَا   وعاينتُ حالَيْهِ نُعمى وبُوسَا
فعندَ السراةِ أُديرُ الحديثَ   وعندَ النَدامى أُديرُ الكؤوسَا

ومن طرائف حسن التخلّص أن والي حماة عندما علم أن أبا العلاء المعرّي الأعمى وضع كتاباً باسم «**أخوات البيّنات**» يعارض فيه القرآن، أضرم ناراً عظيمة واستحضر المعرّي **لإحراقه فيها مع كتابه** والنسخ القليلة عنه. فلما مثل المعرّي بين يديه قال له بمنتهى الخبث «ألا ترحمني رحمك الله؟؟ أتخالف قوله تعالى في كتابه المبين: ليس على الأعمى حرج؟!! ألا تخاف الله ربّ العالمين؟!» **فرقّ له قلب الوالي وأطلق سراحه!!**

ولا بدّ أن نتساءل في سياق هذا البحث عن ظاهرة نسيها العرب كلياً مع الأسف الشديد بعدما اعتمروا القبّعة الأجنبية وتناهى بهم شطط الفكر الى نسيان ما يعرف عندهم في اللغة «بجواز الوجهين»، وهو ضرب من ضروب الحكمة المستسّرة التي قلّما تميزت بها أمّة من أمم الأرض.

فعلى صعيد اللغة يندر ألّا يكون لفعل من الأفعال وجهان أو أكثر بمجرّد تبديل عين الثلاثي. ففعل عَلِمَ مثلاً بكسر اللّام يعني أخذ المعرفة. وعَلَمَ بفتح اللّام يعني وضع علامة! وعَلُمَ بضمّها يعني صَعِدَ الجبل! ولو أخذنا أي فعل آخر مثل دَرَسَ بفتح الراء،

فيعني ذهب وأمَّحى كما يقال «الطلل الدارس»، أي الزائل، ويعني أيضاً الخبر الذي طُمِسَ، والثوب الذي بَلي، أو يعني مزاولة الرياضة وممارستها، وكذلك الإقبال على الكتاب وحفظه وقراءَته بإنعام نظر، ومنه المدرسة والدراسة الخ. . . ، ودَرَسَ الذنوب يفيد من جهة أخرى، معنى اقترافها، ودرس الحنطة لفصلها عن التبن، يضاف الى ذلك معانٍ واشتقاقات تحتاج الى صفحات لتبيان معانيها! وقس على ذلك في الكثرة الساحقة من الأفعال والأسماء التي تحتمل أوجها عدّة في لسان العرب وكنوز لغتهم، وذلك تبعاً لتبديل حركة عين الفعل أو عدم تبديلها أحياناً.

كذلك يختلف معنى بعض الأفعال باختلاف أدوات تعدّيها، بل يؤدي معنى عكسياً مناقضاً. فلو أخذتَ مثلاً فعل رَغِبَ متعدياً بالحرف «في» وقلتَ «رغب في الشيء» تعني أراد الشيء وأحبّ الحصول عليه. لكنك لو جعلته متعدياً بالحرف «عن» وقلت «رغب عن الشيء» فإنك تعني رفض الشيء وتحويل وجهك عنه. وينطبق هذا الوضع الصرفي على عدد كبير من أفعال العربية، وهو أمر يصعب أن نجده في أي لغة أخرى.

ثم أن هنالك أفعالاً تفيد المعنى وعكسه لزوماً بدون أداة التعدّي، من مثل «شاه»، فيقال: «شاهت العُنقُ شَوَهاً» أي طالت، وفي الوقت نفسه قصرت! أو «بان» فيقال: «بان الجمع» أي ظهروا، وكذلك اختفوا! أو «هان» بمعنى سهل، و«هان» بمعنى ذلّ! أو «دان» بمعنى خضع، ودان بمعنى آمن! ثم «شرى» بمعنى باع، و«باع» بمعنى شرى أي عكسه تماماً، أو أخيراً لا آخراً «جارَ»

فيقال: «جار جَوْراً» بمعنى ظلم، «وجار جواراً» أي «طلب الجوار والغوث»! وغير ذلك ممّا يتعذر تعداده.

وجواز الوجهين الذي ينطبق على بعض أفعال اللغة ينطبق في قياس آخر على أفعال الحياة ويومياتها، فتُحمل بين المعلَن والمُضمر على معانٍ مختلفة كان الأوائل بارعين في تأديتها على وجه مفيد يؤمّن المخارج المعقولة من المآزق المحرجة.

ومن المؤسف أن يكون العرب في هذا الأوان الهازل والزمن العصيب قد فقدوا **الأساليب الاحتيالية البريئة والأحابيل الاحترافية الذكية** في درء القوة الباغية ومواجهة الظروف الضاغطة، كما فقدوا العديد من سجايا النفس الكابرة. فإذا بالشيوخ والأطفال والنساء يقتلون غدراً ويجري التمثيل بهم في ديارهم، دون أن يطرف جفن لحاكم، أو تثور ثائرة لقائد، **أو ينطق بأضعف الإيمان شاعر!** يوم قتل الطفل محمد الدرّة في حضن أبيه على قارعة الطريق، وقتل بعده الشيخ القعيد أحمد ياسين وغيرهما المئات بل الألوف من الضحايا والشهداء الفلسطينيين، قلت لا بدّ أن تدبّ حماسة الانتقام في القلوب الخشبية التي تهتزّ دون أن تخفق، لكنه خاب ظنّي!!.. **فأين نحن اليوم من عهد الاستعمار وبطشه** في الأمس القريب عندما اهتز العالم العربي من أقصاه الى أقصاه لتنفيذ الطليان حكم الإعدام بالشيخ السَنوسيّ المجاهد أسد الصحراء عمر المختار، إذ ألقوه حياً مكبلاً بالقيود من الطائرة؟! وقد خلّد أحمد شوقي تلك الحادثة الهمجية المتوحشة بقصيدة لا تزال أصداؤها تتردّد

الى اليوم في أعماق الشباب العربي حيث يقول:

أسدُ البداوةِ لم يكنْ يغزو على «طَنْكٍ» ولم يكُ يركبُ الأجواءَ
لكنْ أخو خيلٍ حمى صَهَواتِها وأدارَ من أعرافِها الهَيجاءَ
تسعونَ لو ركبتْ مناكِبَ شاهِقٍ لترَجَّلَتْ هَضَباتُهُ إعياءَ
والسنُّ تُعطِفُ قلبَ كلِّ مهذَّبٍ عرفَ الجدودَ وأدركَ الآباءَ

وما كانت الإعاقة مهما تَطغَ أو تُربِكْ، لِتؤثّر في عزيمة العربي الذي يقتحم الأهوال وينهض الى الجلّى غير مكترث للخطر المحدق أو عابئ بالهلاك. فكل ذي عاهة جبار... ويا للفارق المعيب بين المقيمين مع أشباح الهموم وذكريات الهزائم من القادة العرب المعاصرين الذين يصدأون يوماً بعد يوم في صحبة أسلحتهم المكدّسة، وبين ذلك العزم الوطيد المارد الذي دفع أبو عبيدة بن الجرّاح **الى خوض معركة القادسية وهو مصاب بشلل نصفي لا يقوى على الحركة أو القيام على قدميه**، بل يجلس على محمل، ثم ينتصر في تلك الوقعة القطبية من تاريخ الإسلام، حتى مثل بين يديه قائد الجيش الفارسي رستم وقال: «**كانت فرسي عرجاء في هذا اليوم المشؤوم، فغلبتموني وبت أسيراً بين يديكم!**» فأجابه أبو عبيدة فوراً: «**فرس عرجاء قادت فارسها الى الهزيمة... فما قولك بفارس أعرج قاد أفراسه الى النصر؟!**»

ولعل **البلاء الأكبر** الذي حلّ بالعرب وقد ذهبت ريحهم، هو التوجّس والخوف والشعور الوهمي بجرم لم يرتكبوه وذنب لم يقترفوه، حتى لقد غدوا من فرط هذا التوجّس المرضي الضاغط **أشبه بالظنين البريء** الذي يرتجف من ذاته وطول أذاته، فيعترف

أنه المسؤول عن ارتكاب الجرائم الإرهابية **وهو أبعد ما يكون عنها،** ويسلّم مع جلّاده الحاقد الظالم، أنه زارع الشرّ، وهو الطيب القلب الطاهر الوجدان، فيحصد الانتقام والتنكيل بعد الاتهام والتحامل والتضليل، وينتهي به الأمر **الى تصديق ما ينسب اليه،** وتكذيب نفسه في ذلّة واستكانة عن كلّ ما يتعرّض له من نكبة ومهانة! . .

فالراديكالية الدوغماتية الإرهابية التي يرجمون بها العرب والمسلمين اليوم، دون أي تمييز بين السلفيين المتعصبين والمحافظين المتسامحين، أو بين ما يعرف بالتديُّن - وهو لا يعدو كونه التزاماً بالصراط الخلقي والروحي المستنير الحافظ لتراث الأمة وعقيدتها - وما يسمّى «بالأصولية» الداعية **الى السفك والعنف وتجاوز حدّ الله** في ازدراء عياله واستباحة أرزاقهم وأعراضهم ودمائهم! . . هذه الراديكالية الدوغماتية التي اتفقوا اليوم **على تعريفها «بالإرهاب»،** إنما هي **التجسيد الحقيقي للمبادئ الاقتحامية الافتراسية النازية** التي لا تختلف عنها **«الصليبية المتجدّدة»** المنفردة بتقرير المصائر الإنسانية، والتي تعتبر في رأي المؤرخين الثقات مزيجاً من **الكراهةالعنصرية الدهرية العائدة** الى زمن الحيوانية السابق لتاريخ الأديان، والتي ينسبونها الى المسيحية افتراءً وتشويهاً وتزويراً بهدف **خلق الصدام الإفنائي الإبادي بين مسيحيين بالإسم في الغرب** ملحِدين وملحَدين وجودياً وعقائدياً، **وبين بعض المسلمين المتخلفين** الذين لا يفقهون من حقيقة الإسلام شيئاً!!

كلّ ذلك لكي يؤمّنوا السيطرة المطلقة على القوى العظمى وإقناعها بصراع مبيّت لدى الحضارات المتنوعة **يرمي الى افتراس بعضها بعضاً**، فيكون للأقوى نصيب البقاء من خلال إفناء الآخر!.. ومتى كانت الحضارات **مجموعات حيوانية تتناهش فيما بينها؟!** وهل يحق لأي منها أن يحمل في ضميره المختل وعقله المعتوه وثيقة الانتماء الى حضارة ما، مطلق حضارة؟! وهل تكون حضارة من النوع الموصوف على هذا الصعيد أكثر من **نادٍ للوحوش من عجائب المخلوقات** المتبارية في غسل أضراسها بدماء الأبرياء؟!!

المؤامرة المستمرة والمعرفة المتردّدة

ولكي نجمل ذكر التحديات التي تواجه الأمة العربية في الأوان العصيب الذي تمرّ به اليوم، لا بدّ لنا في ختام هذا الأثر الذي وقفناه على خصائص النفس العربية وآلائها الخارقة واتساع مداها في أفق الحضارة الإنسانية، من حصر تلك التحديات في **ظاهرتين اثنتين** يتعيّن الاهتمام الجدّي بمكافحتهما والعمل المتواصل في سبيل التغلب عليهما **واقتلاعهما جذرياً من طريق الحياة العربية المتجدّدة**، لاسيما وإنهما غير أصيلتين، بل طارئتين بفعل اختلاف الزمن وأهله والعوامل الانقلابية للوجود العربي في العصور الخوالي على كلّ صعيد، وخصوصاً بداية القرن الحادي والعشرين. **الأولى تتصل «بعقلية المؤامرة» والثانية «بفوضوية المعرفة»**.

عقلية المؤامرة

أمّا عقلية المؤامرة، فقد دخلت على النفس العربية من باب الصراع المفتوح الذي يستحيل التكهن بإغلاقه في مستقبل منظور... صراع بين **الساحة العربية المكشوفة والمستنقعة دهرياً، والقلعة الصهيونية المانعة والمحروسة عصرياً**. فإنّ أهم المكاسب التي حققتها الدولة العبرية خلال ما يناهز الستين عاماً لا يتمثل فقط باحتلال الأرض وتحقيق الانتصارات العسكرية والتفوق الإداري والعلمي والاقتصادي والتكنولوجي الذي يتلقى دعماً متواصلاً غير محدود ولا منقطع من أعظم القوى العالمية، **بل يتمثل فوق ذلك بإفقادنا الشعور بالأمان والطمأنينة والسلامة والاستقرار**، وترسيخ اعتقادنا الجازم بأننا مستهدفون «**بالمؤامرة الكبرى**»...

ولا شك في أن النفس العربية التي تقبع في غرفة العناية الفائقة منذ ألف سنة من مكابدة الانحطاط والتهافت والضياع، **هي موضوع قابل لعقلية التآمر سلباً وإيجاباً** من منطلق مبدأ أن «**وراء الأكمة ما وراءَها**»! فقد غالبوا المجهول المتمثل بالطبيعة القاسية القاهرة وعناصرها البشرية المتوحشة الهمجية ردحاً طويلاً من الدهر في زمن بداوتهم أيام الجاهلية الجهلاء، وغلبوه... لكنهم ما أن خرجوا برسالة الإسلام فاتحين من عمق الصحارى وبدأت حياتهم بالاستقرار في دولة منيعة ومجتمع مدني آمن متماسك ينعم بالكفاية والرخاء، **حتى بدأ التآمر من جانب الأمم التي قهروها يتربص بهم الدوائر**، وخير

من عبّر عن ذلك **نصر بن سيّار** والي الأمويين على خرسان الذي كتب الى مروان بن الحكم الخليفة الأموي في دمشق سنة ٧٤٥م. (١٣١هـ.) يقول:

أرى خَلَلَ الرمادِ وميضَ نارٍ ... ويوشكُ أَنْ يكون لها ضِرامُ
أقولُ من الفُجاءَةِ ليتَ شعري ... أأيقاظٌ أميَّةُ أَمْ نيامُ؟!

ومنذ تلك المرحلة التأسيسية لقيام الأمبراطورية العربية، تضافرت سعايات الشعوبية الفارسية الرومية، ودسائس اليهود الذين كانت لهم اليد الطولى في بذر الشقاق ودعم الانقسامات الحزبية بين قبائل دخلت العالم الحضاري القديم حاملة معها حزازات الجاهلية، وذلك بهدف **استئصال الأمويين ثم العباسيين شرقاً وغرباً**. وتواصلت الهجمة التآمرية أكثر من اثني عشر قرناً، بأدوات الروم والفرس، ثم الترك والتتر والسلاجقة والمغول والمماليك والفرنجة والجرمان والصليبيين والعثمانيين، وأخيراً الاستعمار والصهيونية، بحيث لم يترجل الفارس العربي شهراً واحداً ولا سنة أو عقداً واحداً من الزمن، عن صهوة جواده، وكان ينتقل عبر تلك الحقب المتوالية **من حرب الى حرب** وفي عنقه قلادة كتب عليها الحديث الشريف: **«إذا ذلّت العرب ذلّ الإسلام»**(٢٣٣)

وقد عملت الشعوبية التي نشات في الشرق على إذلال العرب دائماً، حتى تحوّلت بتوالي الزمن وحدثانه الى **حملات صليبية**

(٢٣٣) صحيح أخرجه أبو يعلى عن جابر بن عبد الله.

جاءَتهم من الغرب لإذلالهم أيضاً، وعرفت في قاموسهم بحملات الفرنجة التي انطلقت سنة ١٠٩٦م. بتحريض من داعية ملتبس الجذور يعرف ببطرس الناسك، ورعاية من البابا أوربانوس الثاني، وقيادة غودفروا دي بويون، فاجتاحت في حملتها الأولى تلك مدينة القسطنطينية والمدن البيزنطية في الأناضول، ودمّرتها تدميراً شبه كامل بكاتدرائياتها وكنائسها ومناسك أديارها وصلبانها، وخلفت وراءَها عشرات الألوف من الضحايا، تاركة في كيان المسيحية شرخاً عميقاً يصعب ترميمه بين أتباع الكنيسة الشرقية وكنيسة روما.

ثمّ خاضت معارك لا تشرّف أصحابها الذين أكلوا لحوم الأهالي في مدينة المعرّة وتمكنوا من دخول اورشليم القدس التي نالت هي أيضاً نصيبها من الدمار ونال أهلها نصيبهم من السفك الذي قلّما عرف التاريخ له مثيلاً.(٢٣٤)

وعلى أنه من المتعذر هنا ايراد التفاصيل المذهلة والنادرة التي رواها المؤرخون من وقائع الحروب الصليبية في هذه المنطقة الحضارية العريقة، إلّا أننا نشير تأكيداً وجزماً بأنّ تلك الحروب التي توالت في ثماني حملات عسكرية بين عامي ١٠٩٦م. و١٢٧٠م. تركت جراحاً عميقة لا تمحّي في النفس العربية لا تزال ارتداداتها متواصلة الى اليوم. ولم يتمكن الفتح العثماني بعد ذلك، منذ سقوط القسطنطينية

---

(٢٣٤) راجع «الصليبيون كما يراهم العرب» تأليف أمين المعلوف (بالفرنسية)
(Amin Maalouf - Les Croisés vus par les arabes -Ed. J.C. Lattés- Paris, 1983)

سنة ١٤٥٣م، على يد السلطان محمد الفاتح، وحتى بدء انهيار الأمبراطورية في أواخر القرن الثامن عشر خلال حكم عبد الحميد الأول وسليم الثالث... **أن يعوّض ما أصاب العرب من إذلال**، لاسيما وأن رعايَتهم من جانب دولة إسلامية هي السلطنة العثمانية لم تكن رعاية صالحة، **فبدأت كوامن الأحقاد العربية ضدّ الأتراك تظهر تدريجياً** بمساعدة الدول الأوروبية الساعية الى إزالة «**الرجل المريض**»، وهو اللقب الذي تعوّد السفراء الأوروبيون إطلاقه على الأمبراطورية العثمانية وسلطانها في الاستانة خلال التقارير التي يبعثون بها الى دولهم، وذلك في سياق ما عرف إعلامياً وتاريخياً طيلة القرن التاسع عشر «**بالقضية الشرقية**»، **حتى كان زوال السلطنة والخلافة** بعد الحرب العالمية الأولى في الربع الأول من القرن العشرين.

كلّ هذا التاريخ الذي يؤلف **ملحمة سوداء** في حياة الأمة، عمل الى أبعد مدى على ترسيخ روح المؤامرة وعقدة المؤامرة في النفس العربية، حتى أصبح العرب اليوم وقد حصلوا على استقلالهم وأنشأوا الدول المانعة بإمكاناتها الاقتصادية ومستواها الحضاري الواعد، يمشون الى الأمام **ويحدّقون بالعيون الخلفية الى ما وراء الأكمة!** وقد يزول العرب من العالم دون أن تزول «**عقدة المؤامرة**» مع الأسف، من عمق ضمائرهم وعقولهم وتتقلّص غمتها الجاثمة على صدورهم! ومن غريب المفارقات التاريخية، أنه كلّما نزع العرب الى نسيان كارثة من الكوارث التي

حلت بهم في مرحلة هدانة بين حربين، **جاء تصرّف بعض المقامات** الدينية والمدنية في معسكرات أعدائهم تحفزهم على الاعتقاد الراسخ باستمرار المؤامرة **في أزياء وقيافات وأقنعة شتى**، من مثل ما حدث بعد انتصار السلطان صلاح الدين الأيوبي وجلاء الصليبيين عن الشرق...

فقد تخلق الأمبراطور الجرماني العظيم فرديريك دي هوهانستوفن (Hohenstaufen) صاحب صقلية يومذاك بالأخلاق العربية وكان يجيد اللغة العربية وينظم الشعر فيها، كما أقام علاقات صداقة متينة **مع السلطان الكامل الأيوبي** وأمّن بتحالفه معه سيطرة مطلقة للعرب والجرمان على صعيد الملاحة في البحر المتوسط. ويجدر التنويه بأن تلك الصداقة سمحت **بتتويج الأمبراطور الجرماني في كنيسة القيامة وعقد قرانه** على الأميرة يولاند دي بريان (Yolande de Brienne) **في ظلّ الحكم الإسلامي الذي كان قد استتّب للأيوبيين في بيت المقدس**. ولكن التحالف بين السلطان الكامل والأمبراطور هوهانستوفن الذي يعتبر أول تعاون سلمي حواري بين الإسلام والمسيحية في التاريخ، لم يرُق للبابا الذي حكم على فريدريك **بالحرم الكنسي** بعد معاهدة يافا التي عقدها مع الكامل سنة **١٢٢٩**م.[٢٣٥] وعادت الحروب الصليبية سيرتها في الحملتين السابعة والثامنة اللتين ختمتا بالهزيمة النهائية والجلاء.

---

(٢٣٥) أنـظـر: (Benoist Mechin - Frederic de hohenstaufen ou le Rêve excommunié : Ed. Librairie Académique Perrin - Paris 1980)

.. وفوضوية المعرفة

وأمّا فيما يتعلق بمفهوم **المعرفة** العربي التقليدي الفوضوي، فلا بدّ من الاستغناء عنه، باستثناء مجالس الحديث العارض والمذاكرة العمومية، لأنه عائد الى القرون الوسطى، ويتمثل «**بالصفة المسكونية الكونية**». كأن يكون العارف ملماً بطرف أو جزء من كلّ علم، **ولا يختص بعلم واحد**، وهو أمر شائع بأوساط العارفين أو الذين تطلق عليهم تسمية **أنصاف المتعلمين، ولا يقال العلماء**... لأن العلم اختصاص محدّد في حين أن الثقافة أو المعرفة إلمام موزع في شتات من المعطيات والمعلومات.

والواقع أن الكمية الهائلة المتواصلة من الاختراعات في مختلف ميادين العلوم التطبيقية والتقانة الالكترونية الحديثة أدت لدى عامة المثقفين، وحتى العلماء الذين يمرون في المرحلة الابتدائية من التحصيل العلمي المختصّ، **الى حالة استلحاقية دائمة**، فيأخذ هؤلاء من كلّ مادة علمية عيّنة متيسّرة بصدفة المطالعة كيفما اتفق، حتى ليحسب من يستمع اليهم وهم يخوضون في بحث مسألة من المسائل المطروحة للمناقشة، أنه **يصغي الى «فهارس بشرية»** متنقّلة، إن جاز التعبير. ولو تعين أن يخوض أحدهم مثلاً في موضوع **النسبية الفيزيائية** لأورد في سياق الحديث اسم صاحب تلك النظرية آلبير أنشتاين، **وأسماء خمسين ممن سبقوه أو أعقبوه** من الفلاسفة والرياضيين المعنيين بالنسبية، دون أن يعرف تحديدها العام أو كيفية مساهمة هؤلاء في ابتكارها مع صاحبها انشتاين... كما أنه لو قيض لآخر أن يتحدث في

الشعر السوريالي، لغاص في لجج التسميات والاجتهادات النقدية لهذا النوع من الشعر، دون أن يعرف ما هي السوريالية وقيمتها الجمالية ومنزلتها الحقيقية في المذاهب الشعرية الحديثة الخ . . .

لقد آن الأوان **لكي يستردّ العرب مكانتهم** التي كانوا يتمتعون بها في القرون الوسطى **على صعيد العلم الصحيح** واختصاصاته وانجازاته المدهشة، فهو السبيل الوحيد لضمان وجودهم ومستقبلهم في موكب الحضارة. كما يترتب عليهم واجب أساسي وهو الاسهام في ردّ العلم الى منتجع الخلق الطبيعي المؤمن والإنسانية الحقة، بما فطروا عليه من عبقرية النفس المتجردة، وسلامة الوجدان الحافظ للمحبة والصفح والرحمة والتسامح، مع الاحتراز البصير **بحصانة القوة العادلة**.

فالعلم الكابر المستكبر قد طغى وبغى وتجبّر بالكشوف والانجازات الخارقة على النظم الروحية والقيم الخلقية **وعاد بالإنسان الى كهوف الحيوانية مسلوب الإرادة**.

أرصاد هذا النوع من العلم قضت على السرّ وأشبعت رغائب الغريزة فأماتت الشوق والفرح والدهشة والعجب، كما بدّلت مفهوم الحرب **فوأدت معنى البطولة والشهادة والفداء**.

كلّ صعب جعله العلم المغرض الهدّام طوع البنان **فمنع الإنسان فضيلة الصبر**، وكلّ سهل مهّده للمتعة **فقتل العفة وأباح الشهوة** والشراهة والإدمان.

هذا النوع المنحرف من العلم **أخرج الله من السرائر والحبّ**

من القلوب، ودفن الحرّية في مقبرة واحدة مع الاحترام، وسخّر الحق والعدل للمال والسلطان والطغيان. ولا شك أن ما أنجزه العلم الصحيح في القرن الماضي خارق وعظيم في حد ذاته، لكنه استخدم بلا وازع ولا رقيب ولا ضمير، فابتلى العالم بحروب كونية أراقت الدماء أنهاراً، وأصاب البيئة بالتلوث والريف باليباب، وأباد السلالات النادرة في البحر والبر والجو، وسخّن مناخ الأرض، ومزّق عفاف غلافها الواقي من لهيب الشمس، وبدأ يستنسخ الأحياء من الأحياء ليخلق من الشبه ملايين!..

وعلى النفس العربية في هذا المفترق الخطير من ازدهار الحضارة الذي يحمل في تقاطعه جرثومة الانتحار أن تذكّر أهل العلم والعزم والهمّ بقول الإمام عليّ: «ما أصف من دار أوّلها عناء وآخرها فناء...» فليقابلها الإنسان على الأقلّ، ببعض ما وهبه الله من سعادة الفرح ونعمة الابتسام.

بعونه تعالى تمّ تدوين هذا الأثر في ٧ حزيران (يونيه) سنة ٢٠٠٦ ميلادية، الموافق ١١ جمادى الأول سنة ١٤٢٧ للهجرة.

مراجع الكتاب

المصادر العربية

- آل سعود، الأمير عبد الله الفيصل : ديوان «وحي الحرمان» - دار المعارف - القاهرة - ١٩٥٤
- آل نوري، عبد الله : «الأمثال الدارجة في الكويت» - طبعة بيروت.
- الأبشيهي، شهاب الدين محمد بن أحمد : «المستطرف في كلّ فنّ مستظرف» - طبعة القاهرة، ١٣٦٨هـ.
- الأزرقي، أحمد : «أخبار مكة» - ليبزيغ، ١٨٥٨.
- الأصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسين : كتاب «الأغاني» - دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت.
- إبن أبي طالب، الإمام علي : «نهج البلاغة» - جمعه السيّد الشريف الرضي - شرح الشيخ محمد عبده - المطبعة الأدبية - بيروت، ١٣٠٧هـ.
- إبن بشر، الشيخ عثمان بن عبد الله النجدي الحنبلي : «عنوان المجد في تاريخ نجد» - دار صادر- بيروت، ١٣٨٧هـ.
- إبن خلدون، عبد الرحمن : «مقدمة كتاب العبر في تاريخ العرب والعجم والبربر» - دار الكتاب العربي - بيروت.

- ابن خميس، محمد عبد الله : «الأدب الشعبي في جزيرة العرب» - الرياض - ١٣٧٨هـ.

- ابن عبد ربّه، أحمد : «العقد الفريد» - القاهرة، ١٩٣٥.

- إبن قتيبة، أبو محمد عبدالله : «الشعر والشعراء» - طبعة ليدن، ١٩٠٢.

- ابن المقفّع، عبد الله : «كليلة ودمنة» - دار المشرق - بيروت، ١٩٨٦.

- ابن منظور، جمال الدين محمد : «لسان العرب» دار صادر - بيروت، ١٩٩٢.

- ابن منقذ، أسامة : «كتاب الاعتبار» - تحقيق فيليب حتي - مطبعة جامعة برنستون، الولايات المتحدة، ١٩٣٠.

- ابن هشام، أبو محمد عبد الملك : «السيرة النبوية» - دار الجيل - بيروت.

- أبو تمّام، حبيب بن أوس الطائي : «الديوان» - شرح شاهين عطية- بيروت، ١٩٦٨.

- أبو تمّام، حبيب بن أوس الطائي : «ديوان الحماسة» - القاهرة، ١٣٣٥هـ.

- أدهم، علي : «الجمعيات السرّية» - دار المعارف- القاهرة، ١٩٥٤.

- ألف ليلة وليلة : طبعة دار صادر - بيروت، ١٩٩٩.

- أمين، أحمد : «فجر الإسلام» - القاهرة، ١٩٥٠ ـ ١٣٧٠هـ.

- أمين، أحمد - ومحمود، زكي نجيب : «قصة الفلسفة اليونانية» - القاهرة، ١٩٤٩.

- البحتري، أبو عبادة : «الديوان» - دار بيروت للطباعة والنشر، ١٩٨٣.

- البحتري، أبو عبادة : «ديوان الحماسة» - القاهرة، ١٩٢٩.

- البستاني، بطرس : مجموعة «أدباء العرب» - دار مارون عبود - بيروت، ١٩٧٩.

- البستاني، بطرس : «الشعراء الفرسان» - دار المكشوف - بيروت، ١٩٦٦.

- البستاني، سليمان : «مقدمة تعريب الإلياذة» - دار المعرفة - بيروت.

- البستاني، فؤاد أفرام : مجموعة «الروائع» - دار المشرق - بيروت، ١٩٨٦.

- بليايف : «العرب والإسلام والخلافة» - تعريب أنيس فريحة - الدار المتحدة للنشر - بيروت، ١٩٧٣.

- تفسير الجلالين للقرآن الكريم : طبعة دار الجيل - دمشق، ١٩٩٥- ١٤١٥هـ.
- الجاحظ، أبو عثمان : «البيان والتبيين» - دار الفكر للجميع - بيروت، ١٩٦٨.
- الجاحظ، أبو عثمان : «كتاب الحيوان» - المطبعة الحميدية - القاهرة، ١٩٠٤.
- الجُمحي، محمّد بن سلّام : «طبقات فحول الشعراء» شرح محمود محمد شاكر- دار المعارف- القاهرة، ١٩٥٢.
- الجهيمان، عبد الكريم : «الأمثال الشعبية في قلب جزيرة العرب» - دار أشبال العرب- الرياض، ١٣٩٩هـ.
- حتّي، فيليب : «خمسة آلاف سنة من تاريخ الشرق الأدنى» جامعة برنستون، الولايات المتحدة، ١٩٦٠.
- حسين، طه : «من حديث الشعر والنثر» - دار المعارف- القاهرة، ١٩٣٦.
- حسين، طه : «حديث الأربعاء» - دار المعارف- القاهرة، ١٩٥١.
- حسين، طه : «في الأدب الجاهلي» - القاهرة، ١٩٣٣.
- حمّور، عرفان محمد : «سوق عكاظ ومواسم الحجّ» - مؤسسة الرحاب الحديثة- بيروت، ٢٠٠٠.
- حمّور، عرفان محمد : «مواسم العرب الكبرى» - مؤسسة الرحاب الحديثة- بيروت، ١٩٩٩.
- حمّور، عرفان محمد : «قواعد الأمن في المجتمعات العربية القديمة» - مؤسسة الرحاب الحديثة- بيروت، ٢٠٠٠.
- حمّور، عرفان محمد : «المواسم وحساب الزمن عند العرب قبل الإسلام» - مؤسسة الرحاب الحديثة- بيروت، ٢٠٠٠.
- حمّور، عرفان محمد : «المرأة والجمال والحبّ في لغة العرب» - مؤسسة الرحاب الحديثة- بيروت، ١٩٩٨.
- الحموي، ياقوت بن عبد الله : «معجم البلدان» تحقيق فريد بن عبد العزيز الجندي دار الكتب العلمية - بيروت.
- الحموي، تقي الدين بن حُجّة : «ثمرات الأوراق في المحاضرات» - القاهرة، ١٣٦٨هـ.

- الحوت، محمود سليم : «في طريق الميثولوجيا عند العرب» - دار النهار للنشر- بيروت، ١٩٨٣.
- خان، محمد عبد المعيد : «الأساطير العربية قبل الإسلام» - القاهرة، ١٩٣٧.
- خباز، حنّا : «جمهورية أفلاطون» - دار التراث - بيروت، ١٩٦٩.
- الخدّوري، مجيد : «الحرب والسلم في شرعة الإسلام» - الدار المتحدة للنشر - بيروت، ١٩٧٣.
- خيرالله، شوقي : «قرطاجة، العروبة الأولى في المغرب» - منشورات «المركز العلمي» - بيروت، ١٩٩٢.
- الدُمَيْري، محمد بن موسى : «حياة الحيوان» - المطبعة الميمنيَّة - القاهرة، ١٣٠٥هـ.
- الدواليبي، محمد معروف : «قلعة طروادة التاريخية وصلتها بالهجرات العربية القديمة الى أوروبا» - مكتبة لبنان - بيروت، ١٩٦٤.
- رحّال، الأرشمندريت الياس : «فسخ الزواج لصالح الإيمان والإنسان» - بيروت، ٢٠٠١.
- رستم، أسد : «الروم وصلاتهم بالعرب» - منشورات المكتبة البولسية» - بيروت، ١٩٨٨.
- رستم، أسد : «كنيسة إنطاكية العظمى» - منشورات المكتبة البولسية» - بيروت، ١٩٨٨.
- زعيتر، عادل : «مفكرو الإسلام» - الدار المتحدة للنشر - بيروت، ١٩٧٩.
- الزمخشري، محمود بن عمر : «أعجب العجب في شرح لامية العرب»- الأستانة، ١٣٠٠هـ.
- زيدان، جرجي : «العرب قبل الإسلام» - مراجعة د. حسين مؤنس - دار الهلال القاهرة، ١٩٦٢.
- زيدان، جرجي : «تاريخ التمدن الإسلامي» - دار الهلال - القاهرة، ١٩٣٥.
- ستانلي لين بول: «قصة العرب في إسبانيا» - تعريب علي الجارم - القاهرة، ١٩٤٤.
- الشّبلي، بدر الدين : «آكام المرجان في أحكام الجان» - القاهرة، ١٩٠٨.

- الشريف الرضي، محمد بن الحسين : «البيان في مجازات القرآن» - تلخيص وتحقيق محمّد عبد الغني حسن - دار إحياء الكتب العربية - القاهرة، ١٩٥٥.
- الشهرستاني، أبو الفتح محمد : «الملل والنحل»- القاهرة، ١٣٢٠هـ.
- شوقي، أحمد: ديوان «الشوقيات» - مطبعة الاستقامة - القاهرة، ١٩٥٠.
- شيخو، الأب لويس اليسوعي : «شعراء النصرانية قبل الإسلام» - دار المشرق بيروت، ١٩٨٦.
- شيخو، الأب لويس اليسوعي : «النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية» - دار المشرق - بيروت، ١٩٨٦.
- شيخو، الأب لويس اليسوعي : «مجاني الأدب في حدائق العرب» - دار المشرق بيروت، ١٩٨٣.
- الشيرازي، محمد المهدي الحسيني : «عبادات الإسلام» - دار الصادق - بيروت.
- الصباح، هداية سلطان السالم : «المقاصد في نوازع العرب وسجاياهم».
- صفوت، أحمد زكي : «عمر بن عبد العزيز» - سلسلة «إقرأ» - دار المعارف- القاهرة، ١٩٤٨.
- الصليبي، كمال : «التوراة جاءَت من جزيرة العرب» - مؤسسة الأبحاث العربية بيروت، ١٩٨٥.
- الصليبي، كمال : «البحث عن يسوع» - دار الشروق للنشر والتوزيع - بيروت، ١٩٩٩.
- الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير : «تاريخ الأمم والملوك» - دار الكتب العلمية بيروت، ٢٠٠١.
- طلاس، العماد مصطفى : «ديوان العرب» - دار طلاس للنشر - دمشق، ١٩٩٥.
- عبد النور، جبور : «الجواري» - سلسلة «إقرأ» - دار المعارف- القاهرة، ١٩٤٧.
- «العربي»، المجلة الكويتية : العدد ٥٣٣، سنة ٢٠٠٣، والعدد ٥٦٤، سنة ٢٠٠٥.
- العقاد، عباس محمود : «الله» - دار الهلال - القاهرة.

- العقاد، عباس محمود : «حقائق الإسلام وأباطيل خصومه» - دار الكتاب العربي بيروت، ١٩٦٦.

- العقاد، عباس محمود : «المرأة في القرآن» - دار الكتاب العربي - بيروت، ١٩٦٧.

- العلايلي، الشيخ عبد الله : «مقدّمات لفهم التاريخ العربي» - دار الجديد - بيروت، ١٩٩٤.

- القارئ، جعفر أحمد بن الحسين : «مصارع العشاق» - دار صادر - بيروت.

- القرآن الكريم : طبعة مجمّع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنوّرة.

- القرشي، أبو زيد : «جمهرة أشـعار العـرب» - دار بيروت للطبـاعة والنشر - ١٩٨٤.

- القزويني، زكريا : «عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات» - المطبعة الميمنيَّة القاهرة، ١٣٠٥هـ.

- القشيري، عبد الكريم : «التحبير في التذكير» - حول صفات الله الحسنى - تحقيق إبراهيم البسيوني - القاهرة، ١٩٦٢.

- القلعجي، قدري : «صلاح الدين الأيوبي» - دار الكتاب العربي - بيروت، ١٩٦٦.

- الكتاب المقدّس : «التوراة - الإنجيل - أعمال الرسل» المطبعة الكاثوليكية - بيروت، ١٩٦٠

- الكسائي، علي بن حمزة : «قصص الأنبياء» - طبعة ليدن، ١٩٢٢.

- مبارك، زكي : «العشاق الثلاثة» - سلسلة «إقرأ» - القاهرة، ١٩٤٥.

- المسعودي، أبو الحسن علي : «مروج الذهب ومعادن الجوهر» - دار الرجاء - القاهرة، ١٩٣٨.

- المعرّي، أبو العلاء : «رسالة الغفران» - شرح بنت الشاطئ - دار المعارف - القاهرة، ١٩٥٠.

- المعرّي، أبو العلاء : «لزوم ما لا يلزم» - دار بيروت للطباعة والنشر.

- المغيري، عبد الرحمن بن حمد بن زيد : «الكتاب المنتخب في ذكر قبائل العرب» دار المدني - جدّة.

- المعلوف، شفيق : ملحمة «عبقر» الشعرية - مقدمة عيسى اسكندر المعلوف - منشورات العصبة الأندلسية - سان باولو (البرازيل) ١٩٤٩.

- المعلوف، إميل : «شرح كتاب اللمحات للسهروردي» - دار النهار للنشر - بيروت، ١٩٦٩.

- المعلوف، الفريق أمين : «معجم الحيوان» - دار المقتطف - القاهرة، ١٩٣٢.

- المعلوف، رفيق : مجموعة «مفكرة الأيام» - المكتبة العصرية - صيدا، ٢٠٠٣.

- مؤتمر تاريخ بلاد الشام : «الأعمال الكاملة» - الدار المتحدة للنشر - بيروت، ١٩٧٤.

- الميداني، أحمد : «مجمع الأمثال» تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد - المكتبة العصرية - صيدا، ١٩٩٨.

- النووي، محي الدين يحيى بن شرف : «شرح صحيح مسلم» - المكتبة العصرية صيدا، ٢٠٠١.

- الهاشمي، الملك عبدالله بن الحسين بن علي : «الأعمال الكاملة» - الدار المتحدة للنشر - بيروت.

- الهمذاني، بديع الزمان : «المقامات» شرح فاروق سعد - دار الآفاق الجديدة - بيروت، ١٩٨٢.

- اليازجي، الشيخ ناصيف والشيخ إبراهيم : «العرف الطيّب في شرح ديوان أبي الطيّب» - المطبعة الأدبية - بيروت، ١٣٠٥هـ.



المصادر الإفرنجية

- ***Benoist-Méchin:*** «Frederic de Hauhenstaufen, ou le rêve excomunié» - éd. Librairie Académique Perrin - Paris, 1980
- ***Guy Breton:*** «Histoires d'Amour de l'Histoire de France» - éd. Noir et Blanc - Paris, 1956 - 1965
- ***Pierre Corneille:*** «Le Cid» - éd. Hachette (Nouveaux classiques illustrés - 1976
- ***René Grousset:*** «Le Conquérant du Monde- vie de Gengis-Khan» - éd. Albin Michel - Paris, 1944
- ***G. Ferrand:*** «Le Pilote arabe de Vasco de Gama et les instructions nautiques arabes au XVème sciècle » - Annales de Géographie - N. 127 - 1922
- ***Grégoire de Tours:*** «Chroniques» - Vème siècle - livre IV.
- ***Mézaray:*** «Histoire de France» - 1643
- ***Henri Etienne:*** «Discours merveilleux de la vie, actions et déportements de Catherine de Médicis» - 1649
- ***Dreux du Radier:*** «Mémoires historiques et Critiques et anecdotes des reines et régentes de France» - 1775
- ***Amin Maalouf:*** «Les Croisés vus par les Arabes» - éd. J.C. Lattés - Paris, 1983
- ***Sheila Ostander et Lynn Schrœder:*** «Fantastiques Recherches Parapsychiques en U.R.S.S» - éd. Robert Laffont - Paris, 1973
- ***Arthur Kœstler:*** «La Treizième Tribu-L'Empire Khazar et son héritage» - éd. Calmann-Lévy - Paris, 1976



فهرس



سيرة الكاتب ومؤلفاته

- هو الصحافي الباحث والأديب الشاعر رفيق عيد المعلوف. ولد في كفرعقاب (المتن الشمالي – لبنان) سنة ١٩٣١ وامتهن الصحافة فبرز في مضمارها، كما شارك في تأسيس عدد من الجرائد والمجلات وتولّى رئاسة تحريرها يزيد على أربعة عقود.
- كتب في صحف ومجلات عربية وأوروبية بارزة، وله محاضرات ومناظرات ومؤلفات متنوعة في الأدب والشعر واللغة والتاريخ.
- نشر سنة ٢٠٠٠ ديوان شعره «حداء وادي الشجن» الذي أجمع النقاد على اعتباره المنقذ من الحداثة الفوضوية، والعائد بالشعر الى أصوله النابعة من عبقرية البيان العربي المعجز.
- أصدر بين عامي ٢٠٠٣ و٢٠٠٧ مجموعة «مفكرة الأيام» (٩ أجزاء) التي تحتوي عيون مقالاته في نصف قرن، بالإضافة الى كتاب «النفس العربية» الذي منعت ظروف لبنان الاستثنائية نزوله الى الأسواق قبل اليوم.
- يعكف حالياً على تبويب ديوان شعر جديد مميّز لا يقل جمالاً وروعة عن «حداء وادي الشجن». وسيصدره قريباً بعون الله عزّ وجلّ إن توافرت لذلك فسحة من العمر واليسر.

CARTE
ARA
Tirée en Partie
en partie de di
Par le S. N. S
Geographe ordi
A
Chez Pierre Mari
Avec Privilege p

EMPI
RE
DES
PER
ARAB
OU
OMAN

GOLFE DE BALSERA, et
MER DEL CATTIF autrefois
GOLFE DE PERSE.

BAGDED
EL CATTIF
Bahr al Bahraim
Bahareim I
Mascalat
Sochar
Cantan
Lar
Gombrou
Ahsa
Hagiar
Chetta
Giorg
Lacach
Iemene
Tumisa
Cabarx
Fedd
Sochala
Miga
Masfa
Mirabat
Magiarabat
Cariman
Define
Carut
Camata
Carge
Angman
Sauras
Berim
Coreuh
Hay
Denase
Gonga
Cicolar I
Cori
Andrum
Tabla
Quesibe
Naban
Vedana
Baha
Berou
Biscia
Hems
Alquere
Mestelian
Aafir
Hadanua
Aarmagia
Manahan